من هدى القرآن

١

تفسير سور

الحمد - البقرة - آل عمران

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



الاهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

أهدى ثواب كتابي هـذا الى روح زوجـتي الوفية (أم صالح) التي اختطفتها المنية في شبابها تقديراً لمساعدتها لي على صعوبات الحيـاة. وأسـال العلى القدير ان يتغمدها برحمة الواسة.

محمد تقي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

وبعد :

قبــل أكـــــثر من ست ســـنوات حين عـــزمت على تسجيل تأملاتي التي اسـتفدتها من القـرآن ، كتبت ما يلي :

أبتـــدىء في تفســـير القـــرآن الحكيم ، في بيت من بيــوت الله ، في يــوم الســبت الموافق 1/4/1398 هـــ ، 11/3/1978 م فــي مــدينة (الكــويت). وعلى الله أتوكل في اتمامه.

واعتمدت فيه على منهج التدبر المباشر ، انطلاقا مما بينته في (التمهيد) أي منهج الاستلهام مباشرة من الآيــات والعودة الى القـرآن ذاته كلما قصـرنا عن فهم بعض آياته وفق المنهج الذي علمنا اياه الرسـول الكـريم (ص) وائمة اهل البيت عليهم السلام

حيث امرونا بتفسير القرآن ببعضه.

وانـــى احاول ربط الواقع الـراهن بآيـات الـذكر. حيث ان ذلك هو الهدف من تفسير القرآن.

أوليس مثل القـــرآن مثل الشـــمس تطلع كل نهـــار باشراقة جديدة على عالم جديد.

ولا ادعي انــني أبين هنا معــاني كلام الله كــاملا ، بل انما حاولت ان اسـجل فقط تلك البصـائر الـتي اسـتفدتها شخصيا عبر تدبري في القرآن.

ولا انسى دور اخوتي من تلاميذ درس التفسـير الـذي كنت القيه في بلورة رؤاي وأفكـاري (والله الموفق وعليه التوكل).

هذا ما كتبته قبل اكثر من سـتة اعـوام اما اليـوم فقد اكملت التـدبر في القـرآن كله وسجلــت خلاصـــة الافكـار التي استلهمتها من التـدبر في هـذا التفسـير ، وذلك عـبر مرحلتين :

ألف : من بداية القـــرآن وحـــتى ســـورة النحل كتبت التفسـير بيـدي ، حيث كنت آوي الى مســـجد أو مــــقام هـادىء ، حـاملا معي القـرآن والقلم والقرطـاس ، وربما هموما كثـيرة ، مما تخص الامة ، فـأجلس كالتلميذ أمــام كتـاب ربي وأقــرأ مجموعة آيـات ، وأتــدبر فيها ، واذا لم يسعدني ذكائي لفهم أبعاد آية كريمة سـألت الله سـبحانه أن يعينني على ذلك ، ثم أسجل في البـدء خلاصة الافكـار الــتي اســتوحيها منها ، وبعدئذ أتــدبر في آية آية وأســجل تأملاتي فيها بتفصيل أكثر.

وفي بعض الاحيــان كــانت الافكــار تــتزاحم وأجــدني عاجزا عن تسجيلها فأختــار منها البعض فقط ليتناسب مع المنهج الموجز الذي اخترته لهذا التفسير ، بينما

انتفع بالبقية في أحاديثي العامة أو في سائر كتاباتي.

ولم أكن أكتب كل يوم أكثر من درس واحد :

اولا : لان مشاغلي كانت تمنعني من ذلك.

ثانيا : لخوفي من أن تصبح تأملاتي هزيلة.

باء : وبعد ثلاث سنوات شعرت بالحاجة الى الاسراع في إتمام التفسير ، وكنت أخشى الا اوفق لاكماله ، فاخذت اسلوب القاء دروس في التفسير ، تسجل على الشريط ثم تكتب وربما تعاد صياغتها بصورة تتناسب مع أدب التأليف ، وهكذا وفقني الله سبحانه وتعالى لمتابعةالتفسير عبر المحاضرات ابتداء من سورة النحل وحتى اخر القرآن.

وكانت فائدة ذلك مضافا الى سرعة العمل ، ايجاد مكتبة صوتية في تفسير القرآن ، وهكذا كان حيث احتمل أكثر من خمسمائة شريط كاسيت تفسيرا موجزا لكل اي الذكر الحكيم وانتشرت في البلاد الاسلامية بفضل الله.

ولعل القاريء يجد بعض المفارقات بين نصفي التفسير ، حيث يعتمد النصف الاول منه على ضغط الكلمات ، بينما يعتمد النصف الثاني على الشرح والتفصيل.

علما بأن أحد الاخوة كان يحمل معه مرة تفسير سورة الرعد ، فنسيه في سيارة أجرة مما دعاني لتفسيرها مرة اخرى ولكن هذه المرة عبر المحاضرة ، ولعل ذلك كان خيراً لي.

واليوم تم إعداد أربعة أجزاء للطبع هي التي تحتوي على سور الحمد والبقرة وآل

عمـــران (جـــزء) وســورتـــي النسـاء والمائـدة (جـزء) وسورتي لانعـام والاعـراف (جـزء) وسـور الانفـال والتوبة ويــونس وهــود ويوسف والرعد وابــراهيم والحجر والنحل (جزء).

وفي الختام أسجل الملاحظات التالية :

اولا : ان لآيات القـرآن الحكيم أبعـادا مختلفة وحسب تعبــير تراجمة الــوحي وأئمة الهــدى عليهم الســلام ان له تخوما وبطونا تصل الى الســـبعين ، ويكـــاد لا يســـتطيع شــــــــــخص مثلي أن يطلع على بعد واحد منها فكيف بسائرها؟! لذلك فحين أكتب معــنى الآية فلا أدعي انه كل معانيها وأبعادها ، بل لا أدعي أنه بالتأكيد المعنى الاقرب ، انما أســــجل فقط وفقط ما فهمته من الآيــــــات ، مع اعـترافي بقصـور فهمي والواقع ان كل التفاسـير القرآنية ليس الا بيانا لبعض الموضوعات التي تصدق عليها الآيــات كما تصـــدق على غيرها ، وان القـــرآن ســـيظل فـــوق التفاســيرلا يحيط بكنه معانيه الا الله ، ومن ارتضــاه الله لغيبه.

ثانيا : كــان منهجي في التفســير تــدبر الآيــات قبل الرجوع الى التفاسـير الـتي نـادرا ما كنت أرجــع الـــيها ، وذلك لاني كنت أخشى أن اضع بيــني وبين القــرآن حجابا من كلام البشر.

ثالثا : بعد إتمام التفسير إقترحت على بعض الاخـوة ، استخراج معاني مفردات القرآن من تفسـير مجمع البيـان للعلامة الطبرسي ، الذي أعتبره الاكمل من بين التفاسـير المعتبرة ، وقد فعلوا ذلك مشكورين ، حيث وضـعت تحت رسم القرآن تسهيلا للمراجعة ، إكمالا للفائدة.

رابعا : اني مدين في إعداد التفسير للطباعة لاخــوتي الافاضل في مؤسسة دار الهــدى ، واخــوتي في مكتــبي ، والاخوة في دار البصائر ، وأسأل الله أن يجزيهم عن

القرآن الحكيم خير الجزاء.
خامسا : أرجو من القراء الكرام أن يهدوا إلي عيـوب كتابي ويبتغوا بذلك مرضـاة الله سـبحانه وتعـالى لان ذلك يعتبر مساهمة في تقريب الناس الى الذكر الحكيم.
سادسا : اعتمــدنا في كتابة القــرآن على المصــحف المعروف في العالم الاسلامي وبالذات في الـدول العربية والمعتمد من قبل دور الفتوى ووزارات الاوقاف.
وأسأل الله سبحانه أن يجعل هذا الجهد القليل وسيلة لي إليه ويتقبله مني وينفعني به يوم الجزاء الاكـبر يـوم لا ينفع مال ولا بنون ، يـوم يجعل الولـدان شـيبا وان ينفع به أمتنا الاسلامية وبالذات المجاهدين منهم في ســبيل الله ، بحق محمد سيد النبيين وآله الهداةالميامين
وصلى الله عليه وعليهم وسلم تسليما كثيرا ..

محمد تقي المدرسي
13 / 12 / 1405 هـ
30 / 8 / 1985 م

بحوث تمهيدية

قبل ان نبـدأ تفسـير القـرآن الحكيم لابد من بحـوث تمهيدية تتناول :

الف / ما هو القـــرآن؟ ولمـــاذا يعجز فهم البشر عن الاحاطة بأبعاد القرآن الحكيم.

وهكـــذا يـــبين القـرآن في آيـات الـذكر وفي السـنة واخيرا نبين لماذا ندعوا الى القرآن.

بـاء / نـذكر مجموعة بحـوث قرآنية مقتبسة من كتابنا السابق بحوث في القرآن الحكيم وهي البحث عن القرآن والتفسير بالرأي ، والقرآن بين التزكية والتعليم ، والقرآن بين الظاهر والباطن ، وبين المحكم والمتشابه.

ومعـنى الاحـرف السـبعة في القـرآن وكيفية اثبـات معاني القرآن.

جيم / كيفية التـدبر في القـرآن حيث نقتبس ـ مـرة اخـــرى ـــ من كتابنا (بحــوث في القـــرآن الحكيم) منهجا مـــوجزا في كيفية الاســتلهام من القـــرآن ، الــذي يعتــبر اساس تفسيري للذكر الكريم.

حيث يتناول موضوعا عن التدبر والصـفات النفسـية ، ثم عن التــدبر والصــفات العقلية ، ثم عن الســياق ودوره في فهم القرآن.

ثم عن كيفية ربط القرآن بالواقع وكيف يمكن تطبيق القرآن واخيرا نبين موجزا لمنهج التدبر.

الفصل الاول

ما هو القـــرآن ولمـــاذا ندعوا اليه

ـ القرآن في آيات الذكر
ـ القرآن في السنة
ـ لماذا ندعوا الى القرآن

القرآن في آيات الذكر

قبل ان نبدأ تفسير القـرآن الحكيم ، لا بد من بحـوث تمهيدية ، نتنــاول عبرها كيفية التــدبر في آيــات القــرآن الحكيم ، والتي تعتبر أيضا المنهج الـذي اتبعته في تفسـير القرآن.

وقبل كل شيء نتسـاءل ما هو القـرآن؟ ولمـاذا يعجز فهم البشر عن الاحاطة بأبعاد القرآن الحكيم؟

ان القرآن لم ينزل لجيل واحد أو لقـرن ، بل هو كلام الله العظيم الذي يمتد مع الزمن من يـوم انشـأه الله الى يوم يـرث الأرض ومن عليهـا. ويمتد مع البشـرية من يـوم نزل من السـماء مكمّلا لرسـالات الله وحـتى يـوم البعث. لذلك فانه كتاب يسع الجميع ولا يسعه أحد.

ولأن البشر يتكامل فلا بد ان يبقى القرآن امامه دون ان يبلغه انى تقـدم حضـاريا أو توغل في أفـاق المعرفة ، وإذا عجز العقل البشــري المحــدود عن الاحاطة بأســرار القرآن

جميعا ، أفلا تعجز لغته عن صفة القرآن؟ بلى. ان القــرآن حين يصف نفسه يفتح أمامنا آفاقا من المعرفة. إذا أوغلنا فيها فســوف نســتطيع ان نعــرف المزيد من خصــائص القرآن ومن صفاته المثلى.

ولا يعني ذلك عجزنا عن معرفة اي شيء من القــرآن ، كلّا ، بل يعـني ضـرورة السـير قـدما في آفـاق المعرفة القرآنية ، دون ان نقف عند حد أو ان يصيبنا كلل.

ان القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يتعب منه قارئه. وكلّما ازداد تلاوة له كلما ازداد اليه شوقا ، لماذا؟

لأنه مع كل قراءة يجـده طريا جديـدا ، ويجد فيه علما طارفا ، وأفقا حــــديثا ، بلى ، قد يتعب الإنســــان في استيعاب المزيد من معارف القرآن ، دون ان يمل القرآن عن العطــاء ، والعطــاء بغــزارة. كما الســحب الخــيرة المعطــــاءه ، تفيض الأرض ببركاتها المســــتمرة دون ان تتوقف هي عن العطاء.

اذن علينا ان نبحر في محيط القــرآن الواسع ، الــذي تتلاشى الشواطئ أمام أمواجه.

ونتســاءل بمــاذا نســتعين اذن في فهم كتــاب الله المجيد؟

والجــواب : بــالقرآن ذاته ، لأنه لم يــترك بعــدا في المعــارف الا وأوســعه هــدى وبينــات ومن أبرزهــا. البعد المختص بمعرفة القرآن ذاته.

فما هو القرآن وكيف وصف القرآن نفسه؟

أكـثر من مائة آية تـبين خصـائص القـرآن. وإذا أضـفنا إليها عشرات الآيـات الـتي تحـدثنا عن الشـؤون المختلفة للقرآن الحكيم ، فانه سيكون ذخيرة علمية غنية نحصل

بالتـــدّبر فيها على معرفة واســـعة بـــالقرآن. وبما اننا قد فسرنا هذه الآيات ضمن تفسيرنا الشـامل للقـرآن ، فـانّ علينا ونحن في بحـوث تمهيدية للتفسـير ، ان علينا مجـرّد ذكر مجموعة من هذه الآيات لنـذكر بعدئذ بعض الأحـاديث الشريفة ، الـتي تعتـبر بحق شـرحا للآيـات القرآنية ، لأنها تســتلهم منها النــور والبصــائر. اذن كيف وصف القــرآن نفسه؟

القـرآن نـور ، القـرآن كتـاب مـبين ، القـرآن سـلام ، القرآن صراط مستقيم. هذه هي الصفات التي جاءت في الآية التالية :

«**قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتـابٌ مُبِينٌ يَهْـدِي بِـهِ اللهُ مَنِ اتَّبَـعَ رِضْـوانَهُ سُـبُلَ السَّـلامِ وَيُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمــاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِــهِ وَيَهْــدِيهِمْ إِلى صِــراطٍ مُسْـتَقِيمٍ**» (15 ــ 16 / المائـدة) وفي القــرآن بصــائر تعطي المـؤمن قـدرة على رؤية الحقـائق مباشـرة ، ومن دون حجاب.

وفي القرآن هدى يبين الاتجاه السليم في الحياة.

وفي القرآن رحمة وفلاح لمن آمن به واتّبع هداه.

هكذا جاء في الآية التالية :

«**هــذا بَصــائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُـدىً وَرَحْمَـةٌ لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ**» (203 / الأعراف)

ولا بد أن يتفكر النــاس ، لكي يحصــلوا على المعرفة من خلال أمثال القرآن ، هكذا يقول القرآن :

«**لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَـهُ خاشِـعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ**

الْأَمْثـــالُ نَضْـــرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (21 / الحشـر) ولقد عجـزت كل الأقاويل الـتي حـاولت تفسـير ظاهرة القرآن ، الّا انه وحي من الله فلا هو بقـول شـاعر يسـبح في غمـرات احلامه ، ولا هو بقـول كـاهن يتخـرص فيقـول كلاما مجملا لا يعـني من ورائه شـيئا. هكـذا يقـول القرآن :

«**فَلا أُقْسِـــمُ بِما تُبْصِـــرُونَ وَما لا تُبْصِـــرُونَ إِنَّهُ لَقَـوْلُ رَسُـولٍ كَـرِيمٍ وَما هُـوَ بِقَـوْلِ شـاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُـونَ وَلا بِقَـوْلِ كـاهِنٍ قَلِيلاً ما تَـذَكَّرُونَ**» (38 ـ 42 / الحاقة)

وجاء القرآن ليتدبر فيه الناس ، شريطة أن يفكوا عن قلوبهم أقفالها ليروا الحقيقة مباشرة.

«**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها**» (24 / محمد)

ومن يتــدبر في القــرآن يعــرف انه من الله ، لأنه لا اختلاف فيه :

«**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً**» (82 / النساء)

والقرآن موعظة يهز اعماق الضمير ، والقـرآن شـفاء يطهر الصدور من الحقد والحسد والعقد :

«**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَــدْ جــاءَتْكُمْ مَوْعِظَــةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ**» (57 / يونس)

والقــرآن كتـاب الله الـذي أعجز الخلق عن ان يـأتوا بمثله :

«**قُـلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَـأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَـأْتُونَ بِمِثْلِـهِ وَلَـوْ كـانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**» (88 / الإسراء)

وفي القرآن من كل مثل عبرة ، ومن كل سبيل منـار ، ومن كل علم درس ، ولكل خـير قـدوة ، ولكل معـروف وسيلة. يعطي لكل حادثة مثلا سابقا ، ولكل ظاهرة قانونا عاما ، ولكل مشكلة طارفة حلا واقعيا تليدا :

«**وَلَقَـدْ صَـرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هـذَا الْقُـرْآنِ مِنْ كُـلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً**» (89 / الإسراء).

والقرآن آيات مبينات ، القـرآن مثل من واقع التـاريخ الغابر للحاضر «**وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آيـاتٍ مُبَيِّنـاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**» (34 / النور)

ولو ان القــرآن انــزل على الجبــال لخشــعت ، لأن القرآن يـذكر الإنسـان بالله الـذي يخشـاه كل شـيء «**لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَـهُ خاشِـعاً مُتَصَـدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**»

القرآن في السنه

لقد تحدثنا في الدرس الذي مضى عن وصف القـرآن لنفسه في آيات الـذكر الحكيم. وها نحن نتحـدث لكم عن وصف الحديث للقرآن. ولا ريب ان الحـديث يعتـبر شـرحا وافيا أو مقتضبا لآيات الذكر الحكيم.

جاء في حديث مأثور عن عكرمة ، ان ابن عباس كان يقــول : «**ان لله عز وجل حرمــات ثلاث ليس مثلهن شـيء : كتابه وهو نـوره وحكمته ، وبيته الـذي جعله للنــاس قبلة لا يقبل الله من أحد وجها الى غــيره ، وعترة نبيكم**».

وجــاء في حـديث مســند ومـروي عن النــبي ، قـال رســول الله (ص): «**كــأني قد دعيت فــأجبت ، واني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الاخر كتاب الله تبارك وتعالى حبل ممـدود من الســماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**.

» في حديث مسند آخر عن النبي (ص) ، قال رسول الله : «**يا ايها الناس انكم في زمان هدنة وأنتم على ظهـر سـفر والسـير بكم سـريع فقـد رأيتم الليـل والنهار والشمس**

والقمر يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، فأعدوا الجهاز لبعد المجاز».

فقام المقداد ، فقال : يا رسول الله ما دار الهدنة فقال : «**دار بلاء وانقطاع**» ، ثم أضاف النبي (ص) قائلا : «**فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع وما حل مصدق**».

«الماحل الذي يخبر السلطان عن رعيته سعاية (وشاية) فاذا أخبر القرآن ربنا المتعال عن عمل سيء قام به أحد العباد فان الرب سبحانه يصدقه».

ثم أضاف النبي (ص) : «**من جعله امامه قاده الى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه الى النار. وهو الدليل يدل على خير سبيل ، وهو كتاب تفصيل وبيان تحصيل ، وهو الفصل ليس بالهزل ، له ظهر وبطن ، فظاهره حكمة وباطنه علم ، ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، له تخوم على تخومه تخوم ، لا تحصى عجائبه ، ولا تبلى غرائبه. فيه مصباح الهدى ومنازل الحكمة ودليل على المعروف لمن عرفه**.»

ويأتي رجل الى الامام الصادق (ع) ويسأل : ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس الا غضاضة؟ فيجيبه الامام ابو عبد الله (ع) قائلا : «**لان الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ، ولا للناس دون ناس ، فهو في كل زمان جديد ، وعند كل قوم غض الى يوم القيامة**»

قال الرسول (ص): «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» ، وقال : «**القرآن غنى لا غنى دونه» وقال : «القرآن مؤدبة الله فتعلموا مؤدبته ما استطعتم**»

وقال الرسول (ص): «**ان أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحسرة ، والظل يوم الحرور ، والهدى يوم الضلالة ، فادرسوا القرآن فانه كلام**

الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان»

ووصف الامام علي (ع) القرآن مرة فقـال : «**عليكم بكتـاب الله فانه الحبل المـتين ، والنـور المـبين ، والشـفاء النـافع ، والـرأي النـاقع ، والعصـمة للمتمسك ، والنجـاة للمتعلق ، لا يعـوج فيقـوم ، ولا يزيغ فيسـتعتب ، ولا تخلقه كـثرة الـرد ، وولـوج السمع. من قال به صدق ومن عمل به سبق»**

وقال أمير المؤمنين (ع): «**كتاب الله تبصـرون به ، وتسـمعون به ، وينطق بعضه ببعض ، ويشـهد بعضه على بعض»**

والحارث الأعور من أصحاب الامـام علي (ع) يقـول : دخلت عليه فقلت : يا أمـير المؤمـنين إنّا إذا كنا عنـدك سمعنا الذي نسر به ، وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشـياء مختلفة ، مغموسة ، لا نـدري ما هي فقـال : أو قد فعلوها ، قلت : نعم ، قال «**سمعت رسول الله يقول : أتـاني جبرئيل فقـال : يا محمد سـيكون في أمتك فتنـة. قلت : فما المخرج منها؟ قال : كتاب الله فيه بيـان ما قبلكم من خبر ، وخبر ما بعـدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بـالهزل ، من وليه جبـار فعمل بغـيره قصـمه الله ، ومن التمس الهـدى في غـيره أضـله الله ، وهو حبل الله المـتين ، وهو الـذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، لا تزيغه الأهواء ، ولا تلبسه الا لسنة ، ولا يخلق عن الرد ، ولا تنقضي عجائبه»**

هكذا تصف الأحـاديث الشـريفة المروية عن الرسـول (ص) ، وعن الائمة الهداة تصف القرآن الحكيم.

نرجو من الله ان يوفقنا لاسـتيعاب هـذه النصـوص الكريمة والتفاعل مع القرآن انه ولي التوفيق وصـلى الله على محمد واله الطاهرين.

لماذا ندعوا الى القرآن

في ســياق حــديثنا عن البحــوث التمهيدية لتفســير القرآن الحكيم ، نطرح السؤال التـالي : لما ذا نـدعوا الى القرآن؟

أول سؤال يطرح علينا هو السؤال عن السـبب الـذي نـدعوا من اجله للقـرآن الحكيم ، والواقع ان هنـاك عـدة أسـباب تفـرض علينا العـودة الى القـرآن والتـدبر فيه ، ونحن إذ نــذكر بعضــها بصــورة مقتضــبة لا نملك ســوى الاعتراف بعجزنا عن الاحاطة بها جميعا.

اولا : لكل منا رغباته المشروعة الـتي يتمـنى ان يجد سـبيلا مسـتقيما إليها ، والقـرآن الحكيم هو ذلك السـبيل المســتقيم المــؤدي الى مصـــالح كل شـــخص ورغباته المشروعة.

وليست اهمية القـــرآن وعظمته منحصـــرة في انه يحقق للناس رغباتهم ومصالحهم المشروعة ويهـديهم إلى سبل السـلام المؤدية الى مصـالحهم ، بل وأهم من ذلك ، لأنه

يرسي قواعد للشخصــية المتكاملة الــتي تســتطيع بلــوغ مآربها المشروعة بسهولة بالغة.

ثانيا : ومصــالح الإنســان بــدورها ليست ســوى بعض تطلعاته الكبيرة ، واما البعض الاخر فيمكن الحصـول عليه في بحث الإنســـان الـــدائم عن الحق والخـــير وســـعيه المستمر لتحقيقهما.

ان الإنســـان يبتغي إقـــرار دعـــائم الحق كما يريد الوصول الى المصالح.

وأهم ما يصـــبوا اليه الإنســـان هو التوفيق بين هدفيه هذين وهو تحقيق الحق ، ووصول المصلحة.

والقرآن هو ذلك الحق الذي يبتغيه البشر ويسعى من أجل معرفته وتنفيذه ، وهو اضافة الى ذلك يهدي الإنسـان الى التوفيق بينه وبين المصالح الخاصة.

ونعود ونتساءل ، من منا لا يريد ان يكون إنسـانا طيبا يبتعد عن الجريمة والفحشاء ، ويلتزم الطـرق المسـتقيمة ويتحلى بالسـلوك الممتـازة ، ولكن كم واحد منا يسـتطيع ان يفعل ذلك؟ طبعا القليل فقط يستطيع ذلك لماذا؟

لان ضرورات العيش لا تدع فرصة للفرد للتفكـير في الخـير والحق ، ولكن القـرآن يـوفر هـذه الفرصة ، إذ انه يهدي البشر الى السبل القويمة للمصالح والتي لا تتنــافى مع الخير والحق ، بل يتكامل معهما.

ثالثا : نصـطدم في حياتنا بعـدة مشـاكل فمن صـديق ينقلب علينا ومن قـريب يشاكسـنا ، ومن خسـارة تفاجئنا وقد تصل بنا المشاكل الى حد الخروج عن محور الضبط. وبالتالي الانهيار في هاوية اليأس والضياع.

ولكن القرآن الحكيم يضع الحلول الحاسمة للمشاكل جميعا بل وأكثر من ذلك يصنع الإنسان الذي هو قادر على وضع الحلول المناسبة في الوقت المناسب.

وهذا حول الاجابة عن السؤال التالي :

لما ذا نحن أساسا ندعوا الى القرآن الحكيم؟

ولكن الــدعوة الى القــرآن شــيء. والاســتفادة منه شيء أخر ، نحن بالاضافة الى دعوتنا الى القرآن ، نــدعوا الى التدبر فيه لمـاذا؟ لان التـدبر في القـرآن هو الطريق المستقيم الى العمل به ، ولا يعمل بالقرآن غير ذلك الذي يتدبر في اياته الكريمة فيفهم محتواه.

ان التــدبر في القــرآن يعطي للإنســان فرصة لفهم محتوى القرآن الحكيم ، لان الله سبحانه وتعالى أودع في كتابه الكريم نورا يهدي البشر الى ربه العظيم فيؤمن به ، وبعد الايمان يطبق شرائعه.

من هنا ليس على الإنســــان ســــوى امر واحد هو الانفتــاح على القــرآن واســتعداد التفهم له وهــذا يكــون بالتدبر فيه.

يقول الله سبحانه وتعالى :

«**قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتـابٌ مُبِينٌ يَهْـدِي بِـهِ اللهُ مَنِ اتَّبَـعَ رِضْـوانَهُ سُـبُلَ السَّـلامِ وَيُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمــاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِــهِ وَيَهْــدِيهِمْ إِلى صِــراطٍ مُسْتَقِيمٍ**».

ان القــرآن ذاته نــور وليس علينا امـام النــور ، الا ان نفتح أعيننا ، وان نستقبل أمـواج النــور ، وان نـرى بـالنور كل الأشياء.

ان الكفار والفاسـقين ، اختـاروا لأنفسـهم العمى فلم يفتحوا أعينهم على النور

المبين ، وعملوا المستحيل في سـبيل حجب النـور البـاهر عن التســرب الى قلــوبهم خوفا من امكانية تــأثرهم به وتنورهم بشعاعه الكبير.

لقد كـان الكفـار يتواصـون بهـذه المقولة الـتي نقلها القرآن الحكيم عنهم :

«**وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لا تَسْـمَعُوا لِهـذَا الْقُـرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ**».

انهم كانوا يحذرون من النور ويتهربـون منه ولقد جـاء أحـدهم الى الرسـول يسـأله عن قرآنه ، فلما تلى النـبي بعض آيـات الكتـاب ضعف الرجل وشد على فم الرسـول (ص) بيده قائلا : انا أناشدك الله والرحم الا تسكت.

ثم تولى الى قومه قائلا انه سحر يؤثر.

انه لم يستطع الصبر على تيـار النـور الـذي كـاد يلف قلبه لذلك اسكت النبي وتولى هاربا.

ان المطلـوب من الإنسـان هو الانفتـاح على القـرآن واستماع آياته بتدبر وتجرد.

اذن سوف يجد المرء كيف تحدث المعجزة.

لقد حاول رجل مجرم ان يتسلق جـدارا لينهب المـال ويغتصب النساء فسمع صوتا ينبعث من داخل الـبيت ويتلو هذه الآية الكريمة :

«**أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَنْ تَخْشَـعَ قُلُـوبُهُمْ لِـذِكْرِ اللهِ**».

فاسـتمع الى الآية بضع ثــوان ثم انفجر باكيا وقــال : بلى آن الوقت الذي يخشع قلـبي القاسي لـذكر اللـه. وما نــزل من الحق ، بلى آن فهبط من الجــدار وتــولى بوجهه شــطر المســجد واعتكف فيه الى الأبد ، ان تــدبر هــذا الرجل في آية واحدة حوله من مجرم

متمـــرس بالجريمة الى معتكف في محـــراب العبـــادة ، فكيف إذا تـدبر الإنسـان في كل القـرآن أفلا يتحـول من رجل الى ملك؟ بل والى من هو فوق درجات الملك.

نرجو من الله ان يجعلنا من الــــذين يتــــدبرون في القــرآن ، وفي آياته الكريمة ويحصــلون منها على النــور المبين انه ولي التوفيق.

الفصل الثاني :

مسائل قرآنية

ـ ضرورة التدبر في القرآن
ـ القرآن والتفسير بالرأي
ـ القرآن بين التزكية والتعليم
ـ القـرآن الحكيم بين الظـاهر والباطن
ـ القـرآن الحكيم بين المحكم والمتشابه
ـ القــرآن الحكيم والأحــرف السبعة
ـ القـــرآن الحكيم وإثبـــات معانيه

ضرورة التدبر في القرآن

هـذه هي فوائد القـرآن. وهي بالـذات الأسـباب الـتي تدعونا إلى التدبر فيـه. لأن القـرآن لا يفيد إلا من عمل به .. ولا يعمل به سوى الذي يتدبر فيه فيفهم.

بل ان التدبر في القرآن هي الوسيلة الوحيـدة للعمل به. إذ أن الله تعالى أودع كتابه الكريم ـ نورا يهـدي البشر إلى ربه العظيم. فيؤمن به ـ وبعد الايمان يطبق شرائعه ، من هنا ليس على الإنسـان سـوى أمر واحد هو الانفتـاح على القرآن.

واستعداد التفهم له. وهذا يكون بالتدبر فيه.

يقول الله سبحانه :

«**.. قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُـورٌ وَكِتـابٌ مُبِينٌ* يَهْـدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمـاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِـهِ وَيَهْـدِيهِمْ إِلى صِـراطٍ مُسْتَقِيمٍ**» (16).

ان القـرآن ذاته نـور ، وليس علينا امـام النـور إلا أن نفتح أبصارنا لنراه ، ونرى به

الأشياء جميعا.

والتـدبر في القـرآن. لا يعـني تحميل آياته الكريمة ، آراء وأفكـارا اضـافية كلّا. بل التسـليم لعلـوم القـرآن ، والتأمل في معـاني آياته وتبصر الحيـاة عبرها ، والسـعي نحو فهم حقائق الطبيعة ، وآفاق النفس بها.

وهنا يمكن الفرق بين تفسير القرآن بالرأي الذي نهى عنه الـدين أشد النهي. وبين التـدبر في القـرآن الـذي أكّد عليه الدين أشد تأكيد.

وقد اختلط على البعض هـذان الأمـران. فحجب عن نفسه نور الفرقان زاعما أنه فوق مستواه.

بلى إن البشر لا يـرقى الى مسـتوى القـرآن ، ولكن شعاعه كما الشمس لا تزال تشرق على العيون البصـيرة. فمن احتجب عنه باتباع هوى. أو تفسـير بـرأي ، فقد ضـلّ عنه ومن سلم له ، وفرّغ قلبه من كل فكـرة سـابقة حين يقرأه ، فان الله يهديه سواء السبيل.

يقـــول العلامة الطبرسي وهو يشـــرح الفـــرق بين التفسير بالرأي والتدبر في الذكر.

واعلم ان الخـبر قد صح عن النـبي (ص) وعن الأئمة القـائمين مقامه (ع) ان تفسـير القـرآن لا يجـوز الا بـالأثر الصـحيح ، والنص الصـريح ، وروت العامة أيضا عن النـبي (ص) انه قـال من فسر القـرآن برأيه فأصـاب الحق فقد أخطأ ، قالوا وكره جماعة من التابعين القـول في القـرآن بالرأي كسعيد بن المسيّب وعبيدة السلماني ونافع وسالم بن عبد الله وغيرهم والقول في ذلك ان الله سبحانه ندب الى الاســتنباط وأوضح الســبيل اليه ومــدح أقواما عليه فقال لعلمه الذين يستنبطونه منهم وذم آخرين على تـرك تـدبره والإضـراب عن التفكر فيه فقـال (**أَفَلا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها**) وذكر ان القرآن مـنزل بلسان العرب فقال (**إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا**) ، وقال

النبي (ص) إذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فاقبلوه وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط فبين أن الكتاب حجة ومعروض عليه وكيف يمكن العرض عليه وهو غير مفهوم المعنى فهذا وأمثاله يدل على ان الخبر متروك الظاهر فيكون معناه ان صحّ أن من حمل القرآن على رأيه ولم يعمل بشواهد ألفاظه فأصاب الحق فقد أخطأ الدليل وقد روي عن النبي (ص) انه قال القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه وروي عن عبد الله بن عباس انه قسم وجوه التفسير على أربعة أقسام تفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير تعرفه العرب بكلامها وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعرفه إلا الله عز وجل ، فأما الذي لا يعذر أحد بجهالته فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن وجمل دلائل التوحيد ، وأما الذي تعرفه العرب بلسانها فهو حقائق اللغة وموضوع كلامهم ، وأما الذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابه وفروع الأحكام ، وأما الذي لا يعلمه إلا الله فهو ما يجري مجرى الغيوب وقيام الساعة.[1]

(1) مجمع البيان في تفسير القرآن ج 1 ص 13.

القرآن والتفسير بالرأي

يـزعم فريق من المسـلمين أن التـدبر في القـرآن ، غـير مسـموح به إلا للـذي أوتي نصـيبا كبـيرا من العلم ويستندون ـ في زعمهم هذا ـ الى بعض الروايات المأثورة التي نهت الناس عن تفسير القرآن بالرأي.

ولكن هـذا الـزعم غـير منطقي أبـدا. إذ أن الله كـان أعلم بكتابه ، وبخلقه حيث أمـــرهم بالتـــدبر في آيـــات القـرآن. بل حيث خـاطب بـالقرآن كل إنسـان وفي كل أرض وفي كل عصر.

يقول الله سبحانه في كتابه :

«**هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ*ۖ وَهُـدىً وَمَوْعِظَـةٌ لِلْمُتَّقِينَ**» (138).

وهل يمكن أن يبعث الله بيانا للنـــــــاس جميعا ، ثم ينهـــاهم عن التفهم له ، أو التـــدبر فيه ، إذا فما فائـــدة البيان؟

ان خطابات القرآن ـ تهتف بالناس كافة وتقول يا أيها الناس ـ أو بالمؤمنين جميعا. وتقـول يا أيها الـذين آمنـوا ، وهذا يعني أن الله يريدهم أن يسـمعوا كلامـه. ويتفهمـوه. فهل نستطيع أن نزعم أنه لا يجوز التدبر فيه؟

ولا يمكن أن نقول ان الروايات تنهى عن التدبر الـذي أمر به الله. بل الأكـثر منطقية القـول بـأن الروايـات نهت عن شــيء ، والآية أمــرت بشــيء آخر ، أو أن الروايــات بينت حدود التدبر التي لا يجوز التجاوز عنها.

فأي شيء نهت عنه الروايات؟

الواقع أن على الإنســان أن يتبع الحق الــذي يعرفه ويدع الذي لا يعرفه ، إن الله سبحانه يقول :

«**وَلا تَقْــفُ ما لَيْسَ لَــكَ بِــهِ عِلْمٌ* إِنَّ السَّــمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً**» (36).

وكذلك لا يجوز على الإنسان ـ في شـريعة الإسـلام ـ ان يقول شيئا لا يعلم به.

قال الله سبحانه :

«**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**» (169).

وقد اعتبر القرآن القول بغير علم كبـيرة يعظمها الله ويستحقرها العباد،فقال تعالى :

«**وَتَقُولُــونَ بِــأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِــهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ**» (15).

ومن هنا لا يجوز أن ننسب فكرة أو عملا لأحد ، ما لم نتأكد يقينا انتسابهما

إليه. كذلك لا يجوز تفسـير كلام أي فـرد إلا بعد التأكد من إرادته فعلا لما نفسره ، وإلا اعتـبر ذلك نوعا من التحريف في كلامه وضربا من التهمة.

وتشتد خطورة الأمر بالنسـبة الى الله العظيم ، فـأي قـول ينسب إليه يجب أن نتأكد بـالعلم اليقين أنه قاله والا كنا قد افترينا على الله كذبا ،

«**إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُـونَ**» (116).

وكــــذلك اي تفســـير لكلام الله المجيد لا نعلم يقينا مطابقته للواقع يعد نوعا من الافتراء على الله. لأنه يعتـبر ضربا من نسبة القول إليه دون التأكد من ذلك.

وكان في الأمة الاسلامية ـ ولم يـزل ــ فريق يريـدون أن يستغلوا الدين لمصـالحهم الشخصـية ــ أو يسـتخدموه لاثبات أهوائهم المضـلة ــ وهكـذا يبـدءون بتفسـير الآيـات القرآنية حسب آرائهم الخاصــة. إن هــؤلاء ـــ يريــدون أن يجعلوا كتاب الله ـ تابعا لأفكارهم فيحملونها ما لا تحتمل.

وقد أراد الإسـلام ـــ تطويق هـذا الفريق ، فجـاء في الكتاب :

«**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتـــابِ وَأُخَــرُ مُتَشـــابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْـهُ ابْتِغـاءَ الْفِتْنَـةِ ــ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ. وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللـهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ. يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ**» (7) [1].

هكذا وضح القرآن نوايا هذا الفريق الفاسـدة ونهى ــ بشكل قاطع ــ عن تأويل القـرآن للوصـول الى الأغـراض الفاسدة.

---

(1) سنتحدث ـ بإذن الله ـ عن المحكم والمتشـابه في بعض الصـفحات القادمة.

وجاءت الروايات تنهى عما نهت عنه الآية أيضا. ولكن بتعبير آخر وهو (التفسير بالرأي) والذي يعني القول حسب الهوى الشخصي. وهو يقابل التفسير وفق الحق والواقع. بالرغم من ان القول بالرأي ــ بصفة عامة أو تفسير أي كلام منسوب الى أحد حسب الرأي ــ هو الآخر محرم ـ فان كل ذلك بالنسبة الى كلام الله ـ الحكيم يعتبر أشد حرمة ، لذلك خصت الروايات هذا الأمر بالذكر ـ وهو غير خارج عن القواعد العامة.

وإليك بعض تلك الروايات.

عن الامام الصادق (ع): «من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر ، وأن اخطأ فهوى ـ أبعد من السماء» [2].

وروي عن النبي (ص): «من فسّر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد اخطأ» [3].

وروي عنه أيضا أنه قال : «من فسّر القرآن برأيه بوّء مقعده من النار.

» إذا فهناك حقيقة لا ريب فيها هي أن القول بالرأي ـ خصوصا في تفسير القرآن الحكيم ـ حرام أشد ما تكون الحرمة.

ولكن لا يرتبط ذلك بالتدبر في القرآن إذ التدبر ــ هو التفكير المركز في الآية لمعرفة الحقيقة التي تذكر بها معرفة تعيينية.

فالتدبر ــ إنما هو لتحصيل العلم بالقرآن ، حتى لا يقول الإنسان برأيه في تفسير القرآن وإنما بالعلم.

---

(2) تفسير الصافي ـ الجزء الاول ص 21

(3) المصدر

القرآن بين التزكية والتعليم

للقـرآن الحكيم هـدفان اساسـيان لو عرفناهما عرفنا بعض الجـــــوانب الغامضة منه ، وهما تزكية النـــــاس وتعليمهم. لقد أشار الكتـاب إلى هدفيه هـذين ــ في قوله سبحانه :

«**هُـوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُـولاً مِنْهُمْ يَتْلُـوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**» (الجمعة).

فالآيــات القرآنية الـتي تتلى على الأمــيين تهـدف ـــ تزكيتهم ـ ثم تعليمهم الكتاب والحكمة.

فما هو الفــرق بين «التزكيــة» و «التعليم» وكيف أن القرآن يجمع بينهما مرة واحدة؟

1 ـ التزكية ـ هي تنظيف النفس البشرية من رواسبها الجاهلية ســـواء كـــانت من نــــوع الأفكــــار الباطلة ، أو المعتقدات الفاسدة ، أو الأخلاق السيئة.

التزكية هي تربية الإنســـــان المتكامل الـــــذي يفجّر طاقاته العقلية والجسدية جميعا

باتجاه الخير والحق.

وكلمة التزكية مشـــتقة من الزكـــاة وهي الطهـــارة. وأســـاس التزكية تقوية الارادة البشـــرية ، وتحكيم حس التحرر من الأهواء والشهوات. تحكيمه في سلوكه.

ولا تهدف التزكية أكثر من تطهير البشر وتنظيفه.

بينما التعليم يهـدف ــ إضـافة «المعـارف» الجديـدة للإنسان ــ لـدفع عجلة البشر إلى الامـام. وهو يعتمد على طاقة العقل الكامنة فيه.

فالعلاقة بين التزكية والتعليم تشـــــــبه إلى حد بعيد العلاقة بين تنظيف ماكنة السيارة وبين وضع الوقود فيهـا. إذ التنظيف يغسل المـواد الضـارة والوقـود يضـيف مـواد جديدة.

فوقود الانسانية في مسـيرتها الحضـارية العلم. ولكن هـــذا الوقـــود لا ينفع بـــدون تنظيف ماكنة الإنســـان من الأخلاق الفاسدة والأفكار الباطلة.

من هنا تكمّل عملية التزكية ـــ عملية التعليم وتـــأتي الواحدة تتمة للأخرى.

2 ـ أما كيف يجمع القرآن بين التزكية والتعليم؟ فهـذا يجب ان نبحث فيه عبر عدة نقاط :

(أ) : أن القـــرآن الحكيم يوجه النــــاس إلى الحق ، بـالحق ذاته ، فلا يجعل الباطل وسـيلة لـدعوة النـاس إلى الحق شـأن سـائر الكتب التربوية الـتي قليلا ما تنظر إلى الوسيلة التي تحقق الهدف التربوي ، من هنا يبيّن القـرآن الحكيم الســـنن الكونية والقـــوانين الفطرية الـــتي تحكم الحيـــاة وتوجه النـــاس إلى معرفتها لكي يزكـــوا أنفســـهم بمعرفتها.

وتوجيه القــرآن نحو هــذه الســنن والقــوانين يهـدف أمرين :

الأول : هداية النــاس إلى طريق صــلاحهم والــذي لا يعدو أن يكون التوفيق بين حياتهم وبين متطلبـات الســنن العامة.

الثاني : تعليم الناس لتلك الســنن. ومن الطــبيعي أن يختفي الهـدف الثـاني من ظـاهر القــرآن ، إذ أن ســياق الكتاب ـ يسير باتجاه التزكية ــ مما ينـبئ عن انها الهـدف الوحيد الـذي ينشـده القـرآن ولكن بـالرغم من ذلك فـان نظـرة فاحصة تهـدينا إلى البيانـات العلمية الـتي تنطـوي عليها الآيات. فمثلا في سورة الرعد نجد الآية الكريمة :

«**إِنَّ اللـــــهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَـــــوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**» (11).

انها حقيقة تربوية يتعـــرض إليها الكتـــاب لتثـــبيت المسؤولية الشخصية في نفوس الأمّة.

وقبل هذه الآية وبعدها ـ تذكرات ـ بهذه الحقيقة.

ولكن النظرة الفاحصة تهدينا إلى وجود ما هو اشــمل ــ وأوسع دلالة ــ في هـذه الآيـة. انه القـانون الاجتمـاعي الذي يربط بين الحضـارة وبين تطـوير الصـفات النفسـية. ويقول كلما كثر بناء قــوم على هـدمهم. كلما تقـدمت بهم الحضارة ـ ولا يكثر البناء على الهدم على صـعيد الواقع إلا بعد وجود قابلية نفسية مناسبة على صعيد الذات.

لقد جعل هذا القانون العلمي في هـذه الآية وسـيلة ، لتزكية الإنسان وتحميله مسئوليته الكاملة تجاه التطورات الخارجية.

ونلاحظ وجود منعطف صارخ في سياق بعض الآيات ـ الهدف منه ـ بيان حقيقة علمية ترتبط بواقع التزكية الــتي يهدفها ظاهر السياق.

فمثلا يقول الله سبحانه :

«**وَيَسْــتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ* وَالْكـافِرُونَ لَهُمْ عَـذابٌ شَـدِيدٌ* وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ* وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِـيرٌ وَهُـوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْـدِ ما قَنَطُـوا وَيَنْشُـرُ رَحْمَتَـهُ وَهُـوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**» (الشورى ـ 28).

نرى في السياق منعطفا صارخا عند قوله سبحانه :

«**وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ**».

حيث لا يرتبط ظاهرا بما قبله من قوله تعالى :

«**وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ**».

وبما بعده من قوله سبحانه :

«**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا**».

ووضع هذا المنعطف إنما هو لبيان سنّة فطرية تجري في العبــاد هي فقــدهم للتــوازن إذا ثقلت عليهم النعم ـــ باعتبــار ان النعمة بحاجة الى قــدر من التحمل والضــبط ، ربما بقدر أو أكثر مما تحتاج النقمة إليها.

ان إبــداع هـذا المنعطف في سـياق الآية الـذي يبـدو مستقيما بدونه ـ إنما هو لهدف بيان الحقيقة العلمية ، في ثنايا التوجيه النفسي ليس فقط من أجل توظيفها في خدمة

التزكية ، بل وأيضا من أجل بيانها للناس.

(ب) : والأسلوب التربوي الذي يتبعه القرآن الحكيم ـ في تزكية النفس ـــ أســلوب علمي بذاتــه. إنه أســلوب مرحلي يتابع مراحل التزكية ، بما يتناسب معها من الأثارة العاطفية ، والتوجيه الفكري والزخم الايمـاني إنه أسـلوب يربط ـــ بحكمة بالغة ـــ بين الفكـــرة الموظفة والهـــدف المنشود.

وبكلمة إن البشرية تسعى منذ قرون في سـبيل وضع مناهج علمية للتربيـة. والقـرآن سـبق البشـرية جميعا في اســتخدام كل هـــذه المنـــاهج وغيرها مما يطـــول بيانها تفصيلا.

وهذا يهدينا الى حقيقتين :

1 ـ ان يوسـعنا معرفة المنـاهج العلمية الأصـوب عن طريق تتبع المناهج القرآنية آية بآية ، وموضوعا بموضوع.

2 ـ ان بوسـعنا الانطلاق من نقطة واحـدة في دراسة هـذه المنــاهج إلى قاعــدة شــاملة عند ملاحظتنا للقــرآن الحكيم تماما ، مثل انطلاق المهنـــدس القـــدير من النظر إلى عمـارة واحــدة إلى معرفة القاعــدة الهندســية الـتي قامت وفقها هذه العمارة. ومثل تفهم الطبيب الحاذق من وصفة طبية القاعـدة العلمية الـتي اسـتند إليها ذلك الـذي كتبها ـ وهكذا ..

فمعرفة المناهج قد تهـدينا الى السـنن الفطرية الـتي روعيت عند وضع هـــذه المنـــاهج وبالتـــالي نســـتطيع فهم السنن هذه.

القرآن الحكيم بين الظاهر والباطن

بعد ان تعرفنا على خطي القــرآن المتشــابكين خط التزكية وخط التعليم ، وعرفنا ان الهدف الأهم الذي يبــدو من سياق آيات القرآن هي التزكية ، بعد ذلك نسـتطيع أن نهتدي إلى الظاهر والباطن.

فالظاهر هي التزكية ، بينما الباطن هو التعليم.

وقد جاء في حديث مـأثور : «ان ظـاهر القـرآن حكم وباطنه علم» والحكم هي الشـريعة مع موجبـات تنفيـذها من تـرغيب وتـرهيب وقصص وأمثـال. بينما العلم ــ هي السـنن الفطرية الـتي بيّنها القـرآن المجيـد. والقـوانين العلمية التي أشار إليها.

وجاء في حديث آخر : «ظهر القرآن الـذي نـزل فيهم وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم» [1].

---

(1) تفسير الصافي الجزء الاول ص 17

ومن المعروف ان قصة الذين نزل فيهم القرآن تعتبر الجــانب الــتربوي منه ، ولكنه حينما ينــتزع القــرآن من القصص سننا عامة تشمل الـذين نـزل فيهم وتسع الـذين عملــوا بمثل أعمــالهم. تعتــبر ــ آنئذ ــ تلك الســنن علما بالتاريخ أو الاجتماع أو ما أشبه.

وجاء في حـديث آخر : ان رجلا قـال : سـألت الامـام عما يعــني بقوله : للقــرآن ظهر وبطن؟ قـال : «**ظهــره تنزيله وبطنه تأويله ، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد يجري كما يجري الشمس والقمر ، كلما جاء منه شيء وقع**»

وهذا الحديث يؤكد معنى الحديث الأول ــ ويتظـافران على ان تنزيل القـرآن هو الظـاهر الـذي يـدل على اللفظ بينما التأويل وهو أيضا بطن القـــرآن ـــ إنما هو الواقع العلمي الــذي يهــدي إليه الظــاهر وينطبق على كل من يشارك مع أولئك في أعمالهم.

وقد عــبرت بعض الأحــاديث عن علــوم القــرآن ب (البطن) لأنها تخفى على النـــاس ، ثم تظهر بالتـــدبر ، وحسب اختلاف النــاس ـــ من النــواحي العقلية والعلمية تختلف درجات الخفاء ـ حـتى يعتـبر الواقع الواحد ، ظهـرا بالنسبة إلى فريق ، وبطنا بالنسـبة إلى فريق آخـر. لـذلك تعـددت البطـون والأظهر بقـدر تعـدد درجـات النـاس في العقل والعلم. وجاء في حديث : ان رجلا قال : ســألت أبا جعفر (ع) ، عن شـيء من تفسـير القـرآن ، فأجـابني. ثم سـألته ثانية فأجـابني بجـوانب آخر فقلت : جعلت فـداك ، كنت أجبت في هـذه المسـألة بجـواب آخر غـير هـذا قبل اليوم. فقال لي : «**يا جـابر ، ان للقـرآن بطنا وللبطن بطنا وظهرا وللظهر ظهرا**»

وهكذا فسّر الامام (ع) آية واحدة عدة تفاسـير حسب درجات السائل ـ إذ أنه حينما عرف تفسيرا يشـرح ظـاهر القرآن استعد علميا ، لمعرفة تفسير يشرح بطنه.

بهـذا نعـرف معـنى عـدة أحـاديث مـأثورة تقـول ان للقـرآن سـبعة ابطن أو سـبعون بطنـا. وبهـذا أيضا نعـرف قيمة التدبر باعتباره الكاشف لبطون القـرآن كلما تـدبرت كلما ازددت علما.

القرآن الحكيم

بين المحكم والمتشابه

لأن القـرآن المجيد خطـاب مباشر من الله خـالق كل إنســـان وإلى كل إنســـان فلا بد أن يكـــون مفهوما لهم جميعـا. بقـدر ما يكـون مهيمنا عليهم يكـون مفهوما ، لأنه خطاب ويكون مهيمنا لأنه من الله.

ولأن النــاس درجــات في العلم والايمــان ، فلا بد ان تكون آيات القرآن درجـات فتنشأ المشـكلة ، حيث تكـون الدرجة العالية غير مفهومة لمن هم في الدرجات الدنيا.

وهنا يتدخل القرآن ذاته لحل هذه المشكلة بأن يوقف هؤلاء الناس عند حدّهم ويأمرهم بترك الآية غير المفهومة لهم. تركها لمن يفهمونها ممن تتناسب درجـــــــاتهم معها بينما يكون عليهم ان يستوحوا من تلك الآيـات الـتي تنالها افكـارهم وتتفق مع مسـتوى نضـجهم ، والقـرآن الحكيم. يسمى الآية المفهومة ب (المحكم) بينما يدعوا الآية الـتي هي أعلى من مستوى فهم القـارئ ب (المتشـابه) ويـأمر الناس باتباع المحكم وترك المتشابه.

ومن هنا نعــرف أن ليس النــاس ســواء في المحكم والمتشابه. إذ ان المحكم الذي يبدو واضحا عند فرد ـ لأنه في مســتوى فهمه ــ يكــون متشــابها عند فــرد آخر ، لأنه أعلى من مستواه.

من هنا جـاء في الحـديث في تفسـير المتشـابه بأنه : «ما أشبه على جاهة» وعليه يجب على من لم يــؤت فهم آية عليه أمران :

1 ـ أن يقف عند الآيـة. ولا يصـيبه الغـرور فـيزعم انه قـــــادر على فهم الآية ، فيفسّـــــرها برأيه فيضل ويضل الآخرين.

2 ـ ان يلتمس من هو أعلى درجة منه لعله يتعلم منه معنى الآية. ولو لم يفهم ـ حتى مع التعليم ـ فعليه ان يدع علمه إلى أهله.

هـذه الحقـائق هي الـتي تـذكر بها الآية الكريمة الـتي تقول :

«**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمـاتٌ ـ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ ـ وَأُخَرُ مُتَشـابِهاتٌ ــ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ ما تَشـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ**» (7).

وجــاء في الحــديث : عن الامــام الصــادق (ع) : «أن القــرآن فيه محكم ومتشـــابه ، فأما المحكم فنــؤمن به ونعمل به ونــدين به ، وأما المتشــابه فنــؤمن به ولا نعمل به» [1].

(1) تفسير الصافي ج 2 ص 18

القرآن الحكيم والأحرف السبعة

جـاء في حـديث شـريف : «نـزل القـرآن على سـبعة أحرف أمر ، وزجر ، وترغيب ، وترهيب ، وجدل ، وقصص ، ومثل» [1].

وجاء في حـديث آخر : «ان الله تبـارك وتعـالى انـزل القرآن على سبعة أقسام كل قسم منها كاف شـاف وهي : أمر ، وزجر ، وتـــرغيب ، وتـــرهيب ، وجـــدل ، ومثل ، وقصص» [2] ..

وقد تظافرت الأحاديث ، التي تقـول ان القـرآن نـزل على ســـبعة أحـــرف. وذهب فريق من المســـلمين إلى تفاســير بعيــدة لهــذه الكلمة فقد قــال بعضــهم : ان الله اوحى سبع مرات ، سبع كتب كلها قرآن.

بيد ان الجــانب الــتربوي الــذي يهدفه ســياق ظــاهر القرآن بحاجة إلى هذه

(1) تفسير الصافي ج 1 ص 39
(2) نفس المصدر

الأحرف ـ السبعة ـ فقسم منه امر بـالخير وقسم نهي عن شــر. وقســمان منه تــرغيب لمن عمل بـــالخير ووعد له بالجنة ــ والفلاح ــ وتــرهيب لمن اقــترف الشر ووعيد له بالنـار والشـقاء. كل ذلك ليكـون قـوّة تنفيذية ــ نابعة من ذات الآية.

يبقى الجــدل ، وهو ضــروري في كتــاب يحمل ســمة العقيـدة لأن هنـاك شـبهات راسـخة في قلـوب البسـطاء يجب تصفيتها قبل البدء بتزكية النفس ـ وطريقة التصــفية الجدل ـ والمناقشة الهادفة.

وللقرآن ســمة هامة تطبع جميع مناحيهـا. وهي ســمة الحيوية التي تجعل من الفكرة ـ واقعا يتحــرك أمــام أعين النــاس وتتحقق هــذه الســمة بواحــدة من اثنــتين : إما القصص التاريخية الــتي لها حقيقة مضت ، وإما الأمثـــال التي لا حقيقة خارجية لها.

وهذا التقسـيم في القـرآن الحكيم ــ سـيعطينا فرصة لفهم كتـاب الله إذ أن مجـرد تقسـيم نص ــ اي نص كـان يعطي الفرد قدرة هائلة على اكتشاف خفاياه!

القرآن الحكيم وإثباتات معانيه

ما هي الاثباتات اللغوية التي يمكننا الاعتماد عليها في فهم القـرآن الحكيم؟ نـرى ثلاثة إثباتـات رئيسـية لمعـنى القرآن : اللغة ، والسياق ، والتفسير المضمون.

(أ) اللغة :

بـــالرغم من أن اللغة العربية ، أشـــمل وأدق وأجمل اللغـــــات في انها تعطي لكل حقيقة لفظا قريبا يتناسب معها تماما ، وبـالرغم من أن العـرب اختـاروا لكل تطـور ينشأ في شيء ــ لفظا يخصه ــ ويـوحي إلى تلك الحقيقة متلبسة بذلك التطور.

بـالرغم من هـذا وذاك فـان الكلمـات العربية اكتنفها الغموض ، مما أفقد إيحاء اللفظ وظلالـه. فلم نعد ــ نحن العرب ـ نملك رهافة الحس التي كـانت تكشف الفـرق ما بين لفظتي «قرب ـ اقترب» أو «فكر ــ افتكـر» حـتى لم نعد نعرف الفرق بين كلمتي سار وسارب و «دلك وأولج» وما أشبه.

ويعود ذلك الى :

ـ أولا : كثرة استعمال الألفاظ في غـير معانيها الأدبية ، فحينما يستعمل العربي كلمة قرب في المجـال المحـدد ل «اقترب» أو حتى كلمة سـار في موضع كلمة سـارب ، يختلط ظلال الكلمـتين مع بعضـهما ــ وتضـيع الإيحـاءات الخاصة.

ـ ثانيا : تعلقت أذهاننا بمعاني جامدة ومحددة لألفـاظ عربية ، وفقدنا الشعور بمحـور شـعاع الكلمة ، نحن حينما نستعمل كلمة «جن» يتبادر الى أذهاننا المخلوق الغريب ، دون ان نفكر ولا لحظة حـول ارتبـاط كلمة «ج ن ن» مع هـذا المخلـوق ونسـتعمل كلمة جـنين دون أن نعـرف أن هناك علاقة تناسب مع معنى الولد في بطن أمه ـ (جنين) ومعـنى المخلـوق الغـريب (جن) وهي أن كليهما مسـتور عن أعين الناس.

وكـــذلك نطلق لفظة الخمر للدلالة على الســـائل المسـكر ، ونطلق لفظة الخمــار ـــ للدلالة على السـاتر لوجه المـرأة ، ولا نلاحظ ان علاقة اللفظين ببعضـهما إنما هي من ناحية السـتر ، فهـذا يسـتر الوجه ، وتلك تسـتر العقل.

وهكذا تتداخل ايحـاءات اللفظ العـربي ببعضـها ونفقد بـذلك فهم أهم سـمة من سـمات اللغة العربية الـتي لو فهمناها يسهل علينا فهم القرآن كثيرا.

من هنا يتــوجب علينا الخــروج من الفهم التقليــدي للألفــاظ العربية ـــ نحو أفق اســمى ، يستشم المعــنى الايحائي العام منها.

وهذا الخروج ضروري لفهم القـرآن الحكيم إذ أنه في قمة البلاغة الـتي تتلخص في رعاية التناسب الشـامل بين الموضـوع ــ واللفظ وبين الواقع والتعبـير. فيكـون كشف المنحنيات التعبيرية والإيحـاءات اللفظية ذات أهمية خاصة في القرآن أكـثر من أي كتـاب آخر لأنها معنية فيه بشـكل لا يوصف.

يبقى السؤال عن كيفية الخروج؟
والجواب : على الفرد :
1 ـ أن يتجرد أولا عن موحيات المنـاخ الفكـري الـذي يصور له ـ معنى جامدا للفظ.
2 ـ ثم الرجـوع الى المـادة الأساسـية الـتي تجمع كل التصريفات للكلمة ، والتفكير في المعـنى المناسب لربط هـذه المجموعة باللفظ ، فمثلا : يجمع معـاني يعرشـون ، عرشا ، معروشات ونعـود الى تصـريفات اللفظ الاخـرى ، عـريش ، وعـرش وما أشـبه لنسـتنبط منها جميعا معـنى البنـاء الفـوقي لأنه يجمع معـاني سـرير الملك والبنـاء ، والمرفـوع ، وسـيباط الكـرم ، والخيمة من الخشب هـذه المعاني التي ذكرتها العرب لهذه الألفاظ.
3 ـ قياس مـوارد اسـتعمال اللفظ ببعضـها ــ ليعـرف المعنى المشترك ـ الذي يمكن أن يتصور معنى جامعا بين هذه المـوارد. ومن الطـبيعي أن يعتـبر في الاسـتعمال ان يكون على لسان أهل اللغة المعتنين بالبلاغة.
والأدباء اليوم يكتشفون ظلال الكلمات وإيحاءاتها من موارد الاستعمال في منطق البلغـاء أكـثر مما يكتشـفونها في بطون الكتب اللغوية.
وذلك لأن ما في كتب اللغة لا يعدو ان يكـون تسـجيلا ميتا لموارد الاستعمال ، أو استنباطا لمعـنى مشـترك منها قد قام به مؤلفوا الكتب ، ومن هنا يكون تعرف الشــخص ذاتيا بهذه الموارد واستنباطه بنفسه المعنى الجامع بينها ، أفضل من تقليد كتب اللغة.
وبكثرة النظر في موارد الاستعمال يـؤتى الفـرد حسا أدبيا مرهفا يجعله يمــيز بين كلمــتين مترادفــتين بشــكل دقيق ، بالرغم من أنه قد لا يستطيع الإفصاح عما يعرفه

بدقة وتحديد. وإذا كـان قيـاس مـوارد الاسـتعمال ببعضـها أفضل السـبل لمعرفة المعـنى الحقيقي للفظ ما ، فـان أفضل قيـاس من هـذا النـوع هو قيـاس مـوارد اسـتعمال الكلمة في القـرآن ذاته ، إذ أنه ــ ولا ريب ــ ذروة البلاغة العربية ، التي عجز عن تحديه أبلغ فصحاء العرب.

من هنا يجدر بالذي يريد التـدبر في القـرآن ذاته ، أن يبحث عن المعنى المحدد للكلمة في آيـات القـرآن ذاته ، ليجد ـــ بقيـــاس بعض المواقع المســتعملة فيها الكلمة ببعضها ـ ليجد بذلك المعنى الدقيق الذي يقصده القرآن.

(ب) السياق :

لو بحثنا عن أول يـــــــوم تعلمنا فيه اللغة لعرفنا أن السياق كان أول سبيل لهذا التعليم. فالوالد استعمل لفظ العصى عند ما ما كـــان يتكلم عن الضـــرب فعرفنا أنه وســيلة الضــرب والوالــدة أطلقت لفظة الولاعة حينما تكلمت عن الطبخ فعرفنا أنها وسيلة النار. و.. و.

ولا ريب أن وجود اللفظ في اطـاره المتناسب يـوحي بمعناه ربما أكثر من تفسير اللفظ بدون سياق يحده.

والقرآن الحكيم ، ذلك الكتاب البليغ الذي يناسب بين المفـردات في اطـار السـياق بحيث يصـعب عليك تبـديل لفظه بأخرى دون ان تضر بتناسب الكلمات.

لــذلك يهــدينا الســايق ذاته الى المعــاني الدقيقة للكلمــات لأنها وضــعت في موقع متناسب جــدا مع تلك المعـاني ، فـاذا أردنا أن نعـرف بالدقة معـنى اللفظ كـان علينا مراجعة ما قبلها وما بعـــــدها ، لمعرفة ما يتناسب معهما من معنى لهذه الكلمة ، فمثلا لو أردنا ، أن نكتشف معنى «قصد» في هذه الآية.

«**وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ**» (9 / النحل).

لو أردنا ذلك قارنا بين القصد ، والجائر ، والهداية ، نعرف معنى القصد. لأنه جاء في مقابل الجائر الذي يعني المائل ، فالقصد هو المستقيم ، والجائر هو الظالم فالقصد هو العادل.

أو إذا أردنا التعرف على معنى «نفش» في هذه الآية :

«**وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ**» (78 / الأنبياء)

لو أردنا ذلك لم يكن علينا الا قياس كلمة نفشت بالحرث والغنم والحكم. مما نعرف انه إتلاف الحرث ، وهكذا.

وقد جاء رجل الى صحابي فسأله عن معنى «الأبّ» الذي جاء في الآية الكريمة ، وفاكهة وأبا ، فلم يعرفه. وجاء علي عليه السلام وقال : ما مفاده إن معنى اللفظ موجود في الآية ذاتها لأن الله سبحانه يقول :

«**وَفاكِهَةً وَأَبًّا مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ**» (31 ـ 32)

فالفاكهة لكم والأب لأنعامكم.

(ج) التفسير :

معرفة الإطار التاريخي الذي شاهد نزول الوحي ومعرفة المورد الخاص الذي نزلت فيه والموقف الاجتماعي الذي وجهته الآية. ذو أثر كبير في تفهم المعنى الدقيق. للآية.

ومعرفة تفاسير أئمة الوحي (ع) للآية قاطعة في معانيها. بيد أن تفاسير الأئمة (ع)

قد تختلف بينها أو تـبين تطبيقا واحـدا للآيـة. وهنا لا بد أن نتخذ منها سـبيلا لفهم المعـنى العـام الـذي يحل مشـكلة الاختلاف ــ من جهة ــ ويعطي الآية تطبيقـات أشـمل من جهة ثانية. ولـذلك يجب أن لا نجمد في النصـوص الـواردة في تفسير الآيات على انها المعاني الوحيـدة الـتي تحملها بل نتخذ منها وسيلة لفهم المعنى الأشمل للآيـة. ونـدرس كيف ولماذا انطبقت الآية على المورد الذي يعينه التفسير لنعرف انه هل يمكن تطبيق الآية أيضا على مورد متشـابه أم لا؟

فمثلا جـــاء في بعض النصـــوص التفســـيرية أن الآية الكريمة :

«**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ**» (106)

نزلت في حق عمار بن ياسر حسـنا فهل من الممكن تجميد الآية في عمـار؟ كلا. بل يجب أن نفكر كيف جـاءت الآية تطبيقا على حالة عمار أليس لأنه كان قد أكــره على الشرك فأعطاهم بلسـانه ما أحبـوه أو ليس ذات الموقف لو تكـرر لرجل اليـوم وصـنع مثل ما صـنعه عمـار تنطبق عليه.

إن هـذا الأسـلوب من التفكـير يجعل القـرآن حيا في أذهاننا أبدا. وقد أمر به الدين ـ

فجاء في الحديث : «لو أن القرآن كان يـذهب بمـوت من نـــزل فيهم لـــذهب القـــرآن كله ، وإنما مثله كمثل الشمس كل يوم جديد»

بهذا نعرف ضـرورة الاسـتفادة من التفسـير الصـحيح بالفهم الواعي لحدود تطبيق التفسير لعموم الآية.

الفصل الثالث :

منهج التدبر في القرآن

ـ التدبر والصفات النفسية
ـ التدبر والصفات العقلية
ـ التدبر والسياق القرآني
ـ التدبر والواقع الخارجي
ـ التدبر والتطبيق القرآني
ـ موجز لمنهج التدبر في القرآن

التدبر والصفات النفسية

عـدة صـفات نفسـية ينبغي ان يتحلى بها المتـدبر في القـرآن ليسـتطيع فهم آياته المجيـدة حـتى يتسـنى له بعد تطـبيق طـرق التـدبر على نفسه ــ معرفة الحقـائق الـتي تنطوي عليها الآيات ، وإليك بعض هذه الصفات :

1 ـ الايمان بـالقرآن على أنه كتـاب أوحى به الله رب السموات ليكون لعباده مبشــرا ونــذيرا ، وهاديا الى الحق باذنه وسراجا منيرا.

لا بد أن نقــرأ القــرآن بوصــفه خطابا موجها إلينا من الله العظيم ، فقد جـاء في الحـديث : «**أن في القـرآن المناجـاة مع الــرب بلا واســطة فـانظر كيف تقــرأ كتــاب ربك ومنشــور ولايتك ، وكيف تجيب أوامــره ونواهيه وكيف تمثل حـــــــدوده**» [1] إنه وثيقة ارتباطنا بالمبدإ المعيد ، بالله.

(1) تفسير الصافي ج 1 ص 47

إنه المنقذ من كل ضلال وشـقاء. جـاء في الحـديث : «**القــــرآن عهد الله الى خلقه فقد ينبغي للمـــــرء المسلم ان ينظر إلى عهده**»

إن القـرآن قد يخـاطب رسـوله في نصوصه ولكنه لا يعنيه فقط : بل ويعني معه كل شخص تـال له ــ جـاء في حديث مأثور عن الامـام الصـادق عليه السـلام ان القـرآن نزل على لغة : «**إياك أعني واسمعي يا جـارة**» أي إنه خطـاب موجه الى الرسـول صـلى الله عليه وآله وسـلم ولكنه شامل أيضا لك ولي ولكل التابعين له.

حينما يقول القرآن :

«**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**» (19)

يجب أن أبادر بالاستغفار لأنه خاطبني شخصيا بذلك.

وحينما يقول الله :

«**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**»

يجب أن استعد لتلبية أمـره. وأقـول : لبيك ــ اللهم ــ لبيك ماذا تأمرني؟.

وحينما يقول :

«**يا أَيُّهَا النَّاسُ**»

أقول نعم. ماذا نعمل؟ وهكذا.

لقد كـان أوليـاء الله العـارفين يتلـون القـرآن بهـذه الصـفة ــ فكـانت جلـودهم تقشـعر وقلـوبهم ترتجف حين يقـــرءون اية ، بل كـــانوا يصـــعقون لعظمة وقع الآية في نفوسهم.

لقد تلى الامــام الصــادق عليه الســلام آية في صــلاته وردّدها مرات. فصعق صعقة ووقع مغشيا عليه. فلما أفاق سئل عن ذلك منه قال : «لقد رددتها حتى كـأني ســمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته» [1].

2 ـ وتنشأ من صـفة الايمـان بـالقرآن ــ صـفة كريمة أخرى هي الاستعداد لتطبيق آياته. ان هـذه الصـفة شـرط هـام في فهم آيـات الله إذ أن التســليم المســبق لنتـائج البحث عن الحق يساعد النفس على البحث المجرد ، كما ان الاستكبار والتردد في قبـول نتـائج البحث العلمي يقلل من قيمة هذا البحث عند الإنسان وبالتالي يصرفه عنه.

من هنا كــان على الإنســان ان يجعل القــرآن أمامه ويسـلم إليه زمـام أمـره. قبل أن يبـدأ بتلاوة آياته حسـبما يصف الامام علي عليه السلام المـؤمن الصـادق فيقـول : «**قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائـده وإمامه يحل حيث حل ثقله وينزل حيث كان منزله**»

وان فريقا من النـاس يتلـون القـرآن فيؤولـون آياته حسب أهـوائهم ابتعـادا عن العمل بها إن هـؤلاء لا يؤتـون فهم القــرآن أبــدا. بل ان تلاوة القــرآن ســتزيدهم وزرا ووبالا.

إنما يــؤتى علم القــرآن من تواضع للحق وســلم لله وفتش عن الواقــع. واســتعد ســلفا لاتبــاع الحقيقة لو انكشفت له.

(1) الصافي ج 1 ص 47

التدّبر والصفات العقلية

وان أهم الصـــفات العقلية الضـــرورية للتـــدبر هي التركيز والشجاعة.

1 ـ ان تركيز شعاع الشمس عـبر زجاجة مقعـرة هو الـذي يسـبب في تحويل هـذا الشـعاع الى طاقة جبـارة. كذلك تركيز شعاع الفكر عبر نقطة واحدة سوف يضاعف من فاعلية الفكر ويكشف الحقائق بوضوح.

وبمــدى أهمية التركــيز يكــون مــدى صـعوبته إذ أن النفس تقـاوم التفكر في أمر واحد ولكن على الـذي يريد الفهم أن يــروض نفسه على صــفة التركــيز فيظل يوجه اهتمامه الى شيء واحد عدة لحظات حتى يعرفه.

ولهــذا جــاء في الأحــاديث الأمر بترتيل القــرآن لأنه أقرب إلى التركيز من التهامه.

فجاء في حديث : قال أمـير المؤمـنين عليه السـلام ، في تفسير قول الله تعالى :

«**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**»

قال : «**بيّنه تبيينا ولا تهـذه هذ الشـعر ولا تنـثره نثر الرمل ، ولكن فزّعـوا قلـوبكم القاسـية ولا يكن هم أحدكم آخر السورة**» [1].

وعن الامام الصادق عليه السـلام في تفسـير هذ الآية :

«**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**»

«قـــال قف عند وعـــده ووعيـــده وتفكر في أمثاله ومواعظه» [2].

2 ـ والشجاعة هي الصفة العقلية الثانية التي لا بد أن يتحلى بها من شـــاء العلم ، ذلك ان عـــدم الثقة بـــالنفس يتسـبب في تـردد الشـخص في نتـائج بحوثه ــ وهنا تـبرز أهمية الشجاعة النفسية في قبول النتائج.

إن الحق يظهر لكثـــير من النـــاس. إلا أن قليلا منهم يـــراه لمـــاذا؟ لان أكـــثرهم يخشى من رؤيته ، يخـــاف أن يتعارض مع مسـبقاته الفكرية ورواسـبه التقليدية ، يخـاف أن يتناقض مع أفكار مجتمعة وبيئته ، لذلك لا يقترب منه ، بل يغمض عينه إذا اقـــترب الحق منه ، هكـــذا يجب أن نتحلى بشجاعة الفهم ، إذا أردنا ان نخـوض حقل التـدبر ، يجب ان نجعل الحق فـــوق كل شـــيء. فليكن معارضا لأفكارنا السابقة أو ليكن متناقضا مع أفكـار النـاس ، لا بد ان نقـول اننا سـوف نتبعه إذ إننا بهـذه الـروح الشـجاعة نستطيع كشف الحقائق.

إن آراء المفسـرين حـول الآية يجب أن لا تعيقنا عن التـــدبر من جديد في معناها بـــالرغم من احترامنا لها ، إذ ربما يكونـــون جـــاهلين بمعناها ، أو ببعض معانيها وأوفق أنالها.

---

(1) الهذ : سرعة القراءة. والنثر : التباطئ فيها بحيث لا ترتبط كلماتها. الصافي ج 1 ص 45

(2) المصدر ج 1 ص 47

التدبر والسياق القرآني

وللسـياق دور كبـير في بيـان الواقع العلمي للقـرآن والسـبب أن القـرآن ، يلاحظ ارتبـاط آية بـأخرى ملاحظة دقيقة. ولا تتلاحق الآيات ولا الكلمـات داخل آية واحـدة إلا بإحدى علاقتين : علاقة علمية أو تربوية.

1 ـ العلاقة العلمية :

القرآن يعكس واقع ارتبـاط حقيقة بـأخرى فيـذكرهما مع بعض فمثلا : يقول الله سبحانه :

«**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**»

ان علاقة الاســـتغفار من الـــذنب بتوحيد الله علاقة واقعية تفرضها حقيقة الربانية من جهة والعبودية من جهة ثانيـة. إذ أن العقيـدة بأحدية الله تـوجب العقيـدة بعبودية الفرد. وواضح أن العبد يجب ان يخضع لله.

وتماما مثل هذه العلاقة موجودة في قوله تعالى :

«**وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**» (25)

فعلاقة عبــادة الله بتوحيــده ، أمر واقعي من جهة أن على العبد مسئولية العبادة لله الواحد.

وكذلك علاقة آيتين ببعضهما في مثل قوله سبحانه :

«**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا* وَيُشْـهِدُ اللـهَ عَلى ما فِي قَلْبِـهِ* وَهُـوَ أَلَـدُّ الْخِصـامِ* وَإِذا تَـوَلَّى سَـعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِـدَ فِيها وَيُهْلِـكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ**» (205)

فعلاقة الآية الأولى بالثانية ناشــئة من وجــود ارتبــاط بين صفات المنافقين. فهم من جهة ينمقــون كلامهم وهم من جهة ثانية يفسدون في الأرض.

ان القرآن يتحدث إلينا عن نمـوذج من النـاس. لـذلك يذكر كل صفاتهم ولا تنمو صفة فيهم دون وجود اخرى.

ان هـذه العلاقة نجـدها في أواخر الآيـات الـتي تنتهي في كثير من الأحيـان بـذكر صـفة أو صـفتين لله سـبحانه. ترتبط بنـوع المضـمون المـذكور في الآية ، فمثلا نجد في هـذه الآيـات الكريمة مـدى ارتبـاط آخر الآية بمضـمونها : (ارتباطا واقعيا) يقـول الله سـبحانه : «**وَهُوَ الَّذِي يُنَـزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَـهُ وَهُـوَ الْـوَلِيُّ الْحَمِيدُ**» (28 / الشورى)

فـــالولي الـــذي يحب عبـــاده يـــنزل عليهم الغيث ، والحميد ينشر عليهم رحمته ، فهناك

علاقة وثيقة بين الولاية ونـــــــــزول الغيث والحمد ونشر الرحمة.

وكانت العرب ترى وجـود هـذه العلاقة وتسـتنبط منها أشياء وأشياء.

فمرة سمع اعرابي رجلا يتلو آية هكذا :

«**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللهِ**) والله غفور رحيم»

فقال له : أخطأت! قال : وكيف؟ قـال : ان المغفـرة والرحمة لا تناسـبان قطع يد السـارق! فتـذكر الرجل الآية وقال :

«**وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**»

فقال الأعرابي : نعم ، بعزته أخذها وبحكمته قطعها.

انه عرف كيف يجب أن تكـون نهاية الآية متناسـبة مع بدايتها ، من ناحية العلاقة الواقعية.

2 ـ العلاقة التربوية :

بما أن القـرآن كتـاب تربية ، وبما أن صـفات النفس ترتبط ببعضها فان القـرآن المجيد يلاحق النفس البشـرية بما يصلحها من التوجيهات إن طغت ـ افراطا ـ صفة عليها عالجها بحكمة. فان طغت ـ تفريطا ـ عالجها بحكمة اخرى ولا يزال يعد لها حتى تتحول الى نفس سوية.

ونسـتفيد من دراسة علاقة الآيـات التربوية ببعضـها نسـتفيد علما بخبيئة النفـوس ومعرفة بـالقوانين التربوية التي تتحكم فيها.

وكمثل لهذه العلاقة نذكر قوله سبحانه :

«**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا تُلْقُـوا بِأَيْـدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللـهَ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ**» (195 / البقرة)

ان جمل هذه الآية ثلاثة : الأولى في الإنفــاق. والثانية في النهي عن إلقـــــاء النفس في التهلكـــــة. والثالثة في الإحسان. فما هي علاقتها ببعضها؟

أول ما أمر الله بالإنفاق توجهت النفـوس اليه وكـانت مخافة التقصير في الإنفاق.

فجـاءت الجملة الثانية تنهى عن التهلكة الـتي تتم إذا ترك الإنفاق وحيث أن النفوس مفطـورة على البخل كـان من الضروري ترجيح كفة الإنفاق ، لمقابلة الشح الطبيعي عند البشر فجـاءت الجملة الثالثة ، و (**أَحْسِـنُوا إِنَّ اللـهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**).

وربما نســتنبط من ســياق الآية المباركة : ان هنــاك درجـتين في الإنفـاق ، الإنفـاق الـذي لـولاه يهلك الإنسـان ويكــون بمثابة الإنفــاق على الــدواء ، وقد أمر به الجــزء الاول من الآية ، والإنفــــاق الإضـــافي الــــذي يقـــوم به المحسنون ، وقد امر به الجزء الثاني من الآية.

التدبّر والواقع الخارجي

ان من يهدف تفهم القرآن ، يجب ان يجعله حيّا نابضا بالحركـــــة. وذلك عن طريق تطـــــبيق آياته الكريمة على الواقع الخارجي.

إن لآيــات القــرآن ، أهلا تطبق عليهم في كل عصر ، فآية المتقين لها تطبيق حيّ كما لآية الفاسقين ، فلا بد ان يبحث الفرد عن هؤلاء كلما تدبر في القــرآن. وهنا يتحـوّل الكتــاب المــبين الى منهــاج عمل ليس هــذا فحسب بل ويهدي الإنسان الى حقائق كثيرة ، لأنه يساعد الفـرد على فهم الاحــداث المعروفة ، ويكـــون مثله آنئذ مثل المرشد في متحف للآثـــار. كيف لا تفيد رؤية المتحف بدونه كما لا يغني إرشاده دون رؤية الآثار.

وهـذا هو السـبب في أن المعاصـرين لـنزول الـوحي كـانوا يفقهونه حـتى كـادوا يكونـون أنبيـاء من سـعة العلم ونضوج الفقه ، ذلك لأنهم كـانوا يتلقـون الـوحي في حمى الاحداث اليومية ، لان القرآن نـزل مع الأحـداث الرسـالية يوما بيوم ، وقد علل القـرآن ذاته نزوله التـدريجي بتثـبيت آياته فقال :

«**وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَـوْ لا نُـزِّلَ عَلَيْـهِ الْقُـرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً**» (32)

فإذا شئنا تفهم الكتاب فلا بد ان نعرض عليه الاحداث اليومية ، ليكشف لنا حقائقها الكامنــة. جــاء في الحــديث عن الامـام علي عليه السـلام قـال : سـمعت رسـول الله (ص) يقــول : أتـاني جبرئيل فقـال : «**يا محمد سـتكون في أمتك فتنة ، قلت : فما المخــرج منها ، فقــال : كتــاب الله فيه بيــان ما قبلكم من خــبر ، وخــبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل وليس بـالهزل**» [1]

في هذا الحديث : أمر الله بعرض الفتنة على القـرآن لمعرفة حكم الله فيها ، وهو نوع من تطـبيق القـرآن على الحياة الواقعية.

وفي حــديث آخر قــال رســول الله (ص): «**فــاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع وما حل مصدق**» [2]

---

(1) المصدر 9

(2) ما حل : اي مهلك لمن تولى عنه

التدبر والتطبيق القرآني

أكـبر فائـدة يغتنمها المتـدبر في كتـاب الله هي تزكية نفسه وبنــاء شخصــيته. حقا أننا لا نكــون ذوي شخصــية مثالية من الـــولادة ، وحقا أن تربيتنا كـــانت منطوية على الكثـير من السـلبيات ، فمن يا تـرى مسـئول عنا بعد أن كبرنـــــا؟ ومن ذا يخسر إن بقينا هكـــــذا؟ من المؤكد أننا بحاجة الى تربية ، ولكن من الـذي يربينـا؟ القـرآن أفضل وسيلة لتربية نفوسنا؟ لـذلك وجب أن يعـرض كل شـخص نفسه على القرآن ، ليعرف انحرافاته.

والعقبة التي تعترض طريق التربية الذاتية ، قد تكـون عـدم اقتنـاع الفـرد بأنه المعـني بالتوجيه ، بل يـزعم كل شخص أن غيره فقط هو المقصـود ، أما هو فيجعل نفسه مقدسا عن شمول التعاليم له ، هنا لا بد أن يتجـاوز الفـرد هـذه العقبة بالايحـاء الـذاتي بأنه معـني مباشـرة بهـذه التعـاليم ، وان كل قصة يجد مثالها في نفسه إذا عمل ما عمله بطل القصة ، وان كل مثل يجد تطبيقه في ذاته إذا جسد مغـزاه. وان كل ثـواب سـوف يناله هو ، إن عمل الخـير. وان كل عقوبة سـتحيط به إن اقـترف خطيئته وهكذا يجعل

نفسه تـــدور عليه آيـــات الكتـــاب ليتمكن من تربية ذاته وتزكيتها.

من هنا جـاء في الحـديث ، عن الامـام الصـادق عليه السـلام كـان أصـحاب محمد صـلى الله عليه وآله وسـلم. «**يقــرأ أحــدهم القــرآن في شــهر واحد أو أقل إن القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل تـرتيلا وإذا مـررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها واسـأل الله تعـالى الجنة ، وإذا مررت بآية فيها ذكر النـار فقف عنـدها وتعوذ بالله من النار**» [1]

هذا عن الثـواب والعقـاب ، أما عن القصص التاريخية فكيف يمكن تزكية النفس في ضوئها.

يقول الامام الصادق (ع):

«**عليكم بالقرآن فما وجدتم اية نجا بها من كـان قبلكم فخـذوه وما وجـدتموه مما هلك بها من كـان قبلكم فاجتنبوه**» [2]

بهذه الكيفية نستطيع كشف الانحرافات التي تنطـوي عليها نفوسـنا ، لكي نسـتعد لتقويمها بـالقرآن. كما نقـدر على فهم الآيـــات بصـــورة أشـــمل وأعمق إذ أن ازدواج القـــانون (الموجـــود في القـــرآن) بتطبيقه على النفس (باعتبارها الموضوع الخـارجي للقـانون) انه أفضل وسـيلة لفهمهما معا.

---

(1) المصدر ص 44
(2) المصدر ص 10

موجز لمنهج التدبر في القرآن

قبل أن نستعرض المنهج لا بد أن نذكر أمرين :

أـ أن المنهج تلخيص لما سبق في الصفحات الماضـية انما لخصناها لتبقى عالقة بالأذهان.

ب ـ كما أن للقـرآن جـانبي التزكية والتعليم ، كـذلك لمنهج التـدبر ونحن نـدمجهما ببعضـهما لصـنع البرنـامج المتكامل :

أما المنهج الموجز للتدبر فهو التالي :

1 ـ الهدف من التدبر انما هو تكوين شخصـية القـارئ والوصول الى اهدافها المشـروعة ، ومعرفة الحق والقـوة الكافية لتنفيذه.

2 ـ ويعـني التـدبر التفكر المنطقي في المعـنى الحقيقي للآية. بينما يعـني التفسـير بـالرأي الاسـتغناء عن هذا التفكر باختلاق معنى الآية ، والتدبر واجب والتفسير

بالرأي حرام.

3 ـ ومحـور التـدبر البحث عن القـوانين العلمية الـتي انطوت عليها آيات القرآن أو المناهج التربوية التي صيغت بها هذه الآيات وبكلمة واحدة معرفة ظاهر التربية وبـاطن العلم من القرآن.

4 ـ ويقتصر محور التدبر في الحقائق الــتي يصل الى فهمها فكر المتــدبر (ويســمى بــالمحكم) أما مــالا يفقهه المتدبر فيدعه الى حين يفقهه (ويسمى بالمتشابه).

5 ـ لمعرفة ظــاهر لفظ القــرآن يجب الرجــوع الى اللغة بشــرطين : الاول : تصــفيتها من رواسب المنــاخ الضـيقة ، والتركـيز على معناها العـربي الصـافي الثـاني : التفكر في المادة الأساسية التي ينبثق منها سائر المعاني الخاصة ، وهكذا يمكن جمع موارد اسـتعمال اللفظ لنبحث عن معنى واحد مشترك بينها فنتمسك به.

6 ـ اجمع مـوارد اسـتعمال اللفظ في القـرآن وقـارن بينها لتعرف ما هو المعـنى الجـامع المشـترك بينها حسب ما يهدي إليها سياق كل واحد منها.

7 ـ اطرح على نفسك هذا السؤال ، كلما تـدبرت في آية ، لماذا استخدم القرآن هــذه الكلمة ما هي ميزتها عن كلمــات مترادفة معهــا؟ وابحث عن الجــواب في إطــار المادة الخامسة والسادسة.

8 ـ ابحث في التفســير الصـحيح واحــذر من تحديد عموم القرآن بخصوص مـورد نزوله ـ أو بتطـبيق تـاريخي واحد كلا اهتد بالمورد والتطبيق الى أمثالهما. وتعـرف من خلالهما على الصفات الـتي أوجبت نـزول الآية أو تطبيقها عليهما.

9 ـ قسّم ظاهر القـرآن إلى سـبعة أقسـام : إلى أمر وتــــرغيب وزجر وتــــرهيب وقصص تاريخية ومثل بيانية ، وجدل مع الأعداء ، فكّر هذه الآية تنطوي على كم

قسم منها؟

10 ـ وتـدبر في بـاطن الآية عن علاقة جملة بـأخرى وآية بثانية ، ومجموعة آيات بأخرى. فتش عن نــوعين من العلاقة بينهما :

(أ) علاقة علمية بحيث يعتــبر الواحد ســببا للثــاني أو مسببين لسبب ثالث.

(ب) علاقة تربوية بحيث يكون الواحد مستوجبا للثاني ، حتى يكون المجموع منهجا متكـاملا لتربية الفــرد وتزكية نفسه.

11 ـ عليك أن تتحلى بصـفات نفســية وعقلية حـتى تتمكن من اكتشاف حقائق القرآن. وهي :

(أ) الايمــــان بــــالوحي ، وانه وثيقة بينك وبين ربك وخطاب مباشر إليك من خالقك.

(ب) والاستعداد لتطـبيق تعاليمه ، والتسـليم لافكـاره حتى ولو خالفت مصالحك أو تناقضت مع تقاليدك السابقة وأفكار مجتمعك.

(ج) التركـــيز في بـــؤرة واحـــدة بحثا عن الحقيقة ، ويـدعى بـالتروّي. وهو ـ أي التركـيز ـ عمق التـدبر البعيد وبغيره تصبح المواد الاخرى في هـذا المنهج قشـورا بغـير لب.

(د) الشجاعة في التمسك بالحق والثقة بعقلك أو بما يهدي إليه من الواقع.

12 ـ ابحث عن تطبيق خارجي حيّ لمواضـيع القـرآن الحكيم ، ابحث عن أشخاص يصفهم القــرآن ، وابحث عن أوضاع يبينها القرآن ، وابحث عن نتائج يقول

عنها القرآن.

13 ـ طبق آيـات القـرآن على نفسك ، لتجد فيها كل ما شرحه الكتاب ، ولتخشى مما قد يصيبك مما بينه.

سورة الحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

في كتــاب محمد بن مســعود العياشي بأســناده عن النبي محمد (ص) قال لجابر بن عبد. الله الأنصاري :

«**يا جابر ألا أعلمّك أفضل سـورة أنزلها الله في كتابه. قال فقـال له جـابر : بلى بـأبي أنت وأمي يا رسول الله. علمنيها. قـال فعلمه الحمد أمّ الكتـاب. ثم قـال : يا جـابر ألا أخـبرك عنها ، قـال بلى بـأبي أنت وأمي ، فـأخبرني ، فقـال : هي شـفاء من كل داء الا السام والسام الموت**»

* وعن سلمه بن محـرز عن جعفر بن محمد الصـادق (ع) قال :

«**من لم يبرئه الحمد لم يبرئه شيء**»

* وعن أمـير المؤمـنين (ع) قـال : قـال رسـول الله (ص):

«ان الله تعـالى قـال لي : يا محمد و (**لَقَـدْ آتَيْنـاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**) ، فـأفرد الامتنـان عليّ بفاتحة الكتــاب وجعلها بــإزاء القــرآن. وأن فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العـرش ، وان الله خصّ محمد وشــرّفه بها ولم يشــرك فيها أحــدا من أنبيائه ما خلا سليمان ، فأنه أعطاه منها بسم الله الـرحمن الـرحيم. الا تــراه يحكي عن بلقيس حين قــالت : «**إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللـهِ الـرَّحْمنِ الـرَّحِيمِ**». ألا فمن قرأها معتقــدا لمــوالاة محمد وآله ، منقـادا لأمرها ، مؤمنا بظاهرها وباطنها ، أعطـاه الله بكل حرف منها حسنة ، كل واحدة منها أفضل له من الدنيا بما فيها من أصناف أموالها وخيراتها. ومن اسـتمع الى قـارئ يقرؤها ، كان له قدر ثلث ما للقـارىء. فليسـتكثر أحـدكم من هـذا الخـير المعـرّض له فإنه غنيمة لا يـذهبن ، أو انه فتبقى في قلوبكم حسرة».

(مجمع البيان ج 1 ـ ص 17 ـ 18)

سورة الحمد

مكية وآياتها سبع

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (1))

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعـالَمِينَ (2) الـرَّحْمنِ الـرَّحِيمِ (
3) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)
اهْـدِنَا الصِّـراطَ الْمُسْـتَقِيمَ (6) صِـراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (7))

الحمد مجمل معارف القرآن

تفسير البسملة :

[1] بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

بمـاذا نفكر ونصـمم ونعمـل؟ أليس بقـوى وطاقـات؟ من يملك تلك القوى ومن يمدنا بتلك الطاقات أو ليس هو اللـه؟ إذا فكل قـوة نفكر أو نصـمم أو نعمل بها ، هي آية من آيات الله واسم من أسـمائه الحسـنى ، يجب علينا ان نقـــول : باسم الله قبل كل موجة تفكـــير وومضة ارادة وحركة عمل. انه الله الذي خلقنا وهدانا ، فباســمه نبتـدئ كل شـيء لان كل شـيء هو في الواقع اسم من أسـمائه وآية من آياته الكبيرة.

وأســماء الله كلها مظــاهر رحمته ، ورحمته واســعة ومسـتمرة. ونعبّر عن الرحمة الشـاملة الـتي وسـعت كل شـيء بـالرحمن كما نعـبر عن الرحمة الدائمة ، الـتي لم تزل ولا تزال ولن تزول في المستقبل ب (الرحيم).

وســوف تتجسد رحمة الله الدائمة في اليـــوم الآخر بجنات واسعة يختص بها

المؤمنــون. اما في الــدنيا فهو يــرحم الجميع ، المؤمــنين والكافرين. ولا بد ان نخلص له العبـادة ونتوجه اليه وحـده في كل صغيرة وكبيرة ونستعين به.

موارد الحمد

[2] حين نحمد الله ونذكره بالصـفات الحسـنى الـتي فيه والـتي تتجسد عمليا في نعمه الكبـيرة والكثـيرة علينا وأبرزها نعمة العناية الجسـدية والروحية ، الـتي جعل الله بها الإنسان أكرم وأفضل من كثير ممن خلق ، ولكن هـذه التربية لا تخص الإنسان وحده ، إذ أن كل الأحيـاء ينعمـون بتربية الله ورعايته لهم ، منذ نشـوئهم وحـتى الممـات .. فالنبــات يتلقى نعمة العناية من قبل اللــه. متجســدة في اشعة الشـمس الـتي لا تنقطع عنه ، ومـاء السـماء الـذي يصب عليه صبا ، واملاح الأرض ، والرياح اللواقح .. و..

والبر والبحر والجبال والكـواكب والنجـوم والمجـرات و. و. كلها تنعم بعناية الله ورعايته الدائمة.

إذا لنقف خاشعين امام الله ، الذي شملنا بعنايته نحن والعالم الذي من حولنا ، ونقول :

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

[3] والصـفة الثانية الـتي نحمد الله عليها ونـذكره بها هي الرحمة الواسعة والدائمة فهو.

(**الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**)

[4] بيد أن نعم الله ليست عبثا وبلا حكمة. انها تهدف تربية الإنسان

واختبـاره. ومن ثم جـزاءه على الحسـنى أو السـوء. فهو بالاضـافة الى رحمته الواســعة والدائمة ، حكيم ســريع الحسـاب شـديد العقـاب لا بد ان نخشـاه ونتقي عذابه ونعمل بجد من أجل الحصول على مرضاته ، لأنه.

(**مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**)

يوم الجزاء الأكبر. وحين يملك الله يوم الـدين ، يملك الجنة والنار والميزان والحكم بالجنة أو النار. وهذا التعبـير يبـدو أفضل من التعبـير ب (ملك يـوم الـدين) ، ذلك لان الملك قد لا يملك في دولته الا شيئا واحدا فقط هو الحكم والسـلطة. بينما الله يملك السـلطة ويملك كل الأشـياء حتى الأشخاص الذين يحكم عليهم.

[5] وإذا كان الله رب العالمين ، والـرحمن الـرحيم ، ومالك يوم الدين. فلا بد ان نخلص له العبـادة ونتوجه اليه في كل صغيرة وكبيرة وتستعين به ..

(**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**)

اي نعبدك وحدك ونستعين بك وحـدك. وهـذه الفكـرة ذات اتجاهين (إيجابا وسلبا).

الاول : اننا نتوسل بالله ونوثق معه علاقاتنا ومن أبرزها الاهتداء الى تنفيذ أوامـره وتنفيـذها ، مما يسـاعدنا على تجاوز كل محنة وتحقيق التطلعات.

الثـاني : اننا لا نتوسل بغـير الله ، حـتى لا نصـبح اتكاليين وذيـولا لآخـرين تفـرض علينا وصـايتهم ، وبالتـالي يستعبدوننا.

وعند ما نتعمق قليلا في معـنى هـذه الآية نجـدها تلخص فلسفة الحرية الانسانية بصورة متينة.

ما دام لله الأسماء الحسنى والـتي منها ضـمان حرية الإنســان دعنا نـترك إذا الأصـنام الـتي تعبد من دون الله لأنها لا تتصف بشــيء من تلك الصــفات ، فلا هي رب ولا رحمن ولا تملك جزاء.

[6] وحين نــترك الأصــنام الصــامتة (كالحجــارة) أو الناطقة (كالـذين يعبـدون من دون اللـه) آنئذ نكـون على الصراط المستقيم.

ولكن ليس بهــــذه الســــهولة نســــتطيع ان نحقق الاستقامة ، لان التخلص من الأصنام مهمة صـعبة للغايـة. وعلى الإنســـان ان يضع امامه هـــدفا صـــعبا ليحققه في الحيـــاة هو (الاســـتقامة) ويســـعى من أجل تحقيقه بجد ومثابرة ، وذلك عبر ثلاثة مراحل :

المرحلة الاولى : التصميم على الاستقامة. ولن يكون التصميم على الاستقامة جادا الا إذا عرف الإنسان ان في الحياة طرقا شتى لا تـؤدي به الى اهدافه المنشـودة. وان هناك طريقا واحدا فقط هو الذي يوصله إليها. وعــرف ان التعرف على هذا الطريق والسير فيه هو من واجباته التي عليه أن يســـــعى لتأديتها ، وليست من نعم الله الطبيعية عليه ، ليست مثلا كنعمة البصر ، حيث يولد الطفل بصيرا. ولهذا فاننا ندعوا الله ان يمنحنا الاستقامة ونقول :

(**اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ**) وهذا الــدعاء دليل على ان الله لا يمنح الاستقامة الا لمن يطلبها منه.

[7] وقد لا تكـــون الاســـتقامة ابدية ، إذ أن عواصف الشهوات وأمواج الضغوط الاجتماعية والحواجز النفسية ، ووســـاوس الشـــيطان ، تلعب بقلب الإنســـان كما تلعب الأعاصـير بريشة طـائرة. من هنا على الإنسـان ان ينتظر نعمة الله حتى تظل الاستقامة

دائمة ومن هنا قال الله :

(**صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**)

اي بنعمة الهداية التي تؤدي طبيعيا الى الانتفاع بسائر نعم الله.

وما دامت الاســـتقامة نعمة تـــوهب وقد لا تـــوهب للإنســـــــــان ، فعليه ان يظل يقظا ، كلما أبعدته عوامل الانحــراف عن الخط ، عــاد اليه بفضل وعيه وثقته بالله ، وبتصميمه على الاستقامة في الحياة حتى يأتيه اليقين.

وعلينا ان نعــرف أن الله يجسد الصــراط المســتقيم في أشــخاص ، إذا ان الايمــان لا بد ان يكــون له رصــيد واقعي لئلا يتحول الى أفكار مجــردة ، ربما لا تكــون قابلة للتطبيق.

«**صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**»

من النبيين والصديقين والشــهداء والصــالحين وحسن أولئك رفيقا.

اما المرحلة الثانية فهي تحديد دواعي الانحراف الــتي تضغط على الإنسان باتجاه الانحراف أو تضـغط عليه لكي يختار بوعي وعمد طريق الانحراف.

مثل حب الشــهوات من النســاء والبــنين والكماليــات والتفاخر وحب السلطة.

ان أكـثر النـاس ينحرفـون عن الاسـتقامة بشـهواتهم لأنهم يستسـلمون لضـغوط الشـهوات. هـؤلاء يغضب الله عليهم ، ويسلب منهم نور الفطرة ووهج العقل ، فاذا بهم في ظلمات لا يبصرون ، لـذلك يـدعو المؤمنـون ان تـدوم لهم نعمة الهداية فيكونوا مستقيمين.

«**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**»

ممن تعمدوا الانحراف فسلب الله منهم نعمة الهداية فظلوا منحرفين الى الأبد.

المرحلة الثالثة : التخلص من عوامل الانحـــــــــراف الجبرية التي تـدفع الإنسـان الى الانحـراف من دون وعي ولا تصــميم ، وذلك مثل الجهل والغفلة والنســيان ، حيث انها من عوامل الضـــلالة الـــتي يجب التخلص منها هي الاخرى حتى تتم الاستقامة.

وكثـير من النـاس ينحرفـون لجهلهم بالـدين وبما فيه من سعادة وخير. مثل أكثر الشبيبة الذين ابتعـدوا عن قيم الله ، يمينا أو يســارا ، وضـحّوا من أجل مبـادئ فاســدة تضحية صـادقة ، هـؤلاء هم الجهلاء لأنهم لو عرفـوا الـدين الصحيح لما توانوا عن التضـحية من أجل المبـادئ. كـذلك المؤمنون الذين يقعون في الـذنوب في ظـروف معينة ثم يتوبون من قريب. هؤلاء تقـودهم الغفلة والنسـيان. لـذلك يـدعو المؤمنـون الصـادقون ان يهـديهم الله الى الصـراط المستقيم ولا يجعلهم من (الضالين).

«**وَلَا الضَّالِّينَ**»

ان التخلص من الضـــلالة اللاواعية لا يكـــون الا بعد التخلص من الانحـراف الـواعي ، إذ أن نـور الله لا يـدخل قلبا متكـبرا معانـدا مصـمما على الانحـراف ، لـذلك نجد القـــرآن يـــأمر بـــالتخلص من غضب الله أولا ، ثم يـــأمر بالتخلص من الضلالة.

وكلمة اخيرة .. ان سـورة الحمد بآياتها السـبعة ، هي خلاصة لرؤى الإسلام وبصـائره في الحيـاة. واما التفصـيل فنجده في القرآن كله.

سورة البقرة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة :

قال الله الى رسوله (ص):

«**أعطيت لك ولامتك كـــــنزا من كنـــوز عرشي فاتحة الكتـــــاب وخاتمة ســــــورة البقـــــــرة**» (بج 89 ص 263)

وقال الصادق (ع):

«**من قرأ البقرة وآل عمـران جاءتا يـوم القيامة تظلانه على رأسه ، مثل الغمــــــــــامتين ، أو مثل العباءتين**» (بج ج 89 ص 265)

الإطار العام

الاسم أولا :

ألف : ما ذا تعــني كلمة الســور؟ انها تعــني الإطــار المحدّد للشيء ، والسورة تعني واحدة من الإطارات التي تحــــدد مجموعة أفكــــار معينة ، وتعطينا في المجمــــوع شخصية متفاعلة ، وربما نستطيع أن نعبّر عنها ب (وحــدة فكرية) قياسا على تعبيرنا بوحدة حرارية ، وحدة ضــوئية ، أو أية وحدة كمية أخرى.

وهذا اللفظ أفضل من التعبير ب (الفصل .. القسم .. البحث الأول و.. و..) لأن لفظ الســورة لا يــدل على فصل القرآن بعضه عن بعض وتقســيمه أقســاما مختلفة مما قد توحي بأفكار بعيدة عن حقيقة القرآن بل يــدل على مــدى التفاعل بين أفكار مجموعة آيــات قرآنية تشــكلها الســورة الواحــدة ، حــتى إننا نســتطيع أن نحــددها باطــار ونعتبرها كوحدة فكرية مستقلة.

باء : البقــرة .. ذكــرت في هــذه الســورة ضــمن قصة طريفة ذات عبرة أساسية (الآيــات 67 ــ 74) من الطاعة والثقة بالقيادة في حل المشاكل. وهي تنسجم مع

الخط العام لهذه السورة.

الإطار العام للسورة :

عمّ تتحدث سورة البقرة؟

قد تواجهنا صــعوبة في الإجابة على هــذا الســؤال ، ولكن يمكن أن نقول بما ان مطلع السورة يقسّـم النـاس ثلاثة : المسـلم ، والكـافر ، والمنـافق ، وتتحـدث السـورة بعدئذ عن هــذه الأنــواع بإســهاب ، ثم مع التركــيز على صفات المؤمن ، نستطيع القول بأن الخط العـام للسـورة هو إرساء قواعد الشخصـية الإيمانية ، سـواء في مسـتوى الفرد المؤمن أو الأمة المؤمنة.

ومن هذا المنطلق تتحدث السورة عن بني إسرائيل ، وعن قصة البقرة ، وعن الانحرافات التي وقعت في هـذه الأمة المؤمنة. حيث جاء القرآن يحذّر المؤمنين منها. ومن هـذا المنطلق أيضا تتحـدث الســورة بعدئذ عن واجبـات المؤمن (الفـرد ، الأمـة) مبتـدء إياها بالقبلة (رمز الوحـدة وصــبغة الشخصــية المؤمنــة) ثم الحجّ (رمز الوحـــدة والعبادة) ثم القصاص ، ثم الصيام و.. و..

وذكــرت في هــذه الســورة كلمة تســتطيع أن تعبّر بوضوح عن الخط العام لهـذه السّـورة هي كلمة (صـبغة) في قوله سبحانه وتعالى : «**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً**» لقوم يؤمنـون فهـذه السّـورة تحـدّد الصّـبغة الإيمانيّة في كافّة أنشطة المؤمن.

وبــالرغم من انّ ســور القــرآن الأخــرى تتحـدّث عن صبغة الله أيضا ، ولكن تلك السّـور تركّز في الحـديث عن جوانب من هذه الصّبغة ، بينما تتحدّث هـذه السّـورة عنها بوجه عام وبشـكل يترابط فيه ظلال هـذه الصّـبغة لتكـوّن صورة متكاملة أمامنا.

سورة البقرة

مدنية وآياتها 286

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

**(الم (1) ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (
2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ**

---

2 [ذلك] لفظة يشاربها الى ما بعد.
[ريب] الشك وقيل هو أسوأ الشك.
[هدى] دلالة.
[المتقين] من الوقاية وهي مأخوذة من الاتقاء وهو الحجز بين الشيئين.
3 [يؤمنون] يصدقون والايمان يعني الثقة والتصديق.
[الغيب] كلما غاب عنك ولم تشهده [يقيمون] يؤدون ، وأقام الصلاة أدّاها بحدودها ، وأقام السوق لم يعطلها ، ويقيمون الصلاة تأتي بمعنى يديمون أداء فرائضها.
[الصلاة] الدعاء.

الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ

[هما] حرف موصول بمعنى الذي.

[الرزق] العطاء الجاري.

[الإنفاق] إخراج المال.

4 [يوقنون] يعلمون وسمي العلم يقينا لحصول القطع عليه وسكون النفس اليه فكل يقين علم وليس كل علم يقين وذلك كأنه علم يحصل بعد الاستدلال والنظر لغموض المعلوم أو لاشكال ذلك على الناظر.

5 [أولئك] اسم مبهم يصلح لكل حاضر تعرفه الاشارة وهو جمع ذلك في المعنى.

[المفلحون] والفلاح النجاح ويأتي الفلاح بمعنى البقاء والظفر.

لا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ
وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (7) وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَما هُمْ
بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَما
يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا
يَكْذِبُونَ (10) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ

---

6 [الكفر] فالكفر ستر النعمة واخفاؤها والشكر نشرها وإظهارها ، وكل ما ستر شيئا فقد كفره.
[سواء] مصدر أقيم مقام الفاعل بمعنى مستو ، والاستواء الاعتدال ، والسواء العدل.
[الإنذار] إعلام معه تخويف فكل منذر معلم وليس كل معلم منذرا.
7 [ختم] أي طبع ، فيقال ختم عليه أو طبع عليه.
[غشاوة] غطاء.
[العذاب] استمرار الألم.
8 [اليوم الآخر] يوم القيامة وإنما سمى آخرا لأنه يوم لا يوم بعده.
9 [يخدعون] أصل الخدع الإخفاء والإبهام.
10 [المرض] لعلة في البدن ونقيضه الصحة. [أليم] الموجع.

**لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11)
أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلكِنْ لا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذا
قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ
السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ (
13) وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلى
شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (14)
اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (
15) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ
تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (16)**

---

14 [اللقاء] الاجتماع مع الشيء على طريق المقارنة.
[الخلاء] نقيض الملأ ، ويقال خلوت اليه وخلوت به ويقال خلوت معه على ضربين أحدهما بمعنى خلوت معه ، والآخر بمعنى سخرت منه.
15 [المدّ] أصله الزيادة في الشيء كما تأتي بمعنى الجذب لأنه سبب الزيادة في الطول [الطغيان] تجاوز الحد. [عمه] : يعمه أي تحيّر. والعمه التحيّر.
16 [اشترى] الاشتراء الاستبدال ، والعرب تقول لمن تمسك بشيء

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَلَوْ شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20))

وترك غيره قد اشتراه وليس ثم شراء ولا بيع.
[ربح] الربح الزيادة على رأس المال.
[التجارة] التعرض للربح في البيع وأضاف العرب الربح الى التجارة لأن الربح يكون فيها.
17 [المثل] كالشبه وهو ما جعل كالعلم على معنى سائر يشبه فيه الثاني بالأول.
[استوقد] أوقد ، أي طلب الوقود والوقود الحطب. [ترك] الترك للشيء مثل الإمساك عنه. [ظلمات] جمع ظلمة وأصلها انتقاص الحق.
[أبصر] من الأبصار وهو ادراك الشيء بحاسة البصر يقال أبصر عينه والأبصار بالقلب مثله.

كيف يقسم القرآن البشر؟

هدى من الآيات :

تتحدث هذه الآيـات عن ثلاثة نمـاذج بشـرية ، وتعطي رؤية واضحة عنها ، ليختار القـارئ واحـدا من النمـاذج عن بصيرة نافذة وعلم.

وهذا التقسيم طبيعي للإسلام باعتباره فكرة جديدة لا تعترف بالتقسيمات الموجودة بين الناس (الإقليم واللــون واللغة والعشيرة والعنصر) التي أتت بها المبادئ الوضعية.

إن الدين الجديد يطرح تقسيمات جديدة ليتخذ الناس مواقفهم حسب هذه التقسيمات.

ولا تـزال الأمة بحاجة الى الإيمـان بهـذه التقسـيمات وتجـاوز سـائر التقسـيمات الخاطئة ، حـتى تسـتطيع أن تكون أكثر قدرة على تطبيق مبادئ الدين الحنيف.

بينات من الآيات :

[1] [الم] ما هي هـذه الأحـرف الـتي نراها في أوائل كثير من السور القرآنية؟ وهل هي مفهومة لـدينا ، أم انها كالمتشابه في القرآن ، لا يعلمه إلّا الراســخون في العلم. أم ان ســرها مكنــون عند الله ومن يطلعه على غيبه من رسول.

لقد اختلفوا في ذلك اختلافا كبيرا. ففي الوقت الــذي زعم المتحكمـــون؟ انه قـــبيح عند العقل أن يـــنزّل الله سـبحانه وتعـالى آية لا نعـرف معناهـا. واحتجـوا على ذلك بان القرآن هدى ، ولسانه عربي مبين وقد أمر بالتدبر في آياته.

في ذات الــوقت نــراهم يختلفــون في معــاني هــذه الأحرف على أحد وعشرين رأيا.

فهل الاختلاف دليل العلم؟

ويبدو لي ان حال هذه الأحرف حال المتشـابه ، وارى أنّ المتشابه من آيات الله مفهـوم للراسـخين في العلم ، وان درجــات النــاس في العلم مختلفة ودرجــات فهمهم كـذلك للآيـات متباينة ، وكل من حـوى علما بدرجة ، كـان فيها راســخا وفي الأعلى منها غــير راسخ وعليه أن يراجع الراسخين.

وعليه فـإن الإحاطة علما بكـلّ معـاني الكتـاب وبكـلّ أبعــاد علم آية قرآنية ، غــير ممكن. وعلينا أن نســلم لما نعلم وفيما لا نعلم نسلم لمن يعلم.

وفي هذه الأحرف لا يمكننا أن ندّعي أننا سـنعلم كـلّ أســرارها ، كما لا يســعنا أن ننكر معرفة بعض الحقــائق منها.

ونتساءل : إذا ما هي تلك الحقائق؟

قبل الإجابة نــذكّر بــأن للقــرآن ظهــرا وبطنا ، وأنّ لتفسير آياته أوجها لا يرى الواحد منا إلّا بعضها فـيزعم ان الآخرين على خطأ ، وقد يكون الجميع على صواب نسبي.

وهكذا قد تكون الكثير من الأقوال هنا صـحيحة ، دون أن يعني أن غيرها باطل.

قالوا : الأحرف هذه أسماء للسورة التي فيها.

قالوا : انها أداة تنبه تشجع المستمعين لمتابعة الانتباه ، والتفكير فيها وفيما بعدها.

وقـالوا : انها تـدل على انقطـاع معـنى ما واسـتئناف كلام جديد.

وقــالوا : ان الله اثــنى على نفسه بها ، وانها اشــارة الى أسمائه الحسنى ، حتى روي في الأدعية مناجاة الرب بها حيث جاء (يا كهيعص) (يا حم عسق).

وقــالوا : انها احتجــاج على العــرب حيث ان القــرآن تحداهم بكتـاب الف من هـذه الأحـرف فلم يسـتطيعوا أن يأتوا بمثله.

وقالوا : انها قسم لأنها مبــاني كتبه ، ووســائل النطق بين العبـــــــــــــــاد ، أو لم يقل ربنا : «**ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ**».

وقــالوا : انها معجــزة البلاغة حيث لم يقصد العــرب الاستفادة من هذه الأحرف هكذا من قبل وقالوا غـير ذلك مما يرجع جزئيا الى بعض ما ذكرت.

ونقول بلى ولكن لا يعني إثبات رأي ونفي ما عداه.

كذلك لا بأس أن تكون الأحرف أسـماء للسـور ، وفي ذات الوقت تشعر بانتهاء فصل قــرآني وبداية فصل آخر ، وتكون أيضا تذكرة وتنبّها تحرّض الفكر وتثــير دفينة العقل وسبات الضمير. وتكون إشارات لأسماء الله ، إذ ان أظهر شيء في السماوات والأرض هي أسـماء الله ، والأحـرف تشــير إليها قبل غيرهــا. فإشــارة الالف الى لفظ الجلالة (الله) أوضح من إشارته الى الأسد مثلا. وإذا كانت إشـارة الى أسماء الله الحسنى فان القسم بها مناسب جدا. ومع ذلك فانها اعجــاز قــرآني ، بــدأ العــرب بشــيء جديد لم يعهدوا مثله.

وفـوق ذلك إنّ فيها أسـرارا سـوف يكتشف الإنسـان بعضها مع تقدم المعرفة.

وهكذا تكـون هـذه الأحـرف إشـارات بين الـربّ وبين من ارتضاه لغيبه.

وجاء في الأثر :

1 ـ في تفســير الامــام ان معــنى الم : «**ان هــذا الكتاب الذي أنزلته هو الحروف المقطعة الـتي منها الف لام ميم ، وهو بلغتكم وحـروف هجـائكم فـاتوا بمثله إن كنتم صادقين**» [1]

2 ـ القمي عن الباقر (ع): «**هو حرف من اسم الله الأعظم المقطـوع يؤلفه الرسـول والإمـام عليهما السلام فيكـون الاسم الأعظم الـذي إذا دعي الله به أجاب**» [2]

---

(1) تفسير الصافي ، المولى محسن الفيض الكاشاني ج 1 ص 91

(2) المصدر ج 4 ص 366

3 ـ وروي عن الامـام علي (ع) أنه قـال : «**ان لكـلّ كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي**» [1]

4 ـ وفي حديث شـريف عن الإمـام أبي جعفر البـاقر (ع) أنّه قـال : «**يا أبا لبيد أن ليّ في حـروف القـرآن المقطعة لعلما جما**» [2]

القرآن هدى :

[2] يلخص القرآن تعريفه لذاته في ثلاث كلمـات هي :

أ: كتاب ـ ثابت ومتفاعل ـ وليس مجرد توجيهات غـير مترابطة أو غير متكاملة.

ب : لا ريب فيه ، ولا يرقى اليه شك. حقيقي لأنه غير متنـاقض في ذاته ولا مع الإنسـان ولا بالنسـبة الى هـدى العقل.

ج : هدى للمتقين. يهـدي من يحب الهداية ويعمل من أجلها ، فالتقوى حذر بالقلب وعمل في الواقع ، ومن دون الحـذر (العامل النفسي الـذي يبعث نحو إرادة الهدايـة) ومن دون العمل من أجل الهداية ، لن تكون هداية.

(**ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ**)

ثم يتحـدث القـرآن عن ثلاثة مواقف للنـاس اتجـاه الكتاب الجديد. (التقوى ، الكفر ، النفاق).

(1) مجمع البيان ج 1 ص 32
(2) الصافي ج 1 ص 90

[3] من هم المتقون؟ وما هي صفاتهم البارزة؟

أهم تلك الصـفات هي الإيمـان بـالغيب والـذي يعـني تجاوز الحقائق التي يشهدها الإنسـان مباشـرة ، للوصـول الى تلك الـتي لا يشـهدها مباشـرة. هـذه المقـدرة الـتي تجعلنا ـ نحن البشر ـ نحصل على مـيزة العلم بالمسـتقبل (الغيب) عن طريق معرفة الحاضر (الشـــــــهود) والعلم بالماضي (الغيب) عن طريق مشاهدة آثاره على الحقـائق الحاضرة (الشهود).

هـــذه الصـــفة تتعمق في المتقين الى درجة الإيمـــان فهم يؤمنـون بالمسـتقبل وليس يعرفونه فقط ، ويؤمنـون بالماضي وليس يعلمـــون به فحسب ، وفـــرق كبـــير بين الإيمـــان والعلم. الإيمـــان هو التســـليم النفسي والعقلي للعلم ، وتطبيقه على الحياة فعلا.

وأعظم الغيب وأظهره هو الإيمان بالله الذي انتشرت آياته الظاهرة على كلّ أفق وفي كلّ شـيء ، والإيمـان به أصل الإيمان؟.

والإيمان بالغيب يتعمق بالصلاة الـتي تفتح خطا روحيا مباشرا بين الإنسان وبين الله ، وتصبح جسرا بين الحضور وبين الغيب. وتتجسد هذه الصلة في العطاء الشـامل. فلا إيمان ولا صلة من دون تصديق ذلك بالعطاء والإنفاق.

ولكن من أيّ شيء يتم العطاء. هل من أنفسنا نعطي شيئا للـه؟ كلّا انما نقتطع جـزء صـغيرا مما أنعم الله علينا فننفق منه. ولكل شيء عطاء مناسب له فالمال بصرفه ، والجاه ببذله ، والعلم بنشره وهكذا.

من هنا كان :

(**الَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِـالْغَيْبِ وَيُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ**)

[4] والإيمان الذي يتحلى به المتقون هو ايمــان كامل لا يقتصر على بعض الحقـائق فقط ، وينحسر عمّا يخـالف الأهـواء ، انما هـؤلاء يؤمنـون بما انـزل الى الرسـول من كتـاب وبما انـزل على الرسل من قبل رسـول الله محمد (ص) لا يفرقون بينهم. وايمانهم بالآخرة إيمان راسخ يصل الى مستوى اليقين ، فـاذا بهم مطهـرون من أيّ شك في يـوم الجـزاء. بـذلك تتكامل عقائد المتقين ، الإيمـان بالله (الغيب) وما يـدعم هـذا الإيمـان من الصـلاة والزكـاة ثم الإيمان بالرسالات ثم الإيمان بيوم القيامة.

وبالطبع الإيمان بالرسالات يدعونا الى الايمان بخلفـاء الرسل وبامتـداداتهم. كما ان الإيمـان بيـوم الميعـاد يـأتي نتيجة للإيمـــان بعدالة اللـــه. وهـــذه هي أصـــول الـــدين الأساسية التي تشكل جوهر شخصية المؤمن.

(**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِما أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ وَما أُنْـزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**)

[5] والنتيجة الـتي يحصل عليها المتقـون هي الهداية والفلاح. الهداية بما فيها من اسـتقامة في العقل والـروح. والفلاح بما يشمل من سعادة في الدنيا والآخرة.

(**أُولئِكَ عَلى هُــــــــــدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)

[6] من هم الكفار؟

الفئة الثانية من تقسيمات القرآن هم الذين يسـتحيل أن يعـودوا الى الحق ، لأنهم عانـدوا الحق وسـدّوا آذانهم وأعينهم عن سماع الدعوة اليه.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا سَـواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْـذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**)

[7] الكفر ـ كالإيمان ـ يبدأ من الاختيار الحرّ للإنســان ولكنه ينتهي

بالله. فهو الذي يمد لهذا أو ذاك. فالمؤمن يزيده إيمانا والكافر يزيده ضلالة ويسلب منه نور الإيمان ، فاذا به يصبح وقد.

(**خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ**)

لماذا؟ لأنهم لم يستثمروا قلوبهم وعقولهم ولا سمعهم المؤدي الى القلب ، فلا فكّروا هم بأنفسهم ولا هم سمعوا كلام المفكرين. فتبلدت عقولهم ولم تعد تعمل وتركهم الدعاة فلم يعودوا ينصحوهم.

(**وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ**)

يستحيل منها رؤية الآيات والتوصل عن طريقها الى الحقائق. لأن القلب لا يعمل ، فتتحول العيون الى كامرات تصور الأشياء دون أن تفهم منها شيئا.

ماذا ينتظر هؤلاء من الله؟ ماذا ينتظر من غمضّ عينيه وأخذ يمشي في الظلمات؟ هل ينتظر منه الوصول الى بيته سالما؟ أم الى المقبرة أو المستشفى؟ كذلك من سدّ منافذ عقله وعاند الله والحق.

(**وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**)

[8] من هم المنافقون؟

ان لهم صفات شتى أبرزها انهم يقولون آمنا وما هم بمؤمنين.

(**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**)

[9] ولأن المنافقين يضمرون الكفر تحت غطاء الإيمان ، يحاولون جهدهم أن يبالغوا في العبادات (كثرة الصلاة رياء) هم يريدون خداع الله والمؤمنين بينما

الحقيقة انهم يخادعون أنفسـهم لأنهم يبـدءوا بتصـور أنهم استطاعوا أن يضمنوا الـدين الحقيقي مع عـدم خسـرانهم للـدنيا ولشـهواتها وذلك لأنهم يبـدءون بـزعم ان أعمـالهم (القشـــرية) هي الـــدين ، فيفرغـــون الـــدين من معانيه ويكوّنـون له معـنى جديـدا فيمنعـون عن أنفسـهم الفوائد الكبيرة الـتي يعطيها الـدين الحقيقي لو انهم الـتزموا بـه.
لهذا يقول الله :

(**يُخـادِعُونَ اللـهَ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَما يَخْـدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ**)

ثم يفصّل الله القول في الخداع الذاتي الذي يمارسه المنافقون بلا وعي منهم ويقول

[10] أولا : انهم يكرسـون ـ بعملية النفـاق ـ مـرض الجبن والهزيمة ، واللاإرادة في أنفســـــهم. كل ابن آدم مبتلى في قلبه بهـذه الأمـراض ، ولكن المنـافق يكرسـها حـــتى يبـــني حياته كلها على هـــذه الشـــاكلة. فهو يعيش شخصـيتين داخله وظـاهره ، وبينهما تضـيع إرادته وقدرته على التحقق والمبـــــادرة فكيف إذا صـــــبغت حياته كلها بالكذب.

(**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**)

من الجبن والاستسلام و..

(**فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً**)

من تكريس تلك الأمراض ، ثم ان هؤلاء لا يمكنهم أن يعيشوا مطمئـنين لأنهم يعيشـون الخـوف والقلق وخشـية الافتضـاح ، وهـذا يسـبب لهم عـذابا أليما ، يـأتيهم بسـبب الكذب الذي صبغت به حياتهم كلها.

ان الواحد منا قد يكـــذب كذبة واحــــدة فيعيش في القلق الدائم خوف اكتشاف

كذبته ، ويفكر أبدا في طرق الإخفاء على الكذب.

(**وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ**)

[11] ثانيا : تختلط عندهم مقاييسهم العقلية (بسبب مضايقتهم لهدى الله ، وبسبب توتر شخصيتهم) ولذلك يتوغلون في الفساد ، ويزعمون أنه الصلاح بذاته.

ولأنهم يعيشون بعيدين نفسيا عن المجتمع من حولهم فهم لا يستطيعون أن يستفيدوا من نصائح الآخرين ، أو تتكامل أفكارهم عن طريق التفاعل مع أفكار الآخرين. لذلك قال ربنا سبحانه :

(**وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ**)

[12] بينما الحقيقة غير ذلك. ان هؤلاء أصبحوا أعضاء فاسدة في المجتمع ، ولكنهم فقدوا المقياس الذي عن طريقه يستطيع المرء اكتشاف الفساد عن غيره فهم لا يشعرون.

(**أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلكِنْ لا يَشْعُرُونَ**)

وعبّر القرآن ب (الشعور) ولم يعبّر ب (العقل) فلم يقل (ولكن لا يعقلون) لكي يشكف لنا بأن القضايا البسيطة التي لا تحتاج الى التفكير والتعقّل. (كالتمييز بين الفساد والصلاح) لم يعد يفهمها المنافق ، فكيف بالقضايا المعقدة.

ان الشرط الأول للعلم بأية حقيقة هو الثقة بالذات وبالمقاييس العقلية التي يملكها الإنسان. والنفاق يفقد صاحبه هذه الثقة فلا يعرف شيئا.

[13] ثالثا : انهم يتمحورون حول أعمالهم فيحسبونها هي الحق وغيرها

الضــلال والباطــل. وبــذلك يتهمــون النــاس بالســفه ، ويضــيّعون على أنفســهم فرصة الانتفــاع بــآراء النــاس وتجاربهم.

(**وَإِذا قِيــلَ لَهُمْ آمِنُــوا كَما آمَنَ النَّاسُ قــالُوا أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ**)

ولكن من هــذا الســفيه الحقيقي؟ أليس ذلك الــذي يضيّع على نفسه فرصة الإيمـان وفرصة الانتفـاع بتجـارب الآخرين؟

(**أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ**)

[14] وبســبب الانعــزال النفسي عن المجتمع وعن خبراته وعقله ، يسـتهزءون بأعمـال المجتمع ويتصـورونها تصــورا معكوسا ، وبــذلك يعزلــون أنفســهم عمليا عن المجتمع ، إذ لا يساهمون في نشاطاته التي لا تعود بالنفع على المجتمع فقط بل عليهم أيضا لو عملوا بها.

(**وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قـالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَـوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ**)

[15] وهذه النفسية المعقدة تسبب لهم ضياع فـرص الهداية لهم الى الأبد ، إذ كلما ســـمعوا كلاما فســـروه تفسيرا سلبيا واستهزؤا به فبـأى شـيء يهتـدون؟ من هنا قال الله تعالى :

(**اللــهُ يَسْــتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُــدُّهُمْ فِي طُغْيــانِهِمْ يَعْمَهُونَ**)

أيّ يعمـون عن الحقيقة فلا يرونها وكـأنهم لا يملكـون البصر أبدا (العمه : فقدان البصر منذ الولادة).

ويسـمي القـرآن النفـاق هنا طغيانا لأنه لا ينشأ إلّا بسـبب فقدان العبودية لله والاستسلام لشهوات الذات ، وضغوط المجتمع. إذن هنـاك أربع أزمـات يواجهها المنـافق بسـبب خداعه الذاتي :

أولا : ازدياد مرضه النفسي والمـؤدي به نحو العـذاب الأليم.

ثانيا : توغله في الفساد.

ثالثا : انفصـــاله عن خـــبرات المجتمع وانعزاله في قوقعة ذاته.

رابعا : ضـــــــياع فرصة الهداية الى الأبد ، والعمى النفسي.

[16] ويضـــرب الله لنا الأمثـــال حـــتى نفهم حقيقة النفاق ، ونتحذر منه فيقول : مثل النفاق مثل من يشـتري شـيئا ويـدفع الثمن ، فلا يعطيه البـائع البضـاعة ، فيخسر ماله ولا يحصل على بضاعة. هكذا يشتري المنـافق الـدنيا بالآخرة يعطي الحق والهداية ليأخذ السعادة في الـدنيا فلا يحصل على هذه ويخسر تلك.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُـدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ**) [17]

ومثـال آخر يضـربه القـرآن ليكشف لنا جانبا آخر من النفاق :

(**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضـاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ**)

انطفأت ولم يبق أمامه إلّا الدخان والرماد.

(**وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ**)

ان الهداية نور أضـاءه الله للإنسـان ، والمنـافق كـان قريبا من النور ، وظاهريا

آمن به ، وربما آمن به إيمانا صـــادقا في لحظة طيبة من لحظــات عمــره ، ولكنه كفر به بعدئذ اســتجابة لضــغط الشــهوات واستســلاما لإرادة طــواغيت المجتمع الفاسد فذهب الله بنور الهداية فما ذا بقي غير الظلمات والعمى.

[18] (**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**)

انهم يفقدون كلّ مشاعرهم وقـدراتهم. فهم يفقـدون القدرة على السماع ، والقدرة على الكلام ، والقدرة على النظر ، وبالتــالي القــدرة على العيش في الحيــاة. لأنهم فقدوا مشاعرهم وقدراتهم. فكيف يعيشون؟ انهم يــتيهون في صحراء الفراغ الى الأبد.

[19] ومثل ثـــالث يضـــربه الله عن واقع المنـــافق فلنتصـــور الآن اننا في العـــراء حيث الليل والســـحاب المـــتراكم. الظلام يلفنا ، والرعد يهزنا خوفا وهلعا .. اننا نلتمس نورا نمشي به. ماذا نفعل ننتظر بارقة في السماء تضـــيء لنا الأرض فنمشي في ضـــوئها ، ولكنها تبقى لحظات وتنتهي. بعضنا يتمسك بهـدى الـبرق حين يضـيء. فيحاول اكتشاف الطريق. فاذا انطفأ استمر في المشي ، ولكن البعض ليس هكــذا ، انه يمشي كلما أضــاء الــبرق ويقف بعدئـذ. ذلك مثل المـؤمن والمنـافق. المـؤمن ينتفع بهدى الوحي الذي يشبه بـرق السـماء فيتمسك به ، ولكن المنافق لا يتفاعل معه فيتيه في الظلمات.

(**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْـدٌ وَبَـرْقٌ يَجْعَلُـونَ أَصـابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّـواعِقِ حَـذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ**)

[20] (**يَكادُ الْبَـرْقُ يَخْطَـفُ أَبْصـارَهُمْ كُلَّما أَضـاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَلَوْ شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ**

وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الحيـاة صـحراء وشـهواتها هي تلك السـحابة الكثيفة التي فيها ظلمات ورعد وبرق ، ونحن فيها بحاجة الى نـور السـماء يهبط علينا كما يهبط المـاء من السـماء ، ولكن علينا أن نتمسك بهذا النور حتى لا يضيع في زحمة الحيـاة فنترك في الظلمات.

وقد يغضب علينا ربنا فيسـترد منا السـمع والأبصـار ، ولا نسـتطيع أن نتحـرك في أمـور حياتنا قيد أنملة لأنّه محيط بنا ، وقادر علينا. ولا يجـوز أن نغـتر بما في الحيـاة من مظاهر القـوة ، فنحسب أنفسـنا أقويـاء من دون الله سـبحانه لأنه محيط بنا ، وقـادر على أخـذنا بقوته أخـذا شديدا.

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُـدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّـماءِ مـاءً فَـأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُـــــــونَ (22) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا**

---

21 [خلقكم] الخلق هو الفعل على تقدير ، وخلق السموات فعلها على تقـدير ما تـدعوا اليه الحكمة من غـير زيـادة ونقصـان ، والخلق الطبع والخليقة الطبيعة والخلاق النصيب.

22 [السماء بناء] سمى السـماء سـماء لعلوها على الأرض وكل شـيء كان فوق شيء فهو لما تحته سماء ، وكل ما علا الأرض فهو بناء.
[أندادا] الند المثل والعدل وقيل الند الضد.

23 [ان] جاءت هنا لغـير شك لان الله تعـالى علم أنهم مرتـابون ولكن هذا على عادة العرب في خطابهم كقولهم ان كنت إنسانا فافعل كذا.

فَـأْتُوا بِسُـورَةٍ مِنْ مِثْلِـهِ وَادْعُـوا شُـهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللـــهِ إِنْ كُنْتُمْ صـــادِقِينَ (23) فَــإِنْ لَمْ تَفْعَلُــوا وَلَنْ تَفْعَلُـوا فَـاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجـارَةُ أُعِـدَّتْ لِلْكـافِرِينَ (24) وَبَشِّــرِ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّــالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْــرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهــارُ كُلَّما رُزِقُـوا مِنْها مِنْ ثَمَـرَةٍ رِزْقــاً قــالُوا هــذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُـوا بِـهِ مُتَشـابِهاً وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدُونَ (25))

[عبــدنا] العبد المملــوك من جنس ما يعقل ونقيضه الحر ، من التعبيد وهو التذليل لان العبد يذل لمولاه.

[سورة] مـأخوذة من سـور البنـاء وكل منزلة رفيعة فهي سـورة : فكل سـورة من القـرآن فهي بمنزلة درجة رفيعة ومـنزل عـال رفيع يرتفع القـارئ منها الى منزلة اخـرى الى أن يسـتكمل القـرآن وقيل السـورة هي القطعة من القرآن انفصلت عما سواها وأبقيت.

25 [بشر] البشارة هي الاخبار بما يسر المخـبر به إذا كـان سـابقا لكل خبر سواه.

أركان الايمان

هدى من الآيات :

بعد ان قسّـم القـرآن النـاس الى ثلاث فئـات ، عـاد ليتحــدث لنا بالتفصــيل عن صــفات المؤمــنين ، ويميزها تفصيليا عن صـفات المنـافقين ، ولكن قبل ذلك فانه لا بد من التذكير بأركان الايمان وهي الايمان بالله وبالرســالات وبـــاليوم الآخر ، وهو ما نجـــده في هـــذه المجموعة من الآيات.

بينات من الآيات :

[21] الايمــان بالله يتجسد في عبادته ، وعبــادة الله تنتهي بالإنسان الى درجة المتقين (الـذين اسـتهل القـرآن هـذه السـورة بـذكرهم) ولكن لمـاذا نعبد الله ، ولا نعبد آباءنا؟

الجـواب : لأنه خلقنا وخلقهم فهو ربنا جميعـا. فلما ذا نجعل الاباء واسـطة بيننا وبين ربنا ، ما دامت علاقتنا نحن به هي ذاتها علاقة آبائنا به سبحانه. إذا لا

خضوع للآباء.

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**).

[22] وسؤال أخر لماذا نعبد الله ونخضع لأوامره ، ولا نعبد الحياة وهي التي تتصل بنا مباشرة. فهي تعطينا الرزق والروعة والقوة؟

الجواب : لأنه هو

(**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ**)

هو أولا خلق الحياة بشكل استطعنا ان نستفيد منها. فلو كانت الأرض كلها من الحديد كيف كنا نعيش عليها ، وكيف نبني ونزرع ونفتح الطرق .. و.. و.. ولو كانت السماء متهاوية تسقط علينا من هذه النيازك الكثيرة التي تجول في أرجائها. هل كنا نعيش؟!

ثم جعل السماء تنزل علينا الماء ، وجعل الأرض تنبت ألوانا من الزرع رزقا لنا ، ثم بعد كل ذلك نذهب ونعبد غير الله؟! حاشا!

(**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**).

[23] كيف نعبد الله؟

باتباع رسله ، وهذا الرسول بالذات لأنه جاء بمعجزة القرآن. ويسألنا : هل تستطيعون ان تأتو بمثله إذا يجب اتباعه لان اتباعه تجسيد لعبادة الله.

(**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا**

شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ).

وبـالطبع سـوف يشـهد الجميع حـتى أولئك الشـهداء البعيدون عن الله ، سوف يشهدون على أن القرآن أفضل مما أوتي به من قبلـه. وآنئذ دعـوا الشك جانبا واخضـعوا للرسول.

وهـذه هي الرسـالة ثانية العقائد الإسـلامية والحلقة المتصلة بالتوحيد العقيدة الإسلامية الأولى.

[24] (**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُـوا وَلَنْ تَفْعَلُـوا فَـاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ**)

هناك الجزاء الاول حيث يعاقب الكـافرون بهـذه النـار العظيمة التي تلهب الناس والحجارة.

[25] اما المؤمنون بالله وبرسالاته فـإنهم في جنـات فيها كل نعم الحياة وزيادة.

(**وَبَشِّـرِ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**).

فهي منطقة مزروعة فيها روعة الأشـــجار وجمـــال الأنهار وفيها نعم الحياة.

(**كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هـذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً**)

فهي من جهة ـ رزق رزقـوا به في الـدنيا ـ وهي من جهة ثانية تشبه الى حد بعيد ما رزقوا به هناك في الاخـرة لأنها كلها عظيمة اللذة فهم لا يكادون يكتشفوا الفرق بين رزق ورزق.

وهم هناك منعمون نفسيا.
(**وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدُونَ**)
فلا يخشون الفنـاء ويتمتعـون بلـذة حب البقـاء وهـذه هي العقيدة الثالثة بعد الايمان بالله ورسوله.

(إِنَّ اللـهَ لا يَسْـتَحْيِي أَنْ يَضْـرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَـةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُـونَ أَنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِـلُّ بِـهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ

---

26 [يستحي] الاستحياء من الحياء ونقيضه القحة.

[يضـرب] الضـرب يقع على جميع الأعمـال الا قليلا يقـال ، وضـرب في الأرض وضــرب في ســبيل الله ، وضــرب فلان على يد فلان إذا أفسد عليه أمرا أخذ فيه ، وضرب الأمثـال إنما جعلها لتسـير في البلاد. يقـال ضربت القول مثلا وأرسلته مثلا.

[البعوض] : القرقس وهو صغار البق الواحدة بعوضة.

[الفاســقين] الفسق والفســوق الــترك لأمر الله وقيل الخــروج عن الطاعة تقول العرب فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت.

27 [ينقضون] : النقض عكس الإبرام.

[عهد] العهد العقد ، وعهد الله وصيته وأمره.

اللهِ مِنْ بَعْـدِ مِيثاقِـهِ وَيَقْطَعُـونَ ما أَمَـرَ اللـهُ بِـهِ أَنْ
يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (
27) كَيْفَ تَكْفُـرُونَ بِاللـهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتـاً فَأَحْيـاكُمْ ثُمَّ
يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ (28) هُـوَ الَّذِي
خَلَـــقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعـــاً ثُمَّ اسْـــتَوى إِلَى
السَّـماءِ فَسَـوَّاهُنَّ سَـبْعَ سَـماواتٍ وَهُـوَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ
عَلِيمٌ (29))

[ميثاقه] الميثاق ما وقع التوثيق به.
[يقطعـــون] القطع الفصل بين الشـــيئين ، وأصل ذلك من الأجســـام ويســتعمل ذلك أيضا في الأغــراض تشــبها به يقــال قطع الحبل وقطع الكلام.
[يوصل] الوصل نقيض الفصل وهو الجمع بين الشيئين من غير حاجز.
[الخاسرون] الخسران النقصان والخسار الهلاك والخاسـرون الهـالكون وأصل الخسران ذهاب رأس المال.
29 [خلق] أصل الخلق التقدير.
[جميعــا] الجمع الضم ونقيضه الفـــرق وســـميت الجهة جهة لاجتمــاع الناس.
[استوى] الاستواء الاعتدال والاستقامة ونقيضه الاعوجاج.

الشخصية الانسانية

كيف يجب أن تكون؟

هدى من الآيات :

حـــدثنا القـــرآن الحكيم عن فئـــات النـــاس. ثم ذكرنا بالايمان وأركانه الثلاثـة. والآن دخل صـلب الموضـوع وهو تحليل شخصية الإنسان وما ينبغي ان تكون عليه شخصـية الإنسان الفرد والإنسان الجماعة (الأمة).

قصة الخلق الأول :

يبـدأ القـرآن بالحـديث عن الإنسـان الفـرد في هـذه المجموعة من الآيات ولكنه لا يتحدث عنه بصورة مرتبطة بالمفـاهيم العامة ، بل بصـورة رمزية مسـتوحاة من قصة حقيقية مرتبطة بالواقع الحي. انها قصة الخلق الاول التي يفصلها الله في ثلاث مراحل.

أولا : يتحدث عن منهج التفكير الايماني وعن الأسباب الواقعية التي تدعوا الى الكفر بالله. (الآيات 26 ـ 27)

ثانيا : عن خلق الله للحيـــــاة وللعـــــالم. وخلق الله للإنسان تزويده بـالعلم وتحميله مسـئولية الاختيـار بعد ان زوده بالإرادة أيضـا. ثم قصة الخطيئة الاولى حيث يوجزها القرآن هنا والعوامل المؤدية إليها ..

ثالثا : عن ان الإنســـان اليـــوم مـــزود أيضا بـــالعلم والارادة وعليه ان يتحمل مسئولية اعماله ..

وهـذه بـالطبع عـبرة القصة السـابقة. وخلال عـرض القـــرآن هـــذه المراحل ، يكشف لنا عن حقـــائق كبـــيرة اخرى.

بينات من الآيات :

[26] اخطر شيء يهـدد قـدرة الإنسـان على التفكـير السـليم هو الاسـتياء وهو حالة نفسـية. تسـجن العقل في زنزانة الذات وتصور له ان الفكر الصحيح والـرأي السـليم هو ما يصـنعه خيـال الإنسـان نفسه ، وان الحيـاة لا عـبرة فيها ولا معرفـــة. وهنـــاك يســـتكبر الإنســـان على تعلم التجارب الجديدة وعلى الاستفادة من تجـارب الآخـرين أو الانفتـاح على معـارفهم وعلـومهم. ولكي يصـور لنا هـذه الحالة وأثرها الســلبي في قـــدرة الإنســـان على التفكر السليم ، يحدثنا عن قصة البعوضة انها صغيرة ومتواضـعة ولكنها قد تعلمنا أشياء كثيرة.

فاذا استكبرنا وقلنا ما قيمة البعوضة حـتى نتعلم منها ، فإننا سـوف لا نفهم شـيئا الى الأبد وإذا طرحنا المسـألة بشـــكل آخر وقلنا نحن جهلاء والعلم ينفعنا وما يضـــرنا لو أخذنا العلم من هذه البعوضة.

ولكن كيف ولمـــــاذا يســـــتكبر البعض فيضـــــلون وينحرفون؟

الجواب .. ان سـبب الضـلال ، هو الفسق ، فالفاسق الذي لا يراعي حقوق

الآخرين بل يحاول عبادة ذاته ، والتطواف حـول مصـالحه يـــدور معها أينما دارت ، هـــذا الفاسق هو الوحيد الـــذي يستكبر ، لأنه لا يستطيع ان يرى الآخرين. لا يرى الّا نفسه فقط وكأنها الوحيدة في العالم. فكيف يقدر على الانتفـاع بتجارب الآخرين وهو لا يؤمن أساسا بوجودهم.

من هنا يربط منهج القـــرآن في العلم بين طائفة من الأخلاق وبين العلم ـ حسبما نشرحها في الآية التالية.

اما هذه الاية فتقول :

(**إِنَّ اللـهَ لا يَسْـتَحْيِي أَنْ يَضْـرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَـةً فَما فَوْقَها**)

فما دام الله يحـترم البعوضة ولا يسـتحي ان يضـرب مثلا بها ، لأنها تمثل جانبا من الحق ، والله لا يســتحي من الحق. فما دام الله ربنا لا يستحي ، فلما ذا نستكبر ـ نحن البشر ـ على الاستفادة من البعوضة فما فوقها.

(**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**)

لأنهم آمنوا ، ولأنهم يقدّسون الحق انّى وجـدوه حـتى لو وجدوه في البعوضة الصغيرة.

(**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللهُ بِهـذا مَثَلاً**)

وكـأنّهم يسـتهزءون بالبعوضة ويستصـغرون شـأنها ، يقـول الله : كلا ان هـذه البعوضة يمكن ان تكـون موضع ابتلاء فتشكل خطا فاصلا بين طائفتين كبيرتين من الناس

(**يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً**)

الذين يؤمنون يستفيدون من البعوضة لأنهم يقدرون الحق ويقدسونه. وامّا الكافرون فيستكبرون فيتوغلون في الكفر.

(**وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ**)

من هم الفاسقون؟ في الآية التالية شرح لذلك.

[27] للفاسقين صفة نفسية واحدة. هي عبادة الذات. ولها مظاهر عملية كثيرة أبرزها ثلاثة :

الف : نقض العهد :

(**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ**)

فهم لا يحترمون عهد الله ويضعون أنفسهم فوق العهد المقدس.

باء : (**وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**)

فلا يؤدون حقوق الناس من القربى واليتامى والمساكين وغيرهم ، ولا يحترمون حرمات الناس التي يجب ان تراعى ، بل يدوسون عليها سعيا وراء مصالح ذواتهم وشهوات أنفسهم.

جيم : (**وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**)

فلا يحترمون الحياة أبدا. فقد يحرق حقلا كاملا لكي يتمتع لحظة واحدة بمنظر النار تلتهم رزق الملايين. ان هذه الفئة لا تحترم الله ولا الإنسان ولا الطبيعة. لأنها لا ترى قدرا يغير ذاتها. وهؤلاء هم الذين يضلهم الله ، لأنهم وضعوا أنفسهم في معتقل أنفسهم فلم يبصروا الّا مصالحها. فكيف يمكن ان يفهموا الحياة ، هل

(**وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً قـالُوا أَتَجْعَـلُ فِيها مَنْ يُفْسِـدُ فِيها وَيَسْـفِكُ الـدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قـالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (30)**

---

30 [الملائكة] جمع الملك واختلف في اشتقاقه فذهب أكثر العلماء الى انه من الآلوكة وهي الرسالة وقال الخليل الآلوك الرسالة وهي المألكة والمألكة على مفعله وقال غيره انما سـميت الرسـالة الوكا لأنها تمضغ في الفم.

[جاعـل] الجعل والخلق والفعل والاحـداث نظـائر وحقيقة الجعل تغيـير الشيء عما كان عليه وحقيقة الفعل والاحداث الإيجاد.

[الخليفـــة] الخليفة والامـــام واحد في الاســـتعمال الا أن بينهما فرقا فالخليفة من استخلف في الأمر مكان من كان قلبه والامام مـأخوذ من التقدم فهو المتقدم فيما يقتضي وجوب الاقتداء به وفرض طاعته.

[السفك] حب الدم.

[نسبح] التسبيح التنزيه لله تعالى عما لا يليق به.

[نقدس] التقديس التطهير ونقيضه التنجيس.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ
فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (31)
قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ
فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ
غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ
(34) وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا
مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا
مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها
فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (36)

---

36 [أزلهما] الزلة والخطيئة والمعصية والسيئة بمعنى واحد وضد الخطيئة الاصابة يقال زلت قدمه زلا وزلّ في مقالته زلة والمزلة المكان الدحض والأصل في ذلك الزوال والزلة زوال عن الحق وأزلة الشيطان أزاله عن الحق.

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (39)

[اهبطوا] الهبوط والنزول والوقوع نظائر وهو التحرك من علو الى أسفل وقد يستعمل الهبوط بمعنى الحلول في المكان والنزول به قال تعالى «**اهْبِطُوا مِصْراً**».

[مستقر] القرار الثبات والمستقر يحتمل أن يكون بمعنى الاستقرار ويحتمل أن يكون بمعنى المكان الذي يستقر فيه.

[متاع] المتاع والتمتع والمتعة والتلذذ متقاربة المعنى وكل شيء تمتعت به فهو متاع.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (31) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (34) وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (36)

---

36 [أزلهما] الزلة والخطيئة والمعصية والسيئة بمعنى واحد وضد الخطيئة الاصابة يقال زلت قدمه زلا وزلّ في مقالته زلة والمزلة المكان الدحض والأصل في ذلك الزوال والزلة زوال عن الحق وأزلة الشيطان أزاله عن الحق.

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُـوا مِنْها جَمِيعـاً فَإِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِـعَ هُـدايَ فَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُــونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَــرُوا وَكَــذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (39))

[اهبطـوا] الهبـوط والـنزول والوقـوع نظـائر وهو التحـرك من علو الى أسفل وقد يستعمل الهبوط بمعنى الحلول في المكان والنزول به قـال تعالى «**اهْبِطُوا مِصْراً**».

[مستقر] القرار الثبـات والمسـتقر يحتمل أن يكـون بمعـنى الاسـتقرار ويحتمل أن يكون بمعنى المكان الذي يستقر فيه.

[متــاع] المتــاع والتمتع والمتعة والتلــذذ متقاربة المعــنى وكل شــيء تمتعت به فهو متاع.

كيف خضعت الطبيعة للإنسان؟

هدى من الآيات :

في حـــــوار جـــــرى بين الله وبين ملائكته ، نجد ان الملائكة اعترضوا على الله وتساءلوا لماذا يخلق الإنســان ، وقـالوا انه سـوف يقـوم بالخطيئة فعـرّفهم الله الحقيقة وكيف يحمّل الإنســـان العلم والقـــدرة ، وهما ميزتـــان كافيتان حكمة وهدفا لخلق الإنسان.

بينات من الآيات :

[30] لنستمع الى ذلك الحوار الملهم :

(**وَإِذْ قـالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَـةِ إِنِّي جاعِـلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً قـالُوا أَتَجْعَـلُ فِيها مَنْ يُفْسِـدُ فِيها وَيَسْـفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**).

ما ذا تعــني كلمة الخليفــة؟ يبــدو أن الأرض كــانت مســـكونة فابيد ســـكانها فـــأراد الله ان يجعل فيها من يسكنها من خلفهم ، اي من بعدهم وكذلك فان الكلمة لا

تعــني ان الإنســان خليفة الله اي نــائب الله ووكيله في الأرض ، إذ ان الله لم يمت حتى يخلفه أحد.

ولكن كيف عـرف الملائكة : ان الإنسـان سيفسد في الأرض ، هل عرفـوا ذلك بالقيـاس الى سـكان الأرض من قبل الإنسان؟ أم لأنهم اكتشفوا ذلك بعد ان عرفوا طبيعة الإنسان المزودة بالعقل والشهوات ، لا نــدري المهم انهم اعترضــوا على الله ، لأنهم زعمــوا ان الله لا يخلق الخلق الا لكي يقدسوه ويسبحوا بحمده. فقال لهم الله : كلا.

(**قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ**).

[31] (**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَلَى الْمَلائِكَــةِ فَقــالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْــماءِ هــؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

[32] (**قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**) [33]

(**قــالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْــمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَــأَهُمْ بِأَسْــــمائِهِمْ قــــالَ أَلَمْ أَقُــــلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـــــماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْــــدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**)

خلق الله آدم وحملّه علما ، فعرف الملائكة ان حكمة الخلق ليست هنا الطاعة وحــدها ، بل الطاعة بعلم ووعي فسحبوا اعتراضهم.

ولكن ما هي الأسـماء الـتي علّمها الله لآدم؟ هل هي أســماء مجموعة من النــاس ، أم مجموعة من الأشــياء؟ ربما تكون الأسماء في التعبـير القـرآني هي العلـوم ، لان العلم لا يصل الى حقيقة الأشــياء بل يكشف خصائصــها وعلائمها (أسـمائها) فقط لـذلك عـبر القـرآن عن العلـوم بالأسـماء. ولكن لمـاذا قـال الله أسـماء هـؤلاء ولم يقل أسمائها أو أسماء هذه ، اشـارة الى أشـياء الطبيعـة؟ في بعض النصوص : ان كلمة

هؤلاء اشارة إلى النبي محمد وآله ، عليه وعليهم صلوات الله وسلامه ، باعتبار ان الرسول وخلفاءه هم الصفوة المختارة من أبناء آدم (ع) وبالتالي موضع تجلي حكمة الله من الخلق. أو ليس رسولنا الأكرم آية عظمة الله وهكذا خلفاؤه المعصومون وهناك رأي آخر هو ان الآية تشير الى الملائكة أنفسهم ـ والملائكة بدورها مهيمنة على قوى الطبيعة ـ ومعرفة أسماء الملائكة تعني العلم بخصائص الأشياء وعلامات قوى الطبيعة.

وحين قال الملائكة سبحانك ، عبّروا عن مدى تقديسهم لله وانه وحده الكامل اما هم فضعفاء ولا علم لهم.

ولعل في الآية الاخيرة دلالة على ان الملائكة كانوا قد أضمروا شيئا أخر وراء اعتراضهم. ربما أضمروا نوعا من الحسد ـ تجسد بعدئذ في إبليس حين استكبر عن السجود ـ ولذلك قال الله سبحانه :

(**وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**)

وفي القصة كلها رمز أخر لا بد ان نفصل القول فيه :

ان الملائكة هي المخلوقات الموكلة بالحياة. فهناك ملائكة الرحمة وهناك ملائكة الغضب وملائكة المطر والبحر والسحاب. وسجودهم لآدم (عليه السلام) هو رمز تسخير الطبيعة له.

وهناك أحاديث تدل على وجود ملائكة موكلين بالطبيعة نذكر فيما يلي طائفة منها :

1 ـ في المناقب وتفسير القمي يروي صاحب تفسير الصافي عنهما (في تفسير هذه الآية «**لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ**» فيقول : من أن

يقع في ركّي (ركّي : البـــئر وجمعه ركايـــا) أو يقع عليه حائط ، أو يصيبه شيء حتى إذا جاء القدر خلّـوا بينه وبينه يدفعونه الى المقـــادير ، وهما ملكــــان يحفظانه بالليل وملكان بالنهار يتعقبانه [1].

2 ـ في قوله : «**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**» (13 / الرعد) روي عن النبي (ص) انه سئل عن الرعد ، فقـال : «ملك موكل بالسحاب» [2].

3 ـ القمي عن الصادق (ع): «ان أمـير المؤمـنين (ع) سئل عن : الذاريات ذروا ، قال : **الريح ، وعن الحاملات وقرا ، قال : السحاب ، وعن الجاريات يسرا ، قال : هي الســفن ، وعن المقســمات أمــرا ، قــال : الملائكة**» [3].

4 ـ عن الرضا (ع) في قوله فالمقسمات أمـرا ، قـال : «**الملائكة تقسم أرزاق العباد بين بني آدم ، ما بين طلـوع الفجر الى طلـوع الشـمس ، فمن نـام فيما بينهما نام عن رزقه**» [4].

5 ـ عن أمـير المؤمـنين (ع) في حـديث طويل يصف الملائكة ويعدد الحجب قال : «**كل حجاب منها ســبعون الف ملك ، قوة كل ملك قوّة الثقلين ، منها ظلمة ، ومنها نور ، ومنها نار ومنها دخـان ، ومنها سـحاب ، ومنها برق ، ومنها مطر ، ومنها رعد ، ومنها ضـوء ، ومنها رمل ، ومنها جبل ، ومنها عجاج ، ومنها مـاء ، ومنها أنهار** ..» [5].

وهنـاك أحـاديث كثـيرة تتحـدث عن الحفظة ، ملائكة الليل والنهار ، ملك الموت ،

---

(1) تفسير الصافي ج 3 ص 61
(2) نفس المصدر ج 5 ص 67
(3) المصدر ج 5 ص 67
(4) المصدر ـ
(5) المصدر

الرسل الذين يرسلون لنصرة المؤمنين ، وإنزال السـكينة عليهم. وهي تـــدل على ان الطبيعة وكــلّ بها الملائكـــة. وهكـــذا ســـخر الله الطبيعة للبشر بعد ان زوّده بـــالعلم واسجد الملائكة لآدم عليه السلام بسببه

[34] (**وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**)

السـجود هنا رمز الخضـوع كما كـانت الملائكة موكلة بـــالقوى الطبيعية في الحيـــاة. وامر الطبيعة ان تســـخّر للإنسان فاستجابت كلها ، ولكن بعضها لم يستجب فما هو ذلك البعض يقول الله سبحانه :

(**فَسَـــجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَاسْـــتَكْبَرَ وَكـــانَ مِنَ الْكافِرِينَ**)

من هو إبليس ، ولمـاذا لم يسـجد ، ولمـاذا اسـتكبر؟ في الآيات التالية اجابة لهذه الأسئلة ولكننا نستبق السياق لنقول : ان لكل جـانب من قـوى الطبيعة ملكا مـوكلا به ، والملائكة كلهم سـجدوا لآدم ، ومن خلالهم سـخّرت قـوى الطبيعة كلها للإنسان (بالعلم) ، ولكن هنالك ما وكل بقوة طبيعية لم يسـجد للإنسـان ، وعلى الإنسـان ان يخضـعه وليضمن سجوده فمن هو؟ وماذا يمثل من الطبيعة؟

انه إبليس ، الموكل بطبيعة الإنســــــان ذاته (النفس الامارة بالسوء).

فـاذا اخضع الإنسـان طبيعته الـتي وكـلّ بها إبليس ، وجعلها تسجد له انئذ استطاع ان يسخر الحياة كلها.

بيد ان أكـــثر النـــاس يغفلـــون عن هـــذه الحقيقة فتصـــرعهم طـــبيعتهم ، ومنهم بـــالطبع أبونا آدم في قصة الخطيئة الاولى فلننظر كيف صـــــــرعته طبيعته ، وخدعه ابليسه؟

[35] (**وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما**

(**وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ**)
[36] (**فَأَزَلَّهُمَا الشَّـــيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ**)

ان إبليس أزل أبانا آدم وزوجه ، ولكن بمـــــاذا ، بتلك الطبيعة الموجودة عنـدهما ، فاخرجا من الجنة وابعـدا عن الطبيعة المسخرة لهمـا. وهكـذا سـوف يـزل إبليس أبنـاء آدم ، ويبعــدهم عن الجنة في الآخــرة ، وعمّا سـخر الله للإنسان في الحياة من النعم. إذا أطاعوه.

ما هي هذه الشجرة التي نهى الله آدم عن الاقـتراب إليها ، هل كـانت شـجرة التفـاح ، أم العنب ، أم كـانت الحنطة ، أم مـاذا؟ ليس المهم ان نفهم ذلك بل المهم ان نعـــرف العـــبرة من وراء القصة ، وهي : ان في الطبيعة أشياء تضر الإنسان وقد نهى الله عنها ، وعلى الإنسان ان يبتعد عنها حتى يتمكن من الاستمرار في تسخير الحيـاة. ولكن إبليس يثير النفس الامارة بالسوء ، ولا يدع الإنسان حـتى يدفعه الى تلك الأشـياء المنهي عنها الضـارة. وهنا يطرح هذا السؤال :

كيف يخـــرج الإنســـان من جنة النعم حين يـــرتكب الخطيئة ويتبع الشيطان والنفس الامارة بالسوء؟

الجــواب هنـاك طـرق شـتى : ولكن أبرزها هبــوط الإنسان الى مستنقع الخلافات البشـرية حيث يبـدأ النـاس بظلم بعضهم البعض.

(**وَقُلْنَا اهْبِطُــوا بَعْضُــكُمْ لِبَعْضٍ عَــدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ**)

[37] وفي مواجهة الصــــــراع بين البشر بعضه مع البعض ، وفي مواجهة الطبيعة الشريرة المدعومة بإبليس في داخل النفس البشرية ، يصاب الإنسان بالضعف

والجهل. وهنا تسعفه رسـالات الله بالهـدى ، فمن تمسّـك بهذا الهدى نجّى ، ومن لم يتمسك ضل ضلالا مبينا.

اما أبونا آدم ـ عليه السلام ـ فقد تمسّك به جيّـدا مما يبشّر بأن المطاف سينتهي بانتصـار الإنسـان على طبيعته الشريرة بفضل هدى الرب سبحانه.

(**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتـابَ عَلَيْـهِ إِنَّهُ هُـوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**)

ماذا كانت تلك الكلمـات لعلّها كـانت رسـالة الله الى آدم حسب حاجاته وحاجـــــــات مجتمعة الناشئ ، وفي النصوص المـأثورة : انها كـانت أسـماء النـبي محمد (ص) وآله حيث دعا بهم آدم ربه فاستجاب له دعاءه.

[38] وأصبحت تلك سنة الله تعالى انه يبعث رسـالته الى الناس لينقذهم من طبيعتهم الشـريرة ومن صـراعهم مع بعضهم ..

(**قُلْنَا اهْبِطُــوا مِنْها جَمِيعــاً فَإِمَّا يَــأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً**)

فعلى الجميع اتباع ذلك الهدى.

(**فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**)

من المستقبل.

(**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

للماضي.

[39] (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

وهذه هي عبرة القصة كلها .. ان الله سـخّر للإنسـان ما في الأرض بالعلم ، ثم سلّط عليه إبليس ، والمنقذ من إبليس هو هدى ، الله فمن تبعه نجّى ، ومن كفر وكذب به فـان مصـيره الى النـار خالـدا فيهـا. إلّا ان يتـوب الى الله قبل فوات الآوان.

يا بَنِي إِسْــرائِيلَ اذْكُــرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُـوا بِعَهْـدِي أُوفِ بِعَهْـدِكُمْ وَإِيَّايَ فَـارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِما أَنْـزَلْتُ مُصَـدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَلا تَكُونُـوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَـاتَّقُونِ (41) وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُـوا الْحَـقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُـوا الزَّكـاةَ وَارْكَعُـوا مَـعَ الـرَّاكِعِينَ (43) أَتَـأْمُرُونَ النَّاسَ بِـالْبِرِّ وَتَنْسَـوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (44)

---

44 [البر] البر في اللغة والإحسان والصلة نظائر يقال فلان بار وصــول محسن وضد البر العقوق.

[تنسون] النسيان والسهو والغفلة نظائر وضد النسـيان الـذكر وحقيقته غروب الشيء عن النفس بعد حضوره وقد يكون النسيان بمعنى الترك نحو قوله تعالى «**نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ**» أي تركوا ذكر الله فخذلهم.

[تعقلون] العقل والفهم واللب والمعرفة نظائر وضد العقل الحمق

وَاسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ وَإِنَّها لَكَبِـيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِـــعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُـــوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْـهِ راجِعُـونَ (46) يا بَنِي إِسْـرائِيلَ اذْكُـرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّـــــــلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْـزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَـذُ مِنْها عَـدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ (48))

والعقال الرباط يقال عقلت البعير أعقله عقلا إذا شـددت يـده بالعقـال والعقل مجموع علوم لأجلها يمتنع الحر من كثـير من المقبحـات ويفعل كثيرا من الواجبات.

45 [الصـبر] منع النفس عن محابها وكفها عن هواها ومنه الصـبر على المصيبة لكف الصابر نفسه عن الجزع ومنه جاء في الحديث وهو شـهر الصبر لشهر رمضان لان الصائم يصير نفسه ويكفها عما يفسد الصيام.

[الخاشعين] الخشوع والخضوع والإخبات والتذلل نظـائر وضد الخشـوع الاستكبار. إلا أن الخضوع في البدن والإقرار بالاستخدام والخشـوع في الصدق والبعد.

هل نكون من الشاكرين؟

هدى من الآيات :

كان بنو إسـرائيل امة مؤمنة تشـبه الى حد بعيد الامة الاسـلامية وكـان من الطـبيعي ان يطـرح القـرآن الحكيم قضيتهم امـام المسـلمين ، ليعتـبروا بكل صـغيرة وكبـيرة منهـا. وعلى لغة : إيـاك اعـني واسـمعي يا جـارة ضـمّن القـرآن نصـائح قيّمة للمسـلمين من خلال حديثه عن بـني إسرائيل ، وقد يصرّح بتلك النصائح تصريحا.

وتبدأ هذه القصة ، الـتي تـروي حيـاة بـني إسـرائيل ، بالتـذكير باهمية نعمة الهداية ، ذلك لأنّ الله سـخّر ما في الأرض للبشر ، واعطى الإنسان الأدوات الكافية

لاستغلالها ، ولكنّ المشـكلة الـتي تكمن في الإنسـان هي (الضـــلالة) الفكرية الـــتي لا تدعه يســـتثمر طاقاته ليسخر الحياة بها ، ولذلك يعتبر إنقاذ الإنسـان من ضـلالته مفتاحا لاستخدام الحياة وتسخير طاقاتها في خدمتــه. لقد عـاش الإنسـان على الأرض دهـرا طـويلا ولكنه لم يتقـدم عمليا نحو تسـخير الحيـاة كما تقـدم اليـوم لمـاذا؟ لأنه لم يستثمر من قبل عقله وإرادته وقدرته.

ولكن يبقى السـؤال لما ذا لم يفعل ذلـك؟ والجـواب لأنّه (ضل) وانشغل بالتوافه والجدليات الفارغة.

بينات من الآيات :

[40] إذا كان لا بد من إنقاذ الإنسـان من ضـلاله قبل توجيه طاقاته الى الحياة ، وهـذا الانقـاذ هو أكـبر نعمة لله عليه. من هنا قال الله لبني إسرائيل :

(**يا بَنِي إِسْـــرائِيلَ اذْكُـــرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**)

انها نعمة الهـدى الـتي تـؤدي بـالطبع الى سـائر نعم الحياة ، ولكن نعمة الهدى ومن ثم سـائر النعم لا تبقى الا بعد التمسك بها ، والوفــاء بالتزاماتهــا. من هنا قــال ربنا لبني إسرائيل

(**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**)

اي تمسكوا بالهدى ، أعطيكم سائر النعم.

ولكن الإنسان قد يتنازل عن نعمة الهـدى تحت طائلة الخوف من الطبيعة ، الخوف من الطواغيت. الخشـية من ضياع الشهوات وهكذا ..

ولكنه لا يعلم ان ابتعاده عن الهدى سـوف يجـره الى مصـاعب أكـبر مما يخشى منه ، ولـذلك يـذكّرهم القـرآن بالقول :

(**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**)

لا تخشوا الطبيعة أو الناس أو الشـهوات بل اخشـون وحدي ، وإذا زالت الخشية من الناس وتحرر الإنسـان من الخوف ، زالت العقبة الاساسية التي تعترض طريق

الايمان ، ولكن تبقى عقبة العادة التي لا بدّ من تجاوزها.

[41] أصعب ما يتعرض له المؤمنون من امتحان هو مقاومة العادة. المؤمن متعود على طريقة معينة من السلوك ، استنادا الى نصوص دينية جاءت في مرحلة معينة من مراحل الحياة ، ولكن تتبدل تلك المرحلة وتتبدل النصوص وفقا لذلك ، ولكن الفرد قد يظل أسير عاداته السابقة ، فعليه ان يبذل المزيد من الجهد حتى يقاوم عاداته السابقة ويلتزم بطاعة الله.

من هنا أخذ الله عهدا قاطعا من جميع الأنبياء ، ان يصدقوا النبي الذي يأتيهم لاحقا ويتبعوه ، ولا تأخذهم في اتباعه أنفة أو عادة أو عزة بالإثم. حاشاهم.

وفي هذه الآية يذكر الله بني إسرائيل بذلك ويقول :

(**وَآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ**)

إذ ما دامت الرسالة واحدة والهدف ليس تحقيق مصالح ذاتية ، بل طموحات انسانية عامة ، فلا بد ان يسارع المؤمنون بالرسالات السابقة ، الى الايمان بالرسالة الجديدة ، والا فسوف يدفعهم التنافس الى ان يكونوا أول كافر بهذه الرسالة ، سعيا وراء كسب شارع المتدينين ، وخوفا من فقدان قاعدتهم الايمانية. كذا حذّر الله بني إسرائيل قائلا :

(**وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ**)

وبين ان سبب الكفر المبكّر بالرسالة قد يكون المصالح الذاتية فقال :

(**وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً**)

وقد يكون السبب الخوف من بعض أصحابهم من ذوي العقول المتحجرة لذلك

قال الله لهم :
(**وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ**)
اي اجعلـوا تقـواكم وخـوفكم فقط مـني ومن عـذابي وبطشي.
[42] وبعد الكفر تبـدأ سلسـلة من عمليـات الـتزوير والتحريف ، أولها خلط الحق بالباطل ، وكتمان جـانب من الحق وإظهار جانب آخر ، بحيث يثبت حجة أهل الباطل.
ان صاحب الرسالة يجب الا يخـدع النـاس فيظهر لهم الجوانب التي تبرر سلوكياته. ويخفي عنهم الجوانب الـتي تدين تصرفاته. وهـذا ما سـوف يقع فيه من لا يسـارع الى إتباع الحق ، حيث حذر القرآن قائلا :
(**وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِـلِ وَتَكْتُمُـوا الْحَـقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)
[43] ولكي لا يفعل صاحب الرسـالة هـذه الجـرائم ، عليه ان يتوكل على الله ، ويستعين به عن طريق الصـلاة والإنفـــاق. ذلك لان التنـــازل عن المصـــالح الشخصـــية والاستسلام المطلق للحق المتمثل في الرسـالة الجديـدة ليس سهلا أبدا ، بل هي بحاجة الى ما يدعمها من الصـلاة والزكاة. من هنا قال الله سبحانه :
(**وَأَقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَآتُـوا الزَّكـاةَ وَارْكَعُـوا مَـعَ الرَّاكِعِينَ**)
وإذا كانت الصلاة لله فلما ذا تختلف صلاة عن صلاة ، ومعبد عن معبد ، ليجتمع الكل في صف واحـــد. لـــيركعوا لله الواحد الأحد ، وليمنعـوا عن رسـالة الله كل مظـاهر المادية المقيتة.
[44] إذا لم يسارع المـؤمن بالرسـالات السـابقة الى الايمان برسالة الله الجديدة ،

فانه يضـطر الى ممارسة الريـاء والنفـاق ، والتظـاهر بالتـدين والتنسك والعمل بـالأهواء ، ذلك لان الكفر بالرسـالة الجديـدة ، يجعله بلا دين حقيقي فيتظـاهر بالتمسك ببعض القشور وترك حقائق الدين. من هنا حـذّر الله بني إسرائيل وقال :

(**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ**)

بينما كان المفروض على هؤلاء أصـحاب الرسـالة ان يكونـوا أكـثر التزاما بالرسـالة من غـيرهم لأنهم يعرفـون الرسالة.

(**وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ**)

وهل يكفي قـراءة الكتـاب .. بـالطبع لا ، انما يجب التفكر فيه للاستفادة من جـوهره ، وذلك هو العقل الـذي ينبغي الوصول اليه.

(**أَفَلا تَعْقِلُونَ**)

[45] كيف نحارب النفـاق والتلـوّن؟ وكيف نقـول بما نعمل ونعمل بما نقـول ونتجـاوز بالتـالي المسـافة بين الادعـاء والواقـع؟ الجـواب : بـالإرادة القوية ، ولكن كيف نقوي الارادة؟ ان الارادة بحاجة الى تـدريب حـتى تقـوى ، فهي كايّ شيء في الإنسان تنمو كلما استثمرها الإنسـان أكـثر فـأكثر ، العضـلات تشـتد بالرياضة والاعصـاب تقـوى بمواجهة المشـاكل ، والفكر ينمو باسـتخدامه ، وهكـذا الارادة تنمو كلما استفاد الإنسان منها ، جرب ذلك وصـمّم على القيـام بعمل صـعب ، انك سـوف تجد صـعوبة في ممارسـته أول مـرة ، ولكن كلّما قمت به أو قمت بأمثاله قلت صعوبته.

والصّلاة أفضل استثمار للارادة وبالتالي أفضل وسيلة لتنميتها انك حين تصـلي لله ، تقـاوم الذاتية في نفسك وتحـارب طبيعة التقوقع داخل زنزانة المصـالح وبتعبـير أوجز تحارب الشيطان بكل جنوده.

وحين الصلاة تهجم عليك وساوس الشـيطان لتبعـدك عن الاتصال بالله فتراك تركز نظـرك في الله والشـيطان يصـرفك الى اي شـيء أخر غـير اللـه. الى الدراسة الى التجارة الى مشاكل البيت و.. و.. ولا تزال في حالة حرب حـتى تنتهي الصـلاة وهكـذا سـمي محل اقامة الصـلاة (محرابا) لأنه فعلا موقع حرب.

وهكـذا تكـون الصـلاة تجربة للارادة وممارسة لها ، بالاضافة الى انها تقربك الى الله رب كل شيء مما يشيع في نفسك الثقة لمقاومة أسـباب الضـعف من الخـوف والرغبة.

والصـبر ومن مظـاهره العملية الصـيام وهو الآخر ـ تجربة للارادة ـ فهو يـدع الإنسـان يتطلع للمسـتقبل ولا يفكر في حاضـره فقط والصـبر بما يمثل من تطلع الى المسـتقبل بما فيها من ثقة بالله ، قوتـان هائلتـان يجب الاستعانة بهما.

(**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**)

لمقاومة ضـعفنا الـداخلي ، ولكنّ الاسـتعانة بالصـبر والصلاة ، صـعبة هي الاخـرى فكيف نصـبر وكيف نصـلي؟ الجـواب : علينا ان نخشع ونـذلل غـرور أنفسـنا وكبريائها الكاذب ، بـالتفكر الـدائم في الآخـرة حيث نتصـور أنفسـنا وقوفا امـام الله في المحكمة الكـبرى ، حيث «**لا يَنْفَـعُ مـالٌ وَلا بَنُـونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللـهَ بِقَلْبٍ سَـلِيمٍ**». ان الخشوع يدفعنا الى الصبر والصلاة ، لذلك قال الله :

(**وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ**)

[46] والخشوع بدوره ياتي من (تصور) المعاد :

(**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُـوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْـهِ راجِعُونَ**)

[47] لـذلك يـذكر الله بـني إسـرائيل بـذلك اليـوم الرهيب وبما أنعم عليهم من الهدى ، والذي تسبب في ان يصبحوا أفضل الناس أجمعين فيقول :

(**يا بَنِي إِسْـرائِيلَ اذْكُـرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ**)

[48] (**وَاتَّقُـوا يَوْمـاً لا تَجْـزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَـذُ مِنْها عَـدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**)

فاذا كانت الحياة الدنيا هي هدف الإنسـان ، فعليه ان يتذكر انه لن ينالها إلّا بالتمسك بهدى الرسالة. وإذا كـانت الحياة الآخـرة هي الهـدف الأسـمى ، فلا بد ان نتقي يوما توضع فيه الموازين العادلة ، ليأخذ كل إنسان جـزاءه ، ولا يغني عنه أحد شيئا ، ولا يشفع له (الا بإذن اللـه) ولا يقبل عنه بديل ، ولا يمكن ان ينصر الكافرون.

(**وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ واعَدْنا مُوسى**

---

49 [فرعون] اسم لملك العمالقة كما يقال لملك الروم قيصر ولملك الفرس كسرى ولملك الترك خاقان ولملك اليمن تبع فهو على هذا بمعنى الصفة.

[يسومونكم] السوم أصله الذهاب في ابتغاء الشيء ، وهو إرسال الإبل في المرعى وبمناسبته للمعنى المحدد وللعلم هنا ان فرعون كان يرسلهم الى حيث العذاب السيء كما لو أرسل الإبل للمرعى ..

وسوء العذاب هو أليمة وشديدة.

[يستحيون] أي يستبقون.

[البلاء] الامتحان والاختبار.

50 [فرقنا] الفرق هو الفصل بين شيئين إذا كانت بينهما فرجة والفرق الطائفة.

أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ

---

55 [لن نؤمن لك] أي لن نصدقك.

[جهرة] الجهر والعلامة والمعاينة نظائر يقال جهر بكلامه وبقراءته جهرا إذا أعلن وحقيقة الجهر ظهور الشيء معاينة.

[الصاعقة] على ثلاثة أوجه «أحدها» نار تسقط عن السماء كقوله (**وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ**) ، و «الثاني» الموت في قوله «**فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**» وقوله (**فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ**) و «الثالث» العذاب من قوله «**أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ ...**» 56 [بعثناكم] البعث إثارة الشيء من محله ومنه يقال بعث فلان

بَعْـــدِ مَـــوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْـــكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ
الْغَمـــامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّـــلْوى كُلُـــوا مِنْ
طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُـونَ (57) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُـوا هـذِهِ الْقَرْيَـةَ فَكُلُـوا
مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبابَ سُـجَّداً وَقُولُـوا
حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطايـاكُمْ وَسَـنَزِيدُ الْمُحْسِـنِينَ (58)
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيـلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا
عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُـــوا رِجْـــزاً مِنَ السَّـــماءِ بِما كـــانُوا
يَفْسُـقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْـقى مُوسى لِقَوْمِـهِ فَقُلْنَا
اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ

راحلته إذا أثارها من مبركها للسير ، ومنه يقال ليوم القيامة يوم البعث لأنه يثـــأر النـــاس فيه من قبـــورهم لموقف الحســـاب. وأصل البعث الإرسال.

57 [ظللنا] الظلة والسـترة والغمامة نظـائر يقـال ظللت تظليلا والظل ضد الضيح ونقيضه. وظل الشجرة سترها ويقـال لسـواد الليل ظل لأنه يستر الأشياء.

[الغمـــام] الســـحاب والقطعة منها غمامة وانما ســـمى غماما لأنه يغم السماء أي يسترها وكل ما يستر شيء يسمى غمه.

اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَـدْ عَلِمَ كُـلُّ أُنـاسٍ مَشْـرَبَهُمْ كُلُـوا وَاشْـــــرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّـــــهِ وَلا تَعْثَـــــوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِـــدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْـــبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْـرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِـها وَبَصَـلِها قـالَ أَتَسْـتَبْدِلُونَ الَّذِي هُـوَ أَدْنى بِالَّذِي هُـوَ خَيْـرٌ اهْبِطُـوا مِصْــراً فَــإِنَّ لَكُمْ ما سَــأَلْتُمْ وَضُــرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ

61 [أدعوا] الدعاء أصله النداء. وكل من يدعو ربه فهو يناديه.
[تنبت] الإنبات إخراج النبات وأصله من الظهور فكأنه ظهر إذا أنبت.
[بقلها] البقل كل نبات ليس له ساق. وهو ما ينبته الربيع.
[فومها] الفوم الحنطة وقيل هو الثوم بابدال الثاء مكان الفاء.
[أدنى] أي أقرب وأدون كما تقول هذا شيء مقـارب أو دون ويجـوز أن يكون أدنى من الدناءة وهي الخسة.
[ضــربت] أي فرضت ووضــعت عليهم والزموها ، من قــولهم ضــرب الامام الجزية على أهل الذمة.
[الذلة] المشقة والهوان.

اللهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (61) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

[المسكنة] مصدر المسكين والمسكنة هنا مسكنة الفاقة والحاجة وهي خشوعها وذلها.

[باءوا] أي انصرفوا ورجعوا ولا يقال باء الا موصولا! إما بخير وإما بشر وأكثر ما يستعمل في الشر ، ويقال باء بذنبه يبوء به.

دور رسالات الله في بناء الحضارات

هدى من الآيات :

لا تـزال الآيـات تتحـدث عن ذات الفكـرة الـتي بـدأها القرآن ، حين ذكّر بانّ الذين يتمسكون بالرسالة لا خــوف عليهم ولا هم يحزنــــون ، ويقص علينا من حيـــاة بــــني إسـرائيل قصصا ، تـدل على ان رسـالات الله كيف تقـوم بدور المنقذ للإنسان المعذب والمحروم ، كبـني إسـرائيل في عهد فرعون ، ثم كيف يقود الأنبيـاء هـذا الإنسـان الى بر الامان.

ومن ثم كيف تــربّي الرســالة ، الإنســان ، ثقافيا ، واجتماعيا ، وعلميا ، وعمرانيا ، ليتخلص من رواسب جاهليته ، ثم تنير امامه صـراط المدنية ، وتـزوّده بوسـائل الكلاء والماء ..

ثم كيف تهــدد المدينة والرخــاء المجتمع الرســالي ، فتحوّله الى مجتمع ضعيف متهاوي.

ابــرز القــرآن هنا دور الرســالة الإلهية في تكــوين الحضارة البشــرية ومن خلالها ، وقد ذكّرنا ببعض العوامل الاخرى التي نشير إليها إنشاء الله فيما يلي.

بينات من الآيات :

[49] اين كان بنوا إسرائيل؟

أبوهم الكبير إبراهيم (عليه السلام) كـان في العـراق ثم هاجر الى فلسطين. ولكن حفيد إبراهيم يعقــوب انتقل هو وأبنـــاؤه الاثـــنى عشر الى مصر في قصة يوســـف. ودارت الأيــام وتحولــوا من شــعب جــاء مصر ملكا ، الى طوائف محرومة ، مستضــــعفة ، ومســــتثمرة من قبل فراعنة مصــر. وكــانوا بحاجة الى قائد ورســالة ، فأرسل الله موسى نبيا ، وانزل معه التوراة رسالة ، ففجّـرت فيهم طاقاتهم ، وقادهم عبر البحر الى جزيـرة سـيناء ، ومن ثم الى فلســطين. هكــذا اســتطاع الإنســان ان ينتصر على المستغلين والطواغيت بفضل الرسالة الإلهية.

ويذكّر القرآن بني إسرائيل بهذه القصة ، ليقول لهم : إنّهم لو تركــوا رســالة الله ، لعــادوا مــرة اخــرى ، امة مستضـعفة محرومـة. وهكـذا يـذكّر الامة الاسـلامية بهـذه الحقيقة أيضا ، وهي : ان التمسك بالهدى الـذي أنزله الله ، والتمحور حوله ، هو الكفيل بضمان استقلالهم وحــريتهم ... يقول الله سبحانه :

(**وَإِذْ نَجَّيْنـاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَـوْنَ يَسُـومُونَكُمْ سُـوءَ الْعَذابِ**)

اي يذيقونكم عذابا أليما يتمثل فيما يلي

(**يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ**)

انهم كــانوا يقتلــون أبنــاء النســاء الخادمــات لكي لا تنشغل النساء عن خدمتهم. أو كانوا يفعلــون ما هو أعظم وأشد ضررا على كرامة الإنسان.

(**وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**)

انه شر عظيم ، ولكنه ــ بـالرغم من ذلك ـــ اختبـار (بلاء) يمكن ان يتمخض عن ارادة قوية في التحـــــــــدي والصمود ، وبالتالي في التحرر الحقيقي.

[50] ولكن لم يستطع بنوا إسـرائيل الخلاص من كل تلك المأســـاة الا بفضل الرســـالة الإلهية ، إذ جـــاءت ، ووحدتهم ، وأنقذتهم من ويلات الطغاة.

(**وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْــرَ فَأَنْجَيْنـــاكُمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**).

وكم هي رائعة ان ينظر المحروم الى جلّاده : تتقاذفه أمواج البحر ، جزاء على جرائمه.

[51] الطـاغوت انتهى ولكن آثـار سـيطرته لم تـزل كامنة في النفـوس ، وبـارزة في التصـرفات ، متمثلة في حالة الاستسلام والهزيمة النفسية والتعّـود على الخضـوع. من هنا تركهم قائدهم ومنقذهم عدة أيام ، فلمّا عاد إليهم فـاذا بهم يسـجدون للعجـل. لأنهم لا يزالـون عبيـدا في نفوسهم بالرغم ، من تحررهم الظاهر. هؤلاء كـانوا بحاجة الى ثورة ثقافية قوية تحـرر نفوسـهم من الـذل والخنـوع. كما كـانوا بحاجة الى ثـورة اجتماعية تخلصـهم من عبودية الرأســمالية العفنة الـتي كـانت مرتبطة بنظـام فرعـون الطاغوتي. وكانوا أيضا بحاجة الى ثورة علمية ترفعهم عن حضـيض الماديـات ، الى عـالم التوحيد الخـالص. ثم انهم يحتاجون الى ثورة عمرانية تهديهم الى بناء المدن وزراعة الأرض.

وفيما يلي نجد كيف ان رســـالة الله فجـــرّت هـــذه الثورات في واقع بني إسـرائيل حـتى اسـتطاعوا بنـاء امة مجيدة.

الف : ذهب موسى الى طـور سـيناء ، ليتلقى الـوحي فلما عاد وجد قومه في نكسة جاهلية.

(**وَإِذْ واعَـــدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَـــةً ثُمَّ اتَّخَـــذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ**)

هذه كانت مشكلة عقائدية (إيديولوجيــة) حلها موسى (ع) بإذن الله وقال الله تعالى :

[52] (**ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْـــدِ ذلِـــكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

[53] (**وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقـانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**)

مـــاذا فعل موسى (ع) عفا عنهم بــــأمر الله ثم تلا عليهم الكتـاب (وفيه الـرؤى العقائدية العامـة) والفرقـان (وفيه التعـاليم التفصـيلية للحيـاة) فصـحح بـذلك رؤاهم وعلمهم كيف يقتلعون من أنفسهم جذور الاستعباد حتى لا يعودوا الى عبادة المال (العجـل) مـرة اخـرى هـذه كـانت ثورة ثقافية.

[54] باء : ولكن انتهـاء عبـادة المـال ، من قبل أكـثر الامة ، لم تــدل على انتهــاء دور الـثروة في تهديد تحــرر الامة اجتماعيـا. إذ كـانت هنـاك طبقة قد أشـربت قلـوبهم بحبّ العجـــل. وكـــانت الامة بحاجة الى عملية تطهـــير ، لتصفية العناصر الخبيثة منها.

(**وَإِذْ قــالَ مُوسى لِقَوْمِــهِ يا قَــوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بـارِئِكُمْ فَتـابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**)

[55] جيم : وبقيت المشكلة الثالثة هي التي نســميها بالمشــكلة الايدلوجية ، حيث كــان لا بد من ثــورة علمية توحيدية ، تخلص الامة من رواسب الجاهلية المادية ، المتمثلة في تصور الله في شيء مادي ، وبالتالي تقديس الأشياء ، انطلاقا من الباسها ثوب الالوهية. والامة لا تصبح متحررة بالكامل ، الا إذا تحررت من تقـديس اي شـيء أو شــخص من دون الله ســبحانه. إذ لو لا ذلك لكــانت الامة معرضة للاستعباد.

فالامة التي تقدّس الأصنام ، لا بد ان تستعبدها الأصنام أو كهنة الأصـــــنام. والامة الـــــتي تؤله عيسى (ع) لا بد ان يستعبدها كهنة الكنيسة. والامة التي تقـدس الأوليـاء على أنهم قد دخلتهم روح من الله ، لا بد ان يســــــــــتعبدها المنتسبون الى أولئك الأولياء.

من هنا حرصت الرسـالة الإلهية على إنقـاذ البشـرية من جاهلية الشرك ، لتصبح حـرة كريمة لا تقـدس الا الله سبحانه. ولا تطيع الا من امر الله بطاعته.

(**وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللـهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**).

اختــار موسى من قومه ســبعين رجلا لــيرافقوه الى الطور ، ولكنهم سرعان ما استبدت بهم جــاهليتهم الاولى وقالوا : أرنا الله والا سوف نعود كفارا. فـاذا بصـاعقة من السماء تحرقهم جزاء كفرهم الصريح.

[56] (**ثُمَّ بَعَثْنـــاكُمْ مِنْ بَعْــدِ مَـــوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**).

وكـانت هـذه الهـزة كافية لتصـفية نفـوس هـؤلاء من رواسب الشرك وتسبيح الله وحده.

[57] دال : وبعد ان أنقذ الله بـني إسـرائيل برسـالته الكريمة عن مشاكلهم (استعباد فرعـون ، عبودية العجل ، طبقة أصــحاب العجل ، رواسب الشـــرك) أســبغ عليهم مختلف النعم المادية وقال سبحانه :

(**وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمـــــــــامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى**)

فهناك نعمة السكن ونعمة الغذاء. والمن هو الحلـوى. والسلوى هو طير معروف.

(**كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ**)

ولكنهم كفروا بأنعم الله .. مثلما يحدثنا القرآن بعدئذ.

(**وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)

انهم أرادوا الـدخول في المدينة ، وكـانت تلك نكسة لهم. إذ الاستقرار كان سيفقدهم الكثير من مزاياهم ، ومنها بالطبع حريتهم وقدرتهم على مواجهة أعدائهم. ولكنهم تعبوا من حياة البدو ، وأسلموا أنفسهم للخفض والدعة. فقال لهم الله : اهبطوا مصرا.

[58] (**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً**).

ولكي يضمن لكم الاستقرار في المدينة فعليكم التزام الطاعة لله ، والتضرع وحسن السلوك.

(**وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً**)

لله

(**وَقُولُوا حِطَّةٌ**)

اي توبة الى الله.

(**نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**).

[59] ولكن ، يبدو انهم لم يطبقوا تعاليم الله ، فأخذوا يتكبرون ويسرفون ويقولون حنطة خير لنا من حطة ..

(**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ**)

متمثلا في نقص في الثمـرات ، وخلاف عـريض بينهم على مغانم المدينـة. حسـبما يـذكره القـرآن في آية آتيـة. والسـبب في ذلك الرجز هو فسـقهم ، وابتعـادهم عن تعاليم الله.

[60] تلك كـانت نعمة الاسـتقرار الـتي أسـبغها الله عليهم ، ولكنهم كفروا بها. وهذه نعمة الماء الأشد ضرورة للعمران يسبغها عليهم ربنا ويقول :

(**وَإِذِ اسْتَسْـقى مُوسى لِقَوْمِـهِ فَقُلْنَا اضْـرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَـانْفَجَرَتْ مِنْـهُ اثْنَتا عَشْـرَةَ عَيْنـاً قَـدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ**)

لأنهم كـانوا اثنـتي عشـرة قبيلة مختلفين. وكـان من المفـروض الا تتـدخل حيـاتهم مع بعضـهم لوجـود الحساسيات القديمة بينهم.

(**كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ**)

ولكن مع توافر النعم تنمو عند الإنسان حالة الطغيان ويقوم بالاعتداء على الآخرين ، أو الإسـراف في اسـتهلاك المواد. من هنا حذّرهم الله فقال :

(**وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**)

[61] كان بنوا إسرائيل امة بدوية ثم تحضرت. ولكنها لم تستطع ان تقاوم سـلبيات التحضر فاسـتعبدها فرعـون في مصر ، وتجـذرت بـذلك حالة العبودية في نفوسـهم. فأصبحوا ضعفاء جبنـاء مختلفين لا يثق بعضـهم ببعض. ثم قادهم النبي موسى (عليه السلام) الى سيناء. وتـربّى في الصحراء جيل منهم اسـتعادوا بعضا من خصائصـهم الاولى الـتي تمـيزوا بها حين كـانوا بـدوا. ولكن كثـيرا من اثـار مرحلة العبودية لم تـزل في نفوسـهم. وحين طلبـوا من نبيهم ان يأذن لهم بالعودة الى فلسـطين والاسـتقرار في المـدن ، لم يكن في صـالحهم ذلك إذ ان اثـار العبودية والتي منها

الاختلافــات المتجــذرة في نفوســهم ، كــانت تهــددهم بالانحراف مرة اخرى وتحطيم حضارتهم.

بيد انهم أصروا على ذلك فلما (هبطوا مصـرا) عـادت إليهم سلبيات الحضارة كما يحدثنا عنها القرآن.

(**وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعـامٍ واحِـدٍ فَــادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْــرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِـها وَبَصَـلِها قـالَ أَتَسْـتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ**)

فهبطـوا مصـرا وشـاعت في أنفسـهم صـفات الجبن واللاثقة والفردية ، وفقـــدوا الـــروح العســـكرية الـــتي اكتسبوها في الصحراء وكانت النتيجة ..

(**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ**)

ومع العبودية السياسية تأتي العبودية الاقتصادية. إذ لا يســتعبد الطغــاة النــاس الا لكي يســتثمروا طاقــاتهم ، ويستفيدوا من خيراتهم. فضربت عليهم المسكنة أيضا.

(**وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ**)

حتى كادوا يفقدوا قوتهم اليـومي. ولكن لمـاذا؟ لأنهم كفــروا بمنهج الله في الحيــاة وتركــوا الالتفــاف حــول رسـالتهم ، والانتمـاء إليها ، دون الانتمـاء الى العنصـريات المقيتة. وتركوا الاهتمام بتعاليم الـدين في العمل الصـالح والتعاون عليه ، والجهاد من أجل الدين.

وزادوا ضــعفا واستســلاما حين حوّلــوا عنفهم الى الداخل ، فأخذوا يصفّون العناصر الخـيرة فيهم ، ويقتلـون الأنبياء لأنهم يأمرونهم بالعودة الى رسالتهم.

ولم يكونوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين لو لم يعصوا الله سبحانه منذ البدء ، في تنفيذ تعاليمه. إذ ان العصيان لا بد ان ينتهي بالكفر ، كما ان الاعتداءات البسيطة ضد بعضهم تعاظمت حتى اعتدوا على المصلحين الكبار في مجتمعهم وهم الأنبياء عليهم السلام. يقول الله سبحانه :

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ**)

ان كل امة تنتهي بانتشار روح العصيان والاعتداء فيها ، إذ تنمو هذه الروح الخبيثة حتى تقضي على قيم الامة وعلى الصفوة الصالحة فيها. وماذا تبقى من الامة لو انتهت قيمها ورجالها الصالحون؟

وكلمة اخيرة :

ان تعبير القرآن في هذه الآيات يوحي إلينا بان الله هو مصدر كل نعمة ظاهرة وباطنة ، وهو كذلك مصدر الوحي. وعلينا ان نقبل بهما معا (النعم والوحي) ولا يمكن ان نقبل بواحدة دون اخرى.

[62] كيف اعتدى هؤلاء على بعضهم؟ وعصوا ربهم في ظلم بعضهم ، وبالتالي في الكفر بالله وقتل أنبياء الله؟ انهم حتى الأمس القريب كانوا امة صالحة؟

الجواب :

ان الاعتداء يبدأ فرديا ، وينشأ من نوازع ذاتية شيطانية (كاعتداء قابيل على هابيل) ولكن مع تطور الظروف ، يتحول الاعتداء الى حالة اجتماعية ، وذلك عن طريق تقولب الاعتداء في إيديولوجية عنصرية مقيتة ، توحي الى كل طائفة انها هي

شـعب الله المختـار ، وان الله أعطاها صـلاحية اسـتعباد الآخرين.

وقد انتشــرت هــذه الأيدلوجية الفاســدة ، في بــني إسرائيل (كما يحدثنا القرآن الكريم في أكثر من مناسـبة) واتخــذت دعما لها من القشــرية الدينية ، بالاعتمــاد على بعض النصـــــوص المجملة وتفســـــيرها بما يتناسب مع العنصرية.

وجــاء القــرآن لينسف أسس العنصــرية ، وبالتــالي : أسس الاعتداء المنظم على الآخرين فقال :

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـــوا وَالَّذِينَ هـــادُوا وَالنَّصــــارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صـالِحاً فَلَهُمْ أَجْــرُهُمْ عِنْــدَ رَبِّهِمْ وَلا خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

ان الله يريد الايمان والعمل الصالح ولا شيء وراءه ، إذا دعنا نتنافس على هاتين القيمـتين دون غيرهمـا. ويـوم القيامة سيحكم الله بحكمه العادل.

(**وَإِذْ أَخَذْنا مِيثـاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَـوْقَكُمُ الطُّورَ خُـذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ**

---

63 [ميثاقكم] الميثاق هو مفعال من الوثيقة أما بيمين وأما بعهد أو غير ذلك من الوثائق.

[الطـــور] الجبل وقيل هو اسم جبل بعينه نـــاجى الله عليه موسى بن عمران (ع).

[بقوة] القوة القدرة وهي عرض يصير به الحي قادرا.

64 [تــوليتم] أعرضــتم وولاه فلان دبــره إذا اســتدبر عنه وجعله خلف ظهـره ثم يسـتعمل ذلك في كل تـارك طاعة أمر ومعـرض بوجهه عنه ومنه قوله «**فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا**».

65 [علمتم] أي عرفتم ومنه قوله «**لا تَعْلَمُونَهُمُ اللـهُ يَعْلَمُهُمْ**» أي لا تعرفونهم والله يعرفهم.

فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (65) فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66))

[اعتدوا] أي ظلموا وجاوزوا ما حدّ لهم.
[السبت] يوم من أيام الأسبوع وقيل سمي سبتا لأنه يـوم السـبت خلق فيه كل شيء أي قطع وفرغ وقيل سمى بذلك لان اليهـود يسـبتون فيه أي يقطعون فيه أعمالهم وقيل هو مـأخوذ من الراحة ومنه قوله وجعلنا نومكم سباتا. ويقال للنائم مسبوت.
[خاسئين] الخاسئ المبعد المطرود.
66 [نكالا] النكال الإرهاب للغير وأصله المنع لأنه مأخوذ من النكل وهو القيد وسـميت العقوبة نكـالا لأنها تمنع عن ارتكـاب مثل ما ارتكبه من نزلت به.
[موعظة] الوعظ وأصله التخويف.

الميوعة في تطبيق الأحكام

هدى من الآيات :

يحدثنا القـرآن الكـريم عن حالة الضـعف الـتي تنتشر في الامة ، وأسـاليب معالجتهـا. وتتمثل هـذه الحالة في عدة مظاهر :

أولها : العنصرية التي تحدثت عنها الآيتان السابقتان.

والثـاني : اللامبـالاة وعـدم الجدية في التمسك بهـدى الله.

والثـالث : قسـوة القلب وعـدم التـأثر بنصـيحة الصالحين.

وسـوف يحـدثنا القـرآن الحكيم طـويلا عن مـرض الميوعة وقلة الالـتزام بـالقيم ويضـرب عـدة امثلة من قصص بني إسرائيل :

أولا : قصة الطور ثم قصة انتهـاك حرمة السـبت ، ثم قصة البقرة التي توانـوا في ذبحهـا. ثم يربط بين الميوعة وبين قسوة القلب في أخر هذه المجموعة من الآيات.

بينات من الآيات :

والامة الاسـلامية اليـوم تشـبه الى حد بعيد بـني إسرائيل في مـرحلتهم تلك حين انتشـرت فيهم المظـاهر السـلبية من الميوعة واللامبـالاة وانتهـاك حرمـات الـدين وعلينا ان نعتبر بقصص بني إسـرائيل حـتى لا نـدفع الثمن مضاعفا.

[63] في ضحى نهار ، وجد بنوا إسرائيل قطعة هائلة من الجبل فوق رؤوسـهم ، تكـاد تسـقط عليهم ، فهرعـوا الى نبيهم ، فقال لهم نبيهم : انه العذاب نـازل عليكم هل تؤمنون بالله وتتمسكون بتعاليمه بجد. قـالوا : بلى ، فرفع عنهم العذاب ، ولكنهم عادوا الى إهمـالهم الاول في تنفيذ التعاليم.

(**وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَـوْقَكُمُ الطُّورَ خُـذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ**) ولا تكونوا مائعين في تلقي التعاليم أو في تطبيقها.

(**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)

[64] ولكن بني إسرائيل كانوا كأكثر الأمم حين يهبط عليهم العـذاب من ربهم ، يجـأرون الى الله ويعـودون الى قيمهم وتعـاليم دينهم. وما ان يرفع عنهم العـذاب حـتى يعودوا الى سابق عاداتهم.

(**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ**)

ولكن الله لا يهمل الإنسان الى الأبد فقد يأخذه بشدة وهو غافل.

[65] ومن قصص بـني إسـرائيل في اللامبـالاة والميوعة في تنفيذ القرارات .. قصة

انتهــاكهم حرمة الســبت ، حيث حــرّم عليهم الصــيد فيه ولكنهم اعتدوا فيه بغيا على أنفسهم ، فاخــذهم الله أخــذا شديدا وقال :

(**وَلَقَــدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَــدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّــبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ**)

أذلاء.

[66] انها سـنة الله في الحيـاة انه يمهل البشر مـرة بعد اخرى ، فان لم يتب يأخذه ليصبح عبرة لغيره.

(**فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها**)

حيث انها أصبحت عـذابا لمن سـبق وعـذابا لمن لحق بهم.

ان اي عذاب الهي سيكون قويا بالنسبة الى من ينزل عليهم مباشـرة وسـتبقى آثـاره في المسـتقبل. والعـذاب الالهي تعبــير صــادق عن عمل الإنســان نفسه وترجمة لواقعه الفاسد لا أكثر.

وكل عمل يقـوم به الإنسـان سـيخلّف آثـاره السـلبية على مجتمعة الحاضر وعلى مستقبل الأجيال ولــذلك على الإنسان ان يفكر مرتين قبل ان يقدم على اي عمل حــتى لا يـؤثر عمله في الآخـرين سـلبيا. كما ان على النـاس ان يعرفــوا ان اي عمل يقــوم به فريق منهم ســوف تنعكس آثاره عليهم جميعا .. فيأخذوا على أيديهم بشدة وجدية.

اما المتقون فإنهم المستفيدون الوحيدون من عــذاب هذا الفريق لأنهم يعتبرون به ويحولونه الى جزء صالح في سلوكهم وتفكيرهم لا أن يكرروه مرة اخرى.

(**وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**)

(**وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللـهَ يَـأْمُرُكُمْ أَنْ تَـذْبَحُوا
بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُـزُواً قـالَ أَعُـوذُ بِاللـهِ أَنْ أَكُـونَ
مِنَ الْجاهِلِينَ (67) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ
قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَـوانٌ بَيْنَ
ذلِـكَ فَـافْعَلُوا ما تُـؤْمَرُونَ (68) قـالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ
يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قـالَ إِنَّهُ يَقُـولُ إِنَّها بَقَـرَةٌ صَـفْراءُ
فـاقِعٌ لَوْنُها تَسُـرُّ النَّاظِرِينَ (69) قـالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ
يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَـرَ تَشـابَهَ عَلَيْنا وَإِنَّا إِنْ شـاءَ
اللهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ**

---

67 [هزوا] الهزء اللعب والسخرية.
[أعوذ بالله] الجأ الى الله وحقيقته استدفاع ما يخاف من شره.
69 [فاقع] أي شديدة الصفرة. يقال أصفر فاقع وأحمر ناصع.
71 [ذلول] يقال للدابة قد ذللها الركوب والعمل دابة ذلول.

تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَـرْثَ مُسَـلَّمَةٌ لا شِـيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُـونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَـادَّارَأْتُمْ فِيها وَاللـهُ مُخْـرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتى وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73))

[تثير] الاثارة إظهار الشيء انكشف وأثار الأرض حرثها.

[الحــرث] كل أرض ذللته للــزرع ، والحــرث قــذف البــذر في الأرض للازدراع.

[مسلمة] مبرأة من العيوب.

[لا شية] اللون في الشيء يخالف عادة لونه ولا شـية فيهـا. أي لا وضح منها يخالف لونها.

72 [ادارأتم] اختلفتم وأصله تـدارأتم وأصل الـدرأ الـدفع ومنه الحـديث ادرأوا الحدود بالشبهات ومنه قوله «**وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ**».

قصة البقرة دروس وعبر

هدى من الآيات :

عند ما تنتشر في الامة روح التكاسل ، تبدأ بالالتفـاف على الأحكــام الشــرعية ، لتنفلت منها أنّى اســتطاعت. فتراها تتشــبث بطائفة من القشــريات وتجعلها بديلة عن الحقـائق الواقعيـة. وقصة بـني إسـرائيل مع البقـرة تمثل هذه الحالة فيهم.

وقصة البقرة تدل على ان بـني إسـرائيل لم يصـبحوا آنئذ كفــارا بالرســالة جملة واحــدة ، بل بــالعكس كــانوا يريدون تطبيق تعاليم الله. بيد ان الـتردد والضـعف واضح في تصرفاتهم مما يجعلهم يؤخرون تنفيذ الواجبات ، تحت غطاء التشبث بقشور التعـاليم. فهم كـانوا يتسـاءلون عن لون البقرة ، وطبيعتها ، ومقدار عمرها ، وسائر خصائصها .. بينما تركـوا الجـوهر ــ وهو ذبح البقـرة ــ كـذلك الامة الاسلامية في بعض مراحلها المتـأخرة من تاريخها ، كـانت تتوغل في التفاصــيل وتــترك روح التعــاليم والاهــداف المتوخاة من ورائها.

بينات من الآيات :

[67] (**وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً**)

في البداية استغربوا من الطلب وزعموا انها هزو لمجرد انهم لم يعرفوا فلسفة الحكم.

(**قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً**)

بالرغم من ان موسى عليه السلام كان جديا مع قومه وصارما ، ولكن بني إسرائيل كانوا قد أصيبوا بضعف في الايمان. الايمان الذي يريد من صاحبه التنفيذ من دون سؤال ودون البحث عن العلل والاهداف ، لذلك قال لهم موسى :

(**قالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ**)

[68] وهنا بدأت سلسلة التساؤلات التي استهدفت معرفة خلفيات الحكم واهدافه البعيد المختلفة.

(**قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ**)

هل هي بقرة كسائر الابقار؟ أم هي بقرة معينة؟ وهنا شدد الله عليهم وقال لهم موسى :

(**إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ**)

قد أكلتها السنون وأنهكتها الحياة.

(**وَلا بِكْرٌ**)

صـغيرة السـن. إنما هي بين البكر والفـارض مما عبّر عنه القرآن ب.

(**عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ**)

ثم شدد عليهم بتطبيق الأمر بحزم وقال :

(**فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ**)

[69] ولكنهم عــادوا يتســاءلون انطلاقا من تشــبثهم بالقشور.

(**قــــالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قــــالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها**)

شديدة الصفار ثم زاد عليهم شرطا آخر وقال :

(**تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**)

بسبب اكتمالها وسلامة بنيتها.

[70] عادوا مرة ثانية يسألون عن ذات البقرة.

(**قــــالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَــــرَ تَشابَهَ عَلَيْنا**) وهنا انتبهـوا الى ان اسـئلتهم قد تعـني عند موسى (ع) انهم لا يريدون تنفيذ الأمر وكان هذا هو الواقع بالرغم من ادعائهم غير ذلك فقالوا :

(**وَإِنَّا إِنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ**)

[71] (**قـالَ إِنَّهُ يَقُـولُ إِنَّها بَقَـرَةٌ لا ذَلُـولٌ تُثِـيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ**)

في لون واحد.

(**لا شِيَةَ فِيها**) لا يكون فيها لون غير لونها الاصلي.

(**فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ**)

لأنهم تحولوا من مجتمع الايمان الذي ينطلق من واقع الثقة بالقيـادة وتنفيذ أوامرها فـورا ، الى مجتمع الجـدل ومحاولة فهم علل الأحكام وأسبابها وطريقة تنفيذها.

[72] وبعد ان ذبحوها بيّن لهم الله سر الأمر ، وان تساؤلاتهم لم تكن صحيحة أبدا ، وان القضية كـانت ترتبط بقصة القتيل الذي لم يعرف قاتله والذي يقول عنه ربنا :

(**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَاللـهُ مُخْـرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**) لقد أصـبح مجتمعهم فاسـدا ، وقد برعـوا في تنفيذ الجـرائم حـتى انهم لا يخلفـون أثـرا يـدل على فاعلها ، وقد ابتعدوا عن مسـئولية المحافظة على الأمن ، فأخذوا يكتمون عن السلطات الشرعية اخبـار البلد بيد ان الله يقول لهم وبصراحة :

(**وَاللهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**)

[73] (**فَقُلْنا اضْـرِبُوهُ بِبَعْضِـها كَـذلِكَ يُحْيِ اللـهُ الْمَوْتى وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)

فلما ضـــربوا عضـــوا من أعضــاء القتيل ببعض لحم البقرة الذبيحة ، أحـيى الله القتيل ، وبين من قتله وانتهت المشكلة.

الخلاصة :

ان قصة البقــرة تــبين لنا جانبا من جــوانب الضــعف الايماني الذي أصاب بـني إســرائيل ولكن هـذا الضـعف لا يـزال هينا بالنسـبة الى ما ينتظـرهم في المسـتقبل حيث يكادون يفقدوا الايمان رأسا.

والقـرآن يحـذرنا ــ بـذلك ــ من ان الضـعف الايمـاني المتمثل في التواني عن تطـبيق الأوامر قد ينتهي بصـاحبه الى مرحلة اخطر هي الابتعاد كليا عن الايمـان ، وذلك في المجموعة التالية من الآيات.

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِـكَ فَهِيَ كَالْحِجـارَةِ أَوْ أَشَــدُّ قَسْــوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجــارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْــهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّـقَّقُ فَيَخْـرُجُ مِنْـهُ الْمـاءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْـيَةِ اللـهِ وَمَا اللـهُ بِغافِـلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) أَفَتَطْمَعُـونَ أَنْ يُؤْمِنُـوا لَكُمْ وَقَـدْ كـانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْــدِ ما عَقَلُوهُ

---

74 [قست] القسوة ذهاب اللين والرحمة من القلب والقسوة الصـلابة في كل شيء ونقيضه الرقة.

[غافل] الغفلة السـهو عن الشـيء وهو ذهـاب المعـنى عن النفس بعد حضوره.

75 [أفتطمعون] الطمع تعليق النفس بما نظنه من النفع ونظيره الأمل والرجاء ونقيضه اليأس.

[فريق] جمع كالطائفة.

وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (77) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ

---

76 [أتحدثونهم] الحديث والخبر والنبأ نظائر مشتق من الحدوث وكأنه إخبار عن حوادث الزمان.

[فتح] الفتح في الأصل فتح المغلق وقد يستعمل في مواضع كثيرة فمنها الحكم يقال : اللهم أفتح بيننا وبين فلان أي أحكم. ومنها القضاء يقولون متى هذا الفتح؟ ومنها النصرة يقال استفتحه أي اطلب منه النصر ويستعمل في فتح البلدان.

[يحاجوكم] المحاجة والمجادلة والمناظر نظائر فالمحاجة أن يحتج كل واحد من الخصمين على صاحبه.

78 [أميون] الامي الذي لا يحسن الكتابة. وانما سمي أميا لأحد وجوه «أحدهما» أن الامة الخلقة فسمي أميا لأنه باق على خلقته و «ثانيها» أنه مأخوذ من الامة التي هي الجماعة أي هو على أصل ما عليه الامة في عدم الكتابة. و «ثالثهما» أنه مأخوذ من الام أي هو على ما ولدته أمه من أنه لا يكتب.

إلاَّ يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79))

[أماني] التمني تقدير سيء في النفس وتصويره قبل ذلك يكون عن تخمين وظن وأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له والامنية الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء .. فهم يتمنون على الله ما ليس لهم مثل قولهم «**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً**».

[يظنون] الظن هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر لامارة صحيحة وفي الناس من قال هو إعتقاد أو تصور.

79 [فويل] الويل في اللغة كلمة يستعملها كل واقع في هلكة وأصله العذاب والهلاك وقيل هو التقبيح ومنه و (**لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**). وقيل معناه الحزن ، وقيل الهوان والخزي.

[يكسبون] الكسب العمل الذي يجلب به نفعا أو يدفع به ضررا.

اليهود

بين تضليل الأحبار وأمانيّ الجهلة

هدى من الآيات :

تجــاوزت بنو إســرائيل مرحلــتين حــتى الآن ، مرحلة الثـــورات الأربع ، ثم مرحلة الضـــعف الايمـــاني. وها هم يدخلون في المرحلة الثالثة والاخــيرة وهي مرحلة قســوة القلب الــتي تــأتي نتيجة لضــعف الايمــان وهي متصــلة بالعنصرية التي سوف يتحدث عنها القــرآن في المجموعة التالية من الآيات.

ان قسوة القلب تنشأ من عبــادة الــذات ، وقد يكــون قساة القلب علماء بالــدين ، الا ان العلم وحــده لا يكفي ، بل من الضروري ان يدعم العلم ايمــان صــادق واحســاس عميق بالمسؤولية. بل من الممكن ان يكــون العلم واحــدا من الأســباب الــتي تســاعد على قســوة القلب ، إذا توجه بصاحبه الى الاستكبار والترفع عن ســماع النصــيحة. العلم جيد إذا كــان له بعــدان ، بعد في الـــداخل هدفه إصـــلاح الذات. وبعد في الخارج هدفه إصــلاح المجتمــع. والعلم ذو البعد الواحد يـــذهب بصـــاحبه بعيـــدا عن الله بعيـــدا عن الالتزام بمسئوليته.

من هنا يركز القـرآن الحكيم في هـذه المجموعة من الآيات على ان مشكلة بني إسرائيل في هـذه المرحلة لم تكن متمثلة في قلة علمهم بالدين ، بل في اسـتثمار هـذا العلم في ســـــبيل مصـــــالحهم الذاتية وتوجيهه حسب أهوائهم.

صـحيح ان بعضـهم أيضا أميـون ، ولكن البعض الآخر كـان يتعمد تحريف الكتــاب بكل صــلافة. والقــرآن يركز الضــوء على هــؤلاء لأنهم هم الســبب المباشر لتضــليل الأميين.

بينات من الآيات :

قسوة القلب :

[74] ان قسوة القلب جاءت بعد مرحلة الاسـتخفاف بتعـاليم الـدين ، والالتفـاف حولها ، والتشـبث بقشـورها. ولذلك قال الله سبحانه :

(**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِـكَ فَهِيَ كَالْحِجـارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**)

كيف أصبحت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة؟

لان الحجارة قد تفيض بالعطـاء كثـيرا أم قليلا وتـؤدي بـذلك دورا في الحيـاة اما الإنسـان الـذي يقسو قلبه فأنّه (والعياذ بالله) لا يعترف لنفسه بأي دور ايجابي في الحياة ولا يلتزم باية مسئولية فيها.

(**وَإِنَّ مِنَ الْحِجــارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْــهُ الْأَنْهــارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ**) كما ان الحجـارة قد تخشع لله ولسننه في الحياة.

(**وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**)

بيد ان القلب القاسي لا يخشع لله أبـدا. ثم يهـدد الله أصحاب هذه القلوب القاسية ويقول :

(**وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)

[75] ثم يحدثنا القـرآن عن ان مشـكلة هـؤلاء ليست في انهم لا يعلمون ، بل في انهم لا يؤمنون ويقول :

(**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللـهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَـهُ مِنْ بَعْـدِ ما عَقَلُـوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**)

ان كل شـروط العلم متـوفرة في هـؤلاء. السـماع للعلم المتمثل في الوحي ، ثم التعقل ثم العلم ولكنهم مع كل ذلك يحرفـون كلام الله بغية الحصـول على بعض المكاسب المادية.

[76] واخطر من ذلك نفاقهم الذي يبدو من تصرفهم المـاكر مع المؤمـنين الصـادقين ، حيث انهم يرفضـون الايمـان في الواقع ، اما في الظـاهر فيـدّعون انهم مؤمنون.

(**وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا**)

وذلك كسبا لبعض المغانم من هؤلاء المؤمـنين الـذين غالبا ما يكونـون من البسـطاء من اتبـاع موسى عليه السـلام ، الـذين يفـرض عليهم الأحبـار والرهبـان إتـاوات باسم الدين.

والغريب في تصـرف هـؤلاء انهم عند ما يختلـون الى بعضـهم ينفتحـون على بعضـهم ويعـترفون على أنفسـهم بـأنهم يحرفـون كلام الله عمـدا ، مع العلم المسـبق بأنه كلام الله

وان تحريفه يضربهم ، ولكنهم يحاولون منع اية حقيقة عن النـاس حـتى لا تصـبح مـادة احتجـاج عليهم في الواقع ، ولكي لا تكتشف فضائحهم. ولكن القرآن يفضحهم ويقول

(**وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَتُحَـدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ**)

من العلم.

(**لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**)

[77] (**أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِـرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ**)

وانه سوف يفضحهم عاجلا أم آجلا.

ان هـذه هي حالة الطائفة الـذين من المفـروض ان يكونـوا الموجّه الـديني لبـني إسـرائيل ، أنها تـتردى الى الحضيض السافل ، حيث تتفق كلمتهم على تجهيل الناس للسـيطرة عليهم وابـتزازهم واسـتغلال سـذاجتهم. وهـذه اخطر ما يمكن ان يهبط اليه مسـتوى امة رسـالية كبـني إسرائيل ، حيث تتحول مراكز توجيههم وهـدايتهم الى بـؤر لنشر الجهل والضلالة.

ويبـدو من الآية الكريمـة. وآيـات قرآنية أخـرى : أن تحريف الكتاب قد تم عند اليهـود بصـورة منظمة وواعية ، وبتخطيط شامل. وهكذا يحدثنا التـاريخ أن علمـاءهم حين لم يجدوا ـ من جهة ـ إقبـال النـاس على دينهم. وازدياد ـ من جهة ثانية ـ ضغط السلطات عليهم ، حرّفوا الـدين بما يتناسب والخرافـات المنتشـرة بين النـاس. وحـذفوا منه البنـود الـتي تعـارض السـلطات ، وأضـافوا اليه افكـارا استسـلامية مثل ما لله للـه. وما لقيصر لقيصـر. وانما أرادوا ـ بـذلك ـ تكثـير عـدد الأنصـار حـولهم ، ورفع غائلة الظلم عن أنفسهم.

ونرى علمـاء اليهـود والنصـارى يحرفّـون حـتى اليـوم دينهم ، ليكيفـوه مع ثقافـات العصر واتجاهـات السياسـة. حـتى أن التقـارير الأخـيرة ذكـرت انّ الكنيسة الكاثوليكية دعت بعثاتها الى خلط الـــــدين المسـيحي بثقافـات الوثنية الافريقية ، لضـمان إقبـال الشعوب الافريقية على الدخول في كنائسهم.

[78] اما بقية الناس فهم أميون ، تحـول الكتـاب في واقعهم الى أمـاني وتقليد الأحبـار والرهبـان تـرى ما هي الأماني. وما هو الظن

الكتاب بين الحلم والتقليد :

بناء على ما سبق فان الكتاب عند هؤلاء مجرد أمـاني وأحلام ، وربما ظنـون وتقاليـد. أنه حسب تعبـير القـرآن الـدقيق ، مجـرد امـاني يتسـلى بها الضـعفاء ، ويتغـنى بحروفه المكروبون والمحرومـون. بـدل ان يكـون صـاعقا يفجر طاقـاتهم ، وحـافزا يثـير عقـولهم ونظاما لتوجيه حياتهم وعلاقاتهم.

انظر الى السـياق كيف يعـبر عن حالة هـذه الطبقة السحيقة.

(**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَ**)

يعني ان الكتاب في نظرهم أصبح مجرد أحلام يمنون أنفسهم بها دون القيام باي نشاط حقيقي من أجل تحقيق اهداف الكتاب.

(**وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**)

وهؤلاء لا يستثيرون عقولهم ليفكروا أو ليبـدعوا ، انما يستثيرون بالكتاب خيالهم ليتصوروا وليحلموا بـه. ويحتمل ان يكون المعنى من الظن هذا التقليد.

[79] ان هؤلاء الأميين مقصرون لا ريب في ذلـك. الا ان وزرهم الأكـبر يقع على عـاتق أولئك الـذين ضـللوهم وحرفوا معاني الكتاب حتى حولوه الى مـادة تخـدير ، من بعد ان كان مادة تفجير. وحولوه الى مثير أحلام ، من بعد ان كان مستثيرا للعقل ومنهجا للفكر. لذلك يحدثنا القرآن عن هؤلاء فور ما ينهي حديثه عن الأميين ويقول :

(**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُـونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً**)

وهـؤلاء هم أولئك المحرفـون الـذين سـبق الحـديث عنهم ، انما يكرره القرآن ليلقي عليهم بمسـؤولية ضـلالة الأميين وليقول ان الهـدف من التحريف انما هو الحصـول على المكاسب المادية التافهة. تلك المكاسب التي لا تهنأ لهم وتلك الحرفة التي سرعان ما تتحول الى نقمة.

(**فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْـدِيهِمْ وَوَيْـلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ**)

أي كسب مبـارك تلك الحرفة الـتي تـؤدي بـانحراف الملايين من النـــاس ، وتجعلهم عرضة للاســتغلال والاسـتعباد؟! ان الطغـاة يريـدون أبـدا ان يتحكمـوا في مصـير الضـعفاء. والطريق الوحيد لحماية الضـعفاء من الطغاة ، هو تسليحهم بفكـرة ثورية تعلمهم كيف يجب ان يحـافظوا على كـرامتهم ، ويسـتردوا حـريتهم. والـدين هو تلك الفكـرة الثورية ، والعلمـاء هم أمنـاء الله على هـذه الفكرة. فاذا خان هـؤلاء مسـئوليتهم ، فـاي جريمة كـبري يقـترفون ، حيث يجـردون ملايين الضـعفاء من سـلاحهم الوحيد ، ويتركون الطغاة يسـتغلونهم. بل انهم يسـاهمون في هـذا الاسـتغلال مباشـرة عـبر تفسـيرهم التحـريفي للدين.

بين الاماني والظنون :

قالوا عن الاماني : إنّها ما يتخيله الإنسـان فيقـرر في نفسه وقوعه ويحدثها بكونه ، ومن هـذا قـولهم : فلان يعد فلانا ويمنيّه. ومنه قوله تعالى : «**يَعِـدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً**»

وحكي عن الاعرابي انه قـال لمن حدثه : أهـذا شـيء رويته أم تمنيته أم اختلقته.

وفي الكشاف [2] في تفسير الآية :

ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم اي قوله «**لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَ**» ثم العوام الذين قلدوهم وبنى على ذلك انهم في الضلال سواء.

وفي تفسير غـريب القـرآن اي لا يعلمـون الكتـاب الا ان يحدثهم كبراؤهم بشـيء فيقبلـون ، ويظنـون انه الحق وهو كـذب وقد قـال أحـدهم : ما تفنّيت ولا تمنّيت ، اي ما اختلقت الباطل.

ولكن يبدو ان الآية تتحـدث أساسا عن الأمـيين وكيف انهم يعيشـون على الامـاني والظن وعلى هـذا يحتمل ان تكـون الامنية من أنفسـهم والظن بسـبب التقليد أو أن تكـون الامـاني بمعـنى التلاوة عليهم ، كما نقل انه أحد معاني هذه الكلمة وانشدوا.

تمـنى كتـاب الله أول ليلة   واخره لاقى حمام المقـادر

---

(2) في الكشاف ج 1 ص 157

ولان القرآن يفسر بعضه بعضا ، فان السياق القرآني القادم أوضح بيان لهـذه الكلمـة. حيث يقـول ربنا سـبحانه وتعالى : (**وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَـذْتُمْ عِنْـدَ اللـهِ عَهْـداً فَلَنْ يُخْلِـفَ اللـهُ عَهْـدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**)

ان تفسـير الكتـاب وفق ما يتمنونه ، أو بتعبـير أخر : حمل آيـــات الكتـــاب على آرائهم الموافقة لاهـــوائهم ، وبالذات فيما يرتبط بتبرير فسـادهم وخـداع أنفسـهم بـان العذاب لا يشملهم ، لأنهم أبناء الله واحباؤه ، أو لأنهم من أولاد الأنبياء الكرام أو ما أشـبه. والواقع يعتـبر هـذا أوضح معاني الامنية.

ومن هنا نعرف بلاغة التعبير القرآني ، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى : «**لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ**» وكأنهم يعلمـون فقط امـاني الكتـاب ، أو هكـذا يفسـرونه حسب أمانيهم. وفي معنى هذا ، آيات اخرى : قال الله سبحانه :

«**وَقـالُوا لَنْ يَـدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كـانَ هُـوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ**» (111 / البقرة)

«**لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَـلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ**» (123 / النساء)

والامـاني الـتي يخـدع بها هـؤلاء أنفسـهم هي الـتي يفضحها السياق القرآني في الآيات الآتية.

الظن :

اما الظن الذي يقول عنه ربنا سبحانه وتعالى : «**وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**» فلعله درجة أعلى من الامـاني. حيث أن الفـرد يحلم بشـيء ويحلم ، حـتى يخيّل اليه صـدق هـذا الشـيء بل يكـاد يقنع نفسه به ، ويبـدو ان نسـبة الثقة بالفكرة ليست بـذات اهمية ، فقد تكـون أكـثر أو أقل من خمسـين بالمائـة. انما المهم جـذر الفكـرة وكيفية بروزها في النفس.

فاذا كان منشأها المصلحة وحب الذات وهوى النفس الـذي يتحـول الى امـاني ويفسر الكتـاب عليها ثم يتحـول الى خيـال وتصـور وظن ، فـان درجة الثقة بها حـتى ولو بلغت حد القطع فانها لا تسـوى شـيئا لأنها ليست ناشـئة من العلم ، والمنهج الصائب للمعرفة ، انما هي ناشئة من التمنيات والأحلام والتخيلات والظنون.

يبقى ان نتسـاءل عن العلاقة بين الظن والتقليد حيث جاء في حديث شريف ان المراد من الظن هو التقليد.

والجواب : ان الحديث انما هو عن الأمـيين الـذين هم العوام الذين يقلدون كبراءهم ولعله لهذه المناسـبة فسـرّ الظن هنا بالتقليد ، كما ان السـياق القـرآني يحـدثنا في ايات اخـرى عن أولئك الـذين يكتبـون الكتـاب بأيـديهم ثم يقولون هو من عند الله.

وقد قوبل الظن بـالعلم في القـرآن قـال سـبحانه وتعالى : «**قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُـوهُ لَنا ، إِنْ تَتَّبِعُـونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُـونَ**» (148 / الأنعام)

كما أكّد القـرآن : (**إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَـقِّ شَيْئاً**) فقـال سـبحانه وتعـالى : «**وَما يَتَّبِـعُ أَكْثَـرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَـقِّ شَـيْئاً إِنَّ اللـهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ**» (36 / يونس)

بينما يمتدحه في سياق الحـديث عن الآخـرة. فيقـول ربنا سبحانه وتعالى :

«**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُـوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْـهِ راجِعُونَ**» (156 / البقرة)

فيكف يمدح الظن حينا ويذمه أحيانا؟

جاء في حديث شريف :

«**الظن ظنـان ، ظن شك وظن يقين ، فما كـان من امر المعاد فهو ظن يقين ، وما**

كان امر الدنيا فهو على الشك»

ولعل تفسير هذه الرواية .. ان الظن بمعـنى التصـور فـإذا كـان التصـور والتخيل قائما على أسـاس التمنيـات والأهواء ، فهو ظن شك. حـتى ولو بلغت نسـبة الثقة معه الى درجة كبـيرة وإذا كـان التصـور على أسـاس التفكـير المنهجي كمن أيقن بالجنة ، ثم أخذ يتصور نعيمها ، وأيقن بالنـار وطفق يتخيل عـذابها ، فانه تصـور يقين لأنه قـائم على أساس.

وأهل اللغة يقولون : الظن هو الاحتمـال الـراجح وإذا كان قريب الوهم فانه يستخدم مع أن المخففة. مثل قوله سبحانه وتعالى : «**فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْـهِ**». وإذا كـان قـــريب العلم فانه يـــذكر مع ان المشـــددة ، مثل قوله سبحانه وتعالى : «**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ**».

(وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَـذْتُمْ عِنْـدَ اللـهِ عَهْـداً فَلَنْ يُخْلِـفَ اللـهُ عَهْـدَهُ أَمْ تَقُولُـونَ عَلَى اللـهِ ما لا تَعْلَمُـونَ (80) بَلى مَنْ كَسَـبَ سَـيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِـهِ خَطِيئَتُـهُ فَأُولئِكَ أَصْـحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحاتِ أُولئِكَ أَصْـــحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِـــدُونَ (82) وَإِذْ أَخَـــذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْـرائِيلَ لا تَعْبُـدُونَ إِلاَّ اللـهَ وَبِالْوالِـدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا

---

80 [تمسّنا] المس نظـير اللمس والفـرق بينها أن مع اللمس إحسـاس وأصله اللصوق وحده الجمع بين الشّيئين على نهاية القرب.
[يخلف] الأخلاف نقض ما تقدم من العهد بالفعل.
83 [المسكين] هو المتخشّع المتـذلّل من الحاجة مـأخوذ من السـكون كأنّه قد أسكنه الفقر.

لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَـوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُـــــونَ (83) وَإِذْ أَخَـــــذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمـاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُـونَ أَنْفُسَـكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْـهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُـونَ أَنْفُسَـكُمْ وَتُخْرِجُـونَ فَرِيقـاً مِنْكُمْ مِنْ دِيـــارِهِمْ تَظـــاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِـــالْإِثْمِ وَالْعُــدْوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ

---

84 [تسفكون] السفك الصب سفكت الدّم أسفكه سفكا.
[أنفســكم] النّفس مــأخوذة من النّفاسة وهي الجلالة فنفس الإنســان أنفس ما فيه.
[أقررتم] الإقرار الاعتراف.
[تشـهدون] الشـهادة أخذ من المشـاهدة وهو الاخبـار عن الشـيء مما يقوم مقام المشاهدة في المعرفة.
85 [تظاهرون] تعاونون والظهير المعين.
[الإثم] الفعل القــــــبيح. وقيل هو ما تنفر منه النفس ولم يطمئن اليه القلب.
[العدوان] الإفراط في الظلم.

إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُـونَ بِبَعْضِ الْكِتـابِ وَتَكْفُـرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِـكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِـزْيٌ فِي الْحَيـاةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الـــدُّنْيا بِـــالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَـــذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (86))

[أسارى] الأسر الأخذ بالقهر وأصله الشد والحبس إذا أسره وشدة.
وقيل أن الأسارى الذين هم في الوثاق والأسرى الذين هم في اليد.
86 [يخفق] الخفة نقيض الثقل والتخفيف التسهيل والتهوين.

تقديس الذات

هدى من الآيات :

تابعنا في الـدروس الســابقة مراحل هبـوط نجم بـني إســرائيل ، وتركنــاهم في آخر مرحلة في مســتنقع الجهل والضــلالة ، حيث تحــول قــادتهم الروحيــون الى ســراق الفكرة الرسالية ، ومجرمي حرب يساعدون الطغـاة على استغلال الضعفاء ، بينما تحول الكتاب في نظر جماهيرهم العريضة الى أحلام حلــوة يمنــون أنفســهم بها ليــبرروا واقعهم الفاسد.

اما الآن فنحن امــام مرحلة تالية اخطر من تلك وهي تحولهم الى امة عنصرية ، تقدس كيانها المادي ، وتحارب الناس والقيم على أساس ذلك الكيان.

ان تحول الامة الى تجمع عنصري ، يعتبر تغييرا شاملا في قيمها حيث تموت فيها كل جذور الصلاح ولا يرجى لها الخير أبدا. وقد تصبح ـ بمرور الزمـان ـ تجمع يسـعى نحو الفسـاد في المجتمعـات والاعتـداء على النـاس ولا ينتهي ذلك الا بالقضاء

الجسدي عليها جميعا.

ويشـرح لنا القـرآن كيف تتحـول الامة الرسـالية الى تجمع عنصري ، وذلك بابعاد فكرة المسـؤولية عن واقعهم ، حيث يتصـورون انهم بعيـدون عن الجـزاء ، لأنهم أفضل من غيرهم ، ثم يبـدءون بتقـييم الحيـاة وفق هـذا التصـور الخاطئ. ويكّذب القرآن هـذه الفكـرة ويضـرب امثلة حية على ذلـك. ثم يـبين زيف الفكـرة العنصـرية ، وذلك حين يحيلهم الى فطـرتهم. انهم يحمّلـون بعضـهم مسـئولية جرائمهم فيما يخصهم ويتصل بحياتهم مباشـرة ، فكيف لا يحملونه مسئولية ذات الجريمة حين تقع على غـيرهم هل هناك جريمة وجريمة أو بشر وبشر.

بينات من الآيات :

[80] قبل كل شـيء يجعل العنصـري ذاته فـوق المسـؤولية ليـبرر بعدئذ كل تصـرفاته الشـاذة ، وهـذه العملية خطيرة لسببين :

الاول : انها تميت ضـمير العنصـري ، وتطفئ شـعلة إحساسه كإنسان ، فلا يعـدو يشـعر بـالإثم تجـاه ما يرتكبه من موبقات وجرائم.

الثـاني : انها تـبرر تصـرفاته امـام الآخـرين وهنا نـرى القرآن الحكيم يعالج هذه المشكلة في بني إسرائيل ومن ثم في كل الأمم الـتي قد تبتلي بها ، كالنازية والـبيض في جنوب افريقيا فيقول :

(**وَقـالُوا لَنْ تَمَسَّـنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامـاً مَعْـدُودَةً قُـلْ أَتَّخَـذْتُمْ عِنْـدَ اللـهِ عَهْـداً فَلَنْ يُخْلِـفَ اللـهُ عَهْـدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**)

وبـالطبع لم يكن هنـاك ميثـاق من الله يتعهد لهم بـالّا يأخذهم على تصرفاتهم ، انما هم تصوروا ذلك انطلاقا من حبهم لذاتهم ، وتقديسهم لها.

[81] ثم يؤكد القرآن الحكيم ، ان كل إنسان مسئول امام الله عن تصرفاته السيئة ، شاء أم ابى. وهذا وحده عهد الله وميثاقه ، وسنته التي لا تتبدل. حيث يقول :

(**بَلى**)

اي ان هناك عهدا ولكن من نوع آخر هو.

(**مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

ربما التعبير ب (وأحاطت به خطيئته) يوحي بان الإنسان قد يذنب ذنبا ، ثم يستغفر الله ، فيتوب عليه ربه. ولكن إذا أكثر من الذنوب ولم يغسلها بالتوبة ، فان خطاياه تحيط به من كل جانب ، وانئذ لا تدع له مجالا للعودة الى الله. وهذه الآية تصدق على الكفار ومن بحكمهم ، حيث تحيط بهم خطاياهم وهذا الكلام يدل على ان العنصريين سوف يتوغلون في الذنوب انطلاقا من تصورهم انهم بعيدون عن مسئولياتهم ، وهناك تأخذهم الذنوب ، وترمي بهم الى النار خالدين فيها.

[82] وكما ان المسؤولية لا تعرف الفرق بين عنصر وعنصر ، كذلك الجزاء الصالح لا يختلف فيه قوم عن قوم.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

ميثاق الله لبني إسرائيل :

[83] هذا ميثاق الله مع الناس جميعا ، وهناك ميثاق من قبل الله مع بني إسرائيل بالذات ، ولكن نصوصه تختلف كلية عن ميثاق العنصرية المزعوم الذي

يزعم بإعطائهم صك الامان.
انما هو ميثـاق مسـئولية كاملة لو طبقوها لا صـبحوا خـير النـاس ، والا فهم شر النـاس جميعـا. اما نصـوص الميثاق فهي أولا :
(**وَإِذْ أَخَـذْنا مِيثـاقَ بَنِي إِسْـرائِيلَ لا تَعْبُـدُونَ إِلَّا اللهَ**)
ولا تعتـــــبرون قيمة العنصر أو القرابة أو اللغة أو ما أشـبه ، مقدسة عنـدكم الا بمقـدار ما تتفق مع سـنن الله وتعاليمه.
ثانيا :
(**وَبِالْوالِـدَيْنِ إِحْسـاناً وَذِي الْقُـرْبى وَالْيَتـامى وَالْمَساكِينِ**)
هؤلاء هم بشر وليسوا بآلهة لذلك لا يجـوز عبـادتهم .. بل يجب الإحسان إليهم فقـط. وفـرق كبـير بين الإحسـان والعبادة إذ ان الإحسان هو العطاء من يد عالية ، والعبـادة هي الخضوع لمن هو أعلى.
ثالثا :
(**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً**)
وحرام ان تعتـدوا على النـاس كلاميا فكيف بالاعتـداء العملي.
رابعا :
(**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ**)
ولا يجوز ترك الفـرائض اعتمـادا على انهم من عنصر بني إسرائيل ، أو ان آباءهم

كانوا أنبياء أو كانوا مقربين الى الله.

هـذه هي نصـوص الميثـاق ، ولو كـان بنو إسـرائيل طبقوها ، إذا لكـانوا مفضـلين على النـاس ، ولكنهم لم يطبقوها لذلك لم يستحقوا من الله جزاء ولا كرامة.

(**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**)

[84] خامسا : المحافظة الكاملة على حرمة الـدم ، وحرية الإنسان.

(**وَإِذْ أَخَـذْنا مِيثـاقَكُمْ لا تَسْـفِكُونَ دِمـاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ**)

هذه بعض نصوص الميثاق الذي شـددّ عليها ربنا وأخذ منهم إقرارا بها.

(**ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**)

اي أقررتم إقرارا واعيا ، بعد علم وتصميم.

[85] بيد انكم لم تطبقـوا نصـوص الميثـاق ، بل عكسـتم الحـال تماما ، فليس لكم اي حق على الله ان يـوفي من جانبه بعهـده تجـاهكم ، ويفضـلكم على النـاس تفضيلا.

(**ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ**)

وليس غـيركم ولا أحد سـواكم أنتم بالـذات تخـالفون نصوص الميثاق.

(**تَقْتُلُـونَ أَنْفُسَـكُمْ وَتُخْرِجُـونَ فَرِيقـاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ**)

يتعاون بعضهم مع البعض الآخر ضدهم.

(**بِالْإِثْمِ**) وهو العمل السيء الخاص بالشخص نفسه.

(**وَالْعُدْوانِ**)

وهو العمل الـــذي يضر الآخـــرين. اي ان أعمـــالكم تضركم أنفسكم وتضر الآخرين.

ولكنّ هذه الاعتداءات لا تقع على هـؤلاء عن جـدارة ، بل عن تعصب قبلي ، أو خلافـــــات داخلية باطلة ، وذلك بدليل انهم يهبّون لنجدة هؤلاء بالذات ، لو تعرضوا لعدوان خارجي. فلو كانوا مجرمين فعلا فلما ذا يدافعون عنهم؟

ان القــرآن يـدين الفكر العنصـري الـذي يقـول : انا واخي ضد ابن عمي ، وانا واخي وابن عمي ضد عــــدوي. ويقول :

(**وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَـرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ**)

ثم يبين ان هذا النوع من التفكـير لا يعتمد على قيم ، بل على أهواء.

(**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**)

ثم يحـدثنا بالنتـائج الطبيعية لهـذا النـوع من التفكـير العنصري الانتقائي الـذي يأخذ من الـدين ما يوافق الهـوى فقط ويقول :

(**فَما جَـزاءُ مَنْ يَفْعَـلُ ذلِـكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِـزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُـرَدُّونَ إِلى أَشَـدِّ الْعَـذابِ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)

[86] اما عذاب الدنيا فيتمثل في ابتعـادهم عن هـدى الله ، وما يوفره هذا الهدى من التقدم والفلاح ، حسب ما يذكره القرآن في الآيات التالية.

اما عـــذاب الآخـــرة فيـــذكره القـــرآن هنا لأنه الأشد والابقى ، ويبين لنا قبلئذ ان

هـذا التبعيض والانتقـاء في اتخـاذ احكـام الـدين ، انما هو نتيجة تعويض الآخرة بالدنيا ويقول

(**أُولئِكَ الَّذِينَ اشْـتَرَوُا الْحَيـاةَ الـدُّنْيا بِـالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**)

فلا يرحمهم من في السماء ولا ينفعهم أهل الأرض.

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْـدِهِ بِالرُّسُـلِ
وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ
أَفَكُلَّما جــاءَكُمْ رَسُــولٌ بِما لا تَهْــوى أَنْفُسُــكُمُ
اسْـتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقـاً كَـذَّبْتُمْ وَفَرِيقـاً تَقْتُلُـونَ (87)
وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَـلْ لَعَنَهُمُ اللَّـهُ بِكُفْـرِهِمْ فَقَلِيلاً
ما يُؤْمِنُـونَ (88) وَلَمَّا جـاءَهُمْ كِتـابٌ مِنْ عِنْـدِ اللَّـهِ
مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكـانُوا مِنْ قَبْـلُ يَسْـتَفْتِحُونَ عَلَى
الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ

---

87 [قفينا] أردفنا واتبعنا بعضهم خلف بعض وأصله من القفا.
[القـدس] الطهر والتقـديس التطهـير. ونقـول في صـفة الله تعـالى القدوس أي الطاهر.
88 [غلـــــف] جمع غلاف أي أن قلوبنا أوعية وغلف أي ممنوعة من القبول.
[لعنهم] اللعن هو الإقصاء والابعاد.

ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللـهِ عَلَى الْكـافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْـزَلَ اللـهُ بَغْيـاً أَنْ يُنَـزِّلَ اللـهُ مِنْ فَضْـلِهِ عَلى مَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبـادِهِ فَبـاؤُ بِغَضَـبٍ عَلى غَضَـبٍ وَلِلْكـافِرِينَ عَـذابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللـهُ قـالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَـقُّ مُصَـدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُـلْ فَلِمَ تَقْتُلُـونَ أَنْبِيـاءَ اللـهِ مِنْ قَبْـلُ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (91) وَلَقَـدْ جـاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظـالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا

---

90 [بغيا] البغي أصله الفسـاد مـأخوذ من قـولهم بغى الجـرح إذا فسد وقيل أصله الطلب لان الباغي يطلب التطاول.

[مهين] الاهانة والاذلال.

91 [ما وراءه] أي ما بعده. وقيل تأتى وراء بمعنى سوى.

ما آتَيْنـاكُمْ بِقُـوَّةٍ وَاسْـمَعُوا قـالُوا سَـمِعْنا وَعَصَـيْنا وَأُشْـرِبُوا فِي قُلُـوبِهِمُ الْعِجْـلَ بِكُفْـرِهِمْ قُـلْ بِئْسَـما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93))

---

93 [واسمعوا] أي أقبلوا ومنه قوله «سمع الله لمن حمده» أي قبل الله حمد من حمده.
[أشربوا] أصله من الشرب يقـال شـرّب وأشـرب غـيره إذا حمله على الشرب وأشرب قلبه حب كذا.

العنصرية والانغلاق الفكريّ

هدى من الآيات :

لقد أدت العنصـرية ببـني إسـرائيل الى نتـائج سـلبية شتى ، أولها العنف الداخلي الذي تمثل في قتل أو إخـراج جماعة منهم بالإثم والعدوان. وثانيها ـ وهي الأخطر والـتي يتناولها القـــرآن من جميع جوانبها ـــ فهي الانغلاق. حيث وضعت العنصرية بـني إسـرائيل في زنزانة ضـيقة ، منعت ان يتسرب إليهم أي نـور وهـدى. وتمثل ذلك في رفضـهم الدائم اتباع أي نبي أو أي أفكار رسالية جديدة.

في هذه المجموعة من الآيات يذكرنا القـرآن بموقف بني إسـرائيل من عيسى بن مـريم ، الـذي لم يكن ناشـئا من تفكير منطقي بل من أهواء ضالة ومصالح خاصة.

ثم مـوقفهم من رسـالة النـبي الـتي كـانوا يسـتعدون سـلفا لتقبلها ، ولكنهم ســرعان ما انقلبــوا ضــدها حين اكتشفوا أنها نزلت في غيرهم. ويبين لنا القرآن ان

عدم ايمانهم بهذه الرسالة ، نابع من عنصـريتهم الضـيقة. ثم يكشف القرآن عن جذر العنصرية ويقول ان جذرها هو عبادة العجل (رمز المال والجاه).

بينات من الآيات :

[87] كما انــزل الله الكتــاب على موسى أنزله على سائر النبـيين من بعـده ، وعلى عيسى بن مـريم ، فلما ذا تجمد بنو إســـرائيل على موسى عليه الســـلام ، هل لأنه كان من بني إسرائيل فعيسى (ع) كـان أيضا منهم. أم انه وحده انزل عليه الكتاب .. أو لم ينزل أيضا على عيسى؟

العلة ليست هذه أو تلك انما هي : ان العنصرية تؤدي بصـــاحبها الى الانغلاق الفكـــري ، ومن ثم الى الرجعية والجمـود. ان بـني إسـرائيل أخـذوا يقدسـون آبـاءهم ، ويقدسون أفكار أولئك وعـاداتهم ، انطلاقا من عنصـريتهم الضيقة. فلم يستطيعوا ان يطـوروا أنفسـهم وفق رسـالة عيسى الجديدة ، لذلك أنكروها .. يقول الله سبحانه :

(**وَلَقَـدْ آتَيْنا مُوسَــى الْكِتــابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْــدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ**)

الــتي دلت على رســالته بــالقطع واليقين ، وقطعت الطرق على كل مرتاب في رسالته.

(**وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**)

الذي أيد به سابقا النبي موسى عليه السـلام. ولكنكم ، يا بني إسرائيل ، لم تؤمنوا بعيسى لمّا جاءكم.

(**أَفَكُلَّما جــاءَكُمْ رَسُــولٌ بِما لا تَهْـوى أَنْفُسُـكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ**)

وتعاليتم عليه ، لأنكم في رأيكم الشعب المختار لله ، والله قد منّ عليكم بقيم وأفكارٍ وعـادات لا يوجد مثيل لها في العالم ، وبالتالي ليس في الرسالة الجديدة أي شــيء جديد يمكن ان يضـاف الى رسـالتكم .. انكم تعـديتم الحد في تعاملكم مع رسل الله.

(**فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ**)

وسواء كذبتم أو قتلتم فان الخاسر الوحيد هو أنتم.

سبب التكذيب :

[88] لما ذا كذبتم بالرسل؟

لأنكم انغلقتم على عنصـريتكم الضـيقة ، ولكن أليس بامكــانكم فك حصـــار العنصـــرية والتحـــررِ من رجعيتها وجمودهــا؟ .. بلى ، فــأنتم إذا المســؤولون عن كفــركم مباشرة ، ولا يجديكم أبدا : التبرير بأنكم منغلقـون نفسـيا في التملص من مسئولية كفركم بالرسالة الجديدة.

(**وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ**)

لا تـدخلها نصـائح جديـدة أو تعـاليم. كلا ، ان الله لم يخلق بعض القلـوب منغلقة وبعضـها منفتحة ، انما النـاس بكفرهم أو ايمانهم ينفتحـون أو ينغلقـون امـام التوجيهـات الجديدة.

(**بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ**)

فكفرهم هو الذي سبب انغلاق قلوبهم.

(**فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ**)

إذا أصـبح الايمـان بالنسـبة إليهم مهمة صـعبة ، قلما يقـوم بها النـاس العنصـريون الـذين اختـاروا الكفر على الايمان.

[89] ثم يضرب الله مثلا آخر من واقعهم العنصـري ، انهم انغلقـوا عن نـور الرسـالة الجديـدة الـتي هبطت مع النبي محمد (ص) بالرغم من انهم كانوا ينتظرونها ، وذلك لأنهم وجدوا انها نزلت في غيرهم.

(**وَلَمَّا جـاءَهُمْ كِتـابٌ مِنْ عِنْـدِ اللـهِ مُصَـدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكـــانُوا مِنْ قَبْـــلُ يَسْـــتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا**)

بهذا الكتاب الجديد ، وينتظرون مقدمه حـتى يحـاربوا به كفار الجزيرة العربية.

(**فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا**)

انه من الله ، وأنّه رسـالة جديـدة يحتـاج إليها العـالم وبالذات محيطهم المتخلف من الشعب الجاهلي.

(**كَفَرُوا بِهِ**)

وماذا ينتظر من يكفر بهذه الرسالة الـتي يحتـاج إليها النـاس جميعا ، ويعـترف هو بحاجة النـاس إليها ، أو ليس الابتعاد عن السعادة والفلاح؟

(**فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرِينَ**)

[90] لماذا وكيف تنشأ العنصرية؟

تنشأ العنصرية أساسا من حب الدنيا والعمل من أجل المصالح المشتركة

لمجموعة بشـرية ، وتتضـخم هـذه المصـالح في نفوسـهم حــتى تتحــول الى عنصــرية ، والســؤال الآن : مــاذا لو أصبحت العنصرية شرا على أصحابها ، هل عليهم التشبث بها الى الأبد؟

القرآن الحكيم يذّكّر هؤلاء العنصريين بمدى الخسـارة التي تلحقهم في الدنيا بسبب هذا التفكـير الارعن ويقـول لهم بلغة فطرية مبسطة.

(**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ**)

أي بئست الذاتية والعنصــرية الــتي تعــني ان يــبيع الإنسان كل شيء في الحياة ، ويشتري في مقابلها نفسه ، وبتعبير أخر : بئست العملية هذه الـتي يضـحي الإنسـان بكل شيء في سـبيل مصـالحه الذاتية ، إذ أن ذلك سـوف يسبب لهم الدمار لأنه سوف يؤدي الى.

(**أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً**)

بما أنــزل من الكتــاب والحكمة والنــور والهـدى وكل خير ، لماذا؟ بسبب التفكير العنصـري وذلك بالاحتجـاج ب ..

(**أَنْ يُنَــزِّلَ اللــهُ مِنْ فَضْــلِهِ عَلى مَنْ يَشــاءُ مِنْ عِبادِهِ**)

فبما أنّ الله اختــار لرســالته مهبطا أخر غــير بــني إسـرائيل كفـروا بالرسـالة ، فمن هو الخاسر غـيرهم. هل صحيح مثلا ان يمتنع أحد المواطنين من أخذ ارض تقسّمها الدولة لمجرد ان الموظف ليس ابن عمه ، وماذا يضره ما دام أنه يأخذ الأرض ويحقق هدفه بها ، لــذلك فــان هــؤلاء خسروا أنفسهم.

(**فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ**)

إذ كانوا في تخلف ، فأصبحوا أشد تخلفا بسبب تقـدم غيرهم عليهم ، حين آمن الناس بالرسالة وكفروا هم بهـا. وكانوا كفارا فازدادوا كفرا.

(**وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ**)

وانهم سـوف لا يحققـون هـدفهم من الاسـتكبار عن الايمـان بالرسـالة. إذ ان هـدفهم العـزة والتعـالي ، بينما كفـرهم بالرسـالة سـوف يسـبب لهم التخلف والجمـود وألـوان المشـاكل وبالتـالي يسـبب لهم الـذل والعـذاب المهين.

[91] ثم يكشف القـــرآن جانبا آخر من العنصـــرية ، وهو ان العنصـــرية ذاتها نتيجة وليست ســـببا ، وســـبب العنصـــرية هو حب المـــال ، ورمـــزه المتمثل في عبـــادة العجل.

وهؤلاء يحبون المال حبا أعمى ، ويزعمون انه سـوف يحقق كل طموحاتهم ، ويعطيهم العـزة والسـعادة. لـذلك تجدهم لا يؤمنون بالرسـالات الجديـدة خشـية ان يفقـدهم الايمـــان بها بعضا من امتيـــازاتهم ومكاســـبهم الخاصة ، ولكنهم لا يصـــرحون بـــذلك ، بل يقولـــون اننا نكتفي بما عندنا من كتاب وحكمة.

(**وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللـهُ قـالُوا نُـؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ**)

ولكنهم يكذبون في ذلك ، ويـدل على كـذبهم ان هـذا الكتاب لا يختلف عن كتاب الله الذي انزل عليهم.

(**وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ**)

انما يكفرون بهذه الرسـالة حـتى لا يفقـدوا زعـامتهم ومكاسبهم ، والدليل على

ذلك انهم كانوا يقتلون الأنبياء الـذين أرسـلوا إليهم لـذات السبب.

(**قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُـونَ أَنْبِيـاءَ اللـهِ مِنْ قَبْـلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

[92] حتى موسى الـذي تـدعون انكم تتبعونه كفـرتم به مع انه جاءكم بالبينات الواضحة.

(**وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ**)

ثم كفـرتم به ، إذا فـالتبرير بـأن رسـالة محمد (ص) نـزلت على غيرنا ولـذلك لا نـؤمن بها تـبرير خـاطئ ، وأنّ السبب الحقيقي هو المحافظة على المصالح الذاتية الـتي تعيش في لا وعيكم أو حتى في وعيكم.

اما قصة عبـــادة العجل في اللاوعي ، حيث لم تـــزل جـذور عبـادة المـال متأصـلة في نفوسـكم ، فكـانت مع موسى أول مرة حيث انكم آمنتم به ظاهرا.

(**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ**)

حيث خدعكم السـامري بعد ان ذهب موسى لميقـات ربه ، ودفعكم شـــــعوركم الســـــابق بقداسة العجل الى اتباعه.

[93] اما قصة عبادتكم العجل بشـكل ظـاهر فكـانت بعد ان أخذ الله ميثاقكم.

(**وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَـوْقَكُمُ الطُّورَ خُـذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَعَصَيْنا**)

لمـــاذا العصـــيان بعد الســـماع؟ لأنهم في الواقع لا يزالون يعبدون المال ورمزه

العجل.

(**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ**)

حتى أصبح حب العجل في قلوبهم كالماء حين تشربه الأرض اليابسة ، يمـــتزج مع كل ذرة من تـــراب الأرض ، فكيف يمكن فصل الماء عن الأرض. انه يشبه المســتحيل ولكنه ليس مســتحيلا لان الايمـــان يمكنه ان يطهّر القلب من مـزيج الكفر لو وجد هنـاك ايمـان صـادق ، وهـؤلاء لم يشرّب قلوبهم حب العجل الا.

(**بِكُفْرِهِمْ**)

الحقيقي ، وايمــانهم الكـاذب ، إذ ليس هنالك ايمــان يتعايش مع الكفر ، ويأمر بالكفر كلا.

(**قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

الايمان الصادق يأمر صاحبه بالتضحية وتصــديق الحق أنّى كــان وبالتســليم لأمر اللـــه. وما عنــدكم ليس ايمانا بالمرة .. انما هو كفر ملبس بظاهر من الايمان.

(**قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللـهِ خالِصَـةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَــوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صــادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ وَاللـهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْـرَصَ النَّاسِ عَلى حَيـاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَـوَدُّ أَحَـدُهُمْ لَـوْ يُعَمَّرُ أَلْـفَ سَـنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِـهِ مِنَ الْعَـذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللـهُ بَصِـيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (96) قُلْ**

---

94 [خالصـة] الخالصة الصـافية يقـال خلص لي هـذا الأمر أي صـار لي وحدي وصفا لي.

96 [أحرص] الحرص شدة الطلب.

[يود] المودة المحبة.

[يعمّر] التعمير طول العمر وأصله من العمارة الذي هو ضد الخراب.

[بمزحزحه] الزحزحة التنحية.

مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (98) وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلاَّ الْفاسِقُونَ (99) أَوَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (100))

---

99 [آيات] الآية العلامة التي فيها عبرة وقيل العلامة التي فيها الحجة.
[بينات] البينة الدلالة الفاصلة الواضحة بين القضية الصادقة والكاذبة مأخوذة من إبانة أحد الشيئين من الآخر ليزول التباسه به.
100 [نبذه] النبذ طرحك الشيء عن يدك أمامك أو خلفك وقيل معنى نبذه تركه وقيل ألقاه.

العنصرية والكفر بالملائكة

هدى من الآيات :

في هذه المجموعة من الآيات ، لا يزال القرآن يحدثنا عن العنصــرية ، ومــدى ارتباطها بحب الــذات والانانية ، وانها ليست في الواقع الا إطارا لممارسة الكفر ، بـالرغم من ظــاهر الايمــان فيهــا. والــدليل على ذلك ، تشــبث العنصــريين بالحيـاة وعـداؤهم لجبرائيل وميكائيل ومن ثم عـداؤهم لله والرسل ، هـذا العـداء الـذي يسـبب الـدمار عليهم.

بينات من الآيات :

[94] العنصــريون في التــاريخ وفي عالمنا اليــوم ، يغلفون انانيتهم المقيتة بغطاء من القيم الزائفة ، ليخدعوا الناس والبسطاء من أصحابهم. فالاسرائيليون قديما كانوا يـــدعون انهم حملة الرســالة ، وللمحافظة على هـــذه الرســالة لا بد ان يــدافعوا عن ذاتهم ويعملــوا في ســبيل دعم الـذات بأية وسـيلة ممكنـة. وهم اليـوم يـدعّون انهم حملة الحضــارة للعــرب ، (الحريــة+ التقــدم) وعليهم ان يؤدبوا العرب الوحوش بأية وسيلة ممكنة حتى

ولو كانت هذه الوسـيلة أكـثر وحشـية من شـرائع الغـاب. والنازية كـانت تـدعي حمايتها للكنيسة ، وتقــوم بأعمالها تحت غطـاء اسم الله ، والـبيض في افريقيا يقولـون انهم طلائع الحضارة الغربية ، والاستعمار قبلئذ كـان يـدعي انه يحمل العمارة والحضارة الى العالم.

ولكن هــذا الخــداع الــذاتي ســوف يــذوب في وهج الحقيقة الــتي يـذكرنا بها القــرآن هنا ، حين يــأمر هـؤلاء بـالموت في سـبيل اهـدافهم هـذه .. فهل هم مسـتعدون لذلك؟ كلا.

(**قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللـهِ خالِصَـةً مِنْ دُونِ النَّاسِ**)

وانكم تدافعون عن قيم الله في الأرض إذا.

(**فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

[95] ولكن هل يفعلون ذلك؟ كلا.

(**وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً**)

لأنهم يعرفون مدى الجرائم التي اقترفوها في حياتهم وانه ينتظرهم هنالك جزاؤهم العادل.

(**بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**)

[96] وهؤلاء ليس فقط لا يتمنون الموت بل بالعكس يتشبثون بالحياة بعنف.

(**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ**)

انهم احرص على حياة ، اية حياة كـانت ، بـذل أم بعز ، بفقر أم بغنى ، بقيم أو

بدون قيم ، بل انهم احـرص من الكفـار الـذين لا يملكـون اية قيم.

(**وَمِنَ الَّذِينَ أَشْـرَكُوا يَـوَدُّ أَحَـدُهُمْ لَـوْ يُعَمَّرُ أَلْـفَ سَنَةٍ**)

ولكن لو افترضنا انه عمّر الف سـنة فهل يتخلص من العذاب .. كلا.

(**وَما هُـوَ بِمُزَحْزِحِـهِ مِنَ الْعَـذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللـهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ**)

من الجرائم وسوف يعاقبهم عليها عاجلا أم آجلا.

[97] ان عداء هـؤلاء مع الرسـالة الجديـدة ناشئ في الواقع من عدائهم للحق ، فهم يعيشون حالة التناقض بين الحق وبين مصـــالحهم الذاتية ، والحق يمثله جبريل ملك الوحي ، ملك القضاء.

(**قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ**)

فليعرف ان جبريل هو ملك الوحي وانه يهبط بالكتاب من السماء.

(**فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ**)

ولكن جبريل بـــدوره ليس الا مـــأمورا من قبل الله ، فهو لم يـــنزل الكتـــاب على النـــبي محمد (ص) من قبل نفسه ، بل.

(**بِإِذْنِ اللهِ**)

والدليل على انه من قبل الله كونه.

مصدقا لما بين يديه

من الكتب السابقة ثم انه هدى وبشرى لمن آمن به.
(**وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ**)
[98] إذا فالعــداء للحق يصــعد الى العــداء لجبريل ، ومن ثم لله ، وهل يستطيع ان يعادي البشر ربه.
(**مَنْ كـانَ عَـدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَرُسُـلِهِ وَجِبْرِيـلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ**)
وســـوف يعـــاقبهم الله إذ لا يمكن التفريق بين الله وبين ملائكته أو رسله ، ولا بين رسله بعضهم عن بعض.
[99] والقضاء والقدر (الســنن الثابتة والمتطـورة في الحياة) متمثلة الآن في رسالة محمد (ص).
(**وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ**)
والذين يخالفونها ويكفـرون بالرسـالة ، لا يسـتطيعون ان يؤمنوا بشيء.
(**وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ**)
الذين يخالفون عهد الله.
[100] ولكن الى متى يخالف الإنسان عهده مع الله.
(**أَوَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ**)
هو ذلك الفريق الذي يخالف العهد مصالحه ، مما يدل على انهم لا يتبعون الدين

ولا يلتزمون بالعهود ، بل يتبعون ـ في الواقع ـ أهواءهم ـ (**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**) بـــالحق انما بما تمليه مصـــالحهم الذاتية وشـــهواتهم واهواؤهم.

(**وَلَمَّا جـاءَهُمْ رَسُـولٌ مِنْ عِنْـدِ اللـهِ مُصَـدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتـابَ كِتـابَ اللـهِ وَراءَ ظُهُـورِهِمْ كَـأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُـونَ (101) وَاتَّبَعُـوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَـرُوا يُعَلِّمُـونَ النَّاسَ السِّـحْرَ وَما أُنْــزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِــلَ هــارُوتَ وَمــارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ**

---

102 [اتبعوا] اتبع اقتدى به.

[تتلوا] تتبع والتالي تابع وقيل معناه تقرأ من تلوت الكتاب أي قرأته.

[السحر] عمل خفي لخفاء سـببه يصـور الشـيء بخلاف صـورته ويقلبه عن جنسه في الظاهر ولا يقلبه عن جنسه في الحقيقة.

[فتنة] الفتنة الامتحان والاختبار يقال فتنته فتنة.

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (103))

[خلاق] نصيب من الخير.

103 [مثوبة] الثواب والأجر والأصل في الثواب ما رجع إليك من شيء.

السحر والشعوذة .. نهاية المطاف

هدى من الآيات :

بعد مرحلة القوة جاءت مرحلة الضـعف في امة بـني إسرائيل ، وبعدها كـانت العنصـرية ، ومن ثم تـأتي مرحلة الخرافة المتمثلة في السحر والشعوذة.

حيث ان الامة العنصرية تنغلق على ذاتها .. «**وَقـالُوا قُلُوبُنا غُلْــفٌ**» وتبتعد عن توجيهــات الله ، وعن ســنن التـاريخ ، وتجـارب النـاس ، وتســتكبر على الحق وليس امامها بعدئذ الا الهبوط الى حضيض السحر والشعوذة.

فيتنـاول القـرآن الحكيم هـذه المرحلة بايجـاز فيبـدأ بالحـديث عن تـرك بـني إسـرائيل للكتـاب ليـبين الله أنه السـبب في تشـبثهم بالسـحر. لان من لا يمتلك تفسـيرا صـحيحا للحيـاة ورؤية علمية الى اهـدافها ، يضـطر الى البحث عن تفسيرات غيبية ورؤي باطلة.

وحيث يتحدث عن السـحر ينفي القـرآن قصة مختلقة من بــني إســرائيل تــزعم ان الســحر من الله ، وينهي الحديث ببيان ان التمسك بالكتاب أفضل لهم من التشبث بالسحر.

بينات من الآيات :

[101] (**وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

[102] وبسبب هذا النبذ وجد فراغ ثقافي في حياتهم فالتفتوا الى السحر والشعوذة والأفكار الغيبية الباطلة فلم يجدوها الا عند الشياطين.

(**وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ**)

من السحر ، ذلك ان سليمان كان نبيا من بني إسرائيل وملكا ، وكانت الشياطين تخدمه ، وقد خلفت وراءها مجموعة من الأفكار الباطلة.

هؤلاء تركوا الكتاب المنزل من الله الذي كان هو الحق مصدقا لما بين أيديهم وما خلفهم ثم ذهبوا واتبعوا أفكار الشياطين. هذه نهاية العنصريّة أنها لا تفرق بين أفكار شياطين الملك ، ان كانت من نفس العنصر وبين الأفكار الصحيحة التي يأتي بها نبي مرسل من الله.

والمشكلة انهم قالوا : ما دامت هذه الأفكار من بنات فكر الشياطين الذين كانوا حول سليمان ، وما دام سليمان نبي الله ، فاذا هذه الأفكار هي من الله سبحانه ، ولكن الله نفى بشدة هذه المعادلة الباطلة.

وقال :

(**وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**)

والسحر هو الكفر لأنه يربط الحياة بقوى غيبية غير الله سبحانه.

(**وَما أُنْزِلَ**)

السحر أبدا كما تدعي هذه الطائفة العنصرية.

(**عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ**)

فهاروت ومـاروت ما كانا ملكين ، ولـذلك لا يمكن ان تنزل عليهما رسالة إلهية.

(**وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ**)

وهل من المعقـــول ان يبعث الله نبـــيين يخـــدعان الناس؟!

(**فَلا تَكْفُرْ**)

إذ ان نسبة السحر الى الله هو كفر بذاته.

والسـحر لا يمكن ان يكـون من قبل الله لأنه يخـالف مسيرة رسالاته ويتناقض معها تناقضا كليا ، إذ ان رسالات الله دعوة الى الترابط والانتفـاع في الحيـاة ، بينما هـؤلاء يتعلمون من السحر التدابر والضرر.

(**فَيَتَعَلَّمُـونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُـونَ بِــهِ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَزَوْجِهِ**)

ولكن هذه التفرقة ليست حتمية إذ ان السحر لا يـؤثر تأثيرا أكيدا في الحياة بل الله وسننه ، وارادة الإنسان هي التي تؤثر في الحياة.

(**وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**)

اي انهم لا يضرون اي أحد بالسحر الا عبر قوانين الله ، فالله ورسالاته أجـدر بالاتبـاع وعموما : السـحر يضر ولا ينفع. بينما رسالات الله تنفع ولا تضر.

(**وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ**)

ورسالات السماء تنفع الإنسان في الآخرة بينما السـحر لا ينفع هنالك شيئا.

(**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَـهُ فِي الْآخِـرَةِ مِنْ خَلاقٍ**)

أي ان اي نصيب لا يملكه الساحر في الآخـرة لطبيعة اعماله المنافية للدين في الدنيا.

(**وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**)

أنه تفرقة وضرر في الدنيا ، وخسارة في الآخرة.

[103] (**وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا**)

برسالات الله.

(**وَاتَّقَوْا**)

بتطبيقها على أنفسهم تطبيقا سليما كـان أفضل لهم. إذ.

(**لَمَثُوبَةٌ**)

وجزاء حسن.

(**مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**)

بيد ان العنصريين لا يفقدون هدى الرسالة وحـدها بل يفقـدون العلم أيضا ، والعلم بعيد عن السـحر بعد الأرض عن السماء.

هـذه نهاية المطـاف لبـني إسـرائيل ، وفي مراحل حياتهم عبر كثيرة لنا ، وللأمم.

وخلاصة الدرس ..

ان مخالفة رســالة الســماء ومن ثم ضــعف تطــبيق أوامر الله ســـيؤدي الى العنصـــرية ، ثم الى فقـــدان كل شيء ، وآخر ما يفقده الإنسان بسبب العنصرية هو العلم.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا لا تَقُولُـــوا راعِنا وَقُولُـــوا انْظُرْنا وَاسْـمَعُوا وَلِلْكـافِرِينَ عَـذابٌ أَلِيمٌ (104) ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتـابِ وَلا الْمُشْـرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللـهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِـهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)**

---

104 [راعنـــا] المراعـــاة التفقد للشـــيء في نفسه أو أحواله ونقيض المراعـاة الاغفـال ورعى الله فلانا أي حفظـه. وكـان اليهـود يقصـدون بكلمة راعنا معنا آخر وهو الرعونة.

[انظرنـــا] النظر تقليب البصر والبصـــيرة لادراك الشـــيء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص وقد تأتي بمعنى انتظرنا نفهم ونتبين ما علمنا.

[أسمعوا] يحتمل أحد أمرين : (أحدهما) أن معناه أقبلوا ما يأمركم به و (الثاني) أن معناه استمعوا ما يأتيكم به الرسول.

**ما نَنْسَخْ مِنْ آيَـةٍ أَوْ نُنْسِـها نَـأْتِ بِخَيْـرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللـهَ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (106) أَلَمْ
تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللـهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِـيرٍ (107) أَمْ تُرِيـدُونَ أَنْ
تَسْـئَلُوا رَسُـولَكُمْ كَما سُـئِلَ مُوسى مِنْ قَبْـلُ وَمَنْ
يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (108)
وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ
كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِـهِمْ مِنْ بَعْـدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ
الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ
عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**

---

106 [ننسـخ] النسخ في اللغة إبطـال الشـيء واقامة آخر مقامه يقـال نسخت الشمس الظل أي أذهبته وحلت محله وأصل الباب الإبـدال من الشيء غيره.

109 [حسـدا] الحسد إرادة زوال نعمة المحسـود اليه أو كراهة النعمة التي هو فيها وإرادة أن تصير تلك النعمة كلها له. وأشد الحسد التعرض للاغتمام بكون الخير لأحد.

[اصفحوا] الصفح بمعنى العفو والتجاوز عن الذنب.

(وَأَقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَآتُـوا الزَّكـاةَ وَما تُقَـدِّمُوا (109
لِأَنْفُسِـكُمْ مِنْ خَيْـرٍ تَجِـدُوهُ عِنْـدَ اللـهِ إِنَّ اللـهَ بِما
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110))

نحن والثقافات الدخيلة

هدى من الآيات :

لا زلنا في اطار الحديث عن بـني إسـرائيل ، فبعد ان رافقنـــاهم في مراحل تطـــورهم. نقف الآن برهة نعتـــبر دروسا من حيــاتهم ، وأهم ما يــبين لنا القــرآن في هــذه الآيات ان يحذرنا من التأثر بالأفكار الغريبة والدخيلة.

ويعطينا القرآن أول درس من حياتهم من خلال النهي عن تكرار مقالتهم (راعنا) بتبديلها بأخرى أفضل منها وهي (انظرنا).

ثم يؤكد للامة الاسلامية شخصيتها المتميزة عن الأمم الاخــرى يقـول لهم ان أولئك يحســدونكم على فضل الله لكم ويقـول : انكم تملكـون أفضل مما يملكـون أو لا أقل مثل ما يملكون من الهدى.

كما ينهى الامة الاســلامية ان تتـــورط في مشـــكلة تجســيم الله كما فعل بنو إســرائيل ، ويؤكد لنا ضــرورة الحذر من التأثر بثقافتهم ، ويأمرنا بالصلاة والزكاة

كقوة اساسية للأمة ، ويحذرنا من استيراد انظمة الآخرين ، والاعتماد على ثقافتهم.

بينات من الآيات :

راعنا وانظرنا :

أولا : دعنا نستمع الى المفسّـرين يـذكرون لنا معـنى راعنا وانظرنا ، يقول الشـيخ الطبرسي (ره) : المراعـاة ، والمحافظة ، والمراقبة ، نظـــائر. وعكس المراعـــاة : الإغفـــــال ، ورعى الله فلانا أيّ حفظه ورعيت له حقه وعهـده فيمن خلف ، وأرعيته سـمعي إذا أصـغيت اليه ، وراعيته يعني إذا لاحظته ، وجمع الراعي رعـاء ، ورعـاة ، ورعيـــان. وكـــلّ من ولي قوما فهو راعيهم وهم رعيته ، والمــرعي من النــاس المســوس ، والــراعي الســائس واســترعاه الله اســتخلفه ، أي ولاه أمــرهم يرعــاهم ، والإرعــاء الإبقــاء على أخيك والاسم الرعــوي والرعيا ، وراعني سمعك أيّ استمع. [1]

أقــول : ويبــدو من اســتخدامات الكلمة انها أشد من الحفظ اهتماما ، وألين من الرقابة جانبا ، فــالراعي للغنم ، ليس يحفظه فقط بل ويهتم بشـؤونه ، وهكـذا السـائس لبلده يهتم بشؤون رعيته أيّما اهتمام. وبينما (الحفــظ) هو منع الخطر عن الشــيء أو الشــخص المحفــوظ ، فــان الرعاية تنطوي على معنى جلب المنفعة أيضا ، بل تــوحي لفظة المراعــاة والرعاية إذا اســتخدمت في العلاقة بين الأمـير والمـأمور ، والحـاكم والمحكـوم ، تخفيف القـانون وتيسيره. أما كلمة انظرنا : فقال الشيخ الطبرسي عنها : ونظرت الرجل أنظره نظرة بمعنى انتظرته وارتقبته. [2]

وقال الفخر الرازي : وأما قول وانظرنا ففيه وجــوه ، أحدها : انه من نظره

---

(1) مجمع البيان ج 1 ص 178
(2) مجمع البيان المصدر

أي انتظره. قال تعالى : «**انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ**» فأوهم تعالى بان يسألوه الإمهال ينقلـوا عنه فلا يحتـاجون الى الاستفادة «وأضاف» وثانيها : انظرنا معنـاه انظر إلينا ، إلّا انه حذف حـرف الى ، ثم قـال : وثالثها : قـرأ أبي بن كعب «انظرنا» (أيّ بهمزة القطع) من النظرة أيّ أمهلنـا.[1]

ثانيا : آراء المفسـرين في معـنى هـذه الآية اختلفت اختلافا كبيرا ، واذكر فيما يلي :

1 ـ ان هذه الكلمة كانت تستخدم عند اليهـود ، فنهي المسلمون عن استخدامها. وسواء كانت تعتبر سبا عندهم إذ انهم كـانوا يقصـدون بها الرعونة أو راعي الأغنـام أو لمجـرد شـياعها لـديهم. إذ ان هـذه الكلمة هي الشـائعة سواء هـذا أو ذاك فـان نهي القـرآن عن اسـتخدامها كـان بسبب اليهود وقد جاء في حديث مأثور عن الامـام البـاقر عليه السلام ان هذه الكلمة سبّ بالعبرانية.[2]

وروي ان سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا أعـداء الله عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده لان سـمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربنّ عنقـه. فقـالوا : أو لستم تقولونها؟ فنزلت هذه الآية.[3]

وجـاء في حـديث مـأثور عن الإمـام موسى بن جعفر عليهما السلام وأنزل :

«**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَقُولُـوا راعِنا**» فانها لفظة يتوصل بها أعـداؤكم من اليهـود الى سب رسـول الله وشـنئكم «**وَقُولُـوا انْظُرْنا**» أيّ قولـوا بهـذه اللفظة لا بلفظة

---

(1) الفخر الرازي ج 2 ص 224

(2) مجمع البيان ج 1 ص 178

(3) الفخر الرازي ج 2 ص 224

«راعنا» فانه ليس فيها ما في قولكم راعنا ولا يمكنهم ان يتوصلوا بها الى الشتم كما يمكنهم بقولهم راعنا واسمعوا إذا قال لكم رسول الله قولا وأطيعوا «وللكافرين» يعني اليهود الشاتمين لرسول الله «**عَذابٌ أَلِيمٌ**» إن عادوا لشتمهم ، وفي الآخرة بالخلود في النار) [1]

وانطلاقا من هذا التفسير فان النهي عن استخدام كلمات متشابهة ، ربما يهدف الاستقلال الثقافي عنهم ، وكما يهدف عدم إعطاء ذريعة لهم للنيل من شخصيّة الرسول صلّى الله عليه وآله.

2 ـ ان هذه الكلمة كانت تستخدم عند قريش في الاستهزاء أو لا أقل عند تساوي المتخاطبين ، فجاء النهي عند استخدام مثل هذه الكلمات في حضرة الرسول كما يقول القرآن «**لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً**».

3 ـ بالرغم من ان هذه التفاسير تبدو قريبة وربما كانت بعض أبعاد الآية إلا ان هناك احتمالا آخرا هو أن يكون معنى المراعاة تخفيف الأحكام ، بينما يكون معنى «انظرنا» الإمهال.

وبناء على ذلك فإن المنهي عنه هو البحث عن تخفيف الأحكام الشرعية المأثورية ـ بدلا من ذلك ـ طلب المهلة وفرق كبير بينهما لما يلي :

لأنّه تختلف ..

[104] تختلف المجتمعات القوية عن الضعيفة في انّ الاولى طموحه ، يتطلع أبناؤها لتحقيق المزيد من الانجازات ، ولان طاقاتها محدودة فهي تبرمج اهدافها

(1) البرهان ج 1 ص 139

لتحقيقها شيئا فشـيئا ، بينما المجتمعـات الضـعيفة تحـاول تحقيق واجباتها قـــدر الإمكـــان ودون برمجة لأنها تفقد تطلعاتها البعيدة.

ويبدو ان بني إسرائيل كانوا في أخريات حيـاتهم كامة ، يطــالبون بتخفيف واجبــاتهم ، ويكـــررون هــذه الكلمة (راعنـا) فهم يقولـون : راعنا في الصـلاة .. في الزكـاة .. في الجهاد .. وفي كل شيء يأمرهم به انبيـاؤهم وقـادتهم وهذه الكلمة تشبه كلمة اعفني من هذا.

ولعلّ الله أرادنا الا نكون ضعيفي الارادة ، فأمرنا بأن نتطلب التــدرج في تحقيق الواجبـــات لا إلغاءها رأسا ، واختار لنا كلمة انظرنا (اي أمهلنـا) بـدل كلمة راعنا حـتى نطبق الواجب وقال تعالى :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا لا تَقُولُــوا راعِنا وَقُولُــوا انْظُرْنا**)

ثم أمرنا بـأن نســمع ونــؤمن لان الله أعد للكــافرين عذابا أليما.

(**وَاسْمَعُوا وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

[105] الامة الاسلامية متصـلة بالله مباشـرة ، وعليها ان تستقي قيمها وثقافتها من رسالة الله التي أوحيت الى محمد (ص) ، والمشركون وأهل الكتاب ليسوا بأفضل من الامة الاســلامية ثقافة ، وليس هــذا ســبب ابتعــادهم عن الثقافة الاسلامية .. بل السـبب الوحيد هو انهم عنصـريون وجهلاء ابتعـدوا عن الإســلام لأنه نــزل على غــيرهم ، ولو نزل في بيوتهم ـ فرضا ـ إذا لاحتضنوه.

(**ما يَــوَدُّ الَّذِينَ كَفَــرُوا مِنْ أَهْــلِ الْكِتــابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ**)

وهم يعتبرون الرسالة خيرا. فضلّ غيرهم به ، لذلك يتميّزون غضبا وقال الله لهم ببساطة : (**اللـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ**).

(**وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ**)

والرسالة كأية رحمة اخرى ينزّلها الله حسب ما يشاء لا حسبما يشاء الناس.

(**وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**)

يمكنه ان يعم الناس كلهم بفضله لو لم يتحاسدوا ، وإذا أخلصوا لله عملهم فبامكان المشرك أو اليهودي ان يصبح مسلما صادقا يتقدم على كثير من المؤمنين السابقين ذلك ان المجال مفتوح امام الجميع ، ورحمة الله واسعة تشمل الجميع.

رسالات الله وتطور الزمن :

[106] ليست الثقافة الاسلامية أردى (حاشا لله) من ثقافة الآخرين ، وإذا كان للآخرين كتاب فللمسلمين كتاب كريم أيضا. لان ينبوع فضل الله الذي انزل ذلك الكتاب انزل كتابا أفضل من ذلك الكتاب لأنه كتاب جديد فيه ما ينفع الحياة الحاضرة والمستقبل.

(**ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

النسخ هو : تطوير أسلوب الحكم بما يتناسب مع تطور الحياة بالرغم من وجود ذات الحكم ، مثل حكم الصلاة ، كانت الى المسجد الأقصى في الشرائع السابقة ، فتحولت القبلة الى الكعبة. فالصلاة هي الصلاة ولكن تغيّرت قبلتها. وقد يكون النسخ : هو : بإلغاء الحكم رأسا مثل المحرمات التي كانت على بني إسرائيل في

الأكل فألغيت في الشريعة الاسلامية.

والله حين ينسخ شـريعة ينسخ قيـادة تلك الشـريعة ، أو ذلك الشخص الذي يجسد تلك الشريعة أيضـا. فموسى وعيسى (عليهما السلام) نسخت شـرائعهما وانتهت فـترة قيادتهما للناس ، والآية بهذا المعنى تشمل الإنسـان القائد الـذي يجسد آيـات الله عمليـا. إذا كلام الله يـدل على ان لكل عصر قادته الــذين يســتمدون من الــدين الأحكــام المتصلة بظروفهم ، والله قـادر على إبـداع آيـات جديـدة. وبعث قادة جدد. وقد جاء في النصوص تفسـير هـذه الآية بوفاة امام عادل وقيام إمام أخر مقامه.

[107] ويجب ان لا يخشى الإنســان من ســلطة من يمثلون الأفكار السابقة المنسوخة بفعل تطور الحياة ، بل يخشى الله سـبحانه لأنه هو المالك للسـماوات والأرض ، وهو الولي النصير ، وولي العالمين وحده.

(**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللـهَ لَـهُ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**)

وهذه الآيات والتي سبقت ، تأمر الامة بـالتفكير جـديا في التقدم المستمر ، وعدم الخوف من الجديد لمجرد ان الفكر الجديد قد لا يكــون أفضل من الســابق ، وعــدم الخشــية من النــاس المــرتبطين بالأشــياء القديمة ، بل الخشية من الله وحده.

ولقد وقعت هاتان الآيتان في محيط الجزيــرة العربية المحافظة والراكدة وقع الصواعق. حيث استطاع الرسول ان يزلـزل الأوضـاع القديمة من الأسـاس ، ويبـني مكانها كيانا جديــدا بل صــنع مجتمعا تقــدميا يبحث عن الإبــداع والتطـوير ، حـتى احتـاج هـذا المجتمع الى ضـوابط كابحة كالتي قالها الرسول (كل بدعة ضلالة).

[108] ويــــأتي القــــرآن بمثل على طبيعة الثقافة القديمة ، كيف كانت ثقافة

مشوبة بالشرك ، ويقول : ان اتباعكم أو حتى اسـتماعكم الى هذه الثقافات سوف يبعدكم عن الحق.

(**أَمْ تُرِيــدُونَ أَنْ تَسْــئَلُوا رَسُــولَكُمْ كَما سُــئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ**)

إذ قالوا له (أرنا الله جهرة) ، هل تريدون ان تصـبحوا كفارا بعد الايمان ، ومشركين بعد ان أصبحتم حنفاء.

(**وَمَنْ يَتَبَـدَّلِ الْكُفْـرَ بِالْإِيمـانِ فَقَـدْ ضَـلَّ سَـواءَ السَّبِيلِ**)

[109] واهتمام الكفار بكم ليس بهدف تـوجيهكم الى ما هو أفضل لكم ، بل لاستلاب ما تملكون من هدى وخير ، وبالتالي من أجل تضـعيفكم ، وخلخلة كيـانكم ذلك لأنهم أعداء لكم يحسدونكم على ايمانكم ، ويعرفون ان قـوتكم كامنة في دينكم الجديد ، فيريدون القضاء على هذا الدين بكل وسيلة.

(**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ لَـوْ يَـرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْـدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**)

تلك الأنفس التي لا تحب الخير للآخرين أبدا.

(**مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُ**)

وعرفـوا انه بجـانبكم ، وهنا أمـامكم موقف واحد هو تجاوز حسد هؤلاء ، وعدم الاعتناء به ، وعـدم التفكـير فيه لأنه جدل.

(**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا**)

لأن الجـدل الفكـري مع هـذا الطـراز من النـاس لا يجديكم نفعا ، فابتعدوا عن

الجدل معهم
(**حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**)
ويظهركم عليهم وينصركم.
(**إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)
[110] وخلال الفـترة من الآن وحـتى يـوم الانتصـار ، يجب عليكم الاستعانة بنظامكم الصـائب لأنه خـير ضـمانة للمستقبل.
(**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ**)
واعملوا الخير الكثير ..
(**وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِـدُوهُ عِنْـدَ اللـهِ إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)
وهذا الدرس ـ يجب ان نضـعه امـام أعيننا في تعاملنا مع الثقافـــات الشـــرقية والغربية اليـــوم ، ومحـــاولات انصـارهما من أجل اضـلالنا عن ديننا بـدافع حسـدهم من قوتنا لو تمسكنا بديننا.

(**وَقــالُوا لَنْ يَــدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كــانَ هُــوداً أَوْ نَصــارى تِلْــكَ أَمــانِيُّهُمْ قُــلْ هــاتُوا بُرْهــانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صـــادِقِينَ (111) بَلى مَنْ أَسْـــلَمَ وَجْهَـــهُ لِلَّهِ وَهُـــوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْـرُهُ عِنْـدَ رَبِّهِ وَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَـتِ النَّصـارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذلِكَ قالَ**

---

111 [هـــودا] هو جمع هائد كعائد والهائد التـــائب الراجع الى الحـــق.
[برهانكم] البرهان والبيان والحجة بمعنى واحد وهو ما أمكن الاستدلال به على ما هو دلالة عليه مع قصد فاعلة الى ذلك.
112 [أسلم] يستعمل في شيئين (أحدهما) أسـلمه كـذا أي صـرفه اليه تقـول أسـلمت الثـوب اليه و (الثـاني) أسـلم له بمعـنى أخلص له ومنه قوله ورجلا سلما لرجل أي خالصا.
[وجهه] الوجه مستقبل كل شيء ووجه الإنسان محياه.

الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَــوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيــهِ يَخْتَلِفُـونَ (113) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللـهِ أَنْ يُـذْكَرَ فِيهَا اسْـمُهُ وَسَـعى فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كـــانَ لَهُمْ أَنْ يَـــدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (114) وَلِلَّهِ الْمَشْــرِقُ وَالْمَغْــرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (115) وَقالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ

---

113 [القيامة] مصدر إلا أنه صـار كـالعلم على وقت بعينه وهو الـوقت الـــذي يبعث الله عز وجل فيه الخلق فيقومـــون من قبـــورهم الى محشرهم.

114 [منع] صد.

[خرابها] الخراب الهدم والنقض.

115 [المشرق] والشرق اسمان لمطلع الشمس والقمر.

[المغرب] والمغيب بمعـنى وهو موضع الغـروب يقـال غـربت الشـمس تغرب إذا غابت.

[واســع] الواسع الغــنى ســمى به لســعة مقدوراته وقيل هو الكثــير الرحمة.

وَالْأَرْضِ كُــلٌّ لَــهُ قــانِتُونَ (116) بَــدِيعُ السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) وَقــالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُــونَ لَــوْ لا يُكَلِّمُنَا اللــهُ أَوْ تَأْتِينا آيَـةٌ كَـذلِكَ قـالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْـلَ قَـوْلِهِمْ تَشـابَهَتْ قُلُـوبُهُمْ قَـدْ بَيَّنَّا الْآيـاتِ لِقَـوْمٍ يُوقِنُـونَ (118) إِنَّا أَرْسَـلْناكَ بِـالْحَقِّ بَشِـيراً وَنَـذِيراً وَلا تُسْـئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (119) وَلَنْ تَرْضى عَنْـكَ الْيَهُـودُ وَلا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُـدَى اللـهِ هُـوَ الْهُــدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْـواءَهُمْ بَعْـدَ الَّذِي جــاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (120) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ

---

117 [قانتون] الأصل في القنوت الدوام وتأتي بمعنى الطاعة كما تأتي بمعنى الدعاء ومنه القنوت في الصلاة.

118 [يوقنون] يعلمون.

119 [الجحيم] النار بعينها إذا شب وقودها وصار كالعلم على جهنم.

120 [ملتهم] الملة والنحلة والديانة نظائر وملة رسول الله (ص) الأمر الذي أوضحه.

الْكِتـابَ يَتْلُونَـهُ حَـقَّ تِلاوَتِـهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُـونَ بِـهِ وَمَنْ
يَكْفُـــرْ بِـــهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِـــرُونَ (121) يا بَنِي
إِسْـــرائِيلَ اذْكُـــرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي
فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمـاً لا تَجْـزِي
نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها
شَفاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (123))

التسليم لله هو الميزان

هدى من الآيات :

ما هو موقف الامة الاســـلامية من ثقافة اليهـــود والنصارى؟

بيّن القـرآن جانبا من هـذا الموقف وفي هـذه الآيـات يبين البقية :

لكي يـدعم ايمـان الامة بشخصـيتها المتمـيزة يكـرر القرآن القول بان المقيـاس عند الله ليس اسم اليهـود أو النصــارى بل المقيــاس هو التســليم المطلق لله وتنفيذ أوامره.

وتوضيحات لهذه الفكرة يـبين القـرآن مـدى التنـاقض الموجود والقائم بين اليهود والنصارى ، وكيف انهم اتخذوا دينهم وســيلة لتكــريس تناقضــاتهم ، حــتى انهم أخــذوا يوجهون عداءهم للدين ذاته ويحاربون مسـاجد اللـه. فهل هم مسلمون؟

ثم انهم يتخـذون لله ولـدا فهل هم مؤمنـون بالله أم مشركون؟

وهم يجــادلون الله في رســالاته فهل لهم الحق في ذلك؟

اليهود والنصـارى يريـدون وبصـراحة تصـفية الرسـالة الجديــدة وعلى الامة ان تعــرف انها تملك العلم والهــدى وعليها ان تدافع عنهما بقوة.

لان المــؤمن الحقيقي هو الـــذي لا يحـــرف كتابه بل يتلوه حق تلاوته اما أولئك الذين يقــرءون كتبهم ليحرفوها فهم الخاسرون.

وأخر الدرس يعيد القرآن ذات الآيتين اللـتين بـدأ بهما الحديث عن بني إسرائيل وفيهما ترغيب وترهيب وخلاصة لحكمة تفضـيل بـني إسـرائيل على العـالمين في العصـور السابقة.

بينات من الآيات :

[111] هل ينخدع ربنا بالألفاظ؟ وهل كل من قـال انا مســلم ، أو انا يهــودي ، أو نصــراني يتقبله فــورا ويدخله الجنة؟ كلا انه يريد العمل الصالح.

ولكن لمــاذا يتصــور بعض النــاس ان الإســلام وحــده كاف لربط أحد الناس بالله؟

الجـواب : لان هـؤلاء يتخـذون الـدين مجموعة امـاني وأحلام ، ويفســــــرون كلماته واحكامه بحيث تتمشى مع أحلامهم الجميلة ، وأمــانيهم الطيبة ، إنهم اتخــذوا الــدين مــادة تخديرية تنســيهم لــوقت ما مشــاكلهم المعقــدة ، وتؤملهم في حياة أفضل ، تأتيهم بلا عمل ، بلا تضحية وبلا عطــاء .. اما الواقع فــان هــذا الــدين موجــود فقط في أذهانهم.

اما عند الله فان الدين يتمثل في غير ذلك .. بل فيما يتناقض معه كليا لنستمع الى الله :

(**وَقــالُوا لَنْ يَــدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كــانَ هُــوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ**)

الـتي يخـدعون أنفسـهم بها ، وليس هـذا دينا من عند الله إذ فور ما تتعرض هذه

الاماني الطفولية لوهج العقل تذوب.

(**قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**).

[112] هل تريدون ان تعرفوا الدين الصادق؟

(**بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ**).

فلم يعبد في قلبه ولا في عمله غـــير الله ، هـــذا الشرط الاول ، والشرط الثاني ان يعمل عملا صالحا.

(**وَهُوَ مُحْسِنٌ**).

هذا الإنسان قد تمسك بالدين الصحيح.

(**فَلَـهُ أَجْـرُهُ عِنْـدَ رَبِّهِ وَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**).

اما من تمسك بالاماني فعله أن يخاف من المستقبل وسوف يحزن على أيّامه التي قضاها في الدنيا عاطلا عن العمل معتمدا على هذه الاماني الباطلة.

[113] ومثل هـؤلاء مثل اليهـود والنصـارى الـذين اتخذوا الدين اماني ، وطبقـوه على أحلامهم ، وكرسـوا به تناقضاتهم التي ركبوها على دينهم الباطل.

(**وَقـالَتِ الْيَهُـودُ لَيْسَـتِ النَّصـارى عَلى شَـيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ**).

بينما تجد ان كلا منهما يقرأ نفس الكتاب ويطبق ذات التعاليم.

(**وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ**).

فلا بدّ أن يوحـدهم هـذا الكتـاب ، وهل من كتـاب لله يفرق بين الناس أم اتّهم حرفوا معـاني الكتـاب وفسـروه حسب أهوائهم؟ وهذا يعني انهم لم يسـتفيدوا من كتـابهم شـيئا حيث ان الـذين لا كتـاب لهم أيضا يختلفـون بعضـهم على بعض.

(**كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْـلَ قَـوْلِهِمْ فَاللـهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**).

[114] لان هــؤلاء يختلفــون مع بعضــهم في الــدين فإنهم يمنعون رفاقهم من دخول معابد أعدائهم ، ويشنون حربا دعائية ضــــدها ، ولكن الســــؤال الموجه لهم : أنتم تخـالفون بعضـكم في قضـايا مادية ، فلما ذا تمـدون هـذا الخلاف الى الدين والى عبادة الله؟!

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ أَنْ يُـذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعى فِي خَرابِها**).

وبهــذه الطريقة يشــيعون حــول المســاجد جــوا من الخوف والريبة ، إذ يتهم كل فريق معبد الفريق الاخر مما يجعلون المساجد موضع التهم والخلاف ولذلك :

(**أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَـدْخُلُوها إِلَّا خـائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ**).

الخزي في الـدنيا لطغيـانهم على بعضـهم ، والعـذاب في الاخـرة لتغيـيرهم الـدين ، وتحـريفهم مبـادئ الوحـدة والتضحية فيه.

تضخيم الاختلافات :

[115] الخلافـات القائمة بين الأديـان ليست كبـيرة ، وانما ضخّمها أصحاب المصالح المادية من أجل الاكتسـاب منها. مثلا اختلاف القبلة. فالله هو الا له في

السماء والأرض وفي المشرق والمغرب.
(**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْـرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْـهُ اللهِ إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيمٌ**).
واسع ، تشمل قدرته كل الجهات ، وعليم بمن يعبــده انّى اتجه شـــرقا أو غربـــا. المهم عند الله هو التســـليم ، ومخالفة الشهوات العاجلة من اجله ، وليست الجهة الـتي يعبد الناس ربهم إليها. كل هذه من القضايا غير الاساسـية الـتي يضـخمها أصـحاب الاختلافـات ابتغـاء الوصـول الى مكاسب مادية من وراء الاختلاف.
[116] ومن السـلبيات الـتي وقع فيها بنو إسـرائيل ، وعلينا تجنبها : هو الشرك بالله.
(**وَقالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً**).
انطلاقا من تفكـيرهم الضـيق حيث لم يسـتطيعوا ان يفرقوا بين النبوة والبنوة ، وزعمـوا ان سـمو درجة النـبي وقيامه ببعض المعاجز يجعله ابنا لله.
(**سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**).
وليس هنــاك شـــيء أقــرب الى الله من شـــيء في الخلق.
(**كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ**).
فليس هنـاك شـيء أو شـخص يمكن ان يتعـالى على الله باعتبــاره ولــدا له بل كل شـــيء خاضع له لأنه خلقه ويرزقه واليه مصير كل شيء.
[117] والله حين خلق الأشـــياء لم يخلقها بشـــكل تنفصل منه الأشـــياء كما ينفصل المولـــود عن والدته بل وهب لها الخلق وابدعها ابداعا ، فهو.

(**بَدِيعُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْـراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**).

فهو إذا لم يتخذ ولـدا لا بعد أن خلق الأشـياء ولا حين خلقها.

[118] وقـال الكفـار إذا لم يكن عيسى ابنا لله ، وإذا لم يكن موسى وعزيز وهارون أبنـاء الله ، فلما ذا خصـهم الله سبحانه بالنبوة دوننا؟

(**وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**).

اي ان كل الكفـار على امتـداد التـاريخ اعتمـدوا على هـذه الحجة في تصـورهم ـ شـركاء لله ـ حيث شـاهدوا بعض الأشياء أقوى من بعضها أو بعض الأشـخاص أهم من غيرهم فقالوا : لو لم تكن هذه الأشياء انصـاف الهة ، ولو لم يكن هؤلاء الهة فلما ذا فضلوا على غيرهم؟

(**تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ**).

ومنطلقات تفكيرهم والواقع ان المسيحية أو اليهودية لم تتـأثر فقط بالثقافة الاغريقية الـتي كـانت تتصـور ان للكـــون أربابا من دون الله ، بل وتـــأثرت أيضا بـــذات المنطلقات الفكرية التي كانت موجودة عند هـؤلاء. أولئك لم يفهمـوا حكمه التفاضل في المخلوقـات فزعمـوا ان الحجر الكريم لم يفضل على الحجر العـادي الا لأنه يجسد جانبا من الالوهية ، وكـذلك السـلاطين لم يؤتـوا الملك والقوة الا لان فيهم عرقا من الله (سبحانه).

وهـؤلاء أيضا لم يفهمـوا حكمه التفاضل وقـالوا لو لم يكن عيسى إلها فلما ذا فضل علينا ، وكلمة الله أو أتـــاه البينات ولم يكلمنا أو يؤتينا البينات يقول الله :

(**قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**).

اي أنّ هنالك ادلة واسـعة تنفي هـذا التفكـير ، ولكنها تحتاج الى عقول متفتحة ومثقفة ورفيعة المستوى.

[119] وكما أرسل الله الأنبيـــاء من قبـــل. دون ان يكونوا أولاد الله. أرسلك الله يا محمد (ص).

(**إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً**).

ولكنك لست مسئولا بعد أداء البلاغ عنهم.

(**وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ**).

فـــدورك إذا دور محـــدود ليس فيه ذرة من الالوهية أبدا.

مصدر الإلهام :

[120] وعليك يا محمد ان تســـــتوحي افكـــــارك وتفاصـيلها من مصـدر واحد هو الله ، ولا تخلطها بثقافـات الديانات الاولى التي فسدت ودخلها الشرك والضلال ، ولا تفكر في ان أولئك سيرضــون عنك لو اتبعتهم في شــيء من افكارهم ، كلا.

(**وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِـعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدى**)

بالكامل وهذا يؤدي الى الغاء دورك.

(**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**)

انهم لا يملكـــون الا أهـــواء ، وأنت تملك العلم ومن يــترك العلم الى الهــوى فســوف يخسر المســتقبل ، ولا ينصره الله.

[121] اليهـــود والنصـــارى حرّفـــوا دينهم وفسّـــروا نصوص كتابهم المقدس تفسيرا باطلا ولكن.

(**الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَـهُ حَـقَّ تِلاوَتِـهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**)

ايمانا صـادقا لأنهم يتلـون الكتـاب ليفهمـوا ما فيه ثم يطبقوه ، ولا يتلونه لكي يركّبوا عليه افكارهم الباطلة. اما الـذين يتلـون الكتـاب ليجـدوا فيه اية تؤيـدهم فيأخـذونها ويجعلونها شعارا يبررون بها تصرفاتهم الباطلة ، ويـتركون سائر الآيات ، فهم في الواقع يكفرون بالكتاب كفرا تاما.

(**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**)

لأنهم سوف لا يسـتفيدون من هـدى الكتـاب ، ولا من تعاليمه الحياتية الصائبة.

[122] بنو إسرائيل كـانوا يتلـون الكتـاب حق تلاوته ، ففضلهم الله على العالمين ، ثم تركـوا ذلك ، فـانتهى بهم المطاف الى الذل والمسكنة.

الآن عليهم ان يتذكروا واقعهم السابق ، ويعـودوا الى أسباب تقدمهم.

(**يا بَنِي إِسْـــرائِيلَ اذْكُـــرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**)

من الكتاب والرسول الذين بهما تقدمتم.

(**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ**)

بهـــذين العـــاملين الاساســـيين للتقـــدم ، الكتـــاب والرسول.

[123] (**وَاتَّقُـوا يَوْمـاً لا تَجْـزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَـفاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**)

ولو ان بني إسرائيل تذكروا نعمة الله ـ وهي الرسالة ـ واتقوا يوم الجزاء ، لا خذوا بجذور الدين وأصــوله الثلاث «التوحيد ـ الرسالة ـ الميعاد».

وهـــذه رؤية عامة يـــذكرها القـــرآن الحكيم في أخر حديثه عن بـني إسـرائيل ليـبين ان جـوهر الـدين وجـوهر تقـدم الأمم يتلخص في الايمـان بالله وبرسـالاته وبيـوم القيامة.

(**وَإِذِ ابْتَلى إِبْـراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمـاتٍ فَـأَتَمَّهُنَّ قـالَ إِنِّي جاعِلُـكَ لِلنَّاسِ إِماماً قـالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قـالَ لا يَنـالُ عَهْـــدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَـــةً لِلنَّاسِ وَأَمْنـاً وَاتَّخِـذُوا مِنْ مَقـامِ إِبْـراهِيمَ مُصَـلًّى وَعَهِــدْنا إِلى إِبْـــراهِيمَ وَإِسْـــماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعـــاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّـــجُودِ (125) وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ**

---

124 [الابتلاء] الاختبار.

[ينال] يلحق ، يدرك.

125 [المثابة] الموضع الـذي يثـاب اليه من ثـاب يثـوب ومنه ثـاب اليه عقله أي رجع بعد غروبه.

[للطائفين] الطائف والجائل والدائر نظائر ويقال طـاف يطـوف إذا دار حول الشيء.

[العـاكفين] العـاكف المقيم على الشـيء اللازم له والعـاكف المعتكف في المسجد.

أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُـهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْـطَرُّهُ إِلى عَـذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِـــيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَـــعُ إِبْـــراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَـكَ وَأَرِنا مَناسِـكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ (128) رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ

---

126 [أضـــطره] الاضـــطرار هو الفعل في الغـــير على وجه لا يمكنه الانفكاك منه.

127 [يرفع] الرفع والاعلاء والإصعاد نظائر ونقيض الرفع الوضع.

[القواعـد] جمع قاعـدة وأصـله في اللغة الثبـوت والاسـتقرار فمن ذلك القاعدة من الجبل وهي أصله وقاعدة البناء أساسه الذي بني عليه.

128 [مسلمة] الإسلام هو الانقيـاد لأمر الله تعـالى بالخضـوع والإقـرار بجميع ما أوجب الله وهو الايمان.

[مناســكنا] المناسك المتعبــدات ، وكل متعبد منسك والنسك في اللغة العبادة والنسك الذبيحة والمنسك الموضع الذي تذبح فيه النسائك.

وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَــرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِـرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعـالَمِينَ (131) وَوَصَّـى بِها إِبْـراهِيمُ بَنِيـهِ وَيَعْقُـوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللـهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُـوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ

---

129 [العزيز] القدير الذي لا يغالب وقيل هو القادر الــذي لا يمتنع عليه شيء أراد فعله.
[الحكيم] المدبر الذي يحكم الصنع ويحسن التدبير فعلى هذا يكـون من صفات الفعل ويكون بمعنى العليم فيكون من صفات الذات.
130 [يــــــرغب] الرغبة المحبة لما فيه للنفس منفعة ورغبت فيه ضد رغبت عنه.
[اصطفيناه] الاصطفاء والاجتباء والاختيار نظائر ، والصـفو نقيض الكـدر وصفوة كل شيء خالصة ، وصفي الإنسان اخوه الذي يصافيه المودة.
132 [وصى] وصى وأوصى وأمر وعهد بمعنى واحد.
133 [شهداء] جمع شهيد والشاهد والحاضر من النظائر وتقول حضرت القوم أحضرهم إذا شهدتهم.

الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (134) وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ

---

134 [أمة] الامة كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد ، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا وجمعها أمم فالامة هم أهل الملة الواحدة ويجمعهم إمام.

136 [الأسباط] واحدهم سبط وهم أولاد إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وهم إثنا عشر سبطا من اثني عشر ابنا وقالوا الحسن والحسين سبطا رسول الله (ص) أي ولداه والأسباط في بني إسرائيل بمنزلة القبائل من ولد إسماعيل. وقيل السبط الجماعة يرجعون الى أب واحد.

مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (138) قُلْ أَتُحَاجُّونَنا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140))

---

137 [شقاق] الشقاق المخالفة وكونك في غير شق صاحبك أو من شق العصا بينك وبينه قال «**إِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ**» أي مخالفة.

[فسيكفيكم] الكفاية بلوغ الغاية ويقال يكفى ويجزى ويغني بمعنى واحد. وكفى يكفي كفاية إذا قام بالأمر وكفاك هذا الأمر أي حسبك.

إبراهيم رمز الوحدة

هدى من الآيات :

انتهت الــدروس الــتي اســتفدناها من تــاريخ بــني إسرائيل ، واعطى القرآن من خلال سرده لقصصهم رؤية متكاملة لطــراز من الامة الــتي انحــرفت ، لكي نعــرف المسار الصحيح الذي يجب ان تسير عبرة الامة الاسلامية مستقبلا ، ويتجنبوا تلك الانحرافات الاسرائيلية.

وها هو القرآن يتحدث إلينا عن إبراهيم لعدة أسباب :

أولا : ليعطي من خلال قصصه رؤية عن كفار قــريش الذين يزعمون انهم ينتمون الى النبي إبراهيم (ع).

ثانيا : ليركز على العامل المشترك بين بني إســرائيل والعرب وبالتالي بين الأديان الســماوية الثلاث الرئيســية ، رسالة موسى فعيسى ثم محمد ـ عليهم السلام ـ.

فقبل كل شــيء من هو إبــراهيم وكيف أصــبح نبيا ، رسولا وإماما للأمم ..؟ ثم من هو الذي يستحق ان يكــون إماما من بعده .. هل كل من انتمى نسبيا الى إبراهيم؟

الكعبة الــتي يتوجه إليها المســلمون ليست من صــنع العرب حــتى يخالفها الاســرائيليون بل هي بيت الله الــذي بناه إبراهيم جد العرب وجد بني إسرائيل.

ولكن الكعبة هــــذه ليست محلا لتعليق الأصــــنام بل مقاما لعبادة الله وحده.

لان إبــراهيم بناها وهو يــردد كلمة التوحيد .. ويــدعو الله ان يثبته عليها ، وإبــراهيم دعا الله ان يبعث في أبنائه رسلا ، ولم يــأت النــبي محمد صــلى الله عليه وآله الا استجابة لذلك الدعاء.

بينات من الآيات :

كيف يختار الله رسله :

والســؤال الــذي يجيب عليه القــرآن في بداية هــذه المجموعة من الآيات هو :

[124] هل يختــار الله رســله عبثا .. ودون ســابق اختيار؟ كلا ..

انه يعرضهم لأشد الاختبارات فان نجحــوا فيها حملهم رسـالته .. وإبـراهيم عليه السـلام ، مر باختبـارات صـعبة فألقي في النار وصبر واخرج من بلده وصبر ، وابتلي بأمر الله له ان يذبح ابنه فلبى الأمر و.. و.. وبعدئذ اختير إماما.

(**وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ**)

فيها أوامر صارمة وصعبة.

(**فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً**)
فــإبراهيم لم يحصل على الرســالة مجانا وبلا ثمن أو لأنه يملك عنصرا أجود من غيره أو دما ازكى حتى يســري ذلك الــدم في أبنائه بل أعطــاه الله الرســالة بعد امتحــان عسير .. ثم ان إبراهيم طلب النبوة لأبنائه فرفض طلبه.
(**قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**)
وفي ذريتك من هو ظالم يفشل في الاختبــار والامامة عهد الله وعهد الله لا يعطى للظالمين.
[125] هنالك حجتــــــان تمسك بهما أهل مكة للدلالة على انهم أقرب الى الله من غـيرهم وبالتـالي فلهم الحق في السيادة على العرب.
الحجة الاولى : انهم أبناء إبــراهيم وورثته على الــبيت وقد ادحضها القرآن في الآية الاولى.
الحجة الثانية : ان الله منّ على بلدهم باليسار والخير وكمثل كل الأغنيــاء في الأرض يزعمــون ان الله لم ينعم عليهم بــالغنى الا لأنهم أقــرب النــاس اليه ســبحانه وفي الآيتين التاليتين دحض لهذه الحجة السخيفة يقول الله :
(**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ**)
مركـزا للنـاس في الجزيـرة يعـودون اليه لما خرجـوا منه.
(**وَأَمْناً**)
حيث وفر الله فيه الســلام حيث ينعــدم الســلام في سائر أنحاء الجزيرة .. ولكن

كيف وفر الله السـلام في مكة .. لأنه جعل فيها مقـام إبراهيم .. وإبراهيم الجد الأعلى لاكثر العرب ومن ثم رمز الوحـدة بين النـاس .. من هنا جـاء الأمر الالهي بتقـديس مقـام إبـراهيم (وهو الحجر الوحيد الـذي اعطي له قيمة بعد الحجر الأسود) وقال الله :

(**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى**)

اي اجعلـوا صـلاتكم عند مقـام إبـراهيم. بشـرط ان تكـون الصـلاة لله .. ولكن مع تـذكر فضل إبـراهيم عليكم حيث أصبح وسيلة لهداية الله لكم.

الإسـلام لا يقـدس شـيئا من دون الله ولكنه يعطي لكثـير من الأشـياء أو الأشـخاص قيمة التوسط بين العبـاد وبين فضل الله ، فـالغني المنفق في سـبيل الله واسـطة لبلوغ نعمة الله «وهو المال الى الفقير» ويجب ان يشـكر الفقير ربه قبل كل شيء والآمر بالخير والـداعي الى الله واسطة في هداية الناس ، والأنبياء هم وسـائل يهـدي بهم الله عبـاده صـراطا مسـتقيما وحين نشـكرهم أو نقـدرهم ليس شكرا ذاتيا ولا تقديرا الوهيا بل شكرا وتقديرا يسبقه شكرنا لله وتقديسنا له.

ومقام إبـراهيم من ذلك النـوع حيث اننا لا نقدسه بل نقف نصـلي لله عنـده تقـديرا لمقـام إبـراهيم ومن ثم لإبراهيم نفسه.

وما لبث ان ذكرنا القرآن الحكيم بهـذه الحقيقة حيث نبهنا الى ان إبـراهيم امر بـأن يطهر بيت الله من الأصـنام فكيف يمكن ان يتخذ مقامه صنما يعبد من دون الله.

(**وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ**)

من كل دنس ظاهر أو باطن واعدوه ..

(**لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**).

إذا ما نجده في البيت من وسائل الراحة والأمن فانما هي لتحقيق هدف البيت من الطواف والاعتكاف والركـوع والسجود وليست إكراما لعين ذرية إبراهيم الشرفاء.

[126] ويـدل على ذلك ان إبـراهيم دعا الله سـبحانه ان يحــدد نعمه في الصــالحين فقط ، لأنه تصــور ان نعم الله في الدنيا دليل على حب الله وتقديره لصـاحبها ولكن الله ابى.

(**وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُـهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْـطَرُّهُ إِلى عَـذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)

إذا النار تنتظر الكفار من ولد إبـراهيم ــ ع ــ بـالرغم من الثراء والأمن والسـيادة الـتي يتمتعـون بها الآن .. لان كل هــذه النعم اختبــارات يتعرضــون لها لتجربة مــدى صمودهم امام ضغط الانحرافات التحريفية.

[127] كان البيت موجـود وجـاء إبـراهيم لـيرفع عليه البنـاء ولكنه امـتزج بـروح التوحيد والامتثـال الى الله ولم يكن بنـاء من أجل التفـاخر أو الرئاسة أو بلـوغ الشـهوات «كما تصــوره ذرية إبــراهيم وســدنة الــبيت الحــرام من قريش».

(**وَإِذْ يَرْفَـــعُ إِبْــــراهِيمُ الْقَواعِــــدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ**)

وهم يرددون هذا الابتهال :

(**رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا**)

عملنا ، إذ العمل قد لا يتقبله الله إذا امـــــتزج بالنية السيئة أو تعـدد هدفه فكـان يهـدف مرضـاة الله ومرضـاة النـاس معا ، وقد جـاء في اية كريمة «**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللـهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**».

وحين كان يدعو إبراهيم وابنه بـان يتقبل الله منهما ـ فانما كانا يخلصان عملهما لله.

(**إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ**)

لدعوات العباد.

(**الْعَلِيمُ**)

لاهداف الناس التي ينوون تحقيقها من أعمالهم ، هل هي اهداف نقية لله خالصة لوجهه أم لا.

الآثار الايجابية للعمل الصالح :

[128] وكـــان هـــدف إبـــراهيم وابنه هو ان يســـاهم عملهما في تعميق روح التوحيد في نفوسهم ، حتى يصبحا خاضـعين كليه لله ، ذلك ان العمل الصـالح الخـالص يزيد الايمان وينمي الارادة ، من هنا كان يسـعى إبـراهيم وابنه من خلال بناء البيت الى هذه الغاية ويقولان :

(**رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**)

والعمل الصالح يساهم أيضا في صلاح ذرية الفرد وقد استهدف إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت ان يصـبح دليلا عينيا لاسلامهما ومركزا دينيا توحيديا لذريتهم وقالا :

(**وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**)

والعمل الصالح يزيد صاحبه هدى وعلما بأسلوب العمل في المستقبل وقد جاء في اية قرآنية : «**وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا**» وكذلك استهدف إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت بلوغ المزيد من الهدى ومعرفة المناسك ومن ثم استهدفا من وراء بناء البيت ان يتوب الله عليهم وهو الهدف الاخر الذي يمكن تحقيقه باي عمل صالح ان يغفر الله لصاحبه ما تقدم من تقصيره وذنوبه.

[129] المؤمن الصادق يعرف قيمة الايمان ومدى اهمية حياة الإنسان ولذلك فهو يستهدف تعميم الايمان على الناس جميعا ليسعدوا به ، وكان إبراهيم وإسماعيل يدعوان الله بذلك ويقولان :

(**رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ**)

من أنفسهم ، وليس غريبا عنهم كي يكونوا (أولاد إبراهيم) أول الناس ايمانا برسالته والهدف من هذه الرسالة هو أولا :

(**يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ**)

حتى يهتدي بها الناس إليك يا رب إذ أن أول الدين معرفة الله معرفة يزيدها النظر في ايات الله هدى :

ثانيا :

(**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ**)

نظاما لحياتهم وتشريعا لطقوس دينهم.

ثالثا : يعلمهم.
(**وَالْحِكْمَةَ**)
وما يرتبط بالحيــاة العملية من دســاتير خلقية وآداب اجتماعية.
رابعا :
(**وَيُزَكِّيهِمْ**)
ينمي فيهم روح الايمـــــان والارادة ، ويــــــربيهم على مكــارم الأخلاق ويحــولهم الى طاقة هائلة لتعمــير الحيــاة وبسط السلام والرفاه في أرجاء الأرض.
(**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)
بعزتك قــادر عل اســتجابة دعائنا وبحكمتك تحقق لنا ذلك لأنه يتناسب مع الهدف العام لخلقه الكون.

السبيل الى فض الخلاف :

إبراهيم كان مسلما وقد بــنى هو وابنه الــبيت ، وكــان جد العرب الأعلى لكي يكون مركزا للتوحيد وعلينا ان نتبع ملة إبــراهيم وكل من يخــالف هــذه الملة ســيكون ســفيها لأنه يبتعد عن الخير في الدنيا والاخرة.
وأبنــاء إبــراهيم كــانوا موحــدين ولم يكونــوا يهــودا أو نصــارى والمطلــوب منا العــودة الى توحيد إبــراهيم حــتى تنتهي خلافاتنا مع اليهـــود والنصــــارى ونـــؤمن في نفس الــوقت بكل رســالات الســماء ، وكل المرســلين من قبل الله هذا هو خط التوحيد والذي ينحرف عنه فهو المتمرد.

ان الله هو المقياس في تصـرفاتنا ونحن لا نـدعي اننا مسئولون عنكم بل نحن وأنتم سواء امـام الله ، ولكل منا عمله الذي يجازى عليه عند الله.

ان خط الله وهو خط إبـــراهيم (ع) لم يكن الشـــرك كما لم يكن اليهودية والنصرانية إذا دعنا نتبع هذا الخط ..

هذه خلاصة هذه الآيات ولقد تكررت اية واحدة فيها (134 ـ 141) لدلالة على ان لكل عهد شـريعة ومنهاجا قد يكونـان صـحيحين لـذلك العهد ولكنهما خـاطئين لعهد أخر ولرجــال آخــرين ، وهــذه اشــارة الى ان بعض تفاصــيل اليهودية والنصــرانية لا تصــلحان للمرحلة الجديــدة الــتي ابتدأت مع رسالة النبي محمد (ص).

ملة إبراهيم :

[130] إبــراهيم كـان رمز التوحيد وطريقه هو طريق التوحيد في التاريخ ، وكانت ثمرات توحيده ظاهرة للنـاس ، فــذكره الحسن يلهج به كل لســان ويحــاول كثــير من الناس ان ينتموا اليه ، ويشرفهم هذا الانتماء امـام النـاس انه مصطفى في الأرض ، اما عند الله فهو من الصــالحين ، إذا ما يضر الإنسان ان يسير على خط إبراهيم التوحيدي ...

(**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ**)

وطريقته المتمثلة في التوحيد.

(**إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**)

وأراد لنفسه الخسارة.

(**وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**)

[131] كيف اصطفى الله إبـراهيم ولمـاذا؟ ببسـاطة لأنه أسلم كليا لله.

(**إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ**)

فلم يتردد لحظة بل استجاب بقناعة تامة.

(**قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ**)

[132] قد تحول إسلام إبـراهيم الى مسـيرة توحيدية في التاريخ كما تحـول شـخص إبـراهيم الى امة مسـلمة ، وهــذا هو فضل الله على إبــراهيم وعلى كل من يســلم مخلصا وجهه لله.

(**وَوَصَّى بِها**)

بهذه الطريقة (الملة).

(**إِبْراهِيمُ بَنِيهِ**)

وكما في ذرية إبــــراهيم الجد الأعلى لليهـــــود وهو يعقوب الذي وصى هو الاخر أولاده وقال :

(**يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ**)

وجعل هذا الدين هو الإسلام لله وإخلاص العبودية.

(**فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**)

إذ قد يسـلم الإنسـان فـترة من الـوقت ولكنه ينهـار امـام مطـارق الشـرك والكفر فيأتيه المـوت وهو كـافر ، إسلامه ضعيف لا ينفعه في الدنيا ولا في الاخـرة انما على الإنسـان ان يبقى مسـلما في كل مراحل حياته حـتى لو أدركه الموت غفلة يكون قد

استعد للقاء ربه ولا يفاجئ بالعذاب الأليم.

[133] وقد جسدت في يعقـوب ذاته هـذه الوصـية إذ بقي مسلما رغم الصـعاب حـتى إذا حضـره المـوت وصى بالتوحيد أبناءه.

(**أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَـوْتُ إِذْ قـالَ لِبَنِيـهِ ما تَعْبُـدُونَ مِنْ بَعْـدِي قـالُوا نَعْبُـدُ إِلهَـكَ وَإِلـهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِـداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**)

كم كانت فرحة يعقوب وهو يودع الحياة ويرى ثمرات تربيته لأولاده على التوحيد امام عينيه إذ يجـدهم يعاهدونه على الاستمرار في خط التوحيد.

[134] ولكن هل يعـني إسـلام إبـراهيم وذريته الصـالحين عنا شـيئا حـتى تكتفي بانتمائنا الجسـدي إليهم (نحن العرب واليهـود) كلا .. إذ أولئك قد ذهبـوا بأعمـالهم الصالحة لأنفسهم وعلينا ان نعمل لأنفسنا.

(**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَـبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ**)

إذ لا تجـزون بجـرائم الطـالح فيهم ولا تكـافؤون بحسنات الصالحين.

[135] وبقي السـؤال : ما هي ملة إبـراهيم؟ هل هي اليهودية أم النصرانية أم الشرك الذي يتجسد في العرب؟ ان هـذه الفـرق الثلاث تـدعي انتماءها الى إبـراهيم فأيتها الصادقة؟ يقول القرآن كل هذه كاذبة.

(**وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً**)

رافضا للكفر والشرك اللذين كانا في عصره.

(**وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)
كما تدعي العرب انه كان مستقيما يـرفض كل أنـواع الشرك سواء الذي كان موجودا عند اليهود أو النصـارى أو عند العرب.

[136] وحين نقول بالعودة الى ملة إبـراهيم لا يعـني حذف دور الأنبياء العظـام الـذين جـاؤوا من بعـده بل نريد تكريس هذا الدور وتجاوز العقبات القشرية الـتي وضـعت في طريقه وحصرت كل مجموعة من الناس نفسـها على نــبي ولم تنتفع من رســالة الآخــرين بفعل العنصــرية أو التعصب الأعمى.

إذا عـودوا الى جـوهر رسـالة الله المتمثلة في توحيد إبـراهيم الـرافض لكل أنـواع الشـرك وفي الايمـان بكل الأنبياء.

(**قُولُـوا آمَنَّا بِاللـهِ وَما أُنْـزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْـزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ**)
الأنبياء من ولد يعقـوب لقد انـزل على هـؤلاء رسـالة التوحيد.

(**وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ**)
من تفاصيل الشرائع الاجتماعية والتعـاليم الخلقية و.. و.. وقولوا.

(**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**)
مسـلمون لله الواحد وخاضـعون لكل من يرسـله ربنا سواء كان عبريا أم عربيا من عائلتنا أم من الأبعدين.

[137] هـذه هي رسـالة الله الحقيقية ، وغـير هـذه هراء وتمرد وانحراف .. إذ لم

يرسل الله رسالة عنصرية الى الناس ، ولم يأمر بالعصبية الجاهلية ، ولم يفرق بين أنبياءه ورسالاتهم.

(**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا**)

وسـيكون حـالهم حـال المؤمـنين السـابقين بلا تميـيز بينهم ..

(**وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ**)

فهم المنحرفـون عن الخط العـام المسـتقيم ، وليس أنتم .. والانحراف لا يقاس بالكثرة والقلة بل بمقياس آخر هو مــدى الالــتزام بخط الفطــرة ، والحق وصــراط الله المستقيم ، لذلك علينا الا تشـككنا قلتنا ، ولا توحشـنا عن الحق كـــثرة النـــاس حـــول الباطل .. ونبقى ننعتهم هم بـالمتمردين الانفصـاليين أهل الشـقاق ، ونبقى نتحـداهم وآنئذ ..

(**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

يسمع دعاء من يدعوه ويعلم ضمير الصامتين.

التوحيد جوهر الوحدة :

[138] انهم يـــدعون الى العنصـــرية أو العصـــبية الجاهلية ، ويوحـدون أنفسـهم تحت هـذا اللـواء أو ذاك .. ويصبغون تحركاتهم وافكارهم ومجتمعهم بلون اليهودية أو النصرانية وقد يتخذون لأنفسـهم أصـناما رمـوزا لوحـدتهم ولنــوع من الثقافة أو المصـلحة أو الأرض الــتي ينتمــون إليها.

ولكننا نؤمن بصيغة واحدة ونرفض كل الألوان الاخرى ، نــرفض كل الرمــوز كل الأصــنام كل شــيء يميزنا عن بعضها ويهدد وحدتنا .. نحن نؤمن بصبغة الله صبغة

التوحيد وكفى .. لا نـــدع لحـــواجز اللغة أو المصـــلحة أو الإقليم أو اللـــــــون أو العنصر .. أو .. أو .. ان تفرقنا عن بعضـــنا تطلي كل جماعة منا بلـــون مختلف كلا .. نحن نطلي أنفسنا بصبغة واحدة وهي ..

(**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَــهُ عابِدُونَ**)

لا نعبد هــذه الألــوان المختلفة الــتي فــرقت النــاس وجعلت منهم مجموعات متحاربة ـ يهود ـ نصارى ـ عرب ـ والى اخره ..

[139] وحين نقول صبغة الله لا يستطيع أحد ان ينكر علينا ذلك إذ ننتمي آنئذ الى الله فاطر الســموات والأرض ..

(**قُلْ أَتُحَاجُّونَنا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ**)

لا نقول لكم تعالوا اتبعونا .. بل ندعوكم وأنفســنا الى الله .. الواحد ، دون تمييز بين عنصرنا وعنصركم ..

(**وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**)

كما ندعوكم أنتم ان تكونوا مخلصين له .. إذا الـدعوة هذه ليست كالدعوات السابقة مشوبة بالشرك أو الضلالة .. أو العنصــرية أو الاقليمية أو غيرها .. انها دعــوة خالصة لله رب كل الناس.

[140] وهذه الـدعوة هي بالـذات دعـوة الأنبيـاء .. إذ مستحيل ان تكون رسالة السماء موجهة لناس دون نــاس .. لان الله رب كل النـــــــاس .. خلقهم جميعا .. من ذكر وأنثى ، ولم يتخذ بعضهم أبناء له فكيف يفرق بينهم بل ان ما نجـده في رسـالات السـماء من العنصـرية والمصـلحية وغيرها .. إنما هي من اضافة الناس

أنفسـهم أضـافوها الى الـدين كـذبا وظلما .. وقـالوا : ان الأنبياء هم الذين جاؤوا به من قبل الله ..

(**أَمْ تَقُولُـونَ إِنَّ إِبْـراهِيمَ وَإِسْـماعِيلَ وَإِسْـحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطَ كانُوا هُـوداً أَوْ نَصـارى قُـلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ**)

الله يقـول انهم لم يكونـوا سـوى أنبيـاء لله .. وأنتم تــدعون انهم كــانوا هكــذا .. بل حــتى هم يعرفــون ان العنصرية والاقليمية وغيرها هي إضافات ذاتية افتروا على الله بها بعد علم بكذبها ، وحرفوا تعاليم الدين التي تنافيها ..

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللــهِ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)

انهم حملـوا رسـالة الله .. واسـتؤمنوا عليها ولكنهم خـانوا الامانة .. وغـدا سـوف يمثلـون للمحاكمة امـام الله العزيز الحكيم ..

(**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَـبْتُمْ وَلا تُسْــئَلُونَ عَمَّا كــانُوا يَعْمَلُــونَ (141) سَــيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذلِكَ جَعَلْنـاكُمْ أُمَّةً وَسَـطاً لِتَكُونُوا شُـهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُـولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَما**

142 [السفهاء] السفيه والجاهل والغبي نظائر.
[ولاهم] ولاه صرفه وقتله واشتقاقه من الولي وهو القرب وهو حصـول الثاني بعد الاول من غير فصل.
143 [وسـطا] الوسط العـدل وقيل الخيـار ومعناهما واحد لان العـدل خـير والخـير عـدل. وقيل أخذ من التوسط بين المقصر والغـالي وقيل الوسط من كل شيء أعدله وأفضله وقيل في صفة النـبي (ص) : كـان من أوسط قومه أي من خيارهم.

جَعَلْنَا الْقِبْلَـــةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِـــعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كـانَتْ لَكَبِـيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللـهَ بِالنَّاسِ لَـرَؤُفٌ رَحِيمٌ (143) قَـدْ نَـرى تَقَلُّبَ وَجْهِـكَ فِي السَّـماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَـةً تَرْضـاها فَـوَلِّ وَجْهَكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَـطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتـابَ لَيَعْلَمُـونَ أَنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللـهُ بِغافِـلٍ عَمَّا يَعْمَلُـونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُــوا الْكِتــابَ بِكُـلِّ آيَــةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَما بَعْضُهُمْ

[عقبيه] العقب مـؤخر القـدم وعقب الإنسـان نسـله والتعقيب الرجـوع الى أمر تريده ومنه لم يعقب.

144 [الرؤية] ادراك الشيء بالبصر ونظيره الأبصار ثم تستعمل بمعنى العلم.

[التقلب] التحـول والتصـرف نظـائر وهو التحـرك في الجهـات ويقـال وليتك القبلة اي صيرتك تستقبلها بوجهك.

[شطره] اي نحوه.

بِتــابِعٍ قِبْلَــةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْـواءَهُمْ مِنْ بَعْـدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتـابَ يَعْرِفُونَـهُ كَما يَعْرِفُـونَ أَبْنـاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقــاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُـونَ الْحَـقَّ وَهُمْ يَعْلَمُــونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) وَلِكُـلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْـراتِ أَيْنَ ما تَكُونُـوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (148) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَــرامِ وَإِنَّهُ لَلْحَــقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللــهُ بِغافِــلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَـطْرَ الْمَسْـــجِدِ الْحَــرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُــوهَكُمْ شَـــــطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُـــــونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا

147 [الممترين] الامـتراء الاسـتخراج وقيل الاسـتدرار ، والمرية الشك ومنه الامــتراء والتمــاري والممــاراة والمــراء الجــدال وأصل البــاب الاستدرار يقال بالشكر تمتري النعم أي تستدر.

مِنْهُمْ فَلا تَخْشَــوْهُمْ وَاخْشَــوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150))

القبلة رمز وحدة الأمة

هدى من الآيات :

سورة البقـرة بينت شخصـية الامة الاسـلامية فبـدأت تقسم النـاس الى ثلاثة أقسـام : (المتقـون ثم الكـافرون والمنافقون) ثم وضحت كثيرا من صفاتهم وبعدئذ تنـاولت بني إسرائيل كمثل لأمة مؤمنة وشرحت قصصـهم والعـبر الـتي يجب ان نسـتفيدها من حيـاتهم. وآخر درس أعطانا القـرآن في هـذا المجـال هو : ضـرورة التمسك بهـدى القـرآن وعـدم التـأثر ببـني إسـرائيل. ذلك لأنها امة قد انحـــرفت ولأنها امة قد خلت ، لها ما كســبت ولكم ما كسبتم.

وبـــذلك ضـــمن القـــرآن الحكيم ، للأمة الإســـلامية (شخصيتها) الثقافية واستقلالها عن الأمم السابقة. وها هو يبين لنا رمز هذا الاسـتقلال الظـاهر ، والمتمثل في القبلة الـتي توحد بين أبنــاء الأمة الإســلامية ، وتعطي لهم كيانا متماسكا ، ومن جهة ثانية تميزهم عن سائر الأمم.

يبـدأ القـرآن هـذا الـدرس بتكـرار الآية الـتي سـبقت وأوضحت : بان تطور الزمان

قد يـــؤثر في اختلاف التشـــريع ، وان على الأمة ان تفكر تفكيرا مستقلا ودون التأثر بسلبيات الأمم السـابقة (**تِلْـكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ**).

ثم يحـدثنا عن ان القبلة ليست مقدسة بـذاتها بل لأن الله امر بتكريمها. وإذا غيّر الله القبلة زالت قداسة القبلة الأولى ، وليس لله سبحانه حلـول في القبلة حـتى تقـدس تقديسا دائما.

وبين مدى العلاقة بين القبلة وبين شخصية الأمة التي جعلت مهيمنة على ســائر الأمم وشـــاهدة عليها تـــراقب مدى تطبيقها لقيم الحق.

واما القبلة الســابقة فكـان تشـريعها بهـدف محـدد ومحـــدود ، هو : اختبــار مشــركي قــريش لمعرفة مــدى صدقهم في قبول رسالة الله التي تدعوهم الى اتبـاع قبلة أعدائهم اليهود.

القبلة التي شرّعت للأمة هو المسجد الحـرام ، الـذي له كرامة يعرفها أهل الكتـــاب ولكنهم يكتمــــون الحق ، انطلاقا من أهوائهم وتفكيرهم العنصري الضيق.

ولقد كان الأحرى بهم ان يطبقوا كتابهم على أنفسهم ، لا ان يحرّفـوا الكتـاب حسب أهـوائهم. وبـالرغم من ان قبلتك حق لا ريب فيه ، فلا يعني ذلك ان تتورط الامة في العنصــرية ، وتــزعم أنها بمجــرد التوجه الى القبلة الحق تكون هي أكرم عند الله من غيرها.

كلّا ، إن هـــذه شـــعائر ظاهرية لا أكـــثر ، ومقيـــاس الكرامة هو التســارع الى الخــيرات ، فمن كــان أســبق النـــاس الى الخــير كــان أكــرم عند الله ، وبعد ان يؤكد القـــرآن التوجه الى المســجد الحـــرام يحـــذر الامة من الضعف امـام الأعـداء أو الخشـية منهم ، لأن من كـان مع الحق يجب ان لا يخشى أحدا.

بينات من الآيات :

الانفصال نقطة الانطلاق :

[141] وضــمن هــذا الإطــار الفكــري ، بيّن القــرآن الحكيم حقيقة هامة هي اننا ومن أجل ان نبـــني حيــــاة جديدة علينا ان ننفصل نفسيا من التأثر بالواقع المعـاش ، بـالرغم من ان للواقع القـائم ثقلا هـائلا ، وضـغطا نفسـيا واجتماعيا كبـيرا ، ولكي يـبين لنا القـرآن أنكم امة جديـدة ذات قبلة جديـــدة ، ذكر لنا ســـلفا ان كل امة لها دورها التـاريخي ، وواقعها الخــاص بها ، وعلى الأمم الاخــرى ان تستقل عنها ، وان تبــني حياتها وفق احتياجاتها وظروفها ، ذلك ان الله لا يسـألنا عما فعل الآخــرون بقـدر ما يسـألنا عما فعلنا نحن ، فـان فعلـوا خـيرا فلأنفســهم ، وعلينا ان نعمل الخـير لأنفسـنا ووفق حاجـات عصـرنا ، وان فعلـوا شرا فلأنفسهم ، وعلينا الا نعمله ونبرر ذلك بأنهم فعلوه ، إذ قد يكون الذي عملوه في عصرهم خـيرا لأنفسـهم وهو شر بالنسبة الى واقعنا ، من هنا قال الله لنا بصراحة :

(**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ**)

من خير أو شر.

(**وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ**)

بل انما تسـألون عما تعملــون أنتم ، ولـذلك يجب ان تســـتقلوا في تفكـــيركم ، وفي أعمـــالكم ، ما دمتم أنتم مجزيين بذلك دون غيركم.

[142] والسفهاء وحدهم يزعمون ان الواقع يجب ان يبقى بحجة انه الحق. كلا ، إذ قد يكون الواقع حقا بالنسبة الى عصر دون عصر ، وقداسة القبلة ليست بســـبب ان الله موجــود في مكــان القبلــة. بل لأن الله امر بــذلك ، يقول الله تعالى :

(**سَـــيَقُولُ السُّـــفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها**)

زاعمين انّ الواقع السابق للأمّة حيث كانوا على قبلة معينة ، يجب ان يظل قائما ، كلا.

(**قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشـاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

الصراط المستقيم في العمل هو : وجه الله سبحانه ، وليس التوجه الى المشرق والمغرب.

[143] والتوجه الى الكعبة لم يشرع في الإسلام ، الا لكي يجعل الله من المســـلمين امة متمـــيزة عن الأمم الاخرى ، ورقيبة على مدى تطبيق سائر الأمم لتعاليم الله ، في الحق والحرية ، والعدالة الاجتماعية ، ولو كـــــانت الأمة متجهة الى قبلة أهل الكتـــاب لم تكن قـــادرة على توجيه مشــركي العــرب المعتقــدين بالكعبة ، كما انها لم تكن تستطع توجيه اليهود والنصارى الذين كـانوا يزعمـون أنفسهم ـ انئذ ـ أصحاب القبلة ، ويعتقـدون ان المسـلمين مجرد اتباع لهم ، لذلك قال الله تعالى :

(**وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**)

هداكم الله الى صراط مستقيم هو : الصراط الوسط بين تطـــرف النـــاس ذات اليمين وذات الشـــمال ، بين تطـــرف اليهـــود الى المادية ، وتطـــرف النصـــارى الى الرهبانية ، بين الحرية الفوضوية وبين الاســتبداد الغاشم ، بين ظلم الفـــرد للجماعة ، وبين ظلم الجماعة للفـــرد ، والهدف من الأمة الاسلامية ان تكون شاهدة على مسيرة الأمم الاخرى.

(**لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ**)

ماذا يعني الشهداء على الناس؟

لعله يعني ان تكونوا موجهين لهم نحو مبادئ الرسالة ، بمثل ما يكون الرسول شهيدا عليكم.

(**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**)

فـذات المسـؤولية الـتي يتحملها الرسـول تجـاهكم ، يجب عليكم ان تتحملوها تجـــاه الأمم الاخـــرى ، وفي مناسبات اخـرى تحـدث القـرآن عن مسـئوليات الرسـول تجاه أمته وعلينا مراجعتها لنعـرف مسـئولياتنا تجـاه الأمم الاخرى.

اما القبلة السابقة فلم تكن الا قبلة مرحلية ، ولهـدف محدد هو اختبار الذين امنـوا من مشـركي العـرب ، ليعلم الله هل تركـوا حساسـياتهم السـاذجة تجـاه الرسـالات الالهية السابقة ، وتجاه قبلتهم بيت المقدس أم لا.

(**وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها**)

التوجه الى بيت المقدس.

(**إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِـــعُ الرَّسُـــولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ**)

ويعود الى حساسياته العصـبية الـتي كـانت تنكر على الرسول الاشتراك مع اليهود ، وأعداء العـرب السـابقين ، في أي مظهر من المظـــاهر الاجتماعية ، أو شـــعيرة من الشعائر الدينية.

والتخلص من الحساسية العصبية ليس سهلا.

(**وَإِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ**)

وتركوا التقاليد البالية امتثـالا لأمر الله ، أما صـلواتكم التي توجهتم بها الى بيت

المقدس فهي محفوظة عند الله.

(**وَما كـانَ اللـهُ لِيُضِـيعَ إِيمـانَكُمْ إِنَّ اللـهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ**)

[144] كـــان الرســـول يعلم : ان الكعبة هي قبلة المسلمين ، وانما كـان بيت المقـدس قبلة مؤقتة ، فكـان ينتظر من الله امــرا بالتوجه الى الكعبة ، ولكنه لم يكن يطلب ذلك صــراحة ، لأنه رســول ، عليه ان يبلغ رســالة الله ، دون ان يـــدخل فيها من ذاته شـــيئا ، فحقق الله للرسول ما أحب وقال :

(**قَـدْ نَـرى تَقَلُّبَ وَجْهِـكَ فِي السَّـماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَـةً تَرْضـاها فَـوَلِّ وَجْهَـكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**)

اي باتجاه المسجد الحــرام وبالتـالي الكعبة ، أما أهل الكتـــاب فلا تفكـــروا فيهم ، إذ انهم يعلمـــون الحق ويخالفونه.

(**وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُـونَ أَنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**)

ولكنهم يخالفون علمهم ، بيد ان الله سـوف يجـازيهم على ذلك.

(**وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**)

لماذا لا تتوحد القبلة؟ :

[145] ويبقى الســؤال : لمــاذا لا توجد قبلة واحــدة لكل المنتمين الى رسالات الله ، أليس من الأفضل ذلك؟

بلى ولكن المشــكلة ان كثــيرا من هــؤلاء ادخلــوا أهـواءهم في الـدين ، فلـذلك يغـيرون الـدين حسب هـذه الأهواء.

(**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ**)

لأنهم يحرفون رسالات السماء بأهوائهم ومصالحهم ، وعليك ـ يا رسول الله ـ ان تتصلب في اتباع الحق ، ولا تستسلم لضغوط أهل الكتاب لأنك صاحب الحق والعلم.

(**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ**) ومن أشد ظلما للناس ولنفسه من قائد يخالف علمه الى اتباع الهوى.

[146] وهؤلاء الذين يحرفون الكتاب ويفسرونه تفسيرا مخالفا للحقيقة لا ينقصهم العلم بالكتاب ، ولكن ينقصهم الايمان الكافي به ، وشجاعة مقاومة أهوائهم.

(**الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**)

[147] لذلك يجب الا نجعل هؤلاء المنحرفين ، قدوات لنا ، أو نرتاب في الحق ، انطلاقا من عدم ايمان هؤلاء ، لأنهم يخالفون علمهم ، وانّما لكي نتبع عقولنا ، ولنتعرف على الحق الصادق الذي أوحى به الله.

(**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**)

الشاكين في الحق.

إن من يدعي انه رجل دين ، بشر قد تستهويه الشهوات فيحرّف الدين ، بعد العلم به ، ولذلك يجب الا يكون اتباعنا لرجل الدين مطلقا ، بل في حدود هدى

عقولنا ومعرفتنا بقيم الرسالة الإلهية.

ان الرجل العـادي لا يسـعه ان يغلق منافذ العلم على نفسه ، ويتكل اتكالا كاملا على أصحاب العلم. لأن هذا قد يورطه في المهالك ، وانما عليه ان يكشف بعقله وفطرته اي نوع من الرجال يتبعه ، أولئك الذين زهدوا في الـدنيا ، وحددوا شهواتهم ، وخالفوا أهواءهم ، وأطـاعوا الله طاعة تامة ، أولئك وحدهم جديرون بالاتباع.

كيف نضمن الفلاح؟ :

[148] هل نستطيع ان نضمن الفلاح لأنفسـنا بمجـرد ان نتوجه شطر المسـجد الحـرام؟ وهل نسـتطيع ان نؤكّد ان كل من يتوجه شطر بيت المقدس في النار؟

كلا .. ان هـذه مظـاهر خارجية للعبـادة ، اما العبـادة الحقيقية فهي : التســليم لله ، والعمل الصــالح ، وكلما كانت الامة أكثر عملا من بالصالحات كانت أقرب عند الله ، اما القبلة فهي مظهر خارجي لا أكثر.

(**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها**)

بعضهم شطر المسجد الحرام والبعض الى القدس.

(**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ**)

هذا هدف رسالات الله ولا يكونن جـدلكم في القبلة ، بديلا عن منافستكم لبعضكم في الخيرات.

(**أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللـهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

هنـاك في محكمة الله لا ينظر الله الى جـدلياتكم بل الى مقدار الصالحات في

ميزان أعمالكم.

[149] ولكن هذه الفكرة لا تدعونا الى تمييع الحـدود ، والقول بأنّ المؤمن يمكنه ان يصلي الى اية جهة شـاء ، كلا ، إنما عليه ان يلـتزم بحـدود الشـريعة ، ولكن دون ان يكتفي بها ، لذلك تجد القـرآن يعـود ويـأمر بالتوجه شـطر المسجد الحرام ويقول :

(**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَـكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ وَإِنَّهُ لَلْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللــهُ بِغافِـلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)

انه الحق ، بـالرغم من مقاومة أئمة الضـلال لك على ذلك ، وما دام الفـــرد على الحق ، فلا بد الّا يأبه بمعارضة النـاس ، مهما كـانوا كبـارا عند أنفسـهم ، وعـريقين في الدين.

[150] ثم يؤكد القـرآن ضـرورة الاسـتقلال الفكـري وعدم الخوف من الناس في الحق ويقول :

(**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَـكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُـوهَكُمْ شَـطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**)

هؤلاء الظالمون سوف يحتجون عليكم ، سـواء اتبعتم الحق ، أم الضـلال ، وعليه فلا بد من إسـقاط هـؤلاء عن الحساب وعدم التفكـير فيهم ، يبقى النـاس فهم يعرفـون مدى أهمية المسجد الحرام ، وكانوا يتسـاءلون لمـاذا أنتم بـاقون على التوجه الى بيت المقـدس بـالرغم من أهميته الثانوية ، الآن عودوا الى المسجد الحرام ، حـتى لا تكـون لهـــؤلاء النـــاس حجة عليكم ، خصوصا وهم على الأغلب ممن يكرم المسجد الحرام.

وما دام الإنســـان على حق وقد اســـتطاع ان يجلب أكـثر النـاس الى صـفّة عن طريق النهج السـليم والعمل الصالح ، فعليه الا يخشى طائفة من الناس ، هم طبقة

المّحرفين للدين.

(**فَلا تَخْشَــوْهُمْ وَاخْشَــوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**).

التخلص من الظــالمين نعمة ، والاســتقلال الفكــري والاجتماعي (بتميز القبلة) نعمة ، وهداية في ذات الــوقت الى القبلة الأفضل ، المسجد الحرام.

(**كَما أَرْسَــلْنا فِيكُمْ رَسُــولاً مِنْكُمْ يَتْلُــوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُــوا تَعْلَمُــونَ (151) فَــاذْكُرُونِي أَذْكُــرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُـرُونِ (152) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ إِنَّ اللـهَ مَـعَ الصَّـابِرِينَ (153)**

151 [أرسلنا] الإرسـال التوجيه بالرسـالة والتحميل لها ليـؤدي إلى من قصد.
[يتلوا] التلاوة ذكر الكلمة على نظام متسق وأصله من الإتباع ومنه تلاه أيّ تبعه.
[يزكيكم] والتزكية النسبة الى الإزدياد من الأفعال الحسنة.
152 [فاذكروني] الذكر حضور المعـنى للنفس وقد يكـون بـالقلب وقد يكـون بـالقول وفي أكـثر الاسـتعمال يقـال الـذكر بعد النسـيان وأصـله التنبيه على الشيء فمن ذكّرته شيئا فقد نبهته عليه.
[اشكروا] الشكر الاعتراف بالنعمة.

وَلا تَقُولُـوا لِمَنْ يُقْتَـلُ فِي سَـبِيلِ اللـهِ أَمْـواتٌ بَـلْ أَحْياءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ (154) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَـيْءٍ مِنَ الْخَـــوْفِ وَالْجُـــوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْـــوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذا أَصـابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قـالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْـهِ راجِعُـونَ (156) أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَــــــلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَـــــــةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

---

154 [سبيل] السبيل الطريق وسبيل الله طريق مرضاته.

وبشّر الصابرين

هدى من الآيات :

للامة الاسلامية شخصية مميزة عن سـائر الأمم حـتى تلك الـتي تحمل رسـالة الله وأهم ما يمـيز هـذه الامة ، الرسالة التي هي نعمة من الله ، كما ان ابتعاث الرسـول فيها نعمة أكـبر سـبقت نعمة القبلة واعطت للعـرب شخصية رسالية مستقلة.

والنعمة كلما ذكـرت كلما دامت والسـبب ان ذكر النعمة يـؤدي الى الاعـتزاز بها والاهتمـام بكل العوامل المساعدة لبقائها ، واما كفـران النعمة فهو أقـرب وسـيلة لزوالها. ولذلك فعلينا ان نتذكر أبدا تلك الرسالة التي أنعم الله بها على الإنسان فأخرجه من الظلمات الى النور.

ولكن التـذكر وحـده لا يكفي ، إذ علينا ان نسـعى من أجل الاحتفـاظ بها ، وذلك عن طريق الصـبر والصـلاة والجهـاد في سـبيل الله والاسـتهانة بـالموت من أجل الرسـالة ، وتحمل بعض التضـحيات البشـرية والأمنية والاقتصادية ، والرضا بها نفسـيا. كل ذلك سـوف يسـتنزل علينا صلوات الله ورحمته.

ان هذا الدرس أهم ما يجب على الامة ان تتعلمه من القرآن ، لكي تقاوم التخلف والكبت.

علينا الاستقلال عن سائر الأمم ولنجعل رمز الاستقلال القبلة ونستعين بالصبر والصلاة (لا بالمساعدات الخارجية) ونرخص في الله أنفسنا ، ونستعد لحياة التقشف.

آنئذ فقط يلهمنا الله الصلوات وينزل علينا رحمته وننتصر على الضعف والهزيمة.

ان القبلة الجديدة إتمام لنعمة الرسالة ، ذلك ان الرسالة وضعت الأمة في مصاف الأمم ذات الرسالة لإلهية ، ولكن اشتراكها مع تلك في القبلة كان ينقص استقلالها الثقافي والاجتماعي والسياسي ، والآن تم ذلك ، لذلك قال الله تعالى : «**وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**» يعني ان يتذكر المسلمون هذا الاستقلال وان يلتفوا حول رسالة الله أكثر فأكثر ، إذ كلما التفوا حولها أكثر كلما اثبتوا استقلالهم وجمعوا صفوفهم.

بينات من الآيات :

لذلك يذكرهم الله برسالته ويقول.

[151] (**كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ**)

وليس من بني إسرائيل حيث كانوا يترقبون أن تنزل الرسالة فيهم ، ويقوم هذا الرسول بعدة أمور هي اهداف كل رسالة :

(**يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**)

هذه الرسالة هي التي فجرت طاقاتكم ، ووحدت كلمتكم ، وكانت نواة

حضارتكم.

ان كل امة بحاجة الى رسـالة ، وكلما كـانت هـذه الرسـالة أقـرب الى الحقيقة كـانت الامة أقـوى وأجـدر بـالنهوض ، ورسـالة الامة الاسـلامية فيها تلاوة آيـات الله الـتي تعـني تنبيه الإنسـان الى الله ، وتعميق روح الايمـان فيه كقاعدة ثابتة لبناء كيان الامة التوحيدي.

وبعد التوحيد عن طريق توجيه الإنسان الى آيـات الله ، تأتي مرحلة التربية الرسالية (ويـزكيكم) لتصـفية النفس من سـلبياتها ، من الفردية ، من الجهل ، من العجلة ، من الجبن ، من ضعف الارادة .. وضعف الهمة و.. و.

ان الامة الـتي لا تسـتطيع ان تتغلب على سـلبياتها الخلقية ، لا تسـتطيع ان تنتفع بالشـرائع والنظم ، وان تفوق الامة في الارادة ، والتزامها الواعي شـرط اساسي لتطبيق اي نظام أو قانون.

وفي المرحلة الثالثة تحتـاج الامة الى نـوعين من الانظمة. نوع ثابت يسـميه القـرآن بكتـاب ، ونـوع يتطـور وفق الزمان يسميه بالحكمة حسب ما يبدو لي.

هذه هي الشروط الثابتة لبناء اية امة ، وقد اسـتوفت الرسـالة الإلهية كل هـذه الشـروط وزيـادة ، حيث فتحت امام الامة آفاقا جديدة من العلم.

(**وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُـونَ**) وعلينا ان نتـذكر هذه الرسالة باستمرار ، ونتذكر حاجتنا إليها وفائدتها لنا.

[152] ولذلك علينا ان نشكر الله على نعمة الرسالة حتى ينفعنا الله بها ، ونشكر الله عليها ليزيـدنا نـورا فيها ، ولا نكفر بهـذه النعمة الـتي منّ الله بها علينا ، فالنعمة التي تكفر تزول.

(**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ**)
اي لا تكفروا بي وبنعمتي.

بماذا نستعين؟

[153] (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**)

الفكرة الحضارية أو الرسالة هي نواة تكوين الامة ، ومسئولية الامة تجاه هذه الفكرة هو التذكر والشكر ، ولكن الامة بحاجة الى طائفة من الصفات الضرورية وأبرزها الاستعانة بالصبر والصلاة ، تلك الاستعانة التي امر الله بني إسرائيل بها حين أمرهم بالواجبات الصعبة.

والصلاة هي الانقطاع عن الحياة ، والتوجه الى الله ، بحيث لا يتّكل الإنسان على اي شيء في الدنيا ، بل على الله والعمل الصالح ، واية امة أرادت ان تتقدم فعليها ان تستمد القوة من الله ، من الايمان به ، والعمل بتعاليمه ، والاستفادة من نعمه على الإنسان. ومن دون هذا الانقطاع تفقد الامة تعاليم رسالتها ، وقواها الذاتية ، وتتكل على القوى الخارجية ، وتكتب بذلك نهايتها المحتومة.

والصبر هو التطلع الى المستقبل ، والتضحية ببعض النعم في الحاضر من أجل تحقيق أفضل منها في المستقبل ، ومن هنا فمن دون رؤية المستقبل والتطلع الى تحقيقه لا تتقدم الأمة ، إذ التقدم بحاجة الى (استثمار) بعض الطاقات في (سوق الزمان) حتى يحصّل الربح في المستقبل.

الفلاح يدفن تحت الأرض رزقه من الحبوب ، ويبذل عليه جهده ، ويتطلع الى المستقبل حيث تتحول الأرض الى حقل خصيب ، فلو لا جهده وانتظاره هل كان يستطيع ان يحصل على الانتاج؟ كلا ... كذلك الامة عليها ان تصبر .. أن تعمل

للمســتقبل البعيد .. وفيما يلي يضــرب لنا القــرآن بعض الامثلة على الصبر.

إذا أردت أن لا تموت :

[154] أوّل الصــبر الرضا النفسي بالتضــحيات وجعل القـــــرآن المضـــــحين في ســــبيل الله في قمة المجد الاجتماعي ، ليشجع الباقين على المسير في دربهم.

(**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَـلْ أَحْيَاءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ**)

احيــاء لان القتل قد نقلهم من حيــاة الى حيــاة ، من حيـاة الجسد الى حيـاة الـروح ، من الحيـاة الظاهرية الى الحياة الحقيقية ، فلم تكن الشهادة الا بابا دخلــوا منه الى رضـوان الله ، واحيـاء لأنهم وفـروا فرصة الحيـاة للالـوف من الناس.

إن الكرامة حيــاة ، والحرية حيــاة ، والعيش الســعيد حياة ، ومن يموت في سبيل هذه المبادئ الدينية فهو حي في تلك المبـادئ. ان الشـجرة الـتي اقتلعت لكي يتحـول كل فــرع منها الى شــتيلة لشــجرة جديــدة لم تمت ولن تمـوت ، والحبة الـتي دفنت تحت الأرض لكي تتحـول الى سنبلة فيها مائة حبة لم تمت ولن تموت.

والشــهيد الــذي وقف حياته لمبادئه الرســالية ، حيث كـــان حيا ثم قتل لتحيا تلك المبـــادئ ، انه لم يمت ، وإنّ أمة تكرم شهداءها وتحي ذكراهم وتجعلهم احياء بينها هي امة حية لا ولن تموت.

[155] الـــذي مضى شـــهيدا حي يـــرزق عند الله ، والبــاقون من أبنــاء الامة ســوف يقضــون ظروفا صــعبة تتمخض عن حياة مجيدة ، وعلى الامة ان تكـون مسـتعدة أبــدا للتضــحية ، حــتى تســتطيع التقــدم وتفجر طاقاتها ، وتزيدها تلاحما وصلابة وعمقا.

(**وَلَنَبْلُـوَنَّكُمْ بِشَـيْءٍ مِنَ الْخَـوْفِ وَالْجُـوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ**

(**وَالثَّمَراتِ**)

انها حياة البناء الـتي لا بد ان تقضـيها الامة قبل البـدء بالمسيرة الصـاعدة ، انها فـترة تجميع الرأسـمال عند من يريد ممارسة التجـــارة ، أو فـــترة الدراسة لمن يريد ان يصبح خبيرا أو عالما ، انها بالتالي فترة العطـاء وفي هـذه الفترة يجب ان تتحلى الامة بالصبر.

(**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**)

[156] (**الَّذِينَ إِذا أَصـابَتْهُمْ مُصِـيبَةٌ قـالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ**)

إن هؤلاء لا ينظرون الى المصيبة ذاتها ، انما ينظرون إليها ضمن اطار عام يجعلونها فيه ، فهم يتصورون ـ خلال المصـــيبة ـــ انهم مجنـــدون في ســـبيل الله ، قد شـــروا أنفسـهم ابتغـاء مرضـاته ، ولا يجـوز لمن بـاع بضـاعة ان يطالب بها. والمسـلم الحقيقي لا يفكر في جسـده أو في ماله ، لأنه قد باعهما ســـلفا ، ثم انهم يتصـــورون النهاية السعيدة التي تنتظرهم لو صبروا على المتاعب في سبيل الله.

إن اية خســـارة في ســـبيل الله يجب ان توضع في اطـار النظـرة التاريخية العامة الـتي تجعل من الخسـارة شـيئا تافها امـام المكاسب الكبـيرة الـتي تنتظر الامة في المســـتقبل. ثم أليس البشر أساسا لله ، خلقه الله لا من شيء. ثم جعله شيئا مذكورا ، أو ليس يعود اليه بالتالي ـــ عاجلا أو آجلا ـ فلما ذا الجـزع على المصـيبات وهي لا بـدّ منها بصورة أو بأخرى.

[157] ما جزاء الصابرين؟ وما ثوابهم؟

انه صـلوات من ربهم ، ان الله قـريب منهم ويحبهم ، ويبعث إليهم ببركاته ويـرحمهم ، فيخفف عنهم الصـعوبات في المستقبل.

إن أول جزاء يتلقاه الصابر من ربه تأييده عند صبره ، وتخفيف مصـيبته عليه ، ودعم معنوياته ، ثم تعويضه على خسارته وزيادته من فضله.

(**أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَـلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**)

اما الذين لا يصبرون على المصيبة فهم لا يهتدون الى الحق ، لأن حبهم لذاتهم يحجب عنهم الحقـائق ، ويجعلهم لا ينظـرون الّا الى الجـوانب السـهلة من رسـالة الله ، وبالتـالي يحرمـون من هـذه الرسـالة ، فالله لم يبعث دينا هكذا كله راحة ونوم ومصالح!!

إن هذه هي أهم نواقص الامة الاسلامية اليـوم ، حيث كفرت برسالة الله ، وهجـرت الصـيام والصـلاة ، وخـافت الاستشهاد ، ولم تتحلّ بالصبر ، ولـذلك فقد تخلّفت وذلّت ، وتوالت عليها النكبات والمصائب ، ومـتى ما أردنا الفلاح فعلينا بالعودة الى هذه التعاليم بحزم وقوة.

(إِنَّ الصَّـفا وَالْمَـرْوَةَ مِنْ شَـعائِرِ اللـهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنـاحَ عَلَيْـهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ (158) إِنَّ الَّذِينَ

---

158 [الصفا] الصفا في الأصل الحجر الأملس مأخوذ من الصفو واحده صـفاة. وقيل الصـفا كل حجر لا يخلطه غـيره من طين أو تـراب وانما اشتقاقه من صفا يصفو إذا خلص.

[المـروة] في الأصل الحجـارة الصـلبة اللينة وقيل الحصـاة الصـغيرة والمرو نبت وأصله الصلابة وقد صـار الصـفاء والمـروة اسـمين لجبلين معروفين في مكة.

[شـعائر] الشـعائر المعـالم للأعمـال وشـعائر الله معالمه الـتي جعلها مواطن للعبادة وكل معلم لعبادة أو دعاء أو صلاة أو غيرهما فهو مشعر لتلك العبـادة وواحد الشـعائر شـعيرة فشـعائر الله أعلام متعبداته من موقف أو مسعى أو منحر.

[حج] الحج في اللغة هو القصد على وجه التكرار. وفي الشريعة عبـارة عن قصد البيت بالعمل المشروع من الإحرام والطواف

يَكْتُمُـونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّنـاتِ وَالْهُـدى مِنْ بَعْـدِ ما بَيَّنّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتـابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللـهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُـونَ (159) إِلاَّ الَّذِينَ تـابُوا وَأَصْـلَحُوا وَبَيَّنُـوا فَأُولئِكَ أَتُـوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ (160) إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَمـاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَـةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

والسعي والوقوف بالموقفين وغير ذلك.

[اعتمر] العمرة هي الزيادة من العمارة لان الزائر يعمر المكان بزيارته وهي في الشرع زيارة البيت بالعمل المشروع.

[جناح] الجناح الميل عن الحق ، يقال جنح اليه جنوحا إذا مـال وأجنحته فاجتنح أملته فمال.

[يطـوّف] الطـواف الـدوران حـول الشـيء ومنه الطـائف وفي عـرف الشرع الدور حول البيت ويطوّف أصله يتطوف.

[تطوّع] تبرع.

160 [تابوا] التوبة هي الندم الـذي يقع موقع التنصل من الشـيء وذلك بالتحسر على مواقعته والعزم على ترك معاودته ان أمكنت المعاودة.

[أصلحوا] صلاح العمل هو إخلاصه من قبيح ما يشوبه.

(161) خالِـدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَـذابُ وَلا هُمْ يُنْظَـرُونَ (162) وَإِلهُكُمْ إِلـهٌ واحِـدٌ لا إِلـهَ إِلاَّ هُـوَ الـرَّحْمنُ الـرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْـكِ الَّتِي تَجْـرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّـماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ

---

162 [ينظرون] الانظـار الامهـال قـدر ما يقع النظر في الخلاص وأصل النظر الطلب فالنظر بالعين هو الطلب بالعين وكذلك النظر بـالقلب أو باليد أو غيرها من الحواس.
164 [اختلاف] نقيض الاتفاق واختلاف الليل والنهار أخذ من الخلف لان كل واحد منهما يخلف الآخر على وجه المعاقبة وقيل هو من اختلاف الجنس كاختلاف السواد والبياض.
[الفلـك] السـفن تقع على الواحد والجمع ، والفلك فلك السـماء وكل مستدير فلك وقيل هو اسم للدوران خاصة.
[بث] البث التفريق وكل شيء بثثته فقد فرقته.
[دابة] من الدبيب وكل شيء خلقه الله يدب فهو دابة.
[تصرف] تقليب وصرف الدهر تقلبه وجمعه صروف.

بَيْنَ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُـونَ (164) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِـذُ مِنْ دُونِ اللـهِ أَنْـداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَـوْ يَـرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَـذابِ (165) إِذْ تَبَـرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُـوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُـوا وَرَأَوُا الْعَـذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْـبابُ (166) وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ

---

165 [أنداد] أشباه وأمثال وقيل هي الاضداد.
[حب] الحب خلاف البغض والمحبة هي الارادة فـــاذا قلت أحب زيـــدا فالمعنى اني أريد منافعه أو أمدحه ، وإذا قلت أحبّ الله زيـدا فـالمعنى أنه يريد ثوابه وتعظيمه ، وإذا قلت أحب الله فـــــــالمعنى أريد طاعته واتباع أوامره.
166 [تبرأ] التبرؤ في اللغة أصله التولي والتباعد للعداوة وإذا قيل تبرأ الله من المشركين فكأنه باعدهم من رحمته للعـداوة الـتي اسـتحقوها بالمعصية وأصله من الانفصال ومنه برأ من مرضه.
[اتبعوا] الاتباع طلب الاتفاق ، فاذا قيل أتبعه ليلحقه فالمراد ليتفق معه في المكان.
[تقطعت] التقطع التباعد بعد اتصال.
[الأسباب] السبب الوصلة الى المتعذر بما يصلح من الطلب ،

لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللــهُ أَعْمالَهُمْ حَسَـراتٍ عَلَيْهِمْ وَما هُمْ بِخـارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167))

والأسباب الوصلات وواحدها سبب ومنه يسمى الحبل سببا لأنك تتوصل به الى ما انقطع عنك من ماء بئر وغيره.

167 [كرة] رجعة.

[حسرات] الحسرة أشد الندامة.

كيف أخفى

علماء السوء شعائر الله؟

هدى من الآيات :

تـــــذّكر نعم الله ، والـــــتي في طليعتها القبلة رمز الاستقلال ، وكذلك الرسـالة ، كـبري نعم الله على الأمة ، هـذا التـذكر كـان محـور حـديث الـدرس السـابق ومن ثم الاستعانة بالصبر والصلاة.

وهنا يـذّكرنا الله بالصـفا والمـروة حين يسـعى الحـاج بينهما ، ليتذكر هاجر التي صبرت في الله ، وكانت عاقبتها النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة.

بيد ان الأمة قد تتــوانى وتخــور عزيمتها ، وهنــاك قد تتشبث ببعض الأفكار السلبية التي تبعـدها عن الجدية في العمل ، والتضحية في سـبيل اللـه. وهـذه الأفكـار يبلورها طائفة من انصـاف رجـال الـدين الـذين أوتـوا نصـيبا من الكتاب يكتمون عن الناس هدى الله.

وبعد ان يحذرهم الله عاقبة هذا الأمر ، يـبين ضـرورة التوحيد وعدم الشرك. وكل

اتباع لغير الله شرك ، بل وكل سماع عن غير الله شـرك. ويصــور لنا الله يــوم القيامة حيث يتــبرأ التــابعون عمن اتبعـوهم بعد ان تخلى أولئك عنهم. كـذلك في الـدنيا علينا الا نضـــيّع رؤيتنا ونتبع كل من تحـــدث عن الله ، بل نفكر فيمن نتبعه وكيف نتبعه.

ان هـذا الـدرس يكمل الـدرس السـابق الـذي كـان يتناول شروط نهوض الأمة ، إذ ان من ابرز هذه الشـروط ، وحدة التوجيه الثقافي للأمة.

بينات من الآيات :

[158] كما جـاء في آيـات اخـرى ، امر الله إبـراهيم بان يسكن زوجته هاجر وابنها في مكة بواد غير ذي زرع ، وان يرحل عنهم. فاســتجاب واســتجابت زوجته لأمر الله ولما اســـتقرت هـــاجر في مكة ، عطش ابنها الرضـــيع. فطلبت له الماء فلم تجد قطرة ماء. وكـان هنـاك جبلان ، أخذت هاجر تطوف بينهما ، وتحاول ان تجد أحدا تســتنجد به وعند ما أكملت هـاجر ســبعة أشــواط من طوافها بين الجبلين ، وجـدت آثـار المـاء تحت قـدمي ابنها إسـماعيل. فشــرع الله السـعي بين هـذين الجبلين ، تخليـدا لـذكرى هــاجر ورمــزا لســعي الإنســان في ســبيل اللــه. بيد أن المشركين وضعوا حجرين على الصـفا والمـروة واختلقـوا لهما قصة خرافية وأخذوا يعبدونهما ويسعون من اجلهما ، وظن بنو إســرائيل ان الطــواف بين الجبلين أصــبح وهما لمجرد ان الجاهليين وضعوا عليهما صنمين ، فجـاءت الآية تنفي هذا الاعتقاد يقول تعالى :

(**إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ**) الشـعيرة هي الرمز ، حيث انها دليل على الايمـــان ، ويطلق على محل العبادة ، كالصلاة والحج وما أشبه ، قال الطبرسي ـ ره ــ في مجمع البيـان وكل معلم لعبـادة من دعـاء أو صـلاة أو غيرهما فهو مشعر لتلك العبادة لله.

(**فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَــرَ فَلا جُنــاحَ عَلَيْــهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما**)

ويسعى بينهما.

(**وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً**)

كما فعلت هـاجر ، وسـعى بين الصـفا والمـروة كما سعت.

(**فَإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ**)

رسالة العلم :

[159] العلم رسالة يجب ان تخدم هدف الإنسان في الحيـاة ، اما إذا اسـتغل العلم في سـبيل مصـالح خاصة فسوف ، يصـبح وبـالا على المجتمع ووبـالا على صـاحبه ، وسوف يفتضح هذا العـالم الوبيل أمـام النـاس والتـاريخ ، فيعتزله الناس ويصبح منبوذا.

كانت قصة الصفا والمروة مثلا لما يسـتطيع ان يفعله العلم إذا استخدم في سبيل إضلال النـاس ، حيث حولـوه من شعيرة دينية الى عمل محرم.

وبعد هـذه القصة وحـتى اليـوم نجد علمـاء سـوء ، يكتمـون الحقـائق عن النـاس ، ولا يـؤدون امانة العلم العظيم.

(**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّنـاتِ وَالْهُـدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ**).

الكتاب لم يأت لطائفة معينة ، إنما جاء هـدى للنـاس جميعا ، والذين يكتمـون تشـريعاته المفصـلة (البينـات) أو قيمة الموجزة (الهدى) عن الناس الذين نزل الكتاب لهم.

(**أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**)

[160] وأمام علماء السـوء فرصة للعـودة الى رحمة الله ورحمة الناس ، هي قيامهم بثلاثة اعمال :

الاول : التوبة بـــالاعتراف باخطـــائهم الســـابقة ، والاستعداد لتصحيحها.

الثاني : القيام فعلا بتصحيح الاخطاء وإصلاحها.

الثالث : بيان كل الحقائق حتى التي تخالف مصالحهم ، أو مصالح قومهم.

(**إِلَّا الَّذِينَ تـابُوا وَأَصْـلَحُوا وَبَيَّنُـوا فَأُولئِكَ أَتُـوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**)

ان ضـرر عـالم السـوء في المجتمع كبـير ، إذ انه قد يسبب انحـراف خلق كثـير من النـاس ، ولـذلك فـان توبة الله عليه دليل على ان الله تـــواب رحيم. والا فليس هينا التوبة على مثل هذا الرجل الذي اسـتغل سـلاح العلم ضد الناس.

جزاء علماء السوء :

[161] عــودة رجل العلم الفاسد صــعبة جــدا ، لأنه ســوف يشــهّر امــام النــاس كمجــرم ، وهو قد عمل المستحيل في سبيل ان يضـفي على نفسه قداسة علمية ، ولكنه لو مـات هكـذا غـير تـائب فانه سـيموت كـافرا ، وجزأوه عند الله اسوأ.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**)

[162] (**خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**)

هؤلاء لا يعتـنى بهم أبـدا ، بل يهـانون أشد الامتهـان ، وذلك بعدم النظر إليهم

أبـدا. ذلك لان هـؤلاء حرّفـوا الـدين في الـدنيا طلبا للجـاه والرئاسة والعــزة امــام النــاس ، والله يجــازيهم بالــذل والصغار.

الثقافة التوحيدية :

[163] ان على المسـلم ان يسـتوحي ثقافته من الله أو ممن امر الله ، ذلك التوحيد الخالص والقـرآن هنا يـبين لنا سبب هذا التوحيد (الثقافي) ويقول :

(**وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ**)

فما دام الله واحدا ، فان علينا طاعته واتباع رسوله ، دون ان نختار لأنفسنا موجّهين ونتبعهم.

ولكي يكرّس القرآن الكريم هذه الفكرة ، يوجهنا الى فطرتنا ، ويأمرنا بـــالنظر الى آيـــات الله في الســـماء والأرض ، خصوصا تلك الــتي تعكس رحمة الله الواســعة والمستمرة.

إن هـذه الآيـات تـدعونا الى التوجه الى الله وحـده ، ونبذ الأنداد من دونه ، وهذه الدعوة تتصل بفطرة الإنسان الراسخة في حب من أحسن اليه ، ومن أوسع إحسانا من الله علينا؟

(**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

بهذه العظمة والروعة والدقة.

(**وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ**)

بما فيه من آية الرحمة ، والحكمة ، والقدرة ..

(**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ**)
من نقلهم ونقل أمتعتهم الى اقاصي الأرض.
(**وَما أَنْـزَلَ اللـهُ مِنَ السَّـماءِ مِنْ مـاءٍ فَأَحْيا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**)
كيف انه نظّم الحياة بشكل يتبخر الماء ، فيتحول الى ســحب تحمله الريـــاح وتســـوقه الى حيث الحاجة اليه ، فتمطر ماءا عذبا نافعا للزرع والضـرع ، حـاملا معه كل ما ينفع الأرض.
(**وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ**)
ذات حيــاة ، فــاذا بالنملة وأصــغر منها ، وإذا بالفيلة وأكــبر منها ، وإذا بــالطيور والســباع والأســماك ، كل قد هـداه الى رزقه ونفعه ، وكل قد خلق لهـدف محـدد ، ثم وفّرت له وسائل الحياة لأجل مسمى.
(**وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)
الذين يستثمرون طاقة العقل التي وضعها الله فيهم ، وحــدهم ينظــرون من خلال هــذه الآيــات الى رحمة الله الواســعة والدائمة ، ويعرفــون ان الله هو وحــده الجــدير بــالحب والطاعة والعبــادة ، وانه دون غـيره من الشـركاء يجب ان يتخذ وليا.
[165] الذين لا يعقلـون لا ينتفعـون بعقـولهم بـالرغم من وجودها عنـــدهم ، هـــؤلاء لا يعرفـــون ربهم ، لانّهم ينظــرون الى الكــون نظــرة جامــدة متحجــرة لا تتجــاوز ظــواهر الكــون ، دون تعمق في دلالات هــذه الظــواهر. ولذلك فهم لا يؤمنون أو يؤمنون ، ايمانا سطحيا بالله.

(**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِــذُ مِنْ دُونِ اللـــهِ أَنْــداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ**)

لنظرتهم الجامـدة ، فهم يقدسـون الشـمس ـ مثلا ـ بدلا من ان يعبدوا الذي خلق الشمس ونظّم سيرها ، وهو الله. لماذا؟

لأنهم ينظـرون الى ظـاهر الشـمس دون ان يسـتدلوا بها على ربها ، كذلك فهم يرتبطون بأصحاب المال والجاه والعلم ، دون ان يفكـروا ان هـؤلاء جميعا عبـاد لله ، وأنّ الله هو الذي أعطاهم هـذه النعم ، فـاولى بهم وأجـدر ان يتصلوا بالله مباشرة ، ولا يسمحوا لأنفسهم بأن يستعبدها هؤلاء الوسطاء.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**)

فبالرغم من إنشـاء علاقة بينهم وبين أصـحاب المـال والجاه والعلم ، فهم لا يسمحون لأنفسهم بالعبودية لهؤلاء ، بل يبقون أبدا مرتبطين بالله ارتباطا أشد.

(**وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**)

أنفسهم ، باتباعهم الأنداد ، وتفضـيل الأنـداد على الله حين خالفوا أوامر الله ابتغاء مرضاة الأنداد ، من أصـحاب الثروة والسلطة. والمعرفة لو يـرى هـؤلاء الحقيقة فـإنهم يكفون عن غيهم وذلك.

(**إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُـوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعـاً وَأَنَّ اللـهَ شَدِيدُ الْعَذابِ**)

فان كان حب الأنداد طلبا للقوة فان القـوة لله جميعا ، وان كان خشية العذاب فان الله شديد العذاب.

[166] هـؤلاء الـذين يتّبعـون من دون الله ويتخّـذون أندادا مع الله ، هؤلاء

ضعفاء وخونه ، إذ انهم سـوف يتـبرءون من التـابعين دون اي وازع من ضمير .. ولو يرى تابعوهم تلك الحالة.

(**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا**)

جميعا التابعون والمتبوعون.

(**الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ**)

فلم يجدوا حبلا يعتصمون به ولا ملجأ يأوون اليه.

[167] (**وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً**)

الى الحياة الدنيا أو الى الوراء.

(**فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا**).

هذه عاقبة الذي يتخذ من دون الله أندادا يحبهم كحبه الله ، ويتبعهم من دون امر الله ، العاقبة هي النـدم. حيث يقول يا ليت الزمان يعود بي الى الوراء فـارفض اتبـاعهم ولكن هيهات ..

(**كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ**)

إذ انهم عملوا أعمالا كثيرة ولكنها كانت أعمـالا باطلة بسـبب اتبـاعهم فيها للأنـداد ، فيتحسـرون عليها ولكن الحسرة لا تنفعهم ولا تخفف عنهم عذاب ربهم.

(**وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ**)

ان الأمة الإسلامية لا بد ان تنعـدم فيها مراكز القـوى (الأنداد) ، وتتجه في خط

واحد الى الله ، في صـــراط مســـتقيم ، ولا يتبع أحد فيها أحـــدا الا بـــإذن الله ، ويكـــون حبه لله أشد من حبه لمن حوله من النــاس الأقويــاء والضــعفاء على حد ســواء. انه مجتمع حر بكل ما في الحرية من معــنى. وفي الـــدروس التالية تفصيل لهذه الحقيقة.

(يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168) إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (169) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ

---

168 [خطوات] الخطوة بعد ما بين القدمين للماشي وخطوات الشيطان آثاره.

169 [السوء] كل فعل قبيح يزجر عنه العقل أو الشرع وانما سمي القبيح سوءا لسوء عاقبته.

[الفحشاء] والفاحشة والقبيحة والسيئة نظائر وكل من تجاوز قدره فهو فاحش ، وكل ما لا يوافق الحق فهو فاحشة.

170 [ألفينا] اي صادفنا ووجدنا.

171 [ينعق] نعق صاح زاجرا ونعق الغراب إذا صوت.

بِما لا يَسْـمَعُ إِلاَّ دُعـاءً وَنِـداءً صُـمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (171) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا كُلُـوا مِنْ طَيِّبـاتِ ما رَزَقْنــاكُمْ وَاشْــكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُــدُونَ (172) إِنَّما حَـرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَـةَ وَالـدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيـرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْـطُرَّ غَيْـرَ بـاغٍ وَلا عـادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْـهِ إِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (173) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتابِ وَيَشْـتَرُونَ بِـهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً أُولئِكَ ما يَـــأْكُلُونَ فِي بُطُـــونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللـهُ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ وَلا يُـزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَـذابٌ أَلِيمٌ (174) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْــتَرَوُا الضَّــلالَةَ بِالْهُــدى وَالْعَـذابَ بِـالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْـبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ

---

173 [اهلّ] الإهلال في الذبيحة رفع الصوت بالتسمية وكان المشركون يسمون الأوثان والمسلمون يسمون الله.
[اضـطر] الاضـطرار كل فعل لا يمكن المفعـول به الامتنـاع منه وذلك كالجوع الذي يحدث للإنسان فلا يمكنه الامتناع منه.

بِـالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُـوا فِي الْكِتـابِ لَفِي شِـقاقٍ بَعِيـــدٍ (176) لَيْسَ الْبِـــرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُـــوهَكُمْ قِبَـــلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِـرَّ مَنْ آمَنَ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَـةِ وَالْكِتـابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمـالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّـلاةَ وَآتَى الزَّكـاةَ وَالْمُوفُـــونَ بِعَهْـــدِهِمْ إِذا عاهَـــدُوا وَالصَّـــابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ

177 [البر] العطف والإحسان ، والبر الصدق ، والـبر الايمـان والتقـوى وأصله الاتساع ومنه البرّ.
[المسكين] من لا شيء له من المال.
[الفقير] الذي له ما لا يكفيه من المال.
[ابن السبيل] هو المنقطع به إذا كـان في سـفره محتاجا وان كـان في بلده ذا يسار وهو من أهل الزكاة وقيل أنه الضيف.
[الرقاب] جمع رقبة وهي أصل العنق ويعبر عنه عن جميع البــدن يقـال أعتق الله رقبته ومنه قوله فتحرير رقبة.
[البأساء] والبؤس : الفقر.
[الضراء] السقم والوجع.

صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177))

كيف نحطم أصنام الكفر؟

هدى من الآيات :

مجتمع الحرية هو مجتمع التقـــدم الرفـــاه ، ويربط القــرآن الحكيم بين التحــرر من اتبــاع شــياطين الــثروة والسلطة والدين ، وبين الانتفـاع التـام بما في الحيـاة من نعم طيبة.

هؤلاء الشياطين ، يحرمون على النـاس الطيبـات من الـــرزق ، لجهلهم أو لأنهم يريـــدون ان يســـتأثروا بها ، أو لأنهم يحاولون إبقاء النـاس ضـعفاء مقهـورين ، ولكن الله خلق الأشياء لنا ، وعلينا ان نعمل من أجل الحصـول عليها ونتجاوز العقبات من أجلها.

ان الآية الأولى تـدعو النـاس صـراحة الى الاسـتفادة مما في الأرض وهي دعوة ضـمنية لكسر حـواجز العبودية التي يرتبط في القرآن بأمر الشيطان الذي يـأمر بالسـوء والفحشــاء ، ويضــرب في الآيــات التالية ، مثلين لاتبــاع الشيطان : الأول اتباع

الآباء ، والثاني : اتباع رجال الدين المحرّفين لكتـاب الله ، وفي الآية الأخـيرة يتحـدث القـرآن عن النظـرة القشـرية التي أوصى بها هؤلاء العلمـاء المزيفـون ، فجـردوا الـدين من روحه ونوره وهداه.

ان الأمة الاسـلامية اليـوم تعـاني من التخلف ، الـذي ليس في واقعه ، سوى صـورة مبسـطة لعـدم الاسـتفادة من نعم الله. بسبب التقاليد البالية ، والنظريات السـخيفة في تفسير الدين ، وعليها ان تتقدّم حتى تتمتع بنعم الله ، وتكسر حــواجز التقليد ، وما يســمى بالــدين وهو ابعد ما يكون عنه.

بينات من الآيات :

[168] أولا : وقبل كل شـــيء ، لا بد ان نضع للحرية هدفا سـاميا. والحرية في المجتمع الاسـلامي والـتي دعت إليها آيات الدرس السابق (رفض الأنداد) ذات هـدف هو : الانتفـــاع بنعم الله وبكل صـــراحة يوجه الله خطابه الى الناس كل الناس المؤمنين والكافرين قائلا :

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً**)

وبذلك يقرر الأصل في الأشـياء الحليّة حـتى يثبت انها حـــرام والتعبـــير ب (مما في الأرض) تعبـــير يـــدل على الإطلاق ، مما يعكس لنا نظـــــرة القـــــرآن الايجابية الى الحياة.

إن الله يريد ان نتمتع بالحياة ، ولكن الشـيطان يمنعنا ، انه يوجد الحـــواجز بين الإنســـان وبين نعم الله ، وعلى الإنسان الّا يتبع الشيطان ، وان يقاومه. كما أن الشـيطان يزيّن للناس الغايات الخبيثة والإسراف والطمع وكلها تمنع من الانتفاع السليم والتام من خيرات الأرض.

(**وَلا تَتَّبِعُــوا خُطُــواتِ الشَّــيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَــدُوٌّ مُبِينٌ**)

إنه لا يريدكم أن تنعموا بالحياة فلما ذا تتبعوه؟ الـذين يمنعون زراعة الأرض بحجة انها لفلان هم أعداء الإنسان ، والذين يمنعـون التجـارة ويضـعون حـواجز في طريق الله هم أعـداء الإنسـان ، والـذين يمنعـون عمـارة الأرض هم أعداء الإنسان ، وعلى الإنسان الا يتبع أعداءه.

القوانين الشيطانية :

[169] وعند تبسـيط القـوانين والتقاليد الـتي يضـعها الشـيطان ، نجد أنها تنقسم الى ثلاث فئـات ، فبعضـها (سـوء) يمنع من الانتفـاع بالحيـاة مثل : أكـثر القـوانين الزراعية والتجارية الحديثة الـتي وضـعت للحد من نشـاط النـاس ، وللإبقـاء على سـيطرة مراكز القـوى (شـياطين الأرض) على مقدرات الناس.

وكمثل بسـيط كـان رؤسـاء العشـائر الـذين كـانوا يتمتعون بقوة البطش يقتطعـون لأنفسـهم أرضا يسـمونها بـالحمى ، ويحرمـون على النـاس رعي اغنـامهم فيها ، ثم تطورت وأصـبحت تلك الاراضي ملكا لا قـرب النـاس الى السلاطين (الاقطاعات السـلطانية) ثم تطـورت وأصـبحت أراض اميرية مرتبطة بـالبلاط الملكي ، ثم تطـورت وأصـبحت ملكا لأصـحاب رؤوس الأمـوال الضـخمة أو ما أشبه.

تـرى ان كل هـذه القـوانين منعت من زراعة الأرض ، وبالتالي من انتفاع الإنسـان بها ، والسـؤال كيف اسـتطاع هؤلاء الشياطين منع الناس من الانتفـاع بما جعل الله لهم حلالا؟

الجواب : إنما فعلوا ذلك في ظل القوانين والأعـراف والتقاليد الباطلة ، فـاذا ايمـان النـاس واتبـاعهم لتلك القوانين والأعراف والتقاليد هو السبب غير المباشر لعدم انتفاعهم ، إذا فلنكفر بالشيطان وبانظمته الجائرة.

و «الســوء» يتطــور الى «الفحشــاء» إذ انه يكــرس السـلطة والـثروة بيد طائفة من النـاس يسـتغلونهما في الظلم.

والفحشــــاء تلبسّ شيـــاب الـــدين ، بفعل تعـــاون الانتفاعيين (المستثمرين) مع بعض من يسـمى ب (رجـال الدين) الذين يحرفون كلام الله ، ويكتمون الكتاب.

(**إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**)

أحد مظاهر «السوء» الانظمة الباطلة ، وكما أنّ ابرز مظاهر «الفحشاء» الظلم الاجتماعي الذي يقع ـ عـادة ـ بسـبب تلك الأنظمة والتـبرير الـديني لتلك الانظمة وذلك الظلم.

عبدة الاباء :

[170] وكمثل لذلك اتباع الاباء المنحرفين.

(**وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ**)

وفيه رفاه للجميع ، وتحـرر للطاقـات ، واسـتفادة من نعم الحياة.

(**قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا**)

اي ما تعودنا عليه من حياة آبائنا.

(**أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ**)

[171] ومثل هــؤلاء مثل الببغــاء حيث يــرددون ما يقوله الآخــرون دون ان يفهمــوا منه شــيئا ، إنهم فقــدوا قدرتهم على التفكير والاستقلال الثقافي.

(**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ**)
اي يصيح مقلدا لصياح الآخرين.
(**بِما لا يَسْمَعُ**)
اي بصياح لا يفهمه هو.
(**إِلَّا دُعاءً وَنِداءً**)
مبهما وغير معروف لديه ، وهؤلاء في الواقع
(**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**)
لان الفائـــــدة من الاذن ، واللســـــان ، والعين هي المعرفة والعقل ، وحيث لا عقل فلا احساس.
(**فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**)
إن هـذا مثل واحد لهـؤلاء النـاس الـذين لا يتمتعـون بالاستقلال ، ولا يتحررون من عبادة الأنـداد من دون الله ، وبالتالي لا يستغلون موهبة العقل عندهم.
[172] ومثل آخر يضر به القرآن من واقع اتباع رجال الـدين المحـرّفين لكلام الله ، وهم صـورة اخـرى للتخلف الاجتمــاعي حيث يــبررون الانظمة الفاســدة ، وقبل ان يضـرب القـرآن هـذا المثل يعـود ليأمرنا بالانتفـاع من نعم الله.
(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ**)
وربما توجه الخطاب للمؤمنين هذه المرة ، بينما كـان الخطاب عاما في الاية

السابقة ، ربما كان ذلك ليدحض القـرآن فكـرة ان الـدين تخلف ورجعية ومنع للطيبــات ، كما كــان يــوهم تصــرف رجال الدين المحـرّفين ، وليثبت العكس وان الـدين يـأمر بالتقدم ، والتطور ، والطيبات.

(**وَاشْكُرُوا لِلَّهِ**)

على هــذه النعم ، وذلك بــان تكرمــوا هــذه النعم ، وتقدروها ، وتحترموها.

(**إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**)

[173] ولا تقولـوا لكل نعمة من أنعم الله هـذا حـرام بدون علم.

(**إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ**)

ما ذبح على الأصــنام تقربا لها ومع ان هــذه أمــور محرمة إلا انها سوف تحلل في ظروف معينة.

(**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْـرَ بـاغٍ وَلا عـادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْـهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

أن من يصــيبه ضــرر كبــير بامتناعه عن أكل هــذه المحرمـات لا اثم عليه ، بشـرط : أن يبقى ملتزما نفسـيا بحرمتها ، فلا يحب أكلها (ولا يبغيها) ، وبشرط : ألا يتجاوز اكله لها حدود الاضطرار ، فيأكل بقـدر ما يـدفع عن نفسه الضرر الكبير فقط.

جزاء كتمان الحق :

[174] هـذه هي محرمـات الـدين في الأكل .. انظر كيف وسعها اليهود حتى كـادوا أن يحرمـوا كل شـيء ، ثم كتموا حكم الله في الأكل بغيا واتباعا لمصالحهم.

(**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُــونَ ما أَنْــزَلَ اللــهُ مِنَ الْكِتــابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ ما**

(**يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ**)
إذ سوف يكتشفون غدا (بعد الموت أو حتى قبلـه) ان اللقيمات القليلة التي أكلوها تحولت الى نـار ملتهبه ، ذلك ان الأعمال السيئة تتجسد بعد الموت.
(**وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ**)
استهانة بهم ، وتصغيرا لقـدرهم ، وهم الـذين حرمـوا على الناس الطيبات تأييدا للسلطات ، وطلبا للجاه عندها ، وإذا لا جاه هم عند الله أبدا.
(**وَلا يُزَكِّيهِمْ**)
بـالرغم من انهم يحسـبون أنفسـهم من رجـال الله ، ويزكـون أنفسـهم حـتى يجعلونها أقـرب النـاس الى الله ، بينما الله لا يعتبرهم أزكياء ، ولا يقبل منهم دعواهم بـأنهم عباده الصالحون.
(**وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)
في الدنيا والاخرة.
لماذا هذا العذاب؟
[175] كل تلك العقوبات كانت جزاء أعمالهم لماذا؟ السبب واضح.
(**أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى**)
باعوا الهـدى في مقابل بعض المكاسب المادية الـتي سببت ضلالتهم عن الحق ، وتورطهم في المهالك.

(**وَالْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**)
حيث اشتروها لأنفسهم بعد علم بالدين.

صفات علماء السوء

[176] إن لهؤلاء علامتين :

الاولى : انهم حرفوا الكتـاب حـتى جعلـوه متوافقا مع مصـــالحهم ، ولأن مصـــالحهم مختلفة ، ولان كل طائفة فسروا الكتاب حسب مصالحهم ، فقد اختلفوا في الكتاب ذاته ، وتحول الكتاب عنـدهم الى اداة تفريق وكـان سـبيلا للتوحيد ، كان كتاب حق فأصبح عندهم كتاب هوى.

(**ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِ**)

وأوجب على الناس ان يقيسوا الأشياء والأشـخاص به وان يحـــددوا أهـــواءهم وفق مبادئه ، اما هـــؤلاء العلمـــاء المنحرفون فقد أضلوا الناس عن الكتاب واختلفوا فيه.

(**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُــوا فِي الْكِتــابِ لَفِي شِــقاقٍ بَعِيدٍ**)

إنهم متمردون على الحق.

إن الله سبحانه وعد هؤلاء الضالين المضلين من أهل الكتاب بأشد العذاب لماذا؟

لأنهم ســلبوا من النــاس أفضل ما كــانوا يملكــون ، سلبوهم ايمـانهم ، وهـداهم ، وعقـولهم ، ودفعـوا بالنـاس الى هاوية بعيـدة ، كل ذلك لقـاء بعض المكاسب المادية ، وعلى الأمة ان تسـتيقظ حـتى تكتشف هـؤلاء السـراق ، وتقطع أيديهم ، وتعود الى وعيها وهداها.

[177] العلامة الثانية : النظرة القشـرية الى الـدين ، وتعميق هـذه القشـرية في النفـوس ، وتضـخيم الأمـور القشرية الى حد تغطية القضايا الجوهرية.

والســـبب في ذلك هو خلافـــاتهم العائلية من جهة ، ومن جهة ثانية تعويض تقاعسهم عن الواجبات الاساسية ، والاهتمام البالغ بالقضايا الثانوية أو القشرية يقول الله :

(**لَيْسَ الْبِــرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُـوهَكُمْ قِبَـلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْرِبِ**)

حتى تختلفـوا في القبلة مع بعضـكم ، وتضـخموا هـذا الخلاف.

(**وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّـائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ**).

وهـؤلاء المحرومـون هم الـذين يجب ان تتوجه إليهم رسالة السـماء وحملة الرسـالة ، لا السـلاطين والوجهـاء. وحدهم.

(**وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكـاةَ وَالْمُوفُـونَ بِعَهْـدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ**)

حيث تقوم الحرب مع العدو.

(**وَالضَّرَّاءِ**)

حيث تصاب الأمة بأزمة اقتصــادية أو كارثة طبيعية أو ما أشبه.

(**وَحِينَ الْبَأْسِ**)

حين الحرب.
(**أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا**).
مع الله ومع الناس.
(**وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**)

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ

178 [كتب] فرض وأصل الكتابة الخط الدال على معنى فسمي به ما دلّ على الفرض.

[القصاص] والمقاصة والمعاوضة والمبادلة نظائر ، يقال قص الأثر أي تلاه شيئا بعد شيء ومنه القصاص لأنه يتلو أصل الجناية ويتبعه ، وقيل هو ان يفعل بالثاني ما فعله هو بالأول مع مراعاة المماثلة. ومنه أخذ القصص كأنه يتبع آثارهم شيئا بعد شيء.

[الحر] نقيض العبد والحر من كل شيء أكرمه.

[عفى] العفو الترك وعفت الدار اي تركت حتى درست والعفو عن المعصية ترك العقاب عليها وقيل معنى العفو هنا ترك القود بقبول الدية من أخيه. [أداء] الأداء تبليغ الغاية يقال أدى فلان ما عليه وفلان أدى للامانة وغيره.

يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ (179) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْـراً الْوَصِـيَّةُ لِلْوالِـدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَـهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181) فَمَنْ خـافَ مِنْ مُـوصٍ جَنَفـاً أَوْ إِثْمـاً فَأَصْـلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْـهِ إِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (182))

179 [الألباب] العقول وأحدها لب مأخوذ من لبّ النخلة واللب البال.
180 [بالمعروف] المعروف هو العـدل الـذي لا يجـوز ان ينكر ولا حيف فيه.
[حضر] الحضور وجود الشيء بحيث يمكن أن يدرك.
[حقا] الحق هو الفعل الذي لا يجـوز إنكـاره وقيل ما علم صـحته سـواء كان قولا أو فعلا أو اعتقادا.
182 [جنفــا] الجنف الجــور وهو الميل عن الحق ، وقيل هو الميل في الكلام وفي الأمـور كلها ، يقـال جنف علينا فلان وأجنف في حكمه وهو مثل الحيف الا ان الحيف في الحكم خاصة والجنف عام.

فلسفة القصاص

هدى من الآيات :

بعد الحديث عن جوانب من شخصـية الامة الاسـلامية ، تحـدثنا هـذه الآيـات وتلك الـتي تليها ، عن مجموعة من واجبات الامة وطقوسها الدينية. ويبـدأ الحـديث بالقصـاص باعتبـــــاره واجبا اجتماعيا ، يتصل بالمحافظة على حرمة النفس. وبعدئذ يتحــدث عن الوصــية كــواجب اجتمــاعي يتصل بحرمة المـــال. وســـواء الـــدم أو المـــال ، فـــان احترامهما يعني احـترام الإنسـان كإنسـان. إذ ليس المـال سـوى جهد مكثف للإنسـان ، والـذي يعتـدي على المـال ، حـتى ولو كـان ذلك بعد حيـاة الشـخص ، فهو يلغي حيـاة صاحبه وجهوده.

وبعدئذ يتحـدث القـرآن : عن الصـوم والجهـاد والحج كواجبـــات اجتماعية دينية ولكن يبقى الســـؤال : ما هو سبب وضع القصاص والوصية في سـياق الصـوم والجهـاد والحج؟

الجواب : ان القصاص أو الوصية هما الآخران واجبات اجتماعية يكلف بها

جميع أبنـــاء الأمة ، كالصـــوم والجهـــاد والحج. ومن جهة اخـرى ، ان من اهـداف المجتمع الاسـلامي في الشـعائر والواجبـات هو المحافظة على حيـاة النـاس وأمـوالهم ، فكان من الطبيعي ان يتحدث القرآن سلفا عنهما.

بينات من الآيات :

[178] (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُـرُّ بِـالْحُرِّ وَالْعَبْـدُ بِالْعَبْـدِ وَالْأُنْـثى بِالْأُنْثى**)

انه مكتـــوب على الامة مفـــروض على كل واحد من ابنائها تطبيقها ولكن هـذا حق يطـالب به صـاحب الـدم وتكلف الامة بانتزاعه له اما إذا عفى صـاحب الـدم فهو ، حر في ذلك.

(**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِـالْمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ**)

ان الله يضع حول شـرائعه لمسة احسـاس وعاطفة ، من أجل الا تكون الانظمة كلها صـارمة وجامـدة لا تتوافق وظروفا معينـة. انه يعطي هنا لصـاحب الـدم الحق في العفو ليصبح صاحب الدم والجاني اخوة. وعلى الجاني ان يـراعي هـذه الأخـوّة الجديـدة بـالمعروف والإحسـان ، اي يجب ان تتحول الجناية الى عامل إصلاح في حياة الجاني. فـاذا به يصـبح صـاحب المعـروف بـأن يـدفع الدية حسب المتعارف ، وصاحب الإحسان الذي يسعى من أجل إسعاد أولياء القتيل باية وسيلة ممكنة.

(**ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ**)

والإسلام دين القانون ودين الرحمة في ذات الـوقت. فهو ذو قـــانون محـــدد ولكنه مـــؤطّر بالرحمة ، لتخفيف صـرامة القـانون في ظـروف معيّنـة. ولكن هـذه الرحمة وضـعت لكي يتحـول الجـاني بسـببها الى رجل صـالح في المجتمع ، وإذا كانت الرحمة بالنسبة

اليه تشـــجيعا له على متابعة اعماله الجنائية فهنا يجب ان يكون المجتمع صارما معه أيضا.

(**فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

[179] لما ذا القصــــاص؟ لما ذا نقضي على حيـــاة إنسان قضى على حياة غيره؟ أو ليست هذه الحياة الثانية محترمة كالتي قضي عليها؟

بلى ، ولكنا لا ننظر الى هـذه الحيـاة أو تلك بقـدر ما ننظر الى حيـاة المجتمع كله ، وضــرورة المحافظة عليها كلها ، وعبر هذه النظرة نرى ان القصاص ضرورة حياتية.

(**وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ**)

إذ انه يبـني سـورا منيعا حـول حيـاة المجتمع كله ، فيقتل نطفة الجريمة في مهـدها ، ولا يـدعها تنمو حـتى تتحقق ، لأن العقـاب شـديد وصـارم. وإذا ألغي مبـدأ القصـاص ، فيمكن ان تتسع عمليـات القتل الدفاعية في الأمة ، إذ قد يحس كل فــرد انه يتعــرض للقتل من قبل خصومه فيبـادر بقتلهم ، وهكـذا تنتشر الجريمة وربما دون اي مبرر سوى الخـوف الباطـل. لـذلك يقـول القـرآن في فلسفة القصاص والهدف من تشريعه :

(**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)

اي الهـــــدف منه هو إيجــــاد رادع عن الجريمة في المجتمع ، يتقي الناس به من ارتكابها.

الوصية وحق الأموال :

[180] وبمناســـــبة الحـــــديث عن حرمة النفس والقصـاص الـذي ينتهي بـالموت ، يتحـدث القـرآن عن الوصـية باعتبارها تثّبت حق الفــرد في أمواله حــتى بعد الممات ،

وبــذلك يتكــرس هــذا الحق في حالة الحيــاة بــالطبع ، والوصية مكتوبة على ذوي اليسار الـذين ينبغي ان يوصـوا لأقاربهم.

(**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَـرَ أَحَـدَكُمُ الْمَـوْتُ إِنْ تَـرَكَ خَيْـراً الْوَصِـيَّةُ لِلْوالِـدَيْنِ وَالْأَقْـرَبِينَ بِـالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**)

إن هــذه الوصــية حق ثــابت على المتقين لكي لا يضـيعوا حق والـديهم وأقـاربهم. ولم يتحـدث القـرآن عن الوصـية للأولاد ، لأنهم الجيل الصـاعد والـوارث الطـبيعي للآبــاء ، ولكن ينبغي ان يوصي الوالد لابنه المحتــاج الى عطف اضــافي وتمضي الوصــية في ثلث امــوال الميت وهكـذا جـاء في الحـديث الشـريف ـ كما جـاء في مجمع البيـان (ج 1 ص 267) وقد روى أصـحابنا عن أبي جعفر عليه السلام أنه سئل ، هل تجاوز الوصية للـوارث فقـال : نعم وتلا هذه الآية.

[181] الوصــــــــية حق على المتقين ، ولكن تنفيذ الوصـية حق على النـاس ، وعلى الإنسـان ان لا يمتنع عن الوصــية بحجة الخــوف من عــدم تنفيــذها ، إذ التنفيذ مســئولية الوصي أولا والمجتمع ثانيا ، وليس مســئولية الذي يوصي.

(**فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَـمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُـهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ**).

صاحب التبديل وشركائه من الـذين يرضـون بالتبـديل ولا ينهون عنه.

(**إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)

شاهد على الوصية ، عالم بمن يبدلها.

[182] (**فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً**)

ظلما متعمدا أو غير متعمد ذلك ان الجنف ـ كما جـاء في مجمع البيان (ج 1 /

ص 269) هو الجور والميل عن ، الحق ثم قال :

الإثم ان يكـــــــون الميل عن الحق على وجه العمد والجنف ان يكــون على وجه الخطأ من حيث لا يــدري انه يجوز ، وهو معـنى قـول ابن عبـاس والحسن ، وروي ذلك عن أبي جعفر (ع).

وقـــال الجنف : هو ان يوصي به في غـــير قرابة ثم أضاف عليه أكـثر المفسـرين وهو المـروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام. (المصدر)

(**فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

ذلك لان الله ســـبحانه يغفر لمن كـــان على الخطأ كالموصي إذا تراجع عن خطأه.

هـذه هي مسـئولية المجتمع في مسـألة الوصـية ان يراقبـوا الموصي ، فلا يـدعوه يجفو بحق أولاده أو يضــرر بهم ، كـأن يكـون الموصي لا يملك الّا بيتا واحـدا وله ذرية ضعفاء ، فيوصي بتلك الدار لرجل غريب ، مما يسبب في بيع الدار وإبقـاء اهله بلا دار سـكنى ، آنئذ يتـدخل المجتمع لتصحيح الوصية.

جاء في حديث شريف مـأثور عن الامـام البـاقر عليه السلام في معنى هذه الآية الكريمة :

«من عدل في وصيته ، كان كمن تصدق بها في خيانة ، ومن جار في وصيته ، لقي الله ـ عز وجل ــ يوم القيامة وهو عنه معرض». [1]

(1) ، تفسير نمونه ج 1 ص 621)

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ

---

183 [الصيام] في اللغة الإمساك ومنه يقال للصمت صوم لأنه إمساك عن الكلام وفي الشرع إمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص مبين هو على صفات مخصوصة في زمان مخصوص.

184 [سفر] أصله من السفر الذي هو الكشف تقول سفر يسفر سفرا وانسفرت الإبل إذا انكشفت ذاهبة.

[عدة] من العد وهي بمنعي المعدود.

[يطيقون] الطوق الطاقة وهي القوة وأطاق الشيء إذا قوى عليه.

وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ باشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

---

187 [الرفث] الجماع.

[لباس] الثياب التي تستر البدن والعرب تسمي المرأة لباسا وإزارا.

[تختانون] الاختيان الخيانة يقال خانه يخونه خونا (وخائنة الأعين) مسارقة النظر الى ما لا يحل وأصل الباب منع الحق.

[باشروهنّ] المباشرة إلصاق البشرة بالبشرة وهي ظاهر الجلد.

الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عـاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187) وَلا تَأْكُلُوا أَمْـوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَتُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقـاً مِنْ أَمْـــوالِ النَّاسِ بِـــالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُـــونَ (188) يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُـلْ هِيَ مَـواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُـوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ الْبِـرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189))

[الخيط الأبيض] بياض الفجر ، الخيط الأسود : ظلام الليل.

الصوم فلسفته واحكامه

هدى من الآيات :

المجتمع الاسـلامي مجتمع ملـتزم مسـئول ، تجـري الانظمة فيه بحـافز داخلي يسـميه القـرآن ب (التقـوى) ، وهـذا الـوازع يخلقه الايمـان بالله ، وتنمية طائفة من الواجبات في طليعتها الصيام.

وبمناسـبة الحـديث عن شخصـية الأمة تتحـدث هـذه الآيات عن الصـيام كأفضل وازع نفسي للامة يحافظ على حدود المجتمع ويراعي انظمته.

في البدء يبين القـرآن فلسـفة الصـيام ، وبعدئذ يـبين طائفة من احكامه ، ثم يتحـدث عن اهمية شـهر رمضـان. وبهـذه المناسـبة يتحـدث عن الـدعاء ، وأخـيرا يعـود الى احكام الصيام والمحرمات الاساسية خلال هذه الفترة.

والملاحظ في القـرآن : انه يتحـدث عن الصـيام قبل وبعد الحديث عن حرمة المال (الآيات 183 ـ 188) وكأنه يوصينا بأن من اهداف الصيام تحقيق ، وازع داخلي

يحافظ على حرمات المجتمع وأبرزها حرمة المال.

إنّه يعدّل سلوك الفرد تجاه المجتمع ، حـتى لا يعتـدي الفرد عليه.

وبهذه المناسبة يتحدث القـرآن عن حرمة المسـكن ، ويحرّم على المسلم ان يتسلق البيوت من ظهورها.

بينات من الآيات :

[183] الصيام واجب ديني في رسالات الله السابقة. وحين يكتبه الله علينا فانه لهدف عظيم يعود بالنفع علينـا. هو تقويم سلوكنا ، وتربية نفوسنا على التقوى.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)

الهـدف من الصـيام التقـوى ، والهـدف من كثـير من الشعائر الدينية هو التقوى أيضا (كما صرح القــرآن به في آيات كثيرة) ولكن ما هو التقوى؟

لعلّ الكلمة التي نستخدمها في أدبنا الحاضر بديلا عن كلمة التقـــوى وقريبة من معناها هي (الالـــتزام). ولكن ايحاءات كلمة التقوى أفضل. انها تدل على الالتزام خشية العقاب ، والعمل بشـيء (اتقـاء) شر معين وبالتـالي جعل العمل وسيلة لتجنب الوقوع في المهلكة.

فـالتقوى هي الـتزام واع ومفـروض على الإنسـان ، بسبب الإضرار التي تصيبه إن ترك الالتزام.

وخلق هذه الحالة في النفس ، لا يتم الا عبر سلســلة من الطقوس والشعائر ، و (الصيام) واحد منهـا. حيث انه يدرب الإنسان على تجنب شهواته برقابة ذاتية ،

وبذلك ينمّي عنـده موهبة الارادة. ذلك لأن إرادة الإنسـان كـأي نعمة اخـرى عنـده تنمو وتتكامل ، كلما انتفع بها الإنسـان ومارسـها عمليـا. والصـائم يمـارس إرادته ضد شـهواته كلما دعته الحاجة الى الطعـام أو الجنس ، فيرفض تلبية هذه الدعوة بقوة إرادته.

إن كثـيرا من النـاس يحبـون ان يصـبحوا صـالحين ، مؤمنين ، ملتزمين بالرغم من انهم قد لا يصرحون بذلك ، ولكن بعضا منهم يوفّق لـذلك لأنه ـ وحـده ـ يملك ارادة قوية ، وعلى الإنسـان ان يـربي إرادته ويـدربها حـتى يستطيع ان يقـاوم بها ضـغوط الشـهوات ، والصـيام واحد من وسائل تربية وتدريب الارادة.

[184] الصـيام فـرض خلال شـهر واحد قد يتصـوره الإنسان طويلا ، ولكنه يجده بعد الممارسة وبعد التصـميم على الالتزام به قصيرا : وكذلك كل عمل يتصوره الإنسان في البدء عظيما ، ولكنه بعد ان يعـزم عليه ، يصـبح سـهلا وخفيفا. ولذلك كان من أفضل وسائل التغلب على الحيـاة تهوينها ، والاسـتهانة بصـعوباتها. وهكـذا يصـور لنا القـرآن الصيام.

(**أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ**).

وهنـاك تسـهيلات اخـرى في أداء واجب الصـيام منها تغيير موعد الصيام للمسافر والمريض.

(**فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِـدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**).

يصـومها عن كل الأيـام الـتي لم يصـمها لمـرض أو سفر. ومن التسهيلات ، إلغاء الصـيام اختيـارا عن كل من لا يطيق الصـيام. اي يجهـده ، ويسـتنفذ كل طاقته ، كالضعيف البنية والشيخ الكبير. آنئذ يسـتطيع ان يصـوم أو ان يبدّل الصوم بالفدية

بإطعام مسكين واحد عن كل يوم يفطر فيه.

(**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً**)

وصام بالرغم من المشقة عليه.

(**فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ**)

بشـرط الا يسـبب له ضـررا كبـيرا بل مجـرد مشـقة وحرج.

(**وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

لأنه يـزكي نفوسـكم ، ويـربي ارادتكم ، ويهيء لكم عند الله جزاء حسنا.

لماذا رمضان؟

[185] ولا بد ان يقع الصيام في شهر رمضان بالذات ، لما ذا؟ أو ليس هناك شهر آخر أفضل منه؟

كلا .. إنه شـهر يحمل معه ذكـرى من أهم ذكريـات الامة ، إنها ذكرى ليلة القدر حيث نزّل فيها القرآن ، كتاب الله الكريم.

(**شَـهْرُ رَمَضـانَ الَّذِي أُنْـزِلَ فِيـهِ الْقُـرْآنُ هُـدىً لِلنَّاسِ**)

بصائر ورؤي للإنسان في الحياة

(**وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى**)

تفاصيل التشريع الاسلامي.

(**وَالْفُرْقانِ**)
ففي القـــرآن قيم ومقـــاييس يمـــيز بها الحق عن الباطل. فرمضان إذا أجدر الشهور بالصيام.
(**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**)
اي من كان في هذا الشهر حاضـرا في بلـده أو محل إقامته فعليه ان يصوم.
(**وَمَنْ كانَ مَرِيضـاً أَوْ عَلى سَـفَرٍ فَعِـدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**)
ولا يجـوز له ان يصـوم في حالة المـرض أو السـفر ، ذلك لأن الله :
(**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**)
وعلى الإنســـان ان يســـتجيب لارادة الله ، ولا يوقع نفسه في الأعمال العسيرة ومنها الصـيام في المـرض أو السفر.
(**وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ**)
كل يوم يفـوتكم من الصـيام تصـومون مثله من أيـام أخر.
(**وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ**)
وتجعلـــون تعظيمكم لله وانتمـــاءكم اليه أقـــوى من تعظيمكم لأي شخص أو شيء آخر.
(**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)
نعم الله عليكم من خلال الصيام.

إن تـرويض النفس يسـاعد على تنمية الايمـان بالله ، لأن شـهوات الـدنيا هي أكـبر حـاجب بين عقل الإنسـان ومعرفة الله ، وعن طريق الصيام يتم خرق هـذا الحجـاب (ولو بصورة مؤقتة) وآنئذ يشرق نـور الايمـان في القلب ، ويكبّر العبد ربه ، ويعـــرف ان كل تلك النعم العظيمة منه فيشكره.

كما ان المنع الموقت لبعض لـذات الجسد ، سـيعطي له طعما جديـدا يشـكر المـرء عليها ، فللصـائم فرحتـان : فرحة عند الإفطار ، وفرحة عند لقاء الملك الجبار.

رمضان والدعاء :

[186] شهر رمضان مناسبة للدعاء ، وبهذه المناسبة يسـتطرد القـرآن ليحـدثنا عن ضـرورة ارتبـاط الإنسـان بخالقه عن طريق الدعاء فيقول :

(**وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ**)

إذا كـانت الـدعوة حقيقية ومتجهة الى الله وحــده ، خالصة من الشــرك والريــاء ، فـان الله يجيبه لا ريب فيه عاجلا أم آجلا.

(**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي**)

هم بدورهم ، ويعملوا بأوامر الله ، ليبادلهم الله جـزاء الحسنة بعشر أمثالها.

(**وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**)

استجابة دعوة الله تبدأ من الايمان بالله ، فاذا أخلص العبد ايمانه بربه يـــدعوه ايمانه الى تنفيذ واجبـــات الله ، ومن ثم يجيب ربه دعاءه.

من هنا كانت الدعوات المأثورة متوّجة بالاستغفار لله ، لان الاستغفار يعيد

الإنسان الى حضيرة الايمان ، ومن ثم يجيب الله دعاءه.

من أحكام الصوم :

[187] احكام الصيام كثيرة ولكن أبرزها الامتنـاع عن الطعــام والجنس خلال النهــار ، اما في الليل فقد كــان الإســلام يحــرم مطلقا الجنس والطعــام الإخلال فــترات معينة ، ولكن خفّف الحكم بعدئذ. كمثل كثـير من الأحكـام المشــددة في بداية الرســالة والـتي خففت بعدئذ ، وربما لسبب هو أنّ الأمم تكون في بداية تكونها أشد التزاما.

(**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ**)

ممارسة الجنس مع الزوجــات اللاتي يشــكلن حصــنا لكم من الوقـــوع في مزالق الجنس ، كما تشـــكلون أنتم نفس الحصن لهن : إن كثيرا من الجـرائم تـرتكب بسـبب الجنس ، ســـواء بصـــورة مباشـــرة أو عن طريق تكـــوين الجنس للعقد النفسية الـتي تـدعوا الى الجـرائم ، من هنا قال الله عن النساء.

(**هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ**).

وقد كانت ممارسة الجنس في ليالي الصــيام حراما ، ولكن الناس لم ينفّذوه بالضبط فخفف الحكم.

(**عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ**).

وتظلمونها بسبب شهوة الجنس.

(**فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَ**).

إنما بهـدف حكيم هو ان يـرزقكم الله الأولاد ، فليس الجنس هـدفا بذاته ، انما هو وسـيلة لهـدف اسـمى هو الأولاد.

(**وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللهُ لَكُمْ**)

من بنين وبنات ، تسلمون لقضاء الله فيهم.

(**وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْـطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**)

حيث يتـبين الصـبح عن طريق وجـود خيط ابيض في الأفق يـدل على انبلاج الفجـر. هنـاك يبـدأ وقت الصـيام ويحرم الجنس والاكل والشرب.

(**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ**)

حيث تغيب الشـمس وتسـحب من السـماء ذيـول الضياء.

وكما يحرم الجنس خلال نهار الصـيام ، كـذلك عند ما يعتزل المؤمن الناس ويأوي الى المساجد متبتلا الى الله.

(**وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ**)

والإسـلام لم يشـرّع العزلة التامة عن النـاس ، لأنها تلغي مسـئولية الإنسـان في الحيـاة ودوره في إصـلاحها ، ولكنه شـرّع وحبب الاعـتزال المـؤقت ليكتسب المسـلم العزيمة والأمل ، ويعود الى الحياة أقوى من قبل.

والاعتكاف واحد من أساليب الاعتزال المؤقت ، حيث يمكث المـؤمن في المسـجد ثلاثة أيـام ويصـوم ولا يخـرج من المسجد الا للضرورات : هنالك يحرم عليه ممارسة

الجنس ليلا أو نهارا.

(**تِلْـكَ حُـدُودُ اللـهِ فَلا تَقْرَبُوها كَـذلِكَ يُبَيِّنُ اللـهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**).

[188] الصـيام يسـتهدف تزكية النفـوس حـتى تتقي حرمات الله ، وتتجنب مظالم العبـاد. وليس الصـيام نافعا لو لم يـؤد الى التقـوى ، كما ان الصـلاة لا تنفع لو لم تنه عن الفحشاء والمنكر. ولـذلك تحـدث القـرآن بعد الصـيام عن حرمة المال وقال :

(**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ**)

إذا اغتصــــبت مــــال أخيك ، أو خدعته ، أو مارست الغش معه فهو باطل. وإذا أكلت ماله بالقمـار أو التجـارة الضارة فهو باطل. والذين يـأكلون امـوال النـاس بالباطل يستندون في ذلك الى الحكام الأقوياء ، ويتشاركون معهم فيها ، لذلك قال الله :

(**وَتُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

[189] وكما حرمة المال كذلك حرمة البيت ، حيث لا يجوز للإنسان ان يتسلق بيوت الناس. وبمناسـبة الحـديث عن شـهر رمضـان وارتباطه برؤية الهلال تحـدّث القـرآن عنه في البـــدء ، ثم حـــذّر من الاعتقـــاد بـــان ذلك يكفي الإنسـان في التـدين ، وقـال كلا .. ان الالـتزام بالواجبـات الاجتماعية أهم من الالتزام بظواهر الدين.

(**يَسْـئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُـلْ هِيَ مَـواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِ**)

يعرفـون بها كيف يضـبطون أوقـاتهم ، ذلك ان الهلال بما فيه من تغييرات يومية يمكن ان يعرفنا بأيام الشهر.

(**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها**)

كما كـانت تفعل جماعة من الجـاهليين ، يزعمـون ان في ذلك دلالة على الشجاعة. وكانوا يزعمون ان المحــرم للحج لا يجوز له ان يدخل المسجد الحرام من البـاب ، بل من ثقب كانوا يصنعونه في الجدار.

(**وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى**)

المحرمــات ، وضــبط في نفسه الحــدود الشــرعية ، فاشجع الناس من غلب هواه.

(**وَأْتُــوا الْبُيُــوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُــوا اللــهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)

وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللـهِ الَّذِينَ يُقـاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللــهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَــدِينَ (190) وَاقْتُلُــوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُـوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُـوكُمْ وَالْفِتْنَـةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقـاتِلُوهُمْ عِنْـدَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَـإِنْ قـاتَلُوكُمْ فَـاقْتُلُوهُمْ كَـذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (191) فَـإِنِ انْتَهَـوْا فَـإِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (192) وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

---

190 [تعتدوا] الاعتداء مجاوزة الحد. يقال عدا طوره إذا جاوز حده.

191 [ثقفتموهم] ثقفته أثقفه ثقفا وثقافة أيّ وجدته ومنه قــولهم رجل ثفف ثقف أيّ يجد ما يطلبه وثقف سريع التعلم والتثقيف التقويم.

[الفتنـة] أصـلها الاختبـار. ومنها الابتلاء ومنها العـذاب ، ومنها الصـدّ عن سبيل الله.

الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (
193) الشَّـهْرُ الْحَـرامُ بِالشَّـهْرِ الْحَـرامِ وَالْحُرُمـاتُ
قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَـدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَـدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَا
اعْتَـدى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُـوا اللـهَ وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللـهَ مَـعَ
الْمُتَّقِينَ (194) وَأَنْفِقُـوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَلا تُلْقُـوا
بِأَيْـــدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـــةِ وَأَحْسِـــنُوا إِنَّ اللـــهَ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ (195)

القتال في الإسلام

اهدافه واحكامه

هدى من الآيات :

من مـيزات الامة الاسـلامية : انها تـؤمن بالجهـاد من أجل اهـداف انسـانية عالية ، وفي اطـار هـذه الاهـداف تمارس القتال. وفي هذه الآيات يتحدث القرآن عن حـدود القتال (كما تحـدث سـابقا عن حـدود القصـاص والصـيام) ويؤكد على التقـوى باعتبارها وسـيلة لمراعـاة حـدود الله في الجهاد.

فالقتـــال انما هو في ســـبيل الله ، وموّجه ضد من يقاتل الامة ، وهنـاك هـدف آخر للقتـال هو منع الفتنة ، إذ هي اخطر من القتل ، وهنـــاك حد آخر للقتـــال هو حرمة القتـــال في المســـجد الحـــرام ، ولكن حرمة المســـجد والشـهر ، قائمة ما دام العـدو ملتزما بهـا. والقتـال بحاجة الى الإنفاق ، وعلى الامة ان تبادر بالإنفـاق قبل ان تحـدق بها الاخطار.

بينات من الآيات :

القتال لماذا وكيف؟

[190] ان القتــال مفــروض على الامة ، بشــرط ان يكون بهدف تحقيق قيم الله في الأرض ، والـتي هي ، في الوقت ذاته ، اهداف تتطلع الى تحقيقها كل الشــعوب من إقامة الحق والحرية والعدالة والمساواة.

ولكن حـتى هـذا القتـال يكـون بعد ان تتعـرض الامة للاعتـداء. ومع كل ذلك يجب ان يظل القتـال محـدودا في اطار إنهاء الوجود العسكري للعـدو ، وليس الاعتـداء على الأنفس والأموال.

(**وَقـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ الَّذِينَ يُقـاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**).

وليس من الصــحيح ان يفكر أبنــاء الامة ان الاعتــداء يجوز لهم ما داموا ينتمون الى رسالة الله. كلا ، إن الله لا يحب المعتدين أنى كانوا.

[191] ولا يتحدد القتال بساحة المعركة بالــذات ، بل يجوز ان تقتل الامة ، المفســدين انّى وجــدتهم ، ما دامــوا قد استعدوا للقتـال. ومن الحكمة ان تعطى للامة ، فرصة المبادرة بالحرب إذا وجدت ضرورة دفاعية إليها.

(**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**)

حيث وجدتموهم.

(**وَأَخْرِجُوهُمْ**)

من معاقلهم.

(**مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**)

إنهم هم الذين بدأوا الحرب ضدكم وأخـذوا يفسـدون عليكم ، فهم بذلك أباحوا قتالكم لهم.

(**وَلا تُقـاتِلُوهُمْ عِنْـدَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قـاتَلُوكُمْ فَـاقْتُلُوهُمْ كَـذلِكَ جَـزاءُ الْكافِرِينَ**)

حيث انهم سـوف يسـلبون نعمة الأمن عند المسـجد الحرام ، متى ما استغلوا ذلك في صالحهم.

[192] الا ان اندفاع الامة الى القتال ، يجب الا يخرج أفرادها عن اطار انضباطهم بتعاليم الله ، فالقتال متى ما اشتعل ، يستعد له المسـلمون ، ولكن إذا توقف لا يعتـدي المسلمون على النـاس لمجـرد حب القتـال ، خصوصا إذا كان عند المسجد الحرام حيث جعله الله من قديم الزمان منطقة سلام.

(**فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

الهدف الحضاري للقتال :

[193] والقتال في حـال اشـتعاله ذو هـدف حضـاري هو القضـــاء على الفســـاد بكل ألوانه (التفرقة ، حكم الجبـابرة ، الانظمة الباطلة ، أسـباب الظلم) وإقامة حكم الله في الأرض ، لا حكم طائفة على طائفة ، أو اشـخاص على اشـخاص ، حكم الله الـذي يطّبق على القـادة كما يطّبق على الناس.

(**وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**)

الدين بمعنى الالتزام بالسيادة ، اي حتى يلتزم الناس جميعا بحكم الله

في الأرض.

مرة اخرى يذّكر القرآن بأن الهدف من القتال ، ليس القتال ذاته ، بل هو وسيلة مرحلية فقط.

(**فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**)

الذين يعتدون على الناس ، فيسترد النظام الاسلامي حقوق الناس منهم بالقوة.

متى تحفظ الحرمات؟ :

[194] ويبقى سؤال : لماذا سمح الله للمسلمين بالقتال عند المسجد الحرام ، أو في الشهر الحرام ، حيث كان العرب يعتبرون القتال حراما فيهما؟ أفليس الإسلام دين سلام؟

ويجيب الله على هذا السؤال بالقول :

(**الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ**)

إن حرمة الشهر الحرام كانت تعطي فترة من الهدوء للعرب ، لعلهم يحلّون اختلافاتهم سلميا ، ولكن بعضهم كان يستغل هذا الهدوء ، لشن حروب عدوانية ضد المسلمين ، فأمر الله الامة بالرد عليهم. إذ ان الحرمات قصاص ، فما دام الفرد يحترم حقوق الآخرين ، تحترم حقوقه. اما إذا اعتدى عليها ، فان الواجب استرداد الحقوق منه بالقوة وهذه الآية تفتح آفاقا واسعة في التشريع الجنائي.

وبالطبع حتى هنا لا يجوز الاعتداء عليه أكثر من اعتدائه ، ويؤكد القرآن هذا الواجب وفي ذات الوقت يحدد أهم قضية أرادها من الحديث عن القتال هنا ويقول :

(**وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**)
الامة الاسـلامية والفـرد المسـلم يجب ان يكونـوا ملـتزمين بحـدود الله ولا يتجاوزونها ، وهـذه من أهم مسئوليات الامة.

الإنفاق ضرورة قتالية :

[195] وبمناسبة الحديث عن القتال ، تحدث القـرآن عن الإنفـاق ، باعتبـاره ضـرورة قتالية ، ذلك ان الاعـداد للقتال قد يكون أصعب من القتال ذاته لذلك شدد القـرآن على الإنفاق ، وربطه بمصير الامة وقال :
(**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا تُلْقُـوا بِأَيْـدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**)
لان عـدم الإنفـاق سـوف يوقع الامة في اخطـار عظيمة.
(**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**)
على كل فـرد الّا يقتصر على حـدود الـواجب في الإنفـاق ، بل ينفق أكـثر من ذلك حسب طاقته ، وذلك هو الإحسان الذي يحبه الله ويحب من يصنعه.
إن أمتنا اليـوم بحاجة ماسة ، للاسـتعداد لخـوض معاركها المصيرية على أكثر من جبهة ، ولن يتم الاستعداد من دون العطـاء ، العطـاء بكل ألوانه ، بالجهد ، بالجـاه ، بالمـال ، ولكن قلة الـوعي المسـتقبلي والانانية الذاتية وانعـدام الثقة بـالمجتمع ومؤسسـاته ، كل تلك أدّت الى كف الأمة عن الإنفـــاق ، وجعلها تخسر المعركة بعد الاخرى.
ان عودتنا الى تعاليم الدين في الإنفاق ، هي الضمانة الاكيـدة لاسـترداد عزنا المفقـود ، وحفظ ما تبقى من مصالحنا وكرامتنا.

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْــرَةَ لِلَّهِ فَــإِنْ أُحْصِــرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَـرَ مِنَ الْهَـدْيِ وَلا تَحْلِقُـوا رُؤُسَـكُمْ حَتَّى يَبْلُـغَ الْهَـدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كـانَ مِنْكُمْ مَرِيضـاً أَوْ بِـهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَـإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَـةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَـبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْـكَ عَشَـرَةٌ كامِلَـةٌ ذلِـكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُـهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَـدِيدُ الْعِقــابِ (196) الْحَجُّ أَشْــهُرٌ مَعْلُومــاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ

196 [أحصرتم] الإحصـار المنع يقـال للرجل الـذي قد منعه الخـوف أو المــرض عن التصــرف قد أحصر ويقــال للرجل الــذي حبس قد أحصر وأصل الباب الحبس.

يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبـــابِ (197) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنــاحٌ أَنْ تَبْتَغُــوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَـرامِ وَاذْكُـرُوهُ كَما هَـداكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِـهِ لَمِنَ الضَّـالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُـوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (199) فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَـاذْكُرُوا اللـهَ كَـذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ

---

198 [جنـــاح] الجنـــاح الحـــرج في الـــدين وهو الميل عن الطريق المستقيم.

[تبتغوا] الابتغاء الطلب.

[أفضـتم] الإفاضة مـأخوذة من فيض الإنـاء عن امتلائه فمعـنى أفضـتم دفعتم من عرفات الى المزدلفة عن اجتماع وكثرة. ويقال أفاض الناس في الحديث إذا اندفعوا فيه وأكثروا التصرف.

فالإفاضة في اللغة لا تكون إلّا عن تفوق أو كثرة.

يَقُــولُ رَبَّنا آتِنا فِي الــدُّنْيا وَما لَــهُ فِي الْآخِــرَةِ مِنْ
خَلاقٍ (200) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُــولُ رَبَّنا آتِنا فِي الـــدُّنْيا
حَسَــنَةً وَفِي الْآخِـرَةِ حَسَــنَةً وَقِنا عَـذابَ النَّارِ (201)
أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِســابِ (
202) وَاذْكُــرُوا اللــهَ فِي أَيَّامٍ مَعْـدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ
فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ
اتَّقى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203)

الحج مدرسة التقوى

هدى من الآيات :

بعد الصيام والجهاد يأتي دور الحج ، كمدرسة رسـالية لتربية روح الالتزام في الامـة. والهـدف من الحج التقـوى. لان واجبــات الحج تشــبه الى حد بعيد الصــيام ، في انها تفرض اجتناب طائفة من الشهوات العاجلة بوعي واختيار مما يقوي الارادة ، ويزيد في الايمان. والحج يشبه الجهــاد أيضا لان فيه اخطار السفر واحتمـالات المـوت وصـعوبات الأعمال ومن هنا جاء في الحديث الحج جهاد الضعفاء.

والحديث هنا عن الحج ، لا يتناول الجوانب الاجتماعية منه كما نجد ذلك في ســــــــــورة الحج بل يقتصر على الجوانب التربوية من الحج ، لطبيعة السياق الذي يتحــدث عن التقوى كميزة اساسية في الشخصية الايمانية.

وفي الآيات الاخيرة نجد الحديث المباشر عن التقـوى وبعض مظــاهرة من فــرض الرقابة الذاتية على الإنســان وابعـاده عن الجريمة والنفـاق. وقد تكـررت كلمة التقـوى في

هذا الدرس خمس مرات.

بينات من الآيات :

[196] قبل كل شـــــيء ، يجب ان يكـــــون الحج أو العمرة خالصا لوجه الله ، لا يدخل فيه هدف آخر ، تجــارة أو سـياحة أو ريـاء. وعلى الحـاج ان يمتنع عن الزينة بكل مظاهرها. حتى انه لا يسـتطيع ان يحلق رأسه ، وإذا منعه المـــــرض عن متابعة رحلة الحج فعليه الا يحلق رأسه الا بعد ان يبعث بهديه (ذبيحته ــ أضـحيته) الى مكــة. فــاذا ذبحت اسـتطاع ان يتحلل من إحرامه ويحلق رأســه. وعند ما يضطر المـريض الى حلق رأسه فعليه ان يفتـدي حلقه بصيام أو صدقة أو ذبيحة.

الواجب الاخر في الحج : تقديم الهدي (الذبيحة سواء كان شاة أو بقـرة أو إبلا) ومن لم يجد واحــدا منها ، فعليه ان يصوم عشرة أيام ، ثلاثة في الحج وسـبعة إذا عـاد الى بيته. وأهل مكة وما حولها لا يجب عليهم الهدي.

كل هـذه الفـرائض واجبه من أجل تنمية روح التقـوى في القلب والخوف من الله.

(**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**).

أولا : لا يجوز ترك الحج أو العمـرة بلا سـبب بل يجب الاستمرار فيهما وإتمامهما وهذا واجب اساسي في الحج.

ثانيا : يجب ان يكون الحج والعمرة خالصين لله.

والحالة الـتي يجـوز فيها تــرك الحج هي حالة الحصر (بمرض أو عدو أو ما أشبه).

(**فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**).

ابتداء من الشاة وانتهاء بالإبل.

(**وَلا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ**).

عند بيت الله الحرام أو في مني ..

(**فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ**).

يستوجب حلق رأسه ، سوى يضره استمرار الشعر كما إذا أصيب بصداع دائم لا يبرئه سوى حلق الرأس ، أو كان حرجا بالغا عليه استمرار الشعر.

(**فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**).

فاذا انتهى الخوف من العدو أو من المرض ، فعلى الإنسان الذي يأتي بحج التمتع وهو الذي يفصل بين عمرته وحجه فترة استراحة يبقى فيها بدون إحرام ، عليه ان يقدم الهدي.

(**فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِ**).

اي عن طريق الإحرام للعمرة استطاع ان يتمتع فترة من الزمان حتى يأتي موعد الحج.

(**فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ**).

اما أهل مكة الحاضرين عند المسجد الحرام فيجوز لهم ان يأتوا بغير حجة التمتع ، ولا يقدموا الهدي.

(**وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**).

والهدف البعيد من الحج هو : ألا يتهـاون المسـلم في واجبات دينه ، وان يلتزم بحدوده لا يتقدم فيها قيد شـعره ، لان الله شديد العقاب.

وفي هذه الآية نجد واحـدا من أهم واجبـات الحج وهو الإحــرام ، يتحــدث عنه القــرآن في ثلاثة مظــاهر : وهي مظهر النية ، ومظهر عدم حلق الـرأس ، وينتهي بالـذبح ، والإحرام هو ابرز اعمال الحج لذلك بدأ به القرآن الحكيم.

الإحرام :

[197] وفي هذه الآية نجد بعض مظاهر الإحرام وهي : حرمة الــرفث (مباشــرة النســاء) بكل ألوانه وحرمة الفسوق (والحلف كاذبا بالله) وحرمة الجدال.

وخلال فترة الحج يجب ان يتقيد الإنسان بهذه الأمـور ، والهدف منها : تنمية روح التقوى في النفوس.

(**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ**)

لا يمكن ان يبـدأ الإنســان حجه قبل شـوال ، ولا ان يـؤخره عن موسم الحج في ذي الحجة وربما يـوحي هـذا بان محرمات الإحرام لا تستمر بعد أيام ذي الحجة.

(**فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَ**).

فرض على نفسه الحج في هذه الأشهر.

(**فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِ**).

لماذا الجدال والفسوق؟

هل لكي يتظاهر الإنسان بأنه أهم من غيره ، ويـزكي نفسه دون الآخرين ،

ما دام الله يعلم بما يفعله العبــاد ان كــانوا صــادقين في عملهم ، والكذب والادعاء لا يغني أحدا شيئا.

(**وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْـرٍ يَعْلَمْـهُ اللـهُ وَتَـزَوَّدُوا فَـإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى**).

أفلا يتزود الإنسان لسفره؟

فلما ذا لا يتزود لسفر الاخرة وهو أطول وأوحش من اسفار الدنيا ، ولكن كيف نتزود؟

أفضل ما نـتزود به : التقـوى والالـتزام بما أوجبه الله علينا ، إنه الــــزاد الوحيد الــــذي ينفعنا في ذلك الطريق الطويل الطويل.

(**وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ**).

أنتم يا من تملكون حقيقة الانسانية وهي العقل اتقـوا الله ، لأنكم تعرفـون الله وتعرفـون ان من يتقيه ينجو من نار جهنم ، وينجو من عذاب الدنيا.

إن التزود بالتقوى لا يختص بالآخرة بل يشمل اســفار الدنيا ، إن رحلتنا الشاقة في الدنيا بحاجة الى زاد ، بحاجة الى ارادة وعقل ومثابرة ، والتقوى هي الـتي تعطينا هـذه الصفات المثلى والضرورية للحياة في الدنيا.

إن الـذين لا يتسـلحون بـالتقوى فـان اي مشـكلة في الحياة يمكنها ان تصرعهم وتحول حياتهم الى جحيم.

ماذا بعد عمرة التمتع؟ :

[198] بعد فـترة العمـرة يتحلل الحـاج من إحرامه ، ويبتغى من فضل الله ،

ويتمتع بلذات الـدنيا ، ويفكر في التجـارة ، ويـتزود بـالعلم والأدب ، وبعدئذ يحرم مرة اخرى للحج ويقف في عرفات ، ويفيض منه الى المشـعر ، ثم الى مـنى ، وبعدئذ يـذهب للطواف ويقضي سائر مناسكه.

(**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ**).

في الفترة بين الحج والعمرة في حالة التمتع.

(**فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ**).

حيث يقف فيه كل الحجـــاج ، ويبـــدو ان الافاضة من عرفـــات من ابـــرز واجبـــات الحج ، لأنها مســيرة ايمانية تـذكرنا بطبيعة الـدين ، انه حركة موجهة لهـدف مقـدس ، وسنجد في الاية التالية تركيزا على الافاضة.

(**فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ**).

وهو موقف يقع داخل حدود حـرم المسـجد الحـرام ، وملتصق بمـــنى جغرافيا ، بينما يبتعد عن عرفـــات بضع كيلومترات.

كـان المشـعر الحـرام في الجاهلية موقعا للمبـاراة الفكرية بين القبائل التي كانت تهتم بعنصـريتها وعصـبيتها أكـــثر من اهتمامها بالشـــعائر الدينية ، فكـــانت كل قبيلة تحـيي ليلة المشـعر بالاشـادة بامجادها الغـابرة وتعـرض بالقبائل الاخرى ، فأمرهم الله بان يتمحوروا حول الايمـان بالله ، وينسوا خلافاتهم العصبية والعنصرية.

(**وَاذْكُـرُوهُ كَما هَـداكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِـهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ**).

إن مقارنة حالة التخلف ، القـــديم للأمة والفســـاد الجاهلي بحالة تقدمها الحالي في

ظل الرســالة الجديــدة ، تكــرس فيها ايمانها برســالتها ، وتدفعها الى المحافظة عليها بكل قوة.

والقرآن يأمرنا ان نتذكر رسـالة الله الـتي اهتـدينا بها لكي لا نتــوانى عن تطــبيق قيمها ، ولكي نتصــور واقعيا نعمة الوحدة والأمن والطمأنينة والنشاط ، وبالتالي سـائر النعم التي جاءت نتيجة هذه الرسـالة ، والـتي لا يمكن ان تستمر لوانا لم نتمسك بها تمسكا شـديدا ، بل هي بحاجة الى المحافظة عليها ، والتـذكرة بأنها سـتزول لو لم نسع من أجل المحافظة عليها.

الإفاضة مسيرة الإيمان :

[199] بعد عرفــات تبــدأ المســيرة الايمانية الــتي تسميها الاية ب (الافاضة) تشبيها لها باندفاع السـيل ، آنئذ حيث تميل الشمس الى المغرب ، تستعد جمـوع الحجـاج للتحرك الى المشـعر ، لـيرمزوا بـذلك للسـعي المشـترك في سـبيل الله ، وعلى الـدرب الـذي حددته رسـالة الله ، دون اي تمييز بين الطبقات المختلفة.

وقد كانت الجاهلية تعطي لبعض القبائل شرف تقـدم الناس في الافاضة ، فكانت تقف امام الجمـاهير وتتحـرك من نقطة أقرب الى المشعر من سـائر النـاس ، أو تفيض من المشعر ذاته. وجاءت الاية صريحة بالغاء هـذا الامتيـاز والبدء بالمسيرة مع الناس وقالت :

(**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ**).

من ذات النقطة التي يفيض منها الناس.

(**وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ**).

ليشعر كل إنسان بأنه مذنب امـام ربه ، وانه لا يجـوز له ان يــزكي نفسه ويجعلها أشــرف من الآخــرين ، فكلنا عبــاد الله وقد يكـــون الوضـــيع منا شـــريفا عند الله بل وأشرف من الذي يزعم نفسه شريفا.

(**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**).

كيف نربح الدنيا والآخرة؟

[200] بعد المشعر يفيض الحاج الى منى حيث يؤدي مناسكه من : تقديم الهدي ، ورمي الحجارة ، والتقصـير ، وانئذ يجتمع الحجاج في منى ليبنوا حياتهم وفق تطلعـاتهم ، فينقسم النـــاس الى نـــوعين : فمنهم من يـــذكر الله وينتمي اليه قبل ان ينتمي الى أهل أو ارض أو قـــــوم ، ويريد ان يبـني حياته وفق نهج الله ، ومنهم من يسـتعجل في الحصـــول على مكاسب الـــدنيا ، دون ان يفكر في الاخرة فيخسرهما جميعا.

(**فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ**).

في مـــنى ، رميا للجمـــرات ، وهـــديا لله ، وحلقا أو تقصيرا ، وبالتالي بالتحلل من أكثر مظاهر الإحرام.

(**فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً**).

حـــتى يصـــبح انتمـــاؤكم الاول الى الله ، فيوحـــدكم الإيمان به ، وتصبح ارض مـنى منطلقا للتعـارف والتعـاون والأمل ، ولكن يبقى هذا الهدف مرتبطا بمنطلقات معينة.

(**فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنا آتِنا فِي الـدُّنْيا وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**).

لا يملك اي رصيد في الاخرة. لأنه يريد كل جهوده ان تثمر في الـدنيا ، هـؤلاء ليس لهم في الآخـرة نصـيب في الدنيا.

[201] (**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُــولُ رَبَّنا آتِنا فِي الــدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ**).
[202] (**أُولئِكَ لَهُمْ نَصِــيبٌ مِمَّا كَسَــبُوا وَاللــهُ سَرِيعُ الْحِسابِ**).

هؤلاء سوف يحصلون على مكاسـبهم في الـدنيا وفي الاخرة لان منطلقهم سليم. وبـالطبع لا ينفع هـؤلاء مجـرد سلامة منطلقهم ، إذ انهم سوف لا يحصلون إلّا نصـيبا مما كسبوا لا مما قالوا ، ان الدنيا والاخـرة هـدفان لا يحققـان الا بسعى وعلى قدره.

ان الذين يحـددون نظـرهم في الـدنيا يصـابون بقصر النظر ، والذاتية ، إذ ما دام العمل للــدنيا ولا نعــرف هل نحن غدا موجودون أم أموات ، فدعنا نأكل نصيبنا اليــوم ، وبــذلك يســتنفذون طاقــاتهم في الحــال دون النظر في المستقبل.

وما دام الفــرد يعمل للــدنيا ، ويعمل لذاته ولا قــرب النــاس اليه ، وإن ذلك يقضي على حضــارته فما عاشت امة انتشــــرت فيها الذاتية وقصر النظر ، بينما من يعمل من أجل الاخرة يكون امامه أفق بعيد يتطلع لتحقيقه ، انه يفكر في رحمة الله الواسعة ، فهو لا يريد مكاسب عاجلة ، ثم انه يعمل للجميع لان ذلك طريقه الى الله ، وهكــــذا يكون العمل للآخرة طريقا الى حضارة الامة.

بعد قضـاء مناسك مـنى ، يتوجه الحـاج الى بيت الله الحرام ليـذكر الله ، ولكي يرتبط بهـدى الله ويوثق علاقته بالانتماء التوحيدي له ، ويعمل للدنيا والاخرة معا.

[203] (**وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ**).

ثلاثة أيام من الحادي عشر حتى الثالث عشر.

(**فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَـأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَاتَّقُوا**

اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

الهدف البعيد لكل هذه المناسك هو التقـوى ، وسـببه هو التفكـير المسـتمر في أنّ الإنسـان مهما طـال عمـره فسوف يحشر الى الله ويسأل عما فعله ، فعليه ان يجعل من نفسه عليها رقيبا ووازعا عن السـوء ، ودافعا الى الخير ، ولا ينتظر محاسبا اجتماعيا أو واعظا دينيا.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ (204) وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ (205) وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ (206) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (207) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا

---

204 [يعجبك] الاعجاب هو سرور المعجب بما يستحسن ومنه العجب بالنفس وهو سرور المعجب من الشيء استحسانا له وذلك إذا تعجب من شدة حسنه والعجب كل شيء غير مألوف.
[ألدّ] الألد الشديد الخصومة تقول لدّ يلدّ لدودا ولدّه يلدّه إذا غلبه في الخصومة.

فِي السِّـلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُـوا خُطُـواتِ الشَّـيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جـاءَتْكُمُ الْبَيِّنـاتُ فَـاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ (209) هَـلْ يَنْظُـرُونَ إِلاَّ أَنْ يَـأْتِيَهُمُ اللـهُ فِي ظُلَـلٍ مِنَ الْغَمـامِ وَالْمَلائِكَـةُ وَقُضِـيَ الْأَمْـرُ وَإِلَى اللـهِ تُرْجَـعُ الْأُمُـورُ (210) سَـلْ بَنِي إِسْـرائِيلَ كَمْ آتَيْنـاهُمْ مِنْ آيَـةٍ بَيِّنَـةٍ وَمَنْ يُبَـدِّلْ نِعْمَـةَ اللـهِ مِنْ بَعْـدِ ما جاءَتْـهُ فَـإِنَّ اللـهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (211) زُيِّنَ لِلَّذِينَ

---

210 [ينظرون] النظر هنا الانتظار. وأصل النظر الطلب لادراك الشيء وإذا استعمل بمعنى الانتظار فلأن المنتظر يطلب إدراك ما يتوقـع. وإذا كـان بمعـنى الفكر بـالقلب فلأن المتفكر يطلب به المعرفة وإذا كـان بالعين فلأن الناظر يطلب الرؤية.

[ظلـل] جمع ظلة وهي ما يسـتظل به من الشـمس وسـمى السـحاب ظلة لأنه يستظل به.

[الغمام] السحاب الأبيض الرقيق سمي بذلك لأنه يغم أي يستر.

212 [زين] الزينة الحقيقية ما لا يشـين الإنسـان في شـيء من أحواله في الدنيا ولا في الآخـرة فأما ما يزينه في حالة دون حالة فهو من وجه شيء.

كَفَـرُوا الْحَيـاةُ الـدُّنْيا وَيَسْـخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُـوا
وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ وَاللـهُ يَـرْزُقُ مَنْ
يَشـاءُ بِغَيْـرِ حِسـابٍ (212) كـانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِـدَةً
فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنْـذِرِينَ وَأَنْـزَلَ مَعَهُمُ
الْكِتـابَ بِـالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُـوا فِيـهِ
وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُـوهُ مِنْ بَعْـدِ ما جـاءَتْهُمُ
الْبَيِّنـاتُ بَغْيـاً بَيْنَهُمْ فَهَـدَى اللـهُ الَّذِينَ آمَنُـوا لِمَا
اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَـقِّ بِإِذْنِـهِ وَاللـهُ يَهْـدِي مَنْ يَشـاءُ
إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (213)

التقوى :

رضا الله ، السلم ، العدالة

هدى من الآيات :

في هـذا الـدرس يـبين لنا القـرآن اهمية التقـوى في مقاومة النفـــاق ويـــبين بعـــدا هاما من ابعـــاد التقـــوى الاجتماعية ، وهي (الوحــدة) وتنــازل الطــرف المخــالف للحق عن نزاعه في مصلحة صاحب الحق.

يبــدأ الحــديث : بــدعوة الى السـلم داخل المجموعة الاســلامية كهــدف ســام يجب على أبنــاء الامة تحقيقه والمحافظة عليه ، وتجعل الآية الناس كلهم مسـئولين عن الوحدة.

ومن ثم يحـــذرهم القـــرآن من الاختلاف بعد البينة ، ويضرب لهم من قصة بـني إسـرائيل مثلا لكيفية الاختلاف بعد البينـات الكثـيرة ، بعد ان يقـول ان عليهم ان يكتفـوا بهذه النصـوص في رفع الخلافـات بينهم ، ولا ينتظـروا ان يـــأتيهم الله في مظـــاهر عظمته حـــتى يحكم بينهم في خلافاتهم.

بعدئذ يـبين السـبب الجـذري لكل الخلافـات وهو حب الدنيا ، الذي يدفع

الإنسـان الى البغي على الآخـرين وفي أخر الآيـات يحـذر القرآن من الغطاء الفكري الذي يلبسه الإنسان حول حب الدنيا ، وبذلك يبرره بقيمة مزيفة. كما فعل الكفار عند ما جاءتهم البينات.

وبهذه الآية يمهد القرآن للحديث عن الموضوع التالي وهو : ان الخلاف المشـــروع الوحيد هو الخلاف المبـــدئي بين أهل الدنيا المتمثل في الكفار وأهل الحق.

ان التقوى هي الضمانة الاكيدة لمقاومة حالة النفـاق. حيث يعيش الإنســـــان في داخله شخصا وفي الخـــــارج يتظاهر شخصا آخرا ، فيعمل بالحسنات لأجل الريـاء فقط ، كل ذلك لأنه لا يتمتع بروح التقوى الداخلية.

بينات من الآيات :

[204] (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ**).

ويصورة صادقا لنا ، ويدعم كلامه أبدا باليمين.

(**وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ**).

في الجدل ، لدود.

[205] (**وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ**).

هذه هي صفات المنـافق الرئيسة ، وهي اربع صـفات :

الاولى : انه معسول الكلام فيما يخص الحياة الــدنيا ، يتحدث عنها بشـهية مفتوحة ولعـاب مسـال وكأنه يتحـدث عن حبيبته المفضلة في قلبه ، هذه الصفة نابعة

من شعور المنافق بـالنقص فيما يرتبط بالـدنيا ، فهو يهتم بها اهتمام الجائع المنهوم بالرغيف.

الثانية : انه يكـذب وهو يعلم انه يكـذب ، ولكي يـبرز كذبه بمظهر الصـدق ، يحلف بالله كثـيرا ، وهـذه الصـفة ناشـئة عن تصـوره الـدائم بـان النـاس لا يصـدقونه في أقواله.

الثالثة : انه ينفجر غيظا إذا عــــــورض في كلام له ، ويحاول ان يثبت كلامه بـالرغم من الاعـتراض ، وذلك عن طريق مواصــلة الجــدل لأنه قد أجــاد صــناعة الكلام ولا غيرها.

الرابعة : إن عمله هو الفساد لا الصـلاح ، فهو لا يحب أحــــدا ، ولا يحب ان يمتلك أحد شــــيئا ، ولـــذلك فامنيته الكامنة هي الا يعيش أحد ولا يبقى شــيء سـليما ، تــراه يفسد بين النـــــاس بالغيبة ، والنميمة ، والتهمة ، ويبخس الناس أشياءهم بالتحطيم ، والتكسير ، وعدم المبــالاة و.. و.. إلخ.

وإذا اوتي القوة استخدمها في ابادة الحياة ، والزراعة ، والانتاج ، والناس أجمعين.

[206] هـذه صـفات المنـافق الظاهرية ، اما صـفته الواقعية فهي عدم التقوى.

(**وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ**).

انه يصور نفسه فوق الحق وفوق قيم الله في الأرض ، فلا يرى ضرورة للخضوع للحق ، بل تأخذه العزة والانفة ، فـاذا به يعـتز بالأعمـال السـيئة الـتي يعملها ، ويصـورها حسنة لمجـرد انها صـدرت منه ، فهو يعـتز بـالإثم بـدل ان يعتز بالحق.

إن هـذه هي صـفة المنـافق الجذرية وهي : التمحـور حول الذات وجعلها مقياسا

للحق ، وهي صـــفات مقابلة تماما للتقـــوى ، وهي جعل الحق مقياسا للحقيقة أبدا وعلى الإنسان ان يتمحور حوله لا حول نفسه.

ايّ عــذاب اليم يجب ان يكــون جــزاء هــذا المعاند الأثيم؟

لا شيء غير النار.

(**فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ**).

[207] عكس المنـافق تماما ، المتقي الـذي ليس لا يتمحور حول ذاته فقط ، بل يبيع ذاته لله أيضا.

(**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْـرِي نَفْسَـهُ ابْتِغـاءَ مَرْضـاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ**).

وحين يشــري نفسه يجعلها تــدور مــدار الحق وتتبعه انى اتجه ، سواء كـان عند صـديقه أو قريبه أو رئيسه ، أو كان عند خصمه البعيد عنه أو عبده أو مرءوسه. انه يعرف الحق ولا يعــرف اية قيمة اخــرى ذاتية كـانت أو طاغوتية اجتماعية.

إنه لا يفكر بعد ان بــــاع نفسه لله ان يثبت لأحد انه فعل ذلك ، أو انه مخلص ، أو يشـهد الله على ما في قلبه ، كلا انه يعرف ان الله بصير به فيبقى مخلصا لربه العليم بحاله ، ويكفيه ذلك من الناس ، فتراه خاشـعا لله مسـلما له راضيا بأقداره ، نشيطا في ابتغاء مرضاته ، متصلبا في ذات الله ، ثائرا ضد أعداء الله ، لا ترهبه قوى العــدو ، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

هذه هي شخصية المتقي فهل نجدها في أنفسنا؟

الوحدة ضرورة جهادية :

[208] المجتمع الاسـلامي مجتمع حــرب دفاعية ضد أعداء الانسانية وأعداء

الرســـالة ، ولا يمكن لهـــذا المجتمع ان يواجه تحـــديات الحـرب من دون وجـود وحـدة داخلية متينة ، لـذلك يـدعو القـرآن في الآية وقبل الحـديث عن الحـرب في الـدرس القادم الى الوحدة ، ويجعلها مسئولية كل الإفراد ويقول :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُـوا فِي السِّـلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**).

ان رحاب السلام يتلوث بالحساسيات الصـغيرة الـتي تتراكم على بعضها حتى تصـبح كسـحابة داكنة ، وعلى اي فرد مسلم داخل المجتمع ان يقاوم نمو هذه الحساسـيات ، ولا يتبع خطـوات الشـيطان منذ البداية ، لان الشـيطان يستدرج الإنسان خطوة خطوة الى الجحيم.

فعلينا ان نحـــدد عـــدونا الحقيقي وعـــدو الجميع (الشـيطان) ونتحـذر من أول خطـوة يـدعونا إليها ، وهي الحساسـية ضد أحد من إخواننا ، واعتبـاره عـدوا لنا من دون الشيطان.

[209] (**فَـإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْـدِ ما جـاءَتْكُمُ الْبَيِّنـاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**).

ثم يحـــذر ربنا المســـلمين من الســـقوط في درك الخلافـــات الجاهلية النابعة من الشـــهوات ، وينـــذرنا بأنه عزيز فلا يفوته هارب ، ولا يغلبه غالب ، وانه حكيم يجازي النـــاس حسب أفعـــالهم لا حسب أهـــوائهم وامنيـــاتهم وادعاءاتهم.

مسئولية الحفاظ على الوحدة :

[210] وهـــذا يعـــني اننا نحن المســـؤولون عن المحافظة على وحـدتنا بالاعتمـاد على هـدى الله وبيناته ، وليس من الصحيح ان ننتظر الله ان يأتي ويفض خلافاتنا ، أو ننتظر مثلا الامام الحجة (ع) حتى يصلح ما بيننا بطريقة غيبية ، انها آنئذ قيام

الســـاعة ، وهنالك لا مســـئولية على أحد ، كما ولا تـــؤخر العقوبة عن أحد.

(**هَلْ يَنْظُـرُونَ إِلَّا أَنْ يَـأْتِيَهُمُ اللـهُ فِي ظُلَـلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ**).

كناية عن مجيء الله (سبحانه) مع كل ملكوته.

(**وَقُضِيَ الْأَمْرُ**).

أي آنئذ انتهت حياة المسؤولية ، وآنئذ تتبـدل الحيـاة ، فلو أراد الله بالجبر ان يصلح بين العبـاد بـالخير ، فالحيـاة غـير هـذه الحيـاة ، اما هنا فنحن بأنفسـنا مسـئولون عن تصـفية خلافاتنا ، ثم بعدئذ نمثل امـام الله للمحاكمة في الآخرة.

(**وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**).

[211] والأمم السـابقة لم تـنزل عليهم ملائكة الله ، بل نزلت عليهم البينـات ، وكـان عليهم ان يسـتفيدوا منها في تحقيق مسئولياتهم ، ومع ذلك فان بعضهم لم يسـتفد منها. بل بدل فيها وحرف وما ظلموا إلّا أنفسهم.

(**سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ**).

لكن بعضهم بدل هذه الآيات.

(**وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللـهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**).

وقد يكون العقـاب في صـورة شـياع الفوضى بينهم ، وضـــرب بعضـــهم ببعض نتيجة إهمـــالهم لرســـالة الله ، وتورطهم في الخلافات الداخلية.

لماذا الاختلاف؟! :

[212] ولكن يبقى الســـؤال الهـــام : لمـــاذا أساسا يختلف الناس؟ وما هو جذر

المشكلة؟
الجـواب : انهم يختلفـون لان الـدنيا زينت لقلـوبهم ، ولكن المؤمن لا يتمحـور حـول الـدنيا بل الاخـرة ، ولـذلك فهو يتقي الــدنيا وشــهواتها وفواحشــها ، وهنا يظهر جليا مدى اهمية التقوى في إنشـاء حيـاة كريمة ، لأنها تسـحب فتيل الخلافات الاجتماعية المتمثلة في حب الدنيا.
(**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيـاةُ الـدُّنْيا وَيَسْـخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**).
لأنهم لا يـأبهون بالـدنيا كثـيرا ، بينما الحقيقة انهم هم الفائزون.
(**وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ**).
والــدنيا الفاضــلة لا يحصل عليها كل من أرادها ، بل هناك سبل يجب السير فيها حتى نصل الى الـدنيا الكريمة ذات النعم المتكاملة ، وهي موجــودة في ايــات الله وفي طليعتها قانون الوحدة (الدخول في السلم كافة) إنه بــاب يؤدي الى رزق الله.
(**وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ**).
[213] وكمثل على ذلك لنقرأ قصة الرسـالة الاولى ، فالبشر كـانوا جميعا على الضـلالة ، فجـاءت رسالة اللـه. ومن اهــدافها الرئيســية توحيد النــاس على الحق ، ورفع اختلافهم فيه ، ولكن اختلف بعض ممن اوتي الرســــــالة لماذا؟ هل لأنهم لم يملكوا ما يرفع اختلافاتهم؟
كلا بل لأنّه كــانت توجد هنــاك طائفة منهم يقومــون بظلم الناس والبغي عليهم ، وجاءت الرسـالة ضد البغي ، فعارضت مصــالحهم المؤقتة فقاوموها أشد المقاومة ، إذ ان جــــذر الخلافــــات هو البغي ، وإذا تخلص النــــاس منه استراحوا.

(**كــانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِــدَةً فَبَعَثَ اللــهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**).

وكـانت هـذه وسـيلتهم لتوجيه النـاس ، لا المـال ولا القـوة ، بل التبشـير بحيـاة أفضل والإنـذار من العـذاب ، (الترغيب والترهيب).

(**وَأَنْـزَلَ مَعَهُمُ الْكِتـابَ بِـالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُـوا فِيـهِ وَمَا اخْتَلَـفَ فِيـهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُـوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**).

كان يريد بعضـهم ظلم البعض الآخر فكـانوا يختلفـون في الأمر ، وهنا اسـتفاد المؤمنـون بالرسـالة بينما خسر الكافرون ، والمؤمنـون انّما اهتـدوا لأنهم رضـوا ان يكـون الحق مقياسا بينهم.

(**فَهَـدَى اللـهُ الَّذِينَ آمَنُـوا لِمَا اخْتَلَفُـوا فِيـهِ مِنَ الْحَـقِّ بِإِذْنِــهِ وَاللــهُ يَهْــدِي مَنْ يَشــاءُ إِلى صِــراطٍ مُسْتَقِيمٍ**).

أما المؤمنون فقد اتخذوا من هدى الله ورسـالته اداة لتوحيد صفوفهم ، وحل خلافاتهم ، بينما الكفـار لم يفعلـوا مثل ذلك ، لأنهم كانوا يريدون البغي وليس الحق.

أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَـأْتِكُمْ مَثَـلُ الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّـتْهُمُ الْبَأْسـاءُ وَالضَّـرَّاءُ وَزُلْزِلُـوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ (214) يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُــلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْــرٍ فَلِلْوالِــدَيْنِ وَالْأَقْــرَبِينَ وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّـبِيلِ وَما تَفْعَلُـوا مِنْ خَيْـرٍ فَـإِنَّ اللـهَ بِـهِ عَلِيمٌ (215) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتـالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا

214 [زلزلـوا] الزلزلة شـدة الحركة والزلـزال البلية المزعجة لشـدة الحركة والجمع زلازل وأصله من قولك زلّ الشـيء عن مكانه ضـوعف لفظه لمضاعفة معناه نحو صر وصرصر فاذا قلت زلزلته فتأويله حركته عن مكانه.

216 [كـره] الكـره بـالفتح المشـقة الـتي تحمل على النفس والكـره بالضم المشقة على النفس حمل أو لم يحمل وقيل الكره الكراهة

شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُـوَ شَـرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (216) يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُـلْ قِتـالٌ فِيـهِ كَبِـيرٌ وَصَـدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِـهِ وَالْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ وَإِخْـراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَـةُ أَكْبَـرُ مِنَ الْقَتْـلِ وَلا يَزالُـــونَ يُقــاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَـــرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْـتَطاعُوا وَمَنْ يَرْتَـدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كـافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمـالُهُمْ فِي الـدُّنْيا وَالْآخِـرَةِ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ

والكره المشقة وقد يكـره الإنسـان ما لا يشق عليه ، وقد شق عليه ما لا يكرهه.

217 [صـدّ] الصد والمنع والصـرف نظـائر يقـال صد عن الشـيء يصد صدودا إذا أعرض وعـدل عنه وصـدّ غـيره صـدا إذا عـدل به عنه ومنعه وأصل الباب العدول.

[لا يزالون] يدومون. وما زال أي دام.

[حبطت] حبط عمل الرجل حبطا وحبوطا وأحبطه الله والحبط فســـاد ما يلحق الماشــية في بطنها لأكل الحبــاط وهو ضــرب من الكلأ يقــال حبطت الإبل إذا أصابها ذلك ثم سمي الهلاك حبطا.

هُمْ فِيها خالِـــدُونَ (217) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـــوا وَالَّذِينَ هــاجَرُوا وَجاهَـدُوا فِي سَــبِيلِ اللــهِ أُولئِكَ يَرْجُـونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218)

---

218 [هـاجروا] الهجر ضد الوصل يقـال هجـره يهجـره هجرانا وهجـرا وهجـرة إذا قطع مواصـلته وهجر المـرض يهجر هجـرا إذا قـال ما يهجر من الكلام وسموا المهاجرين لهجرتهم قومهم وأراضيهم.
[جاهــدوا] جاهــدت العــدو ومجاهــدة وجهــادا إذا حملت نفسك على المشقة في قتاله.

الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ

هدى من الآيات :

بالرغم من ان هذه الآيات تبين لنا جوانب من فريضة القتال. الا انها ليست مرتبطة بآيات (الجهاد الاسلامي) بل هي متصــلة ببنــاء شخصــية الامة ، الــتي تتمــيز بــالتقوى وبــالتمحور حــول الحق ، في رد الخلافــات الى الإســلام ، وأيضا بالاستقامة والتصلب في التمسك بالرسالة ، وعــدم التهاون فيها رغم الصعوبات التي تعترض طريقها.

ففي الآية الاولى نجد كيف ان الله يبشر الامة بالأيــام الصــعبة الــتي تســتقبلها ، وينــذرها بأنها لو لم تســتقم فيها على الحق. فان الجنة حرام عليها. ثم يتحدث عن الإنفــاق باعتبــاره فريضة مقارنة لايــام الشــدة. وبعدئذ يــبين لنا ان القتــال كــره لكم. ولكن لا بد لكم منه ، وان هــدف العــدو من القتال هو اســتلاب دينكم واعــادتكم الى أغلال الكفــر. وعليكم ان تصــمدوا ضــده ، ويبشر أخــيرا الصــامدين في وجه الضغوط بكل خير.

وربما تكـون الآية الاولى من الـدرس القـادم متصـلة بالحـديث عن الاسـتقامة والتصـلب ، إذ انها تحـرم الخمر والميسر وهما اداتا تمـــييع للامة ، وتســـبّبان ابعادها عن الجدية الرسالية.

بينات من الآيات :

[214] حفت الجنة بالمكـــاره ، ومن أراد ان يـــدخلها فعليه ان يقتحم هذا السور الشـائك. ولكن هل يعـني ذلك ان أهل الجنة في شقاء دائم؟

كلا. بل يعـني انهم يتمتعـون بـالقوة والصـلابة الـتي تجعلهم مستعدين لكل الظـروف. وهي تعطيهم مناعة من الاستسلام للضغوط ، وتحدي محاولات الاستبعاد.

(**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ**)

عبثا وبلا ثمن ودون ان تكونـــوا من أهل الجنة الـــذين امتحنوا بالفتن الصعبة ونجحوا فيها.

(**وَلَمَّا يَأْتِكُمْ**)

أي دون ان يواجهكم.

(**مَثَـلُ الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّـتْهُمُ الْبَأْسـاءُ وَالضَّرَّاءُ**)

البأساء هي الصعوبات التي منشؤها العـدو. والضـراء الصعوبات المادية كالفقر والمرض. [1].

(1) مجمع البيان ج 1 ص 309

(**وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَـهُ مَتى نَصْرُ اللهِ**)

لهول الصـعوبات والخسـارة ، كـانوا يسـتعجلون نصر الله ، وعند ما تصل الصـــــعوبة الى ذروتها يجب ان نأمل الفرج.

(**أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ**)

وهذه الآية تعـني ان الـذين يحلمـون بالجنة مجانا وبلا ثمن إنما يحلمون باطلا وسيجدون أنفسهم في النار.

الجنة ليست مزرعة الدواجن ولا مربض الأغنـام ، انها مقام الرجال ومكتسب الابطال. وعهـود التخلف والابتعـاد عن صـلابة الرسـالة وخشـونتها هي المسـؤولة عن هـذه النظرة اللامسؤولة الى الجنة ، ولهؤلاء يقول الامــام علي (ع) «**هيهات هيهات لا يخدع الله عن جنته**»

الإنفاق سبيل التضحية :

[215] وكما في الحرب فهناك في السـلم فتنة وبلاء يتمثل في ضرورة الإنفـاق ، والإنفـاق هو الاعـداد النفسي الخارجي للحرب ، وهنا يشير القـرآن الى الجـانب النفس من الإنفـاق إذ يجب ان يكـون خالصا لله ، حـتى يـربي صـاحبه على العطـاء والتضـحية ، ذلك ان التضـحية ، كأية صفة نفسية اخـرى ، تحتـاج الى التـدريب فهي تنمو شـيئا فشيئا ابتداء من التضحية بالمال القليل ، ثم المال الكثـير ، ثم القتال والصـمود وهكـذا ، لـذا يحـدد القـرآن هنا جهة الإنفاق ، لعلاقته الوثيقة بالتضحية بـالنفس ، وقلما تحـدث القـرآن عن التضـحية بـالنفس دون ان يقرنها بالتضـحية بالمال.

(**يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْـرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ**)

فكل خـير يمكن إنفاقه ، ولكن علينا ان نحـدد وجهته وهي : ابتغاء مرضاة الله.

بعيدا عن الاهداف المادية أو الرياء ، بل للوالدين.

(**وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ**)

[216] الامة المسلمة تتميز بالاستقامة على الحق ، والتضحية رغم صعوبتها ، وها هو القتال مفروض عليها ، بالرغم من انه مكروه على الإنسان.

(**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**)

الحق هو محور الإنسان الرسالي والامة المؤمنة لا الحب والكره المجردين ، ذلك لان الحق ينفع الإنسان والباطل يضره ، بالرغم من ان النفس تميل الى الباطل وتزعم انه أصلح لها. والله هو الذي يحدد الحق ، اما الناس فهم لا يعلمونه دائما ، لأنهم محجوبون عنه بالشهوات التي تزيّن لهم الباطل وتصوره حقا لهم.

(**الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**) :

[217] هل يجوز القتال في الأشهر الحرم أم لا؟

كلا ولكن ليس هذا هو السؤال الاساسي عند القرآن ، ان السؤال هو : ما هو الهدف من القتال لأنه المقياس في الدين؟

(**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَإِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**)

ما هي الفتنة هنا؟

إنها مصادرة حرية الإنسان ومصادرة حقوقه واكراهه على الكفر ، هذه هي الفتنة

في هذه الآية ، والقتل والقتال يستهدف تطهير الأرض من عناصر الفتنة ، وبالرغم من ان القتل عملية شـاذة أساسا ، لكن الإسلام يلجأ إليها لـدفع ما هو أكـبر ضـررا منه وهو الفتنة.

من هنا فالقتـــال من أجل الحرية والحقـــوق قتـــال مشروع ، لأنه قتال من أجل المبـادئ الرسـالية الـتي تريد تصـفية عناصر الفسـاد ، أولئك الـذين لا يمكن مهـادنتهم لأنهم لا يقفون عند حد معين في فسادهم.

(**وَلا يَزالُـونَ يُقـاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَـرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا**)

فهم يحاربون المبادئ الرسالية ويحـاربون المعتقـدين بها ، وعلينا ان نقـــاتلهم دفاعا عن مبادئنا ، وان لا نخضع لاهوائهم التي تشتهي أن تسرق منّا قيمنا.

(**وَمَنْ يَرْتَـدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كـافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الـدُّنْيا وَالْآخِـرَةِ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

لان قيمة الإنسـان انما هي برسـالته الـتي يلـتزم بها ويدافع عنها حتى الموت ، فاذا تنازل الإنسان عن رسـالته فقد تنازل عن قيمته رأسا ، إنه إذا يذل إذلالا ، ويحرم من حقوقه ، ويتعـرض لامتصـاص جهـوده واعماله ومكاسـبه ، فيكد من الصباح حتى المساء من أجل ان يستريح اسياده ومستعبدوه على الكراسي ويترفوا على حســابه ، اما في الآخرة فان الله يسوقه الى النار ، وحتى عباداته البسيطة (الصلاة ، الصيام ، .. إلخ) سوف تحبط هي الاخــرى ، لأنه لم يحافظ على حريته ، ولأنه أطـــاع الطـــاغوت في أهم أجزاء حياته ، وجعل طاعة الله محدودة ببعض الجزئيــات. انه سوف يقضي حياته في النار.

[218] هــذا عن أولئك الــذين يستســلمون لضـغوط الطاغوت ، ويتنازلون عن

دينهم وحريتهم وجهودهم للعدو ، أما الـذين يهـاجرون في البدء ليشكلوا قوة فلا.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هـاجَرُوا وَجاهَـدُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ أُولئِكَ يَرْجُـونَ رَحْمَتَ اللـهِ وَاللـهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ**)

ان هـؤلاء يحـدوهم الأمل بالانتصـار على العـدو في الـدنيا ، والجنة في الآخـرة ، وهـذا الأمل سـوف يتحقق بفضل الله لهم.

يَسْـئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْـرِ وَالْمَيْسِـرِ قُـلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِـيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَـرُ مِنْ نَفْعِهِما وَيَسْـئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّـهُ لَكُمُ الْآيـاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتـامى قُـلْ إِصْـلاحٌ لَهُمْ خَيْـرٌ وَإِنْ تُخـالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ

---

219 [الخمـر] أصـله السـتر والخمر ما وأراك من الشـجر وغـيره ومنه الخمـار للمقنعة ويقـال : خـامرة الـداء إذا خالطه وخمـرت الإنـاء أي غطيته وأصل الباب الستر. ومنه الشراب المعـروف وسـمي خمـرا لأنه يغطى العقل ويستره.

[الميسـر] القمـار اشـتق من اليسر وهو وجـوب الشـيء لصـاحبه من قولك يسر لي هـذا الشـيء ييسر يسـرا وتيسـرا إذا وجب لك والياسر الواجب لك بقـداح وجب لك وقيل للمقـامر ياسر ويسر أي قـامر وقيل أخذ من التجزئة وكل شيء جزأته فقد يسرته.

الْمُصْلِحِ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللـهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ (220) وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْـرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُـوا وَلَعَبْـدٌ مُـؤْمِنٌ خَيْـرٌ مِنْ مُشْـرِكٍ وَلَـوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَـدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللـهُ يَـدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِـرَةِ بِإِذْنِـهِ وَيُبَيِّنُ آياتِـهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ

---

221 [تنكحوا] النكاح اسم يقع على العقد والوطء. وقيل أصـله الـوطء ثم كثر استعماله حتى قيل للعقد نكاح ويقال نكح ينكح إذا تزوج.

[أمة] الأمة المملوكة. يقال أمة بينة.

222 [المحيض] حاضت المـــرأة تحيض حيضا ومحيضا ومحاضـــا. وهو الدم الذي يصيب المرأة في أوقات معلومة.

[فـاعتزلوا] الاعـتزال التنحي عن الشـيء وكل شـيء نحيته عن موضع فقد عزلته عنه ومنه عزل الوالي ، وأنت عن هذا بمعزل أي تنح

وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَــــرَكُمُ اللـــــهُ إِنَّ اللـــــهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222) نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَـأْتُوا حَـرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَـدِّمُوا لِأَنْفُسِـكُمْ وَاتَّقُـوا اللـهَ وَاعْلَمُـوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223) وَلا تَجْعَلُوا اللــهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224) لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِـاللَّغْوِ فِي أَيْمـانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِـذُكُمْ بِما كَسَـبَتْ قُلُـوبُكُمْ وَاللـهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225)

[يطهرن] الطهر خلاف الدنس والطهور يكون اسما ويكون صفة. ويطهرن إذا اغتسلن وقيل توضأن.

التقوى الاجتماعية

هدى من الآيات :

من مــيزات الشخصــية الاســلامية في الفــرد أو في الامة ، التقوى وإخضاع الشهوات للرسالة والتمحور حــول الحق ، وقد حدثنا القرآن الحكيم في الآيـات الســابقة عن التقوى في عدة مظاهر واخرها حول الـدفاع عن المبـادئ بالقتـال ، والآن يحـدثنا عن مظـاهر اخـرى للتقـوى وهي ، في الوقت الـذي تحـدد المحرّمـات في الإسـلام ، تضـرب امثلة واقعية للتقوى.

يبدأ القرآن الحـديث عن الخمر والمسـير ، باعتبارهما محرّمـــان يشـــيعان عـــادة في الأمم المترهلة اللامبالية بواقعها ، وعلى المسلمين ان يكونـوا امة جدية مسـئولة ، تحارب من أجل مصالح الحق كل طواغيت الأرض ، فكان من الطــبيعي ان يــأتى ذكر الخمر والميسر مباشــرة بعد آيات القتال.

وبعدئذ يوجهنا الى التقوى في المال وحقوق النـاس ، والتقـــوى في ممارسة الجنس كواحد من أهم حقـــوق المجتمع ، وبمناســبة ذكر حقــوق النــاس ، يــذكرّنا بــدور اليمين في

تأدية هذه الحقوق والدفاع عنها ، لا في هضمها والاحتيـال على المجتمع بالأيمان الباطلة.

بينات من الآيات :

[219] الخمر وكل مسـكر ، والميسر وكل مقـامرة ، يلهيان الإنسان عن واقعه ، ويـدفعان بـالمجتمع الى زاوية الصراع والتشرذم. وإذا أراد الله : بناء امة قوية متماسكة ، وجب ان نسد كل أبـــــــواب الاختلاف والترهل ، وكل النوافذ الــتي قد تهب منها ريـــاح الانقســـام ، وليس من الصـحيح ان يفكر المــرء بأنه يشــرب كأسا من الخمر أو يلعب شوطا من القمار. فما يضر ذلك؟ كلا.

اولا : لان الخمر تــدمن وتســحبك الى الازديـــاد منها وكذلك القمار.

وثانيا : لان الإسـلام حين يمنع الزنا يمنع التـبرج ، لأنه باب يؤدي الى الزنا شئنا أم أبينا ، وكذلك حين يمنع الخمر والميسر يمنع حتى الجلوس في محافلهما ، حتى يسد كل الأبواب مرة واحدة.

(**يَسْـئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْـرِ وَالْمَيْسِـرِ قُـلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ**).

متمثلة في ملء الفراغ ، وقضاء الـوقت ، والانتعـاش الموقّت.

(**وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما**).

حيث انهما يسـببان تـوزع المجتمع وانقسـامه وإلهائه عن واجباته النضالية.

ان الهـدف الأكـبر من وراء حرمة الخمر والميسر هو المحافظة على وحـدة الامة ومنع الحساسـيات عنها (كما يظهر من آية اخرى في القرآن) ، وبهذه المناسـبة تحـدث القرآن عن العفو باعتباره الوسـيلة الثانية لـذات الهـدف ، فلو افترضنا ان الحساسية

نمت بين أبناء المجتمع ، فعلينا تصـفيتها بـالعفو ، وقد ورد في بعض الروايـات ان المقصـود بـالعفو هنا التوسط في الإنفاق (!).

(**وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**).

وحين تقع الحساسـية بين أبنـاء المجتمع ، تلهيهم عن مشـاكلهم الرئيسـية وعن جدية مواجهتها ، لـذلك ذكرنا القرآن هنا باهمية التفكر ، ليس في أمور الاخرة فقط بل في شؤون الدنيا أيضا وقال :

(**كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**) [220] (**فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ**)

التقوى والحقوق الاجتماعية :

وتجربة التقوى في الحقـوق الاجتماعية الاخـرى تـبرز بوضـوح في حقـوق اليتـامى. إذ انهم أضـعف حلقة في المجتمع ، إذ لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم تجاه نهم الطـامعين في أمـوالهم ، لـذلك نجد القـرآن يضـرب من واقعهم مثـالا لحرمة الحقـوق في أكـثر من مناسـبة. وهنا يقول :

(**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى**).

هل يبقون وحدهم ، أم يخالطوهم ، وبالتالي هل تفرز أموالهم ويقوم الولي بإصـلاحها واسـتثمارها ، أم تبقى مع اموال الولي يصلحها معها.

(**قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ**).

وليس يضـــركم لو نقص شـــيء منكم أو منهم في الشراكة. لان الحرام هو تعمد

الاعتـداء على امـوال الآخـرين ، اما لو خلصت النية وكـان المشرف عليها محسنا ، في تصـرفاته تجـاه اليـتيم ، فـان الله لا يحاسبه على خطئه 13 (2) «**ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ**» وجاء في بعض النصوص : انه حين نـزلت آية «**وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ**» تحـرج النـاس في التعامل من اليـتيم مما جعل الأيتـام يتعرضـون لحـرج شـديد ، فـنزلت هذه لكي لا ينفصل الأيتام عن المجتمع.

(**وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَـوْ شـاءَ اللـهُ لَأَعْنَتَكُمْ**).

إذا اعتديتم على حقـوق اليتـامى ، فانه قـادر على ان يسلب بعض نعمه عنكم حتى تعـانوا مثلما جعلتم اليتـامى يعـانون من الحرمـان. وربما تـدل الآية على ان الله خفف عليكم الحكم بعد الشدة ولم يأمركم بـإدارة اليتـامى ، مع فرز أموالهم عن أموالكم.

(**إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**).

فهو قـادر على اسـترداد الحقـوق بعزته ، ويفعل ذلك بحكمته.

التقوى وحقوق المرأة :

[221] وكما التقــوى في حق اليتــامى ، فكــذلك في حقوق المرأة ، الحلقة الضعيفة الثانية في المجتمع ، التي يجب المحافظة على حقوقها بالكامــل. والقـــرآن الحكيم ربط بين حقـوق اليتـامى والنسـاء في أكـثر من مناسـبة ، وبهذه المناسبة يبيّن القرآن مجموعة التزامات تجب على المسلم في الجنس ، ابتـداء من اختيـار الزوجة ، ومـرورا بالعملية الجنســـــية ، والخلافــــــات العائلية ، والطلاق ، والرضاع. وهي تنظم كـذلك علاقـات المجتمع الاسـلامي ، ولكن يبــدو ان الهــدف من ذكرها هنا ، هو التركــيز على مظاهر الالـتزام بحقـوق النـاس داخل المجتمع الاسـلامي وبتعبير أخر : التقوى في حقوق الناس.

(**وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَـةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ**)

تلك المشركة بجمالها وروعتها ، أو بمالها وشهرتها.

(**وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُـؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**)

المشـرك ، والسـبب : ان أهم هـدف من الـزواج هو تكوين عائلة واسرة تساهم في بناء المجتمع وتربية الجيل الصـاعد منـه. وعلينا ان نختـار الزوجة والـزوج وفق هـذا الهدف وبمقياس الكفاءة الإيمانية ، لأنها سوف تحقق هذا الهدف أفضل من غيرها. والمـرأة المشـركة ، لا تسـتطيع ان تكون عضوة صالحة في مجتمع الاسرة. وكذلك الرجل المشرك ، فيضيع الطرف الثاني وتضيع الاسرة.

(**أُولئِكَ يَـدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللـهُ يَـدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)

إذ معرفة فلسفة الحكم لا تحتاج الى أكثر من تـذّكر ، بما سـوف يجـره الـزواج الى الاسـرة الـتي تتكـون من مشـــرك ومســـلم من ويلات ، ونزاعـــات وثغـــرات داخل المجتمع الاسلامي.

ومن الشـباب اليـوم من يختـار زوجته من الغـرب أو الشرق لمجرد انها تعجبه ، فاذا به يتعـرض لعـدة مشـاكل بعد عودته الى بلاده. إذ فـــــارق القيم والتقاليد والتربية وعمــوم الــدين ، تجعل زواجه جحيمــا. وكثــيرا ما ينتهي بالطلاق.

وهم في الأغلب يــبررون هــذا الــزواج ، بادعــاء ان الزوجة آمنت. ولكن اي ايمان ، هذا الذي يدفع اليه الزواج فقط ، وليس معه اية ممارسة ايمانية ، ولا حتى

قناعة واقعية ، بل مجرد ترديد الشهادتين كالفاظ فارغة.

حكم المقاربة في الحيض :

[222] ومن حقــوق المــرأة ، وفي ذات الــوقت من آداب الــزواج ، الا تباشر النســاء في الحيض لأنه يســبب انحرافا في صـــحة المـــرأة وخللا في اجهزتها الداخلية واضطرابات في الدورة الدموية .. وو. والمباشرة في هذا الـوقت ليست فقط تشـكل أذى للمـرأة. بل وللذرية في المســتقبل لو قــدر لهم ذرية كما يهــدد بعقم الــزوجين وانتشـار الأمـراض في الأجهـزة التناسـلية فيهما ، من هنا حـرم الإسـلام هـذه المباشـرة ، وجعل ذلك حـدا للشـهوة الجنسية وتقوى لله فيهـا. حـتى تـروض النفس في سـائر شؤونها ، وتطوع بإرادة الايمان.

(**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُـلْ هُـوَ أَذىً فَـاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ**).

حـــتى ينقطع الـــدم ، وبعدئذ يجب الانتظـــار الى ان تغتسل المرأة من الحيض.

(**فَإِذا تَطَهَّرْنَ**).

عن الدم وربما بالاغتسال أيضا.

(**فَـأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَـرَكُمُ اللـهُ إِنَّ اللـهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**).

والتعبـير ب «**مِنْ حَيْثُ أَمَـرَكُمُ اللـهُ**» قد يـدل على ضرورة التزام المباشرة بالسبيل الفطري ، حيث الرحم ، وحيث ترجي الولادة ، لا من السبيل الاخر ، حيث الشـذوذ والأمراض وحرمان المرأة في لذة الجنس.

والله يحب التــوابين ، الــذين إذا تعــدوا حــدود الله ، وباشروا نساءهم في المحيض أو

من غير السبيل الفطـري. فـإنهم سـرعان ما يتوبـون الى اللـه. والله يحب المتطهـرين الـذين يلـتزمون بحـدود الله كاملة لأنه أي اطارها تنمو قيم النظافة الروحية والجسدية. الروحية بالتقوى ، والجسدية بالاغتسال.

[223] لما ذا المباشرة الجنسـية هل لمجـرد المتعـة. كلا. بل ابتغـاء فضل الله من الأولاد الصـالحين. ان وجـود الهدف الأسـمى للغرائز عند المسـلم يجعله يمارسـها في حدود تحقيق الهـدف ، ولا يسترسل معها الى حيث يحطم جسده ويلوث روحه.

(**نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**).

الهدف منهن انجاب الأبناء.

(**فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**).

في اي مكـان واي زمـان. ولكن دون ان تسـتبد بكم الشهوة الجنسية ، بل وتذكروا الاخرة وما فيها.

(**وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ**).

فقسموا أموالكم وأوقـاتكم وطاقـاتكم ، بين شـهوات الدنيا وفي طليعتها شهوة النساء ، وبين تطلعـات الاخـرة. ان في ذلك ضـمانا لالـتزامكم بحـدود الله في ممارسة الشهوات.

(**وَاتَّقُوا اللهَ**).

والتزموا بمناهجه في التمتع باللذائذ.

(**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ**).

غدا حيث يعاقب الفاسق أشد العقاب.

(**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**).

المتقين والملتزمين بحدود الله.

[224] والتقـــوى يجب ان تكـــون حـــاجزا داخليا بين الإنســـــان وبين انانيته وذاتيتـــــه. خصوصا في مجـــــال الصــراعات الاجتماعية ، وبـالأخص فيما يتصل بالخلافـات العائليــة. والــذي سيجسد التقــوى ، هو عــدم اســتخدام اليمين في إثبـات الادعـاءات الباطلـة. وإذا الـتزم النـاس باليمين الصادقة ، كما هو المفروض في المؤمنين ، فإنهم ســيجدون حاكما عـادلا بينهم ، إذ يفصــلون كل قضـاياهم بمجرد ان يستحلف أحد الطرفين الاخر ، ويتوقف صـاحب الادعاء الباطل عن اليمين الكاذب ويعترف بخطئه.

لذلك شدد القرآن على اليمين وقال :

(**وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**).

[225] ويبشــرنا القــرآن الحكيم بــالعفو عن القسم الذي يبتدر عن اللسان ، دون وعي أو قصد. وانما يحاسب الله الإنســان على القسم الــذي يعقد عليه قلبه ، ويتعهد عليه تعهـدا واعيـا. وهكـذا القسم نـوع من العهـد. ولـذلك الحقوه بالعهد.

(**لا يُؤاخِــذُكُمُ اللــهُ بِــاللَّغْوِ فِي أَيْمــانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**).

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227) وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللهُ فِي

---

226 [يؤلون] آلى الرجل من امرأته إيلاء من الالية والألوة وهي الحلف ، وائتلى وتألى وفي التنزيل «**وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ**» وهو أن يحلف الا يقارب زوجته.

[تربص] انتظر.

[فاءوا] الفيء الرجوع يقال فاء يفيء فيئا إذا رجع. وفاء الغني إذا تحول عن جهة الغداة برجوع الشمس. وهو ما نسخ الشمس.

وفيء غنائم المشركين أفاء الله علينا منهم وهو من رجوع الشيء الى حقه وفلان سريع الفيء عمن غضبه أي الرجوع.

227 [عزموا] العزم هو العقد على فعل شيء في مستقبل الأوقات وهو إرادة متقدمة للفعل أكثر من وقت واحد يتعلق بفعل اللازم.

يقال عزم على الشيء عزم عزما.

أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228) الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخافا أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوها وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229) فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230)

---

229 [إمساك] خلاف الإطلاق والممسك البخيل والمسك الإهاب لأنه يمسك البدن باحتوائه عليه.

[تسريح] مأخوذ من السرح وهو الإطلاق وسرح الماشية في المرعى إذا أطلقها ترعي.

[أن يخافا] أي يظنا وقيل معناه أن يوقنا.

وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّســـــاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِـــــكُوهُنَّ بِمَعْــرُوفٍ أَوْ سَــرِّحُوهُنَّ بِمَعْــرُوفٍ وَلا تُمْسِــكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَـدْ ظَلَمَ نَفْسَـهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيـاتِ اللـهِ هُـزُواً وَاذْكُـرُوا نِعْمَتَ اللـهِ عَلَيْكُمْ وَما أَنْــزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتــابِ وَالْحِكْمَــةِ يَعِظُكُمْ بِــهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (231) وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّسـاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُـلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَـوْا بَيْنَهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ ذلِـكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ

---

231 [أجلهن] الأجل آخر المدة.

[المعــروف] المــراد به هنا الحق الــذي يــدعو إليه العقل أو الشــرع للمعرفة بصـــحته خلاف المنكر الـــذي يزجر عنه العقل ، أو الســـمع لاستحالة المعرفة بصحته ، فما يجوز المعرفة بصـحته معـروف ، وما لا يجوز المعرفة بصحته منكر.

232 [تعضـــلوهن] العضل الحبس وقيل هو مـــأخوذ من المنع وقيل هو مأخوذ من الضيق والشدة والأمر المعضل بصـعوبته وعضـلت الناقة إذا احتبس ولـدها في بطنهـا. وتقـول عضل المـرأة يعضـلها إذا منعها من التزويج ظلما ويقال للداء الذي أعيا الأطباء علاجه داء عضال.

مِنْكُمْ يُــؤْمِنُ بِاللـــهِ وَالْيَــوْمِ الْآخِــرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُون (232)

واجبات العلاقة الزوجية

هدى من الآيات :

يــبين القــرآن هنا مجموعة من الحـــدود في العلاقة الزوجية ، والتي هي طائفة من حقوق المرأة في الاســرة ، تستعرضــها هـــذه الآيـــات من زاوية الطلاق. لان حالة الطلاق ، تعتــبر قمة النشــاز في العلاقة العائلية ، والــتي تتعــرض حينها الحقــوق للضــياع. فالحــديث عنها يعــني الحديث عن الالتزام بالحقوق في الحالات العادية.

المســلم المتقي : هو الــذي يلــتزم بحقــوق النــاس ، ابتـداء من عائلته ، ثم ليس في الحـالات العادية فحسب ، وانما في الأوقات الصعبة أيضا كالطلاق.

في البدء يذكر القــرآن : جانبا من احكـام الإيلاء حيث يحلف الــــزوج الا يباشر زوجته ، فعليه ان يكفر عن حلفه ويباشرها أو يطلقها. وهــذه حالة يــدخل فيها الحلف طرفا في الحقــوق الزوجية ، وذكــرت هنا بمناســبة الحــديث عن الأيمــان الباطلــة. باعتبــار الإيلاء مثلا لاســتغلال اليمين في الإضرار بالآخرين.

ثم يستعرض احكام الطلاق ، حيث يجب على المــرأة أن تعتد حــتى يستكشف ما في رحمها من حمــل. وخلال فترة العدة ، يجوز للزوج ان يرجع إليها.

ولا يجـــوز ان تســـتمر عملية الطلاق ثم العـــودة الا مرتين ، ففي الثالثة لا بد لهم من الاختيــار النهــائي ، فـان استطاعا الالتزام بالواجبات الزوجيّة فليبقيا على العلاقة ، والا فتسريح بإحسان.

وفي الطلقة الثالثة لا تحل له الا بعد ان تــــتزوج من غيره ، وبعد العدة لا يجوز الإمساك بالمطلقة ، لأنها حــرة كما لا يجوز له ان يمنعها من الزواج بمن شاءت.

وبمناســبة الحــديث عن الطلاق ، يــأتي الحــديث عن الرضــاع باعتبــاره موضع تفــاهم بين الــزوجين ، ثم يعــود الحديث الى حقوق الزوج المتــوفى عن زوجتــه. فعليها ان تبقى في حداد أربعة أشهر وعشرا.

وبعدئذ يواصل القـــرآن الحـــديث عن المطلقـــات ، ويحـــذّر من ان يصــبحن اداة لمتعة أهل الشــيطان ، بل السبيل الوحيد لهن الزواج من رجال آخرين.

ومن حقــوق المطلقــات أيضا المهــر. حيث يجب ان يدفع كله ، بالرغم من الطلاق.

الا في حالة واحـــدة هي الطلاق قبل الـــدخول حيث يدفع نصف المهر.

ومن الطلاق ينتقل القـــرآن الى الالـــتزام بالصـــلاة. خصوصا الوسطى لكي لا ننسى ربنا. فهو الذي يبارك تلك العلاقـــات ويحل المشـــاكل ، ويعطينا ايمانا نقـــاوم به مغريات الشيطان وسلبيات أنفسنا.

وبعد ان يــذكر بعض الحقــوق المســتحبة للنســاء ، كالوصــية لهن بالبقــاء في الــبيت بعد وفــاة الــزوج ، أو الإحسان إليهن بعد الطلاق ، بعدئذ ينتهي الدرس.

ان أسلوب عرض القـرآن لحقـوق المـرأة هنا يختلف عن أسلوبه في السور الاخرى.

لأنه هنا يبيّن لنا : ضرورة الالـتزام التـام بحـدود الله ، وفي الأوقـات الحرجة ، حيث يكـاد الشـيطان يتغلب على ارادة الإنسان. ولهذا تجد القرآن يذكرنا هنا بـالتقوى مـرة بعد اخرى ، ويطالبنا بتذكر الله وتذكر انه عليم بعباده وإنّه بصـير خبـير. وعلينا ان نحـذره حـذرا شـديدا ، كل ذلك ليكرس روح التقـوى ـ في نفوسـنا. تلك الـروح الـتي هي واحدة من أهم ميزات الشخصية المؤمنة.

بينات من الآيات :

التقوى في العلاقة الزوجية :

[226] لا يجـوز ان يضر الـزوج بزوجته ، فيجعلها في بيته دون ان يـــؤدي إليها حقوقها ، والـــتي منها حقها في المتعة الجنســـية. بل عليه ان يباشـــرها لا أقل مـــرة كل اربعة أشـــهر. فـــاذا حلف يمينا ان يمتنع عن المباشـــرة الجنســـية ، لســـبب أو آخر ، فانه يمنح له فرصة اربعة أشهر. بعـدها يجب عليه : اما العـودة إليها وكفـارة حلفه ، واما طلاقها. جاء في الحديث المأثور عن الباقر والصـادق عليهما الســلام انهما قــالا : «إذ الى الرجل ، لا يقــرب امرأته ، فليس لها قول ولا حق في الأربعة أشهر ، ولا إثم عليه في الكف عنها في الأربعة أشهر ، فان مضت الاربعة أشـهر قبل ان يمسـها فما سـكتت ورضـيت فهو في حل وسعة ، فان رفعت أمرها قيل له : أما ان تفيء فتمسّها ، وأمّا ان تطلق ، وعزم الطلاق ان يخلي عنها» [1]

(**لِلَّذِينَ يُؤْلُـونَ مِنْ نِسـائِهِمْ تَـرَبُّصُ أَرْبَعَـةِ أَشْـهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَـإِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ**) بـالرغم من ان نقض اليمين حرام. الا ان هذا اليمين مرتبط بحقوق الناس.

(1) نور الثقلين ج 1 ص 220

والله يغفر نقضه ، للنية الصالحة وراء هذا النقض.

[227] (**وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ**)

فعليهم الالتزام بحقوق الزوجة وتقوى الله فيها.

(**فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)

[228] بعد الطلاق الــذي يقع بســبب أو أخر ، يجب على المـرأة ان تعتد ولا تـتزوج خلال فـترة تتحـدد بعادتها بثلاثة قروء والسؤال ما هي القروء الثلاثة؟ جـاء في بعض كتب اللغة .. أن هنا فرقا بين (القــرء) بفتح القــاف. فهو للحيض و (القـــرء) بضم القـــاف فهو للطهر ، وأنّ جمع الاول يـأتي على (أقــراء) ، بينما يـأتي جمع الثـاني على (قروء).

وهكذا تكـون الآية دالة على أنه تكفي حيضـتان وثلاثة مـرات طهـر. فـاذا دخلت في الحيضة الثالثة بـانت. وعلى ذلك افتى المشهور كما جاء في حديث شـريف عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام «**إن عليا كـان يقـول : انما القرء : الطهر ، فيقرر فيه الدم فتجمعه ، فاذا جـاء الحيض قذفته ، قلت رجل طلّق امرأته من غـــــير جمـاع بشـهادة عـدلين ، قـال إذا دخلت في الحيضة الثالثة انقضت عدتها وحلت للأزواج ، قلت : ان أهل العراق يروون ان عليا (ع) يقـول : انه أحق برجعتها ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة ، فقال : كذبوا**» [1]

وهكــذا إذا حاضت المطلقة ثم طهـرت ، حـتى ثلاث مــرات فقد خــرجت من العــدة وإذا لم تحض تنتظر ثلاثة أشهر ، تخرج بعدها من العدة ، وتصبح حرة في التصــرف في

---

(1) البرهان ج 1 ص 219

نفسها.

ان العـدة حق من حقـوق الـزوج على الزوجة كما هو حكم من احكام الله. ذلك انه في هذه الفترة يراجع الزوج نفسه وقد يعـــــود إليها ، وحكم من الله ، إذ انها تحافظ على مـاء الرجل عن الاختلاط بمـاء غـيره ، وبالتـالي تمنع ضـــياع نسب الإفـــراد. وظهـــور طبقة من الشـــذاذ في المجتمع.

(**وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**)

ينتظـــرن فـــترة ثلاثة مـــرات تـــذهب عنهن عـــادتهن الشـــهرية (الحيض). فـــاذا ظهر خلال الفـــترة اثـــار الحمل فعليهن إظهاره.

(**وَلا يَحِـــلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَـــقَ اللـــهُ فِي أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُـولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً**)

ففي هذا الوقت ، وقت العـدة ، يحق للـزوج الرجـوع بشرط ان يكون رجوعه الى الزوجة بعد تصميم على بنـاء حياة زوجية عادلة.

(**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**)

وليس من الصـــحيح تحميل الزوجة واجبـــات دون ان تعطى لها حقوق ، مثلا ، حين يفرض عليها واجب الـتربص والانتظار ، يعطي لها حق النفقة خلال الفترة والواقع : أن هـذا قـانون انسـاني عـام حيث يجب ان تربط الحقـوق بالمسؤولية في اي تشريع.

(**وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**)

إذ جعل الرجل هو الحـاكم في محيط الاسـرة. وبيـده الطلاق ، وعليه النفقة ، وله

الطاعة.

(**وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)

عزيز في قدرته على الرجـــال والنســـاء. حكيم في تشريع الواجبات والزام الناس بها.

[229] الطلاق ، لا يتكـــــرر الى ما لا نهاية ، ذلك ان تكرار الطلاق يجعل الزوج في وضع الحاكم المطلق الذي لا تتحدد تصـرفاته. انما يمكنه ان يطلق فقط ثلاث مـرات حيث تحرم عليه المرأة الا بعد ان تتزوج برجل.

(**الطَّلاقُ مَرَّتانِ**)

وبعدهما على الزوج ان يختار أحد الأمرين.

(**فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ**)

وزواج صالح ومعاشرة معروفة.

(**أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ**)

أو إنهــاء العلاقة الزوجية للأخــير ، واعطاءها حقوقها واضافة الإحسان الى الحقوق.

وعند الطلاق يبقى المهر عند المـــرأة ولا يحل للرجل ان يسترجع المهر الا في حالة واحدة هي : تنـازل المـرأة عن مهرها في مقابل قبول الرجل بطلاقها. إذا هي أرادت الطلاق. وبـالطبع في هـذه الحالة يجب ان يتـدخل النـاس ليعرفوا ما إذا كـان طلب الطلاق من قبل الزوجة مسـتند الى تضييع الزوج لحقوق الزوجية. وعدم رعاية حدود

الله فيها ، أم نابع من شهوة أو غضبة عابرة.

(**وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً**)

من المهر.

(**إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللهِ**)

حيث وصـــــلت العلاقة الزوجية مرحلة بعيــــــدة من الحساســـية ، بحيث يصـــعب معها الالـــتزام بـــالحقوق المتقابلة.

(**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**)

واعطت من مهرها ، ثمنا لطلاقها.

(**تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوها وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**)

الظالمون لأنفسهم وللمجتمع من حولهم ذلك ان هذه الحدود وضعت ضمانا للعدالة الاجتماعية ، ورعاية لحقـوق الجميع ، ومن يجاوزها فهو الظالم الآثم.

[230] وبعد الطلاق الثالث ، تحرم على الـزوج حـتى تتزوج من رجل آخر زواجا دائما ، ويباشرها الزوج ، ثم ان طلقها تحل للزوج الاول.

(**فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْـرَهُ فَـإِنْ طَلَّقَها فَلا جُنـاحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللهِ**)

فلا يجوز العودة إليها ، للإضــرار بها ، بل لكي يؤسسا ، فعلا ، حياة عائلية متينة

(**وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**)

اي للعلماء الذين يتفهمون الحقائق ، ويعرفـون مـدى اهمية العلاقة الزوجية ، ومـدى ما تحتـاج هـذه العلاقة الى الضــبط والتحديد ، لان انــدفاع شــهوة الجنس من جهة ، ونزغ النزاعات والسـلبيات من جهة اخـرى تجعلان العلاقة الجنسية مهتزة. وبالتالي تهددان البناء الاسـري بـالزوال ، ولذلك بيّن الله حدودا حاسـمة لهـذه العلاقة حـتى يحافظ من جهة على اسـتقامة شــهوة الجنس ، وعــدم انحرافها في متاهــات بعيــدة ، ومن جهة ثانية يقلل من الســلبيات ويحسم النزاعات.

ان المجتمع الصناعي اليوم يعـاني من اهـتزاز العلاقة الجنسية. ويعـاني لـذلك من الكثـير من السـلبيات الناتجة عن انعدام الاسـرة ومنها انعـدام التكامل الخلقي وتـراكم العقد واشاعة الأمراض الخطيرة.

[231] بعد العدة تصبح المرأة حرة ، وعلى الزوج ان يفكر مليا فيما إذا يريد زوجته أم لا. فــاذا أرادها فعليه ان يراجعها قبل انتهاء الفترة الممنوحة له. والا فليس له حق في منعها من التصرف في شؤونها لأنها أصبحت حرة.

(**وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّسـاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِـكُوهُنَّ بِمَعْــرُوفٍ أَوْ سَــرِّحُوهُنَّ بِمَعْــرُوفٍ وَلا تُمْسِــكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا**)

لتضروا بهن ، وتمنعوهن من الزواج بغيركم ، لان ذلك عدوان وظلم.

(**وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**)

ذلك ان حـدود الله الـتي تحافظ على حقـوق النـاس هي في مصـلحة الجميـع. فـاذا تجاوزها شـخص واعتـدى على حقوق الآخرين ، فقد يأتي شـخص آخر ويعتـدى على حقوقه هـو. وهكـذا تعم الفوضـى. من هنا وقبل ان يفكر الواحد في ظلم النـــاس ، لا بد ان يجعل هـــذا الظلم في الإطار الاجتماعي العام ويحلل الموقف. هل يريد ان يعود

للمجتمع الظلم والفوضى و. و. أم لا. إذا أحب ذلك فليقـدم ، ولينتظر النتـائج السـيئة. من هنا يـذكر القـرآن هؤلاء الظالمين بنعمة الرسالة ويقول :

(**وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللهِ هُـزُواً وَاذْكُـرُوا نِعْمَتَ اللـهِ عَلَيْكُمْ وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتـابِ وَالْحِكْمَـةِ يَعِظُكُمْ بِهِ**)

فهل تحبون العودة الى حياة الجاهلية ، حيث لا كتـاب فيه دسـتور حيـاتكم ، ولا حكمة تشـرح تفاصـيل سـلوككم ..؟

(**وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)

هذه الفكرة هي ـ في الواقع ـ ضمانة تنفيذ حدود الله المبينة في الآيات السابقة ، وهي جوهر آيات هذا السـياق ، الذي يتحدث لنا عن التقوى في مظاهرها المختلفة.

[232] هل تستطيع الزوجة ان تعود الى زوجها الاول بعد انقضاء فترة العدة؟ بالطبع يجـوز لها إذا اختـارت ذلك ، ودون ان يتمكن زوجها من جبرها على ذلك. الا ان هناك بعض الأقـــــارب (أبوها أو إخوتها أو أو.) قد يمنعونها من ذلك. وهم ظالمون.

(**وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّســـــــــاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ**)

ولا تؤذوهن.

(**أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَـــــــــوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ**)

وذلك بعقد جديد ، يحتــــاج الى تــــراض منهما معا ، وليس من الزوج وحده ، ويكون بذلك معروفا.

(**ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَأَطْهَرُ**)

حيث انكم لو منعتم المطلقة من زوجها فقد لا يخطبها أحد ، أو قد تســـقط في مهـــاوي الرذيلـــة. أو قد تربطها علاقة غير طبيعية مع زوجها الاول.

(**وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**)

لا تعلمـــون إضـــرار الكبت الجنسي حيث يـــؤدي الى انفجار خطير.

وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كـاملَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضـــاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُـــودِ لَـــهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْـوَتُهُنَّ بِـالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْـعَها لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشـاوُرٍ فَلا جُنـاحَ عَلَيْهِما وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِـعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنـــاحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَـــلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِـــالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233)

233 [حـولين] الحـول السـنة مـأخوذة من الانقلاب في قولك حـال الشـيء عما كـان عليه يحـول ومنه الاسـتحالة في الكلام لانقلابه عن الصواب وقيل أخذ من الانتقال في قولك تحوّل.
[تكلف] التكليف الإلزام الشاق وأصـله عن الكلف وهو ظهـور الأثر لأنه يلزمه ما يظهر فيه أثره.
[وسعها] الوسع الطاقة مأخوذ من سعة المسلك الى الطلب.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَـــذَرُونَ أَزْواجـــاً يَتَرَبَّصْـــنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَـإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنــاحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِــهِنَّ بِــالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِـيرٌ (234) وَلا جُنـاحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِــكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلكِنْ لا تُواعِـدُوهُنَّ سِـرًّا إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلا تَعْزِمُوا عُقْـدَةَ النِّكـاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللـهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا

---

235 [عرضتم] التعريض ضد التصريح وهو أن تضــمن الكلام دلالة على ما تريد وأصله من العرض من الشيء الذي هو جانبه وناحية منه.

[خطبـه] الخطبة الـذكر الـذي يسـتدعي به الى عقـدة النكـاح أخذ من الخطـــاب وهو توجيه الكلام للافصـــام والخطبة الوعظ المتسق على ضرب من التأليف.

[أكننتم] الأكنان الستر للشـيء والكنّ السـتر أيضا والفـرق بين الأكنـان والكنّ أن الأكنان الإضـمار في النفس ولا يقـال كننته في نفسي والكنّ في معنى الصون وفي التنزيل «**بَيْضٌ مَكْنُونٌ**».

أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235) لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236) وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237) حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ (238) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ

---

238 [حافظوا] الحفظ ضبط الشيء في النفس ثم يشبه به ضبطه والمنع من الذهاب والحفظ خلاف النسيان والحفيظة الحمية والحفاظ المحافظة.

[قانتين] أصل القنوت الدوام على أمر واحد وقيل أصله الطاعة وقيل أصله الدعاء في حال القيام.

239 [رجالا] جمع راجل وهو الكائن على رجله واقفا كان أو ماشيا.

[ركبانا] جمع راكب وكل شيء علا شيئا فقد ركبه.

فَـاذْكُرُوا اللـهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُـوا تَعْلَمُـونَ (
239) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَـذَرُونَ أَزْواجـاً وَصِـيَّةً
لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْـراجٍ فَـإِنْ خَـرَجْنَ
فَلا جُنـــاحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِــــهِنَّ مِنْ
مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ (240) وَلِلْمُطَلَّقـاتِ مَتـاعٌ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241) كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ
لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242)

التقوى في إدارة البيت

هدى من الآيات :

وبمناسبة الحديث عن الطلاق يبين الله حكم الرضاعة ، إذ كثيرا ما يشملها الخلاف العائلي ، فهل على الزوجة ان ترضع وليدها نعم ، بمثل ما يجب على الزوج ان ينفق على الزوجة وعلى وليدهما ، بيد ان حدود الرضاع ومقدار الإنفاق تتحدد بقدر المكنة والاستطاعة ، إذ ان الله لا يكلف الناس أكثر من طاقاتهم.

وعلى الزوجين ان يتشاورا في شؤون البيت وبالأخص في شؤون وليدهما ، ويتخذا القرار المناسب في إنهاء فترة الرضاعة ، كما ان بإمكان الزوج ، آنئذ ، ان يستأجر من النساء من ترضع ابنه ، بشرط ان يدفع أجورها كاملة.

بينات من الآيات :

[233] (**وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ**)

فهذه هي فترة الرضـاعة الفطرية الـتي يحتـاج الوليد خلالها الى لبن الام الـذي هو أفضل غـذاء للولد ، خصوصا في أيامه الاولى. ولا ينبغي للام ان تتهرب من واجبها كـأم وتخـاطر بمصـير ولـدها لاسـباب كمالية تافهـة. إذ يعتمد مسـتقبل ولـدها على هـذا اللبن وقد ثبت علميا ان كثـيرا من الضـعف والمـرض في الأولاد ، يـأتي نتيجة عـدم الرضاعة من لبن الام.

(**وَعَلَى الْمَوْلُـودِ لَـهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْـوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**)

فالأب الذي ولدت الام وليـدها له وفي صـالحه ، عليه الا يبخل بالنفقة ، حسب المعـروف ووفقا لمسـتوى معيشتهما الاجتماعية.

(**لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها لا تُضَارَّ والِـدَةٌ بِوَلَـدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ**)

لا يجوز ان يستخف بعاطفة الأبوين فيلحق بهما ضـرر عبر الولد. كان يمنعا من زيارتهما أو يمنع الرجل زوجته أو العكس من لـذة الجنس رعاية لحق الولـد. جـاء في الحديث المأثور عن الصادق (ع) ـ في تفسـير الآية ـ في قوله تعالى : «**لا تُضَارَّ والِـدَةٌ**» قـال (ع) «كـانت المـرأة ممن ترفع يـدها الى الرجل ، إذا أراد مجامعتها ، فتقـول : لا أدعك ، أني أخاف ان أحمل على ولدي ، ويقـول الرجل للمـرأة : لا أجامعك أني أخـاف ان تعلقي فأقتل ولـدي فنص الله ان يضار الرجل المرأة والمرأة الرجل» [1]

يظهر من النص الثاني ان معنى ذلك : عدم جواز منع الأب من زيارة ولده أو العكس إذا كان عنده.

(1) الميزان الجزء الثاني ص 251.

الحديث مأثور عن الامـام الصـادق عليه السـلام : «لا ينبغي للـوارث ــ أيضا ــ ان يضّـار المـرأة فيقـول : لا ادع ولدها يأتيها ، ويضار ولـدها ان كـان لهم عنـده شـيء ، ولا ينبغي أن يقتر عليه» [2]

(**وَعَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ**)

الإنفاق على العائلة.

(**فَإِنْ أَرادا فِصالاً**)

لابنهما عن الرضاعة فلا بد ان يكون ذلك :

(**عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ**)

شانه شأن سائر أمور الـبيت ولكن بشـرط الا يسـبب ذلك في تضييع حقوق الأم التي أرضـعت ولـدها ، بل على الأب أن ينفق عليها بقـــدر ما أرضـــعت ثم يعطي الولد للمرضعة.

(**فَلا جُنـــاحَ عَلَيْهِما وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِـــعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنــــاحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَـــــلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللـهَ بِما تَعْمَلُـونَ بَصِيرٌ**)

انها التقـــوى. وانه الالـــتزام بحـــدود الله في قضـــايا الإنســان الاجتماعيــة. ينقذ الإنســان من مخــاطر الفوضى واللامسؤولية.

حق الزوج بعد الوفاة :

[234] التسلسل الطبيعي لسـياق الطلاق والرضـاعة والعدة ، يؤدي بنا الى

(2) الميزان ج 2 ص 256.

الحديث عن التزام المرأة بالحداد على زوجها بعد الوفاة ، كحق مفـروض من حقوقه عليهـا. من جهة وعـدة تعتـدها منه من جهة ثانية.

(**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَـذَرُونَ أَزْواجـاً يَتَرَبَّصْـنَ بِأَنْفُسِـهِنَّ أَرْبَعَـةَ أَشْـهُرٍ وَعَشْـراً فَـإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَ**)

فهن حرائر في التصـرف بأنفسـهن ، ويسـتطعن الـزواج ممن شـئن دون تـدخل الآخـرين في حـريتهن. اللهم الا بقصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي العام بين المسلمين ، لذلك كرر القـرآن هنا وفي آيـات سـابقة كلمة بالمعروف وقال هنا :

(**فَلا جُنـــاحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِـــهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**)

للدلالة على انهن هن المسـؤولات عن تصـرفهن في اطار القيم العامة للمجتمع ، والتي تسمي ب (المعـروف) في لغة القـرآن ، اي القيم الرسـالية الـتي تعـارف عليها المجتمع ، اما لو تعـدين المعـروف الى المنكر ، فالكل مسـئول عنهن وعن تصـرفهن ، وعليهم ردعهن عن المنكر.

(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**)

يعلم تعـديكم على حقـوقهن ، كما يعلم اهتمـامكم بتـوجيههن الى المعـروف ، وإذا لا تـبرروا تـدخلاتكم غـير المشروعة في تصرفاتهن بغطـاء الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر.

كيف تختار زوجتك :

[235] الشهوة الجنسـية لا بد ان تجد لها سـبيلا نافعا للمجتمع والا فهي تضر ولا

تنفع والسبيل الصالح هو الـزواج ، والـزواج يبـدأ بالاختيـار وفي عملية الاختيــار يتــدخل الشــيطان ســلبيا. ويـــدعو الطـرفين الى الفاحشة ، وعلى المســلم ان بصـبر ويتقي ربه في هذا الوقت الحرج ، ولا يخرج من حدود الشريعة ، بل يجعل لقـاءه بأنثـاه تمهيـدا للـزواج بها ، وبنـاء الاسـرة الفاضلة. ومناسبة الحـديث عن الخطبة هنا ، هي الحـديث عن المطلقــــات اللاتي يبحثن عن الأزواج بطريقة أكـــثر شـجاعة من الفتيـات الأبكـار ، حيث ان الأخـيرات يغلّف شهوتهن الجنسية ، لباس الحياء والكبرياء.

(**وَلا جُنـاحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْـتُمْ بِـهِ مِنْ خِطْبَـةِ النِّساءِ**)

اي في الدعوة المبطنة لهن بالزواج ، كأن يقول لها : داري واسـعة ، أو انا محتـاج الى زوجـه. أو سـوف أجـدد أثاث بيتي .. وهكذا ..

(**أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ**)

وجعلتم الزواج مجرد مشروع تفكرون في تطبيقه.

(**عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا**)

لان الشيطان قد يـدخل بين الرجل والمـرأة إذا اختليا ببعضهما.

(**إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً**)

هو التفكر في الزواج ذاته وليس أشياء اخرى.

(**وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ**)

وينتهي موعد العدة.

(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ**)

فلا تعتـــدوا على حـــدود الله في خطبة النســـاء. ولا تستعجلوا في إنشاء علاقة جنسية ، ثم تفكروا في الزواج ، ولكن لو فعلتم شيئا من ذلك ، فلا تيأسوا من روح الله ، وعودوا الى رشدكم وتوبوا الى الله.

(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**)

[236] وإذا تزوجتم بواحدة من المطلقات أو غـيرهن ولكن قبل ان تباشروهن ، تبدل الرأي بسبب من الأسباب ، فمن الممكن الـتراجع عن تكميل الـزواج بعد دفع جـزء من المهر. ولكن لو لم تحـددوا المهر سـلفا ، فعليكم دفع مقدار من المال يتناسب مع مقدوركم الاقتصادي. فالغني يدفع بقدره والفقير بقدره.

(**لا جُنـــــاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّســـــــاءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ**)

متعة تقدر حسب وضع الزوج غنى وفقرا ف ..

(**عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِـرِ قَـدَرُهُ مَتاعـاً بِالْمَعْرُوفِ**)

ولا يكــون هـذا المتـاع بهـدف غـير شـريف ومقدمة للمنكر.

(**حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ**)

ويعتــبر هـذا المتـاع ، في الواقع ، نوعا من الإحسـان الـواجب ، إذ لم يحصل الـزوج على ما يقابله من المتعة ، ولكنه قد يمكن ان يســبب للزوجة نوعا من الأذى باقدامه عليها وتراجعه عنها.

ان تحديد مقـــدار المهر في هـــذه الحالة يعـــود الى العرف العام حسب ظروف كل منطقـة. جـاء في حـديث مـــأثور عن الصــــادق (ع) في رجل طلق امرأته قبل ان يدخل

بهـا؟ ، «**قـال عليه نصف المهر ان كـان فـرض لها شيئا ، وان لم يكن فـرض لها فليمتعها على نحو ما يمتع مثلها من النساء**» [3]

[237] تلك كـانت إذا لم تحـدد فريضة المهـر. اما إذا حددت وطلقها الزوج قبل المباشرة ، فـان عليه ان يـدفع نصف المهر.

(**وَإِنْ طَلَّقْتُمُـوهُنَّ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَمَسُّـوهُنَّ وَقَـدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً**)

معينة من المهر.

(**فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ**)

ان تعفي النساء عن نصف الفريضة.

(**أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ**)

أولياؤهن الذين يمكنهم إنشاء عقد النكاح.

(**وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى**)

ذلك ان الزوج لم يستطع ان ينتفع شيئا بزوجته.

(**وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**)

اي لا تنسوا انكم ذوي علاقة بينكم وعليكم المحافظة عليها وعـدم قطعها بسـبب سـوء المعاملة ذلك ان هنـاك مجالات تنفع الأطراف في المستقبل.

---

(3) الميزان ص 258.

(**إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)
وســوف يجــازيكم بالحســنات ، لو تحــاببتم وأحسن بعضكم الى البعض الآخر.
المجتمع الاســلامي يجب ان يكــون متينا الى درجة لا تــؤثر فيه الســلبيات الطارئــة. فحــتى الخلافــات يجب ان تسوي بطريقة تخلف وراءها امكانات لانشاء وفــاق أفضل ربما في ميادين اخرى.
ان المســـــــــلم يجب ان يتفضل على اخوته ، ولا ينتظرهم يتفضلون عليه.
[238] ان العلاقة بين المســـلم والمســـلم يجب ان يباركها الله ، حيث ان المســـلم أخ المســـلم في الله ، وكلما ضعفت هذه العلاقة بسـبب الخلافـات الطارئة يجب ان تعالج عن طريق زخم ايماني جديد. يمتن اخوّة الايمان بين المؤمنين.
لـــذلك يوصي الله هنا وفي زحمة الخلافـــات العائلية بـالعودة الى الصـلاة باعتبارها وسـيلة التقـرب الى اللــه. ويقول :

وقوموا لله قانتين :

(**حــافِظُوا عَلَى الصَّــلَواتِ وَالصَّــلاةِ الْوُسْــطى وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ**)
يبــدو ان الصــلاة الوســطى هي الظهر ، حين يتوغل المـرء في شـؤون الـدنيا ، فالمحافظة على الصـلاة فيه ، يعطي المسلم مناعة من التأثر بسلبيات الدنيا.
[239] والمحافظة على الصـــلوات لا تختص بأيـــام الســـلم بل حـــتى في الحـــرب يجب الاهتمـــام بها إذ انها تعطينا روحا جديدة تساعدنا على القتال وعلى الانتصار :
(**فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً**)

في حالة المشي إذا كنتم مشاة الجيش ، أو في حالة الركوب ، وفي هذه الحالة عليكم أداء الصـلاة بـاي شـكل ممكن ، ولكن بعـــدها يجب الاهتمـــام بشـــرائط الصـــلاة بالكامل.

(**فَــإِذا أَمِنْتُمْ فَــاذْكُرُوا اللـــهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**)

اذكروا الله وتـذكروا نعمة الهداية الى الـدين الجديـد. حيث أنقذكم من الضلالة ان تذكركم له ضـمان للمحافظة عليه. والتمسك الشديد به.

[240] بعد ان أمرنا القـرآن بالمحافظة على الصـلاة في كل حـال وخصوصا في حـال اشـتداد الخـوف ، لكي يزودنا بالتقوى في مسيرة الحيـاة الصـعبة ، بعد ذاك عـاد ليبين لنا بعضا من احكام الزواج المستحبة ، وأبرزها اثنان : ان يوصي الزوج ببقاء زوجته في بيته بعد وفاته الى عام ، دون ان يجبرها الورثة على الخـــروج منـــه. وثانيا : ان يحافظ المـــرء على علاقته الانســـانية بزوجته المطلقة ، فيتعهدها بالإحسـان بـالرغم من انتهـاء علاقتهما الزوجيـة. فقال عن الموضوع الاول :

(**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَــذَرُونَ أَزْواجــاً وَصِــيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ**)

اي يوصي بـان تبقى الزوجة تتمتع بالنفقة وبالسـكنى الى عام. وإذا وصى الزوج ذلك ، فانه لا يعـني ان يفـرض على الزوجة البقاء في البيت ، بل ان يكـون لها الحق في ذلك فقط.

(**فَـإِنْ خَـرَجْنَ فَلا جُنـاحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ**)

فهي حرة. بعد انقضاء عدة الوفاة فيما تفعل لنفسـها تستطيع ان تتزوج ، أو ان تعمل أو تسافر أو ما أشبه.

(**وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)

يهيمن على اعمال عباده ، بعزته ، ويقـدر لهم الجـزاء المناسب بحكمته ، وهذه الزوجة المتـوفي عنها زوجها ، لا تسـتطيع ان تخـرج من عـزة الله وحكمته ان خـرجت من بيت زوجها لتفعل المنكر ، ولـــذلك ليس من الصـــحيح : حجزها في البيت ، لان الله يكفيها .. فهو العزيز الحكيم.

[241] وعن موضـوع اسـتمرار العلاقة الانسـانية مع المطلقات بالرغم من انتهاء الروابط الزوجية يقول ربنا :

(**وَلِلْمُطَلَّقَـــــاتِ مَتـــــاعٌ بِـــــالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**)

هـــذا فيما إذا انتهت فـــترة العـــدة. اما خلالها فانها كالزوجة ما يجب عليها الإنفاق بالكامل.

[242] وبانتهـاء بيـان القـرآن لحـدود العلاقة الزوجية الـتي يجب الالـتزام بها ، وتقـوى الله فيهـا. بـذلك ينتهي فصل من فصـول التربية الاسـلامية للشخصـية المسـلمة وبيان لمكوناتها الرئيسية. وفي الختام يذكرنا القـرآن بـان التقوى بدورها نتيجة لنمو العقل في المسلم ، إذ ان آيات الله في القرآن تسـتثير العقل ، وتحـرك طاقة التفكر في الإنســـان المســـلم ، فيتوجه المـــرء الى ربه ، ويتقيه ، وبالتـالي يلـتزم بحـدود الشـريعة في كافة جـوانب حياته ، لذلك قال الله :

(**كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (243) وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً

---

243 [ألم تر] الرؤية هنا بمعنى العلم وأ لم تر ألم تعلم.

245 [يقرض] القرض هو قطع جزء من المال بلا عطاء على أن يرد بعينه أو يرد مثله بدلا منه وأصل القرض القطع بالناب يقال قرض الشيء يقرض إذا قطعه بنابه وأقرض فلانا إذا أعطاه ما يتجازاه منه. والاسم منه القرض.

[يضاعفه] التضعيف والمضاعفة بمعنى الزيادة على أصل الشيء حتى يصير مثلين أو أكثر.

كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245) أَلَمْ تَــرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْــرائِيلَ مِنْ بَعْــدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللــهِ قالَ هَلْ عَسَــيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتــالُ أَلاَّ تُقَــاتِلُوا قالُوا وَما لَنا أَلاَّ نُقاتِلَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَقَـدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتــالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقــالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَـدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكـاً قـالُوا أَنَّى يَكُـونُ لَـهُ الْمُلْـكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَـقُّ بِالْمُلْـكِ مِنْـهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفاهُ

[يقبض] القبض خلاف البسط يقــــال قبضه يقبضه قبضا والقبض ضم الكف على الشيء وقبض الإنسان إذا مات.

246 [الملأ] الجماعة الأشــراف من النــاس. وأصــله الاجتمــاع فيما لا يحتمل المزيد وإنما سمي الأشراف ملأ لأنه لا مزيد على شرفهم وقيل لأن هيبتهم تملأ الصدور.

247 [اصطفاه] أختاره.

عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللـهُ يُـؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللـهُ واسِـعٌ عَلِيمٌ (247) وَقـالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هـارُونَ تَحْمِلُـهُ الْمَلائِكَـةُ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (248) فَلَمَّا فَصَـلَ طـالُوتُ بِـالْجُنُودِ قـالَ إِنَّ اللـهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَـرٍ فَمَنْ شَـرِبَ مِنْـهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَـرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً

[بسطة] فضيلة في الجسم والمال.

248 [التابوت] ما يوضع فيه الميت.

[سـكينة] مـأخوذة من السـكون .. والسـكينة والسـكن واحد وهو زوال الرعب.

249 [فصـل] الفصل القطع وفصل بـالجنود أي سـار بهم وقطعهم عن موضعهم وفصل الصبي فصالا قطعه عن اللبن.

[يطعمه] يقال طعم الماء كما طعم الطعام.

مِنْهُمْ فَلَمَّا جـاوَزَهُ هُـوَ وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَـهُ قـالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجـالُوتَ وَجُنُـودِهِ قـالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِـيرَةً بِـــــإِذْنِ اللـــــــهِ وَاللـــــــهُ مَـــــعَ الصَّـــــابِرِينَ (249)

[جاوزه] المجاوزة من الجواز يقال جاز الشيء يجوزه إذا قطعه.
[فئة] الطائفة من الناس.

الحاكمية الالهية

هدى من الآيات :

بالرغم من ان هذا الفصل يعالج ـ فيما يترائى ظـاهرا ـ موضوعات شتى ، الا أنّ هناك حقيقة واحدة ، تربط بين تلك الموضــوعات ، وانما تعــالج هــذه الحقيقة من خلال معالجة تلك الموضوعات ، وهذا هو منهج القــرآن الحكيم. إنّه لا يعالج الحقائق المجردة بل ضمن تجسداتها الواقعية ، وتوجيهاتها التربوية ، لقد رأينا كيف تحــــدثت الآيــــات السابقة عن التقوى ، انما تحدثت عنها ضمن الحـديث عن مجموعة قضايا ، في الحــرب ، وفي الســلم. في الصــراع الخــارجي مع العــدو ، وفي الصــراع الــداخلي مع النــاس وبصفة خاصة داخل الاسرة.

وهنا يعالج القرآن : موضوع الايمان بان الله هو الـذي يقضي في الحيــاة بحكمه ، فبيــده الأمــور مباشــرة ، وانّه ليس بعيــدا. كما تتصــور اليهــود ، عن مباشــرة ســلطانه الالوهية سبحانه ..

ان لهذه الحقيقة تجسدات واقعية في الموت والحياة ، وفي الغنى والفقر ، وفي الملك

يؤتيه من يشـــاء ، وفي الانتصـــار يهبه لمن يشـــاء ، وفي الرسالة ينزلها على من يشاء ..

وان لهــــذه الحقيقة توجيهـــات تربوية تتجسد في : القتال في سبيل الله من دون خشية المـوت (لان الحيـاة بيد اللـــه) ، والإنفـــاق دون خشـــية من الفقر ، والطاعة للحاكم بإذن الله والالتزام بتوجيهاته ، والايمـان بكل رسل الله ، والإنفاق في سبيل الله ..

وقد ذكّرنا القـرآن بتلك التجسـدات الواقعية ، وهـذه التوجيهـات ، من خلال قصص تاريخية ذات عـبرة وإثـارة. وضمنها التوجيهات التربوية ..

ولكن يبقى سؤال : الم يكن من الأفضل : ان يتحدث القـرآن بشـكل تجريـدي محض ، عن الحقـائق الواقعية ، كما يفعلها مثلا الفلاسفة ، وكتاب علم الكلام الاسلامي؟

الجواب .. كلا .. لان القرآن كتاب حياة وكتاب تزكية ، ولأنه كتــاب حيــاة فهو لا ينقلنا من الحيــاة الى غيــاهب التجريدات الذهنية الـتي لا تمثل الا نفسـها ، ولا تعكس الا خيـالات فارغة أشـبه ما تكـون الى الاشـكال الهندسـية والحسابات الرياضية لا تعني شيئا حقيقيا ، بل يتحدث إلينا عن ظواهر الحياة ظاهرة ظـاهرة منها ما انتهت وتتكـرر ، كالظــــاهرة التاريخية ، ومنها ما هي متلاحقة كالظــــاهرة الطبيعية ، ومنها ما نصـنعها كـالحرب والسـلام .. كل ذلك لتلتصق افكارنا بالواقع الخارجي أكـثر فـأكثر ، ثم يعطينا : رؤية نابعة من حقيقة عامة ، تجـاه هـذه الظـاهرة ، رؤية تاريخية ، رؤية طبيعية ، رؤية في افعــــال الإنســـان. فهو بـــذلك لا يفصـــلنا عن الواقع ، بل يعطينا منظـــارا مكبّـــرا وســـليما ننظر من خلاله الى الحيـــاة ، ذلك المنظـــار هي الرؤية وهي الحقيقة العامة (مثلا حقيقة هيمنة الله على الحياة).

ومن جهة أخرى : لا يريد القرآن ان يشبع قلوبنا بحب الله ، أو افكارنا بالاعتقـاد باللـه. من دون ان يكـون لـذلك الحب ، وهذا الايمان : انعكاس عملي في

حياتنا ، لـذلك فكلّما تحـدث عن ظـاهرة تاريخيـة. وأعطانا فيها رؤية حقيقية ، أضاف إليهما عبرة تربوية. وأمرا بعمل نقوم به .. وسوف تجدون هذا المنهج في الآيات التالية.

بينات من الآيات :

[243] خشية الطاعون ، نزح أهل القرية من قريتهم ، بيد ان الطــاعون لحقهم وأفنــاهم في الصــحراء ، وبعد فترة طويلة مرّ بهم نبي فوجدهم عظاما نخرة ، فدعا ربه ان يحييهم فاستجاب له ربه .. هـذه الواقعة تعكس حقيقة ان الله هو الذي يحي ويميت.

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللـهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**)

يتجسد في الحياة التي وهبها لهم.

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**)

ربهم على انه ينعم عليهم بالحياة. وقد يكـون المـوت أيضا من فضل الله

[244] بينما يجب عليهم : معرفة واهب الحيــاة ، ثم التسارع في تقـديم حيـاتهم له ، لو طلبها منهم ، لأنها منه واليه تعود.

(**وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللـهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ**)

يسمع الأصـوات الظـاهرة ، ويعلم النوايا الباطنة ، فلا تخلطــوا مع الله في قتــالكم عــدوانا أو ريــاء ، بل ليكن قتالكم خالصا لله وفي سبيل الله.

ان القتال في سـبيل الله يجسد الايمـان بـان الله هو واهب الحياة .. والمطلوب من

المـؤمن ان يبلغ ايمانه بهـذه الحقيقة الى هـذا المسـتوى حتى يثبت صدق ايمانه بالله ..

[245] والله واهب ما في الحيـــــــاة من نعم كما هو واهب الحيــاة ذاتها ، فهو الــذي يوسع على من يشــاء ، ويقتر على من يشاء ولكن ليس عبثا ، وانما بمقدار عطاء الفرد في سبيل الله ، وتجارته معه تلك التجارة الـتي دعا الله إليها في كتابه في أكـثر من مناسـبة وهنا يـدعو إليها ويقول :

(**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَـناً فَيُضـاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً**)

وهل هنــاك بنك في العــالم يعطي على المائة ، ثلاث مائة وأكــــــثر ، ولكن الله يفعل ويطلب منا ان ننفق في سبيله حتى يعوّضنا أضعافا.

(**وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ**)

فبيـده الفقر ، إذ يقبض عن الفقـير يد نعمته ، وبيـده الغنى ، حين يبسط على الغني يد رحمته. هذا في الدنيا.

(**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

في الآخرة فيجـازي المعطي في سـبيله اجـرا عظيما ..

هـذه الآية تشـمل تجسـيدا حيا لصـفة هيمنة الله على الحيــاة ، وكما تشــمل توجيها للإنســان انطلاقا من هــذه الحقيقة ، هو العطاء بلا خوف من الفقر والفاقة.

أمروا بالقتال فتولّوا

[246] اخرجــوا من بلادهم ظلما وعــدوانا وطــالبوا نبيّهم ، بان يختـار الله لهم قائـدا يحـاربون أعـداءهم تحت لوائه .. ولكن حين بعث الله لهم قائدا وجدّ الجد ،

نكصـوا على أعقـابهم. انهم مثل لعـدم الايمـان الحقيقي وبالتــالي فصل دين الله عن الحيــاة ، وفصل الــدين عن السياسة ، ورجال الله عن أمور الدنيا ..

ان الــدين الــذي يريــده الله هو دين الحيــاة ، وان الايمان الـذي يطـالب به العبـاد ، هو الايمـان بالله المـدبر للكون ، المطاع بلا شريك في الحياة ، وهذا الايمـان كـان مفقودا عند هذه الطائفة لذلك فشلوا في الامتحان. وقال عنهم ربنا :

(**أَلَمْ تَــرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْــرائِيلَ مِنْ بَعْــدِ مُوسى**)

الذي كان قائدهم المطـاع والـذي انقـذهم الله به من بطش فرعون.

(**إِذْ قــالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكــاً نُقاتِــلْ فِي سَبِيلِ اللهِ**)

ولكن النــبي كـان يعـرف مسـتوى ايمـانهم الضـحل ولذلك

(**قــالَ هَــلْ عَسَــيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتــالُ أَلَّا تُقاتِلُوا قالُوا وَما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَقَـدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا**)

فكيف لا نقاتل هل هذا معقول؟

(**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتــــالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**)

كـان يعـرفهم قبل ان يكتب عليهم القتـال ، ويتولـوا ، ولكنه امتحنهم ليعرفــوا أنفســهم ، وليتم عليهم الحجة ، ولعل الناس يعتبرون بقصتهم.

ان هؤلاء يمثلون فريقا من الناس يؤمنـون بالله ايمانا ظاهرا وسطحيا ، فاذا محصوا بالبلاء كفـروا بالله ، إذ انهم ــ منذ البداية ــ كــانوا يزعمــون : انّ الله محصــور في المســجد وبعض الصــلوات والابتهــالات ، ومن ثمّ ، بعض التعاليم الخلقية ، امّا الله

الـذي يـأمر بالقتـال ، وبطاعة رجـال معيـنين لا يملكـون كفاءة القيادة حسب تصورهم الباطل .. فإنهم يكفرون به ..

[247] وقصة هؤلاء بالتالي ، هي قصة المؤمن الـذي لم يذوّب نفسه كاملا في بوتقة الايمان ، ولم يسلم نفسه للـــــه. ولا تـــــزال رواسب الجاهلية وقيمها تتحكم فيه ، لنستمع الى القصة ونعتبر منها لأنفسنا :

(**وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللـهَ قَـدْ بَعَثَ لَكُمْ طـالُوتَ مَلِكاً**)

فاذا بهم يجن جنـونهم ، لمـاذا طـالوت وليس فلان أو فلان ..

(**قـالُوا أَنَّى يَكُـونُ لَـهُ الْمُلْـكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَـقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ**)

لاننا أكــثر أمــوالا منه ، والملك يجب ان يكـــون غنيا وليس طالوت كذلك.

(**وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ**)

فأجابهم النبي : بان قيادة الحرب لا تحتاج الى مـال ، بل الى كفاءة اخرى موجود في طـالوت ، ولـذلك اختـاره الله.

(**قالَ إِنَّ اللهَ اصْـطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْـطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**)

وهـذه هي كفـاءة القيـادة الحربية ، ان يكـون قـادرا عليها جســـديا وعلميا ، ثم ان اختيـــار الله له تزكية له ، وكافية لثقتكم بأمانته وكفاءته ، ثم ان الله هو إلهكم وبيــده أمــور عبـاده ، وعليكم ان تطيعــوه دون تلكأ .. أو تقاعس.

(**وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**)

قادر وقدرته واسعة ، ورحيم ورحمته واسـعة ، وعليم فهو الملك الحقيقي للعباد ، وهو

يؤتي ملكه لمن يشاء.

[248] بذلك أفحمهم ، ولكنهم تساءلوا وقالوا : من يقول أن الله قد بعث طالوت ملكا؟. هنا بيّن لهم علامة ملكه.

(**وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

لقد كانت السكينة في التابوت بقية تراث الأنبياء وكانت كافية لهؤلاء الناس بالاعتقاد بان طالوت ملكهم ، ولكنهم مع ذلك لم يقاتلوا معه كما يأتي. وكان التابوت ــ كما جاء في التفاسير ــ هو الصندوق الذي وضعت أم موسى ، وليدها ، بأمر الله فيه. وبقي عند فرعون إلى أن ورثت بنو إسرائيل ملك فرعون ، فأخذه موسى ووضع فيه مواريث الأنبياء ، مضافا الى ودائعه. وأورثه وصيّه (يوشع).

وكان التابوت (أو صندوق العهد) يعتبر أكبر من اللواء. والشعار عند بني إسرائيل. وقد استولى عليه الكفار من عبدة الأصنام في ارض فلسطين. وكانوا دائمي الحنين إليه. فلمّا أخبرهم (شموئيل) نبيّهم بان الملائكة سوف تعيد إليهم صندوق العهد استبشروا ، لأنهم علموا انه دليل أنصارهم على أعدائهم.

وتضيف التفاسير : أنّ الكفار ، لم يهنأوا بالصندوق ، إذ توالت عليهم النكبات ، فتطيّروا بالتابوت. واستقر رأيهم ان يعلقوه بين بقرتين ، ثم يهجموا بهما في الصحراء. لتذهبا به انى شاءت الأقدار وكان ذلك الوقت مصادفا لذات الفترة التي انصب الله ــ عبر شموئيل ــ طالوت ملكا على بني إسرائيل ، ووعدهم بان تحمل الملائكة إليهم التابوت. فوّجه الملائكة البقرتين الحاملتين للصندوق باتجاه ديار بني إسرائيل. وهناك أقوال أخرى. في هذه القصة التاريخية إلا ان المهم عندنا عبرة

القصة حيث نتساءل :
: مــاذا ترمز بالنســبة إلينا الســكينة والبقية ، انهما ترمزان الى ضرورة توفر صفتين في القيادة.
1 ـ الثقة بها ، واشاعة الاطمئنان فيمن حولها ، وذلك عن طريق التجــرد للحق ، وعــدم الاستســلام للقــوى الضاغطة ، وعدم تفضيل طائفة من الناس على طائفة.
2 ـ هذه واحدة واخرى الاصالة والارتباط بـتراث الامة الحضـاري والقـدرة على التعامل مع هـذا الـتراث تعـاملا ايجابيا مسـتمرا ، ان تجـارب الامة النضـالية عـبر القـرون أفضل ينبوع يلهم الناس الصبر واليقين والتضحية من أجل القيم الرسالية.
[249] اختـار طـالوت جنـوده ، وتوجه تلقـاء العـدو ، ولكنه كـان محّنكا لم يغـامر بمواجهة العـدّو قبل ان يقـوم بمناورة عسـكرية ، الهـدف منها اختبـار جنـوده ، فمّر في طريقه بنهر عذب وكان جنوده يعانون من عطش شـديد ، فنهـاهم عن ان يشــربوا أكـثر من كف من المــاء فقط ، وكانت المفاجأة : أنّ أكثرهم فشلوا في الاختبار.
(**فَلَمَّا فَصَــلَ طــالُوتُ بِــالْجُنُودِ قــالَ إِنَّ اللــهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَـرٍ فَمَنْ شَـرِبَ مِنْـهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ**)
الماء بمقدار ما تحتويه يده فقط.
(**غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ**)
وهنا امر طالوت الذين لم يصبروا عن العطش قليلا ، بان يعودوا ربما الى احضان أمهـاتهم ، انهم ليسـوا رجـال حــرب ، الحــرب بحاجة الى خشــونة وطاعة ، ولا تنفعها الميوعة والخذلان ، وسـار بعيـدا عن النهر بجيش صـغير ، ولكنه قوي المعنويات نوعا ما.

(**فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ**)

وكان جالوت يمثّل جيش الكفر الذي خـرج الى جنـود طالوت للحـرب ، في جيش ضـخم ، كـثيف العـدد ، ولكن قليل المعنويـات ، وبـالطبع أرهب عــدد الجيش الضــخم ومعداته الكثـــيرة ، المؤمــــنين لأنّهم بشر ، بيد أنّ روح الايمـان اسـعفتهم وذكـرتهم بـالآخرة وبـان الله يـأمرهم بالمقاومة حتى يجزيهم الجنة ، هنالك اطمأنوا بالايمان

(**قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللهِ**)

ويتصورون أنفسـهم امـام الله أبـدا ، ويسـتمدون منه القوة والعزم قالوا :

(**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَـةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِـيرَةً بِـإِذْنِ اللـهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**)

إذ لا يهم عــــدد الجيش بل ايمــــانهم بقضـــيتهم ، وتضحيتهم من أجلها.

وَلَمَّا بَـرَزُوا لِجـالُوتَ وَجُنُـودِهِ قـالُوا رَبَّنا أَفْـرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكـافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَـلَ داوُدُ جـالُوتَ وَآتـاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَـدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللـهَ ذُو فَضْـلٍ عَلَى الْعـالَمِينَ (251) تِلْـكَ آيـاتُ اللـهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252) تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَـهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللـهُ وَرَفَـعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ

250 [برزوا] البروز أصله الظهور ومنه البراز وهي الأرض الفضاء.

وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (253) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254)

254 [خلة] خالص المودة والخليل الخالص المودة من الخلة لتخلل الأسرار بينهما وقيل لأنه يمتنع من الشوب في المودة.

شروط الانتصار على العدو

هدى من الآيات :

للنصر شرطان : الصبر واليقين اما الصــبر فهو تحمل المصــاعب والمكــاره الجســدية والنفســية والتطلع الى المستقبل والتعويض به عن مشاكل الحاضر ، واما اليقين فهو يعطيك الاندفاع والتضـحية والثقة بالمسـتقبل وهـؤلاء جنود طالوت سألوا الله ان يزودهم بالصبر واليقين ـ وفي ذات الوقت كانوا يسـعون من أجل تـوفر هـاتين الصـفتين في أنفســـهم إذ كل دعـــوة الى الله بتحقيق شـــيء لا تسـتجاب لو لم يسـعى المـرء عمليا من أجل تحقيقه وقد جـاء في الحـديث .. يكفي من الـدعاء مع العمل ما يكفي من الملح في الطعام ..

بينات من الآيات :

[250] (**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجـالُوتَ وَجُنُـودِهِ قـالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً**)

اي اشملنا بصبر منك حتى لا نتزعزع باية صعوبة.

(**وَثَبِّتْ أَقْدامَنا**)

اي ارزقنا اليقين حتى تطمئن نفوسـنا وتترسخ خطانا على الاستقامة وهذه وتلك تمهيد للهدف الأكبر وهو النصر الذي سألوه أخيرا وقالوا ..

(**وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ**)

[251] أثمرت دعواتهم وجهودهم ..

(**فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ**)

وان الله إذن لهم فانتصـــروا عليهم إذ ان الصـــبر واليقين كانا من عطاء الايمان بالله والتقرب اليه والـدعاء اليه وبالتالي استجابة الله وكان هناك شاب صـالح مـؤمن بالله برز في المعركة اسمه داود.

(**وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ**)

ولأنه قتل جـــالوت وكـــان صـــالحا فقد التفت حوله الطائفة المؤمنة وتقرب اليه رئيسـهم طـالوت واسـتخلفه عليهم.

(**وَآتاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ**)

وجعله خليفة في الأرض باذنه ملكا نبيا كما تـــــأتي قصصه في مناسـبات اخـرى .. ولكن هنا يريد القـرآن ان يذكرنا بان الملك لله يؤتيه من يشـاء وعلينا ان نطلبه منه كما أن النصر والغنى والحياة منه.

لقد بين القرآن الحكيم في مناسـبات عديـدة فلسـفة الجهاد وابرز اهدافها وبمناسبة الحديث عن داود ذكر هـذه الفلسفة هنا أيضا وقال :

(**وَلَوْ لا دَفْعُ اللـهِ النَّاسَ بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَـدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ**)

حيث يهيء من عبـاده المؤمـنين امة رسـالية تقـوم بالــــدفاع عن مبـــــادئ الله المتمثلة في الحق والعدالة والحرية و.. و.. وتحـارب كل من تسـول له نفسه بـالظلم والجـور والاسـتعباد وتنقذ النـاس منه ان هـذا فضل كبـير على الناس ولو لا هذه الامة إذا لأصبحت الحيـاة البشـرية اسـوأ من حيـاة الغـاب يأكل فيها القـوي الضـعيف ويأكل الضــعيف من هو أضــعف منه ، ويعيش النــاس الخــوف والفقر والحرمان.

وكلما كـانت هــذه الامة أكــثر نشــاطا وايمانا تكــون مبـادئ الله أفضل تطبيقا اما إذا تـراخت الامة عن واجبها (كما نحن في عصرنا) فان الفساد سيعم الأرض.

[252] وكما الحيــاة والغــنى والملك والنصر من الله كـذلك الهـدي منه فهو الــذي يهـدينا الى منهـاج الحيـاة وأســـاليب مكافحة الفقر والوصــــول الى الملك والنصر وذلك عن طريق رسالاته الـتي يختـار لها رجـالا أمنـاء من عباده ويبعثهم أنبياء بها.

(**تِلْـكَ آيـاتُ اللـهِ نَتْلُوها عَلَيْـكَ بِـالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**)

[253] (**تِلْـكَ الرُّسُـلُ فَضَّـلْنا بَعْضَـهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ**)

كما موسى عليه السلام.

(**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ**)

كما إبراهيم اتخذ خليلا وجعل للناس إماما.

(**وَآتَيْنا عِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ الْبَيِّنـاتِ وَأَيَّدْناهُ بِـرُوحِ الْقُدُسِ**)

أيـده بالعصـمة الـتي منعته من اي نـوع من الفحشـاء والمنكر ولقد أيد الله سائر

الأنبيـــــاء بها أيضا بيد ان عيسى كفر فيه بعض النــــاس وزعمــوا انه هو القــدوس بذاته ودون تأييد من الله فنفي ربنا ذلك.

إذا الرسـالة من الله وهي تعطى للأنبيـاء على شـكل متفـاوت حسب كفـاءات الأنبيـاء ومصـالح الله في العبـاد وهنا يبرز سؤال : إذا كان الله يهدي الناس فلما ذا اختلف اتباع الرسل من بعدهم لمـاذا لم يهـدهم الله جميعا هـدى واحدا وتركهم يقتل بعضهم بعضا ..

يجيب القــرآن : ان الله لا يهــدي النــاس كرها وانما يـــوفر لهم فرصة الهداية فمن اهتــدى فلنفسه ومن ضل فعليها هكــذا أراد الله للــدنيا ان تكــون مختــبرا لمعــادن النـاس وقاعة امتحـان لمـدى ايمـانهم ولا يسـأل الله عما أراد.

(**وَلَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ**)

من بعد الأنبياء من اتباع حيث تقاتلوا.

(**مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ**)

فلم يكن اختلافهم لنقص في هداية الله لهم بل لخلل في ايمانهم بها واستجابتهم لدعواتها.

(**وَلكِنِ اخْتَلَفُوا**)

وكان اختلافهم على الحق ..

(**فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ**)

فلم تكن أعمـالهم صـحيحة بمجـرد انهم (كـانوا) من اتباع الرسل بل كانت

(**وَلَـوْ شـاءَ اللـهُ مَا اقْتَتَلُـوا وَلكِنَّ اللـهَ يَفْعَـلُ ما يُرِيدُ**)

وهنا ابـرز القـرآن ـ مـرة اخـرى ـ هيمنة الله على الحيـاة وان ما يجـري فيها من خـير وشر ، لا يـدل على اعتزال الله سـبحانه للسلطات ولا على انه مغلـوب على امره لا يسـعه منع حـدوث الشر كلا ولا على انه راض بما يقع على النـــاس في الـــدنيا من شـــرور بل لأنه يريد اختبارهم فتركهم الى أجل مسمى وهو قادر على أخـذهم إذا شاء بسطوته العزيزة وقدرته الواسعة الـتي لا يعجزها شيء.

[254] ما ذا تعـني هـذه الحقيقة بالنسـبة لنا ، انها تعني اننا لسنا مخلوقين عبثا ولا مـتروكين هكـذا الى الأبد بل ان هنـاك فرصة قصـيرة أمامنا لتجربة ايماننا وارادتنا فعلينا اسـتغلال هـذه الفرصة بالعطـاء والإنفـاق قبل ان تنتهي الفرصة ..

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا أَنْفِقُـوا مِمَّا رَزَقْنـاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ**)

لأنه لا يملك أحد شيئا حتى يبيعه.

(**وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ**)

وليس هناك من صديق وحتى لو كان فلا يسـتطيع ان يفعل لنا شيئا. لأنه هو الآخر مبتلى ومغلوب على امره إذا دعنا نفكر في ذلك اليوم وننفق ..

(**وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**)

الذين يظلمون أنفسـهم ولا يبعثـون لحيـاتهم الاخـرى خيرا ..

ومناسبة الحديث عن الإنفاق قد تكون تكميلا للحديث عن القتال في سـبيل الله في الآيـات السـابقة إذ يتحـدث القرآن عنه إذا تحدث عن القتال على الأكثر.

اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَـــهُ ما فِي السَّـــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُــونَ بِشَــيْءٍ مِنْ عِلْمِــهِ إِلاَّ بِما شـاءَ وَسِــعَ كُرْسِيُّهُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَـؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255) لا إِكْــراهَ فِي الــدِّينِ قَـدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ

---

255 [الحي] هو من كان على صفة يجب لأجلها أن يدرك المدركات إذا وجدت.
[القيوم] من القيام وهو القائم بتدبير خلقه.
[سنة] النوم الخفيف وهو النعاس.
[نـوم] النـوم خلاف اليقظة ، وهو اسـترخاء أعصـاب الـدماغ برطوبـات البخار الصاعد اليه وقيل هو موت خفيف والموت نوم ثقيل.
[يحيطون] يقال لمن أحرز شيئا أو بلغ علمه أقصاه قد أحاط به.

مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُـرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُـؤْمِنْ بِاللـهِ فَقَـدِ اسْتَمْسَـكَ بِـالْعُرْوَةِ الْـوُثْقى لا انْفِصـامَ لَها وَاللـهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (256) اللـهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُـوا يُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمــاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَــرُوا أَوْلِيــاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُـونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمـاتِ أُولئِكَ أَصْـحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِـدُونَ (257) أَلَمْ تَــرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْــــراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قــــالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قـالَ إِبْـراهِيمُ فَـإِنَّ اللـهَ يَـأْتِي بِالشَّـمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ

---

258 [بهت] انقطع وتحـــير ويقـــال بهت الرجل أبهته بهتانا إذا قابلته بكــذب فــالبهت الحــيرة عند اســتيلاء الحجة لأنها كــالحيرة للمواجهة بالكذب لان تحير المكذب في مذهبه كتحـير المكـذوب عليه ومنه قوله أتأخذونه بهتانا كأنه قال أتأخذونه ادعاء للكذب فيه.

عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ

---

259 [خاوية] أصل الخواء الخلاء والخواء الفرجة بين الشيئين لخلو ما بينهما وخوت الدار تخوى خواء فهي خاوية إذا باد أهلها لخلوها منهم والخوي الجوع خوى يخوي خوى لخلو البطن من الغذاء.
[عروشها] أبنيتها وقيل الخيام وهي بيوت الاعراب وقيل خاوية على عروشها أي بقيت حيطانها لا سقوف عليها وكل بناء عرش وعريش مكة أبنيتها والعريش البيت لارتفاع أبنيتها.

الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَـلْ عَلى كُـلِّ جَبَـلٍ مِنْهُنَّ جُـزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَـكَ سَـعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللـهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ (260)

أسماء الله الحسنى

هدى من الآيات :

من خلال القصص الســـابقة ، ذكرنا القـــرآن ببعض أسماء ربنا الحسنى وفي طليعتها انه يهب الحيـاة والغـنى والملك والنصر وأخـيرا الهـدى. والواقع ان الغـنى والملك والنصر والهـدى ليست الا بعضا من مظـاهر الحيـاة الـتي يهبها الله للإنسان. وفي هذه الآيـات يتـابع القـرآن تذكرته بربنا وبيانه لصفاته الحسنى ، والتي منها قدرته على بعث الناس من جديد.

فالآية الاولى والـتي تسـمى بآية الكرسي ، وقد جـاء في السنة الشـريفة اهتمـام بها وتوجيه الى قراءتها ، لأنها تلخص صفات الله التي تســاهم معرفتها في تربية النفس البشرية. فهو الذي يـدبر الحيـاة ويحفظها في كل لحظة ، ولو لا حفظه للحيـاة إذا لـزالت. بعدئذ يوجهنا القـرآن الى الناحية العملّية للايمان بان الله حي قيـوم ، وهي ضـرورة التسـليم لله وحـده ، والتمـرد ضد كل سـلطة لا تسـتمد شرعيتها من قيم الله ، والتي يسميها القـرآن بالطـاغوت. ثم بين القرآن ان الايمان بالله وبقدرته الواسعة

يدعونا الى الايمان بـاليوم الآخر ، حيث ان الله قـادر على ان يحـيي المـوتى. فليست هنالك اية صـعوبة في اعـادة الناس الى الحياة للحساب.

بينات من الآيات :

[255] في حالة الرخـــاء لا يكتشف البشر شـــيئا اما في الشـدة فانه يسـتثير عقله ، ويحـاول ان يفهم الحيـاة بعمق ، حـــتى يرفع حاجته وإذا اشـــتدت حاجة الإنســـان واستبدت به الضراء ، واعيته مذاهب الحياة ، فإنّه ـ انئذ ــ يتوجه الى ربه ، ويجـأر اليه ، وتسـقط امامه كل الأصـنام التي كان يعبدها.

بهـذه المناسـبة سـمى العـرب ربهم ب (إلـه) لأنهم يألهون اليه ، ويتوسـلون به أشد التوسل ، عند ما تصـيبهم الضــراء. والكلمة المفضـلة في لغة القــرآن للدلالة على ربنا هي كلمة (اللــه) وهنا تبـدأ آية الكرسي بهـذه الكلمة لاستثارة ضمير الإنسان بأن الـذي تجـأر اليه وتتوسل به ، هو وحده الجدير بان يكون ربك الحقيقي.

(**اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**)

ولكن ما هي صـفات ربي؟ انه يتمـيز بسلسـلتين من الصـفات الحسـنى تتصل الواحـدة بأسـمائه الذاتية ، فهو عالم ، قـدير ، سـميع ، بصـير ، يريد ما يشـاء ، ولا يسـأل عما يفعل ، وهنـاك كلمة تشـير الى هـذه الصـفات هي (الحي). والسلســلة الثانية تتصل بكل أفعاله ومظـــاهر خلقه للأشياء ، فهو فعال لما يشاء ، خالق ، رازق ، رحمن ، رحيم ، منعم و.. و... وتشـير الى هـذه السلسـلة كلمة (القيوم) والتي تدل على ان الله قائم بذاته فلا يحتـاج الى شـيء ، وتقـوم به الأشـياء فلا يسـتغني عنه شـيء. وهنا يـــــذكّرنا القـــــرآن بالله عـــــبر صـــــفتين (الحي ـ القيوم) ، ويبيّن بعضا من مظاهر هـاتين الصـفتين فيقول :

(**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**)

فمن مظـاهر صـفة الحي تعاليه عن النعـاس (السـنة والنوم).
(**لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**)
ومن مظـاهر الحي ، ان ربنا واسع القـدرة فهو مالك كل شيء ، نافذ في كل شيء امره ومشيئته ، لان.
(**لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)
ولذلك فهو غني عن كل أحد.
(**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**)
فلا يستطيع أحد ان يحتم عليه امـرا بل انما يمكنه ان يدعوه ، فيستجيب له ان شاء أو لا يستجيب.
ان ملــوك الأرض يعتمــدون ، في ســيطرتهم على الناس ، على مجموعة من ذوي النفوذ ، وهـؤلاء يشـفعون فيمن يخصهم. ولكن الله ، تعـالى سـلطانه عن اي تـدخل من اي أحد ، حتى الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون ، ليسوا سوى عباد مكرمين.
ومن مظاهر اسم الحي ، علم الله بكل شيء وتعاليه عن العقول ان تسمو الى جنابه.
(**يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ**)
يعلمهم ويعلم ما سـبق وما يـأتي من حيـاتهم ، وعلم الله واسع يشمل كافة جوانب البشر.
(**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ**)

وبينه هو لهم.

هـذا هو الحي ، مطلق الحيـاة ، ابـدي الحيـاة ، واسع العلم والمقدرة سبحانه. انه ربنا الجـدير بنا ان نتخـذه وليا ، وليس هؤلاء العباد المربوبين الأموات ، الذين يستبد بهم النوم والجهل ، ولا يملكون شيئا.

وصــفة «القيــوم» نابعة من صــفة الحيــاة ، ان الله الحي بذاته الـذي يملك ما في السـماوات والأرض ويحيط علمه بما فيهما ، هو القيوم عليهما.

(**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ**) [1] (**السَّماواتِ وَالْأَرْضَ**)

عرشه وســلطانه وامتــداد نفــوذ مشــيئته ، واسع للســماوات والأرض. فكل شـيء تحيط به قدرته ، ويـدبر أمــوره ويصــرف شــؤونه ليل نهــار ، دون ان تتعبه ادارة ملكــوت الســماوات والأرض ، أو ان تحجبه المجــرات الكبـيرة بما فيها من شـموس وأقمـار ، عن ادارة ما في الذرة المتناهية في الصغر بما فيها من نواة وتوابع.

(**وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما**)

لأنه تعالى عن التعب والإعياء ، انه يقـول للشـيء كن فيكون.

(**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**)

عليّ لأنه حي تعـالى عن اي صـفة عجـز. وعظيم لأنه قيوم على كل شيء.

[256] هـذا هو ربنا وهـذا علاه وعظمته وهـذه قدرته وسلطانه ، أفنتخذ بعد ذلك

(1) جاء في حـديث مـأثور عن الامـام علي (ع): «ان السـماء والأرض وما بينهما من خلق مخلــوق في جــوف الكرسي ، وله اربعة أملاك يحملونه بأمر الله».(الميزان الجزء 2 ـ ص 341)

إلها من دونه ، أو قائـدا لا يرضى ربنا بـه. ان القلب الـذي عمّر بالايمان بالله ، كيف يعظّم أحدا سواه ، أم كيف يعبد إله من دون الله ، وكيف لا يثور ضد هؤلاء الاقـزام الـذين يطغون في الأرض بغير الحق ويأمرون الناس بطاعتهم.

(**لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ**)

ولا يحتـــاج الى بيـــان آخر ، ان الله هو لا اله الا هو وعلى الناس ان يطيعـوه ويتخـذوه وليا من دون الشـركاء والطواغيت.

(**فَمَنْ يَكْفُـرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُـؤْمِنْ بِاللـهِ فَقَـدِ اسْتَمْسَـكَ بِـالْعُرْوَةِ الْـوُثْقى لَا انْفِصـامَ لَها وَاللـهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)

لأنه اسـتعاد حريته وانسـانيته ، واسـتطاع ان يسـتثمر طاقاته في الســبيل الأقــوم. واية قـــوة هي أقـــوى من الإنسـان حين يكفر بالطـاغوت ، ويتمـرد على كل سـلطة تســتعبده وتســتغله ، ثم يـــؤمن بالله ويعمر قلبه بالثقة والأمل والتواضع للحق والتسليم له؟!

ان القــوة الحقيقية في هـذا الكـون هي قــوة الحرية (الكفر بالطاغوت) وقوة الحق (الايمـان باللـه). والله يؤيد بنصره من يشاء ، وهو سميع لما يقولون من كلمة كفر أو ايمان ، وعليم بما يضمرون من نية صالحة أو خبيثة.

[257] ان في الحياة سلطة حقيقية واحـدة ـ متمثلة في سلطان الله ـ وقدره وقضائه ، وبالتالي سننه الحتمية ، وانظمته الــتي لا تتحــول ولا تتبــدل. ومن خضع لهــذه السـلطة ، واتصل بها ، واسـتمد منها القـوة والشـرعية ، اسـتطاع ان يسـخّر الحيـاة ، ويصـبح خليفة عليها من قبل تلك الســـلطة. ومن كفر بها وتمـــرد عليها ، وفتش عن سلطات وهمية واستسلم لها ، ظل عبدا وتاه في ظلمات لا يبصر.

(**اللـهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُـوا يُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمـاتِ إِلَى النُّورِ**)

لأنه وليهم وسـيدهم ، وهم اتصـلوا بسـلطانه ، واستمدوا منه القـوة والشـرعية والنـور. والهـدى الـذي لا يحصل عليه الإنسان ما دام مستعبدا للطواغيت.

(**وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَوْلِيـاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُـونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

إذا فالإنسـان الـذي لا يخضع لله ، لا يتمـرد على الطـاغوت ، لأنه أساسا يكفر بالله اسـتجابة لضـغط الطاغوت المتمثل في المجتمع الفاسد ، والنظـام الفاسد والاقتصاد الفاسد و.. و.. ومن يستعبده الطـاغوت ، فـأول ما يسـلبه منه ، قدرته على التفكـير واسـتقلاله فيه ، فلا يرى الا ما يراه الطاغوت. ولا يعمل الا بما يملي عليه. من هنا يفقد عقله الذي وهبه الله للإنسان.

ان الشـرط الاول للفكر السـليم ، هو التحـرر من الاسـتعباد والتبعيـة. لان العقل لا يتحـرك الا بوجـود الثقة والحاجـة. والرجل الـذي انّى له الثقة بذاته أو الشـعور بالحاجة الى التفكر ، ما دام لا يحتـاج الى التفكر ، ولن يطبق نتائج الفكرة لو قدّر له عرضا ان فكر في شيء.

والتفكير السليم ، هو الشرط الاول للقوة في الحياة. من هنا ركّز القـرآن الحكيم على ان الايمـان بالله يعطي صاحبه التحـرر ، والتحـرر يعطيه القـوة (التمسك بـالعروة الوثقى) والعلم (**يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ**).

ولكن اي ايمان هـذا الـذي يعطينا القـوة والعلم .. انه الايمـان الـواعي ، لا الايمـان المكـره عليه فهو الآخر نـوع من الاسـتعباد والخضـوع للطـاغوت. أرأيت لو آمن شـعب بالله لان السـلطة السياسـية فيه أجبرته عليه ، هل هـذه حرية أم استعباد ..؟ بالطبع

اســـتعباد ، لان هـــذا الشـــعب ســـوف يكفر بالله لو ان السلطة السياسـية امرته بـالكفر. من هنا تحـدث القـرآن في بداية الحديث عن الحرية الدينية وقـال : لا إكـراه في الدين.

[258] من الــذي يمثل الســلطة الشــرعية الحقيقية في الحياة ، الله أم الطواغيت؟

انه الــذي يمنح الحيــاة لمن يشــاء ويقــدر له المــوت حينما يشاء ، الذي يجعل الحياة تستمر بتزويدها بمقوماتها من نعم لا تحصى ، الــذي يــدبر الشــمس الــتي تطلع كل نهار لتملأ الدنيا دفئا ونورا وحياة من هو غـير الله سـبحانه .. ولكن الظالمين لا يفقهون.

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَـاجَّ إِبْـراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتـاهُ اللهُ الْمُلْكَ**).

فبــدل ان يشــكر ربه على الملك الــذي أتــاه ، انقلب على ربه وطغى في الأرض.

(**إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**)

وليس ربي مثلك أنت الطاغوت العاجز.

(**قالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**)

أمر بــاثنين حكم عليهما بالاعــدام ، ثم عفي عن واحد وقتل الثاني ، ولكن هل كان بامكانه ان يعيد المقتـول الى الحيـاة؟ كلا. بيد ان إبـراهيم لم يشأ ان يجادله بل انه هـزّ فطرته بصـــــورة عنيفة تجعله امـــــام الواقع بلا لبس ولا تشوية.

(**قــالَ إِبْــراهِيمُ فَـإِنَّ اللــهَ يَـأْتِي بِالشَّــمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**)

ولكن لمــاذا لم يــؤمن؟ لأنه كــان ظالما ، والظــالم يحجبه ظلمه عن الحــق. انه لا يفكّر الا بمصــالحه واهوائه وشهواته.

(**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)

الرؤساء والملوك الذين يحاربون الدعوات الاصـلاحية ، والأغنياء والمترفون الذين يناهضـون الثـورات ، والأحبـار والرهبـان والعلمـاء الـذين يعـادون الأفكـار التقدمية ، انما هم ظالمون ويخشون العدالة والإصلاح. وكل ظـالم اختـار عمليا سبيل الاعتداء على حقوق الناس ، فهو سـيقف في صف الباطل ـ فكريا ـ كما وقف في صفّه ـ عمليا ـ ويكفر بالحق عاجلا أم آجلا.

[259] اما الـذين الـتزموا بـالحق عمليا ولم يعتـدوا على حقوق النـاس ، فسـوف يهـديهم الله ، لان فطـرتهم سـليمة ولا تحجبهم عن رؤية الحقـائق سـوى الغفلة الـتي يكشفها الله عنهم ، فاذا بهم يبصرون الحقائق مثلهم مثل عزيز وإبراهيم ، حيث هداهم الله الى نفسه حين عـرفهم انه هو واهب المـوت والحيـاة جميعا ، وانه قـادر على ان يحيي الموتى.

ان سياق الآيات لا يزال يحدثنا عن تدبير الله سـبحانه مباشرة للحياة ، ويلهمنا افكـارا ــ عملية ــ مسـتوحاة من هـــذه الحقيقة ولقد رأينا آية الكرسي كيف انتهت بنا الى ضرورة رفض حكم الطواغيت ، اما هنا فينتهي بنا السياق الى ضرورة الايمان بالبعث انطلاقا من الايمان بقدرة الله الواسـعة. لنعد الى الآية ولنسـتمع الى قصة عزير الـذي هداه الله الى نفسه.

(**أَوْ كَالَّذِي مَـرَّ عَلى قَرْيَـةٍ وَهِيَ خاوِيَـةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْـدَ مَوْتِها فَأَماتَـهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْمـاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ**)

وكان مع عزير حماره وطعامه ، الحمار كان قد أصبح رميما ، اما طعامه فلم يزل طريا كذلك أراد الله ان يـبين لعبده قدرته وتدبيره المباشر لشؤون الحياة فقال له :

(**فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ**)

اي لم يتعفن .. بالرغم من مـرور مائة عـام. عليه اما الحمار فقد انتهى الى رميم ولكن سيبعثه الله من جديد.

(**وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ**)

حيث ان الله أحيـاك ، من بعد مـوت دام مائة عـام ، وأحيا أمامك حمارك لتنظر اليه ، وتنقل الى الناس كيف ، وبأية صـورة يحـيي الله المـوتى. كـذلك أخّر الله احيـاء الحمار حتى تتم العملية امام عينه.

(**وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها**)

نركّبها بعضها على بعض ونرفعها الى بعضها ـ بدقة ـ.

(**ثُمَّ نَكْسُـوها لَحْمـاً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَـهُ قـالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

وهذه هي الحقيقة التي لا بد ان نفهمها جيـدا. هي ان قدرة الله ليست محدودة كما هي قدراتنا.

[260] وقصة عزير تشـــــبه قصة إبـــــراهيم ، العبد الصالح ، الذي هداه الله الى نفسه ، وقال عنه :

(**وَإِذْ قالَ إِبْـراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْـفَ تُحْيِ الْمَـوْتى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**)

ذلك ان الايمـــــــان درجـــــــات أعلاها : درجة اليقين والاطمئنان ، الذي يطرد تماما شـيطان الشك من النفس ، ولا يعود الإنسان يرتاب أبدا. وهذا النوع سمّي في اية

اخرى ب (عين اليقين).

(**قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَ**) [1] (**إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَ**)

باسـمائهن الواحد بعد الآخر .. الغـراب ، الحمـام ، العصفور ، وهكذا ..

(**يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)

فهو قادر ويفعل بقدرته في الحياة ما يشاء فهو عزيز الجـانب لا يغلبه أحد ولا شـيء وهو حكيم لا يتصـرف عبثا ومن دون هدف ..

---

(1) صرهنّ : بضم الصاد بإحدى القـراءتين من صـار يصـور إذا قطع أو أمـال ، وبكسر الصـاد على القـراءة الاخـرى. من صـار يصـير بإحـدى المعنـيين وقـرائن الكلام تـدل على ارادة معـنى القطع ، وتقديمه بـإلى تــدل على تضــمين معــنى الامالة ، فــالمعنى : اقطعهن مميلا إليك أو أملهن إليك قاطعا إيّاهنّ. (المصدر ـ ص 374)

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْـوالَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ كَمَثَـلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَــبْعَ سَــنابِلَ فِي كُــلِّ سُــنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضـاعِفُ لِمَنْ يَشـاءُ وَاللـهُ واسِـعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُـونَ ما أَنْفَقُــوا مَنًّا وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْــرُهُمْ عِنْــدَ رَبِّهِمْ وَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ (262) قَـوْلٌ مَعْـرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَاللــهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِـالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ

261 [أنبت] النبت الحشيش وكل ما ينبت من الأرض يقال نبت نبتا.
263 [غـني] الغـني الواسع الملك والله غـني بأنه مالك لجميع الأشـياء لأنه قـادر عليها لا يتعـذر عليه شـيء منها والغـنى ضد الحاجة والغـنى الكفاية.

وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (264) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ

---

264 [منّ] المن هو ذكر ما ينقص المعروف كقول القائل أحسنت الى فلان وأنعشته وأصل المن القطع ومنه قوله «**لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**» أي غير مقطوع. وسمي ما يكدر المعروف منه لأنه يقطع الحق الذي يجب به.

[آذى] ضرر يتعجل وصوله الى المضرور.

265 [بربوة] الربوة المرتفع من الأرض.

[طل] المطر الصغار يقال أطلت السماء فهي مطلة وروضة مماطلة ندية.

فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نـارٌ فَـاحْتَرَقَتْ كَـذلِكَ يُبَيِّنُ اللـهُ لَكُمُ الْآيـــــاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْـهُ تُنْفِقُـونَ وَلَسْـتُمْ بِآخِذِيـهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُـوا فِيـهِ وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللـهَ غَنِيٌّ حَمِيــدٌ (267) الشَّــيْطانُ يَعِـدُكُمُ الْفَقْـرَ وَيَـأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشـاءِ وَاللـهُ يَعِـدُكُمْ مَغْفِـرَةً مِنْـهُ وَفَضْـلاً وَاللـهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (268) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْـراً كَثِـيراً وَما يَـذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُـوا الْأَلْبـابِ (269) وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَـةٍ أَوْ نَـذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُـهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصـارٍ (270) إِنْ تُبْـدُوا الصَّـدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ

---

266 [إعصار] الاعصار غبار يلتف بين السماء والأرض كالتفـاف الثـوب في العصر.

271 [الصدقات] الفرق بين الصدقة والزكاة لا تكون الا فرضا

فَهُـوَ خَيْـرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَـيِّئاتِكُمْ وَاللـهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِـيرٌ (271) لَيْسَ عَلَيْـكَ هُـداهُمْ وَلكِنَّ اللَّـهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْـرٍ فَلِأَنْفُسِـكُمْ وَما تُنْفِقُـونَ إِلاَّ ابْتِغـاءَ وَجْـهِ اللـهِ وَما تُنْفِقُـوا مِنْ خَيْـرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُـونَ (272) لِلْفُقَـراءِ الَّذِينَ أُحْصِـرُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ لا يَسْـتَطِيعُونَ ضَـرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْـرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْـئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافـاً وَما تُنْفِقُـوا مِنْ خَيْرٍ

والصدقة قد تكون فرضا وقد تكون نفلا.

[تخفوها] تستروها.

273 [سيماهم] السيماء العلامة التي يعرف بها الشيء الشيء وأصــله الارتفاع لأنه علامة رفعت للظهـور ومنه الســوم في الـبيع وهو الزيـادة في مقدار الثمن الارتفاع فيه عن الحد.

[إلحافا] إلحاحا في المسألة وقيل الحف شـمل بالمسـألة وهو مسـتغن عنها واللحاف من هذا اشتقاقه لأنه يشمل الإنسان في التغطية.

فَـإِنَّ اللـهَ بِـهِ عَلِيمٌ (273) الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوالَهُمْ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ
وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (274)

الإنفاق في سبيل الله

هدى من الآيات :

الإنفـاق في سـبيل الله نتيجة مباشـرة للايمـان بالله وعلامة على عمق اليقين بـان الله هو القـادر على الكـون وانه واهب الحياة والغنى والملك والهدى.

وشخصـية المسـلم تتمـيز بأنها معطـاءة ، وعطاؤها ليس من أجل شهرة أو ريـاء ، بل في سـبيل اللـه. ووفق المنهاج الذي رسم له الله.

والقرآن تحـدث عن الإنفـاق في أكـثر السـور ، الّا ان حديثه هنا يتميز بالجوانب النفسية للإنفاق ، والـتي تعالجها سورة البقـرة أكـثر من غيرها ، فالإنفـاق هنا جـاء كمظهر من مظاهر الايمان بالله واليوم الآخر.

ففي الآية الاولى نجد التوجيه الى ضــرورة ان يكــون الإنفـــاق في ســـبيل الله وفي الثانية والثالثة والرابعة الّا يكــون وراءه منّ ولا أذى. اما الخامسة فهي تضــرب مثلا على الإنفـاق في سـبيل الله كيف انه يثبت الايمـان ، اما الآية السادسة فهي تأمر بان

يكون الإنفاق من المال الطيّب وليس الخبيث وهكذا ..

بينات من الآيات :

[261] الله هو واهب الحيـــــاة وواهب نعمها ، والآن يطلب منا ان نقدّم له بعضا مما أعطانا ، حتى يعوضنا عنه أضـعافا مضـاعفة ، إنّ ما نقـدّم لله لن يضـيع ، بل مثله كالحبة الـــتي نـــدفنها تحت الأرض ، فهي لا تنتهي ، بل الاخرى التي ناكلها هي التي تنتهي ، امّا هذه التي سترناها تحت الأرض ، فهي تنمو وتنمو حتى تصبح مئات الحبـات ، هذا صنع الله ، انه يأخذ منك قدرا بسيطا من المال تنفقه في سبيله فيضاعفه لك.

(**مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوالَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ كَمَثَـلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَـبْعَ سَـنابِلَ فِي كُـلِّ سُـنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**)

[262] قد يكون الإنفـاق في سـبيل الله في ظـروف صعبة ، كان يكـون صـاحبه قليل المـال ، ولكنه ينفق على من هو أفقر منه ، أو يؤثر الآخرين على نفسه وبها حاجة ، أو يتحـدى بالإنفـاق سـلطات الطـاغوت ، أو يـداوي جـرح مظلـوم. وانئذ يكـون الجـزاء بقـدر المشـقة ، وبحسب الظروف الموضوعية والنفسية التي تكتنف الإنفاق ، والله يعلم بهذه الظروف تماما ، وقادر على ان يضاعف العطاء بسببها.

إذا الإنفـاق في سـبيل الله نـوع من الاسـتثمار في الحيـاة الـدنيا والآخـرة ، ولكن هـذا الاسـتثمار مهـدد بالخسـارة ، لو لم يحافظ عليه صـاحبه ، ويقـاوم شـهوة الشهرة والسلطة ، ولا يتبع إنفاقه بالمنّ والأذى.

(**الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوالَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا ، مَنًّا وَلا أَذىً**)

فلا يشبع شهوة الشهرة ، أو السلطة ، في نفسه عن طريق الإنفاق ، فيتعالى على

الفقير ، أو يتجبر عليه بغير حق ، ويكوّن لنفسه طبقة ضد طبقة الفقراء.

(**لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

[263] ثم يؤكد القــرآن هــذا الشــرط الصــعب في الإنفاق ، والذي يحتـاج تحقيقه الى تـرويض شـديد للنفس الامـارة بالسـوء ، وردع دائم للشـهوات الشـيطانية فيهـا. يؤكده ويقول :

(**قَـوْلٌ مَعْـرُوفٌ وَمَغْفِـرَةٌ خَيْـرٌ مِنْ صَـدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً**)

فلو لم يـدفع الغـني ماله للفقـراء ، ولكنه يجالسـهم ويحسب نفسه واحدا منهم ويعتبرهم إخوانه ، ولم يتسلط عليهم ، بل إذا صـدرت منهم خطيئة صـبر عليها ، وغفرها لهم. هـــذا أفضل عند الله من ان يـــدفع ماله بـــدافع السيطرة عليهم ، وتذليل كـرامتهم ، وتكـوين حالة طبقية في الامة.

هكذا يرفض الإسـلام اي نـوع من الإنفـاق المشـروط من قبل الأغنيـاء يكـرّس كبريـاءهم المزيفة ، وتسـلطهم اللامشروع.

(**وَاللهُ غَنِيٌ**)

فلا يحتــاج الى إنفــاق المــرائين ولا غــيرهم وانما المحتاج هو الإنسان نفسه وهو سبحانه.

(**حَلِيمٌ**)

لا يأخذ الناس بالعذاب بل يـترك المجـال مفتوحا لهم ليتوبوا حينما يغلبهم الشيطان.

[264] ويتابع القرآن الحديث عن ذات الفكـرة بكلمة توجيهية للمؤمنين يحذر فيها من ان صدقاتهم سوف تتبخر ، بل وتحـترق ، بمجـرد اسـتخدامها في سـبيل السـيطرة على الفقراء والمحرومين ، ولا تعود الصـدقات سـببا لنمو المال ، ولا لرحمة الله في الآخرة.

ويضـرب لنا مثلا موضّـحا ويقـول : أرأيت كيف يبطل الإنسان عمل الخير؟ انه أشبه شيء بأرض جبلية صـمّاء ، جمع الفلاح حفنة من الـــتراب عليها لـــيزرع فيها ، ولكن ســيول المطر ذهبت بتلك الحفنة من الــتراب ، فعــادت الأرض كطبيعتها الاولى ، لا تصـلح للـزرع ، هكـذا .. الـذي ينفق ماله ، ثم يســتخدم إنفاقه للســيطرة كالصــحراء لا تصلح لنبات الخير ..

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تُبْطِلُـوا صَـدَقاتِكُمْ بِـالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ**)

حتى يراه النـاس فيرضـون عنه ، ويقـدرون جهـوده ، وبالتالي يتعالى عليهم.

(**وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ**)

حتى يكون عطاؤه في سبيله ، فهو لا يعمل لوجهه.

(**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**)

وما دام ايمانه بـــاليوم الآخر ضـــعيفا فهو يبحث عن الشهرة والسمعة ، النتـائج العاجلة ، فسـعيه يكـون للـدنيا وحدها .. دون ان تدخل فيه حسابات الآخرة ..

(**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُـرابٌ فَأَصـابَهُ وابِـلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً**)

الصـــفوان : الحجر الأملس المســـتوية ، والوابل : المطر الشديد الوقع ، والصلد :

الصخرة الملساء التي لا تنبت شيئا.

(**لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا**)

لأنهم أبطلوا استثمارهم ، ولم يبق لـديهم شـيء في بورصة الآخرة.

(**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ**)

بل تتحـول قلـوبهم كتلك الصـخرة الصـماء ، لا تـزرع فيها الهداية ، لأنّها ـ أساسا ـ لا تطلب الهداية ، بل تعشق السلطة والسيطرة والتكبّر على الناس.

[265] وهنـاك مثل آخر ، يعـاكس هـذا المثل تماما ، إنّه مثل المؤمـــنين المخلصـــين لله في إنفـــاقهم : إنّهم ســـوف يحصـــلون على ثلاث فوائد ، الاولى : اكتســـاب مرضـــــاة الله ، والثانية : تزكية أنفســـــهم وتربيتها على التقوى والعطاء ، والثالثة : جـني ثمـار العطـاء في شـكل ثواب عظيم في الدنيا وفي الآخرة.

(**وَمَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوالَهُمُ ابْتِغـاءَ مَرْضـاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ**)

لان الايمان ، كأية موهبة اخـرى ، تـزداد كلما اسـتفاد الإنســان منها ، كـالارادة تقــوى كلما تحـدت الصــعاب ، والمعرفة تزداد كلما انتفع بها صاحبها في العمل ، والحب ينمو كلما اهتم به صــاحبه ، وهكــذا الايمــان يثبته العمل الصالح وينمّيه.

(**كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ**)

فهي جنة أساسا .. لا مجـــرد صـــخور ، كـــذلك قلب المؤمن ، ارض قابلة للزراعة ..

(**أَصابَها وابِلٌ**)

عن طريق العمل الصـــالح المركّز .. كالانفـــاق في الظروف الحرجة ، حيث انه

سوف يضاعف من قوة الايمان ، وثباته في النفس.

(**فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌ**)

إذ ان طبيعة الجنّة ، انَّها تستــدر الرطوبة وتكثفها في الفضـاء ، فلا بد ان يصـيبها طل ، مطر خفيف ، أو رطوبة مفيـدة ، كـذلك القلب المـؤمن حـتى ولو لم يواجه بنجـاح تحـديات خطـيرة (كالانفـاق في المجاعـة) فانه ســوف يمـــارس الأعمـــال الصـــالحة اليومية ، مما يحافظ على ايمانه.

(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

فلا تفكـروا في النـاس ولا تـراؤوهم ، كفى بالله رقيبا على أعمالكم ، وكفى به مثيبا.

[266] ويضـرب الله : مثلا رائعا لما يصـيب الإنسـان من خيبة أمل بســبب إحبــاط اعماله ، يــوم يحتــاج الى الجـزاء ، فيكتشف أنّ لـذة الشـهرة. أو السـيطرة الـتي أرادها من عمله فاتبعه بالمن والأذى ، قد ذهبت بخيراته ، وأصبحت هباء منثورا ، يقول ربنا :

(**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيـلٍ وَأَعْنـابٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ لَـهُ فِيها مِنْ كُـلِّ الثَّمَـراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ**)

كم يحتـاج هـذا المسـكين الى هـذه الجنة ، الـتي هي خلاصة جهــوده في الحيــاة الــدنيا ..؟ ولكن كيف به إذا أحاط الخطر بجنته.

(**فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ**)

هل يمكن تصـور خيبة أمل هـذا الشـيخ المحـروم من جهده ، كذلك هي حالة ذلك

الذي أنفق أمواله رجاء الثواب ، ثم بعث بنار المنّ والأذى ، فالتهمت ثواب إنفاقه ، ويوم احتـاج الى ذلك الثـواب لم يجـده ، ووجد الله هنـاك أعـدّ له نـارا لاهبة ، جـزاء ريائه وكبريائه السخيفة.

(**كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**)

[267] إذا الشرط الاول للإنفـاق الصـالح : ان يكـون في سبيل الله ، والشرط الثاني الا يتبع بالمن والأذى ، فلا يستثمر من أجل تكريس الطبقية في المجتمع ، والشـرط الثالث يبيّنه القرآن في هذه الآية ويقول :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْـهُ تُنْفِقُونَ**)

فعليكم باختيار أفضل ما عندكم ، سواء حصـلتم عليه بالجهد ، كما المـال والبنـاء ، وما صـنعتم بأيـديكم ، أو لم تصـرفوا فيه جهـدا ، كما الـزرع والضـرع .. المهم ان تختـاروا أفضل أمـوالكم لتقـدموه لله ، ولا تتوجهـوا نحو الخبيث ، حتى تختاروه للإنفـاق ، وفكّـروا لو عكست الآية وكنتم أنتم الفقراء وغـيركم ينفق عليكم هل كنتم تقبلـون بهذا الخبيث؟

(**وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا**)

وتتساهلوا.

(**فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**)

وليس بحاجة الى انفـاقكم ، فهو غـني وهو حميد في غناه. يتفضل عليكم من بحر

غنـاه فيحمـده الجميع وأنتم ــ عبـاد الله المؤمـنين به ــ تخلّقوا بـأخلاق ربكم ، وأعطـوا من غنـاكم شـيئا يحمـدكم الناس عليه.

[268] ولا تستجيبوا لصراخ الشـيطان الـذي ينـاديكم من داخل أنفسكم : لا تنفقوا لأنكم سوف تصبحون فقراء لو أنفقتم ، كلا .. إنّ الإنفـاق يـدوّر الـثروة بين النـاس ، ويسـبب انتعـاش الاقتصـاد ، وبالتـالي اسـتفادة الجميع ، وحين يدعوكم الى العطاء ، فانّه يدعوكم الى أفضل منه ، ومن جهة اخـــرى ، الشـــيطان يخـــوفكم من الفقر ، فتمسـكون أيـديكم فيكـرهكم النـاس ، وتنتشر البغضـاء ، وتتولد منها الفحشاء ، أو ليس الأفضل هو الإنفـاق ، حـتى ينتشر بدل الحقد : المحبة والوئام.

(**الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ**)

لانّه يخــوفكم منه أجل ، ولكن لمــاذا يريد الإنســان المــال؟ أليس حــتى يتصــرف فيه بحريــة؟ أما إذا جــاءه الفقير ، فانه سوف لا يتصرف في المال ، وإذا فما الفرق بينه وبين الفقير الذي لا يملك شيئا ، كلاهما لا يملك قدرة التصرف في المال.

ومن يخشى الفقر يهضم الحقــوق ويظلم النــاس ويشيع الفحشاء في المجتمع وهذا من عمل الشيطان.

(**وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ**)

متمثلة في السـلام داخل قنـوات المجتمـع. بالاضـافة إلى تزكية النفس من رواسب الذنوب ، والنجـاة من النـار في الاخرة.

(**وَفَضْلاً**)

متمثلا في مـردود العطـاء في سـبيل الله حيث يـنزل بالطبع على المنفق بالخير

الكثير.

(**وَاللهُ واسِعٌ**)

العطاء .. إذا أنفق في سبيله.

(**عَلِيمٌ**)

بمن ينفق فيجازيه خيرا من لدنه.

[269] هـذه حكمة وعلم للحيـاة ، ومعرفة بـالقوانين الثابتة الـتي تحكمها ، أن العطـاء يزيد من المـال والبخل ينقصه .. ولكن ليس كل الناس يملكون الحكمة الـتي هي خـير كثـير ، لانّ التعـرف على الحيـاة طريق للسـيطرة عليها.

(**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ**)

الذين أوتـوا العقل ، ويسـتفيدون من عقـولهم بالتنبيه والتـذكرة ، لان العقل يكتشف الأشـياء ويحيط بها علما ، بشـــرط ان يتوجّه إليها ، ومهمة التـــذكرة التوجيه الى العقل.

[270] تـأثير العطـاء في الرخـاء الاقتصـادي ، تـأثير فطري ترعاه سـنة الله في الحيـاة ، سـواء عـرف النـاس بالعطـاء أم لا ، لان علم النـاس أو جهلهم ، بالعطـاء ليس له اثر في مدى تأثير العطـاء في نمو الاقتصـاد ، ويكفي : أنّ الله يعلم بـذلك ، وهو الـذي يزيد الـثروة بالإنفـاق لا الناس.

(**وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَـةٍ أَوْ نَـذَرْتُمْ مِنْ نَـذْرٍ فَـإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ**)

فيجزي به خيرا ، سواء كان انفاقكم بسابق نــذر أو لا ، اما الذين لا ينفقون أموالهم ولا يفـون بنـذورهم ، فحـتى لو اعتقد النـاس أنّهم فعلـوا ذلك ، فلن ينفعهم ادّعـاؤهم بالإنفـاق ، أو ادّعـاؤهم به في نمو أمـوالهم ، أو في منع الكوارث عنهم.

(**وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ**)

يمكنهم من نصـرة الظـالم ، الـذي لا يـدفع حقـوق الناس أو حقوق الله.

[271] مهـدت الآية السـابقة للحـديث عن كتمـان الإنفاق ، وجاءت هذه الآية تشرحه بوضـوح أكـثر .. ما دام الإنفاق في سبيل الله وليس بهدف الاستعلاء على النـاس ، فهو عمل صالح ولا يضـره علم النـاس به ، ولكن كتمانه أفضل ، لأنّه ابعد عن هواجس النفس ووساوس الشيطان ..

(**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ**)

خصوصا إذا كان ذلك يشجّع الآخرين على العطاء.

(**وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَـراءَ فَهُـوَ خَيْـرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**)

فلسـتم بحاجة أبـدا الى علم النـاس .. بل الله يعلم ، وهو يزيـدكم بالإنفـاق خـيرا ، ويـدفع عنكم الضر ، ويكفر بعض السيئات ..

[272] والإنفـاق انما هو في سـبيل الله ، وليست القيـادة الاسـلامية إلّا قنـاة للمـال المنفق توصـله الى مستحقيه ، وليست مسـئولة عن إنفـاق الأغنيـاء أكـثر من ذلك ..

(**لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ**)

انما المسـؤول الاول عن اعمـال الشـخص هو ذاته ، لان فوائده واضراره تصيبه مباشرة.

(**وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ**)

ولا يحسب إنفـاق عند الله ، الا ذلك الإنفـاق الخـالص لوجه الله.

(**وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ**)

والإنفـاق لا يختص بالمـال ، بل يمكن ان يشـمل اي شيء يملكه المرء كالجـاه حين يبذله في خـير الضـعفاء ، والعلم يـدل به الجهـال الى الخـير ، وكل شـيء ينفق فهو محبوب عند الله في كتاب ، مجزي به غدا.

(**وَما تُنْفِقُـوا مِنْ خَيْـرٍ يُـوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ**)

[273] الى هنا عرفنا شروط الإنفـاق الصـالح ، يبقى ان نعرف : اين ننفق الأموال ولمن؟

يجيب السياق على هذا السؤال.

(**لِلْفُقَـراءِ الَّذِينَ أُحْصِـرُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ**)

بسبب منع العدو لهم ، كالـذين اخرجـوا من ديـارهم ، لأنهم لم يستسـلموا للطـاغوت .. أو بسـبب الضـعف والمـرض كالمحـاربين القـدامى الـذين أكلت المعـارك شبابهم ، ثم أصبحوا ضعفاء ، لا يستطيعون امتهان عمل ، ولا يمكنهم العودة الى عملهم السابق.

(**يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**)

لأنهم لا يسألون أحدا شيئا لكرامتهم وعفة نفوسهم ..
(**تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ**)

[274] وكلمة أخيرة في الإنفـاق في سـبيل الله على الإنســان الا يضع حــدا لانفاقه بل عليه ان ينفق ، أنى وجد ثغرة في المجتمع يحاول سدها بإنفاقه ، ويكون من
(**الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوالَهُمْ بِاللَّيْـلِ وَالنَّهـارِ سِـرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

الَّذِينَ يَــأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُــونَ إِلاَّ كَما يَقُــومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّـيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قـالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْـلُ الرِّبا وَأَحَـلَّ اللـهُ الْبَيْـعَ وَحَـرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَـهُ ما سَـلَفَ وَأَمْـرُهُ إِلَى اللـــهِ وَمَنْ عـــادَ فَأُولئِكَ أَصْــحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (275) يَمْحَقُ

---

275 [الربـا] الزيـادة من قـولهم ربا الشـيء إذا زاد والربا هو الزيـادة على رأس المال وأربى الرجل إذا عامل في الربا
ومنه الحديث «من أجبى فقد أربى».
[يتخبطه] التخبط أصـله الخبط وهو الضـرب على غـير اسـتواء والخبط ضرب البعير الأرض بيده ويقـال للـذي يتصـرف في أمر ولا يهتـدي فيه فهو يخبط خبط عشواء. والتخبط المس بالجنون والتخبل لأنه كالضرب على غير استواء في الادهاش.
276 [يمحـق] المحق نقصـان الشـيء حـالا بعد حـال يقـال الله يمحقه محقا فانمحق وامتحق أي هلك وتلف بذهابه حالا بعد حال والمحاق آخر الشهر لانمحاق الهلال فيه.

اللهُ الرِّبا وَيُـرْبِي الصَّـدَقاتِ وَاللـهُ لا يُحِبُّ كُـلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـــوا وَعَمِلُـــوا الصَّـــالِحاتِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكـاةَ لَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (277) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا اتَّقُــوا اللــهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْـوالِكُمْ لا تَظْلِمُـونَ وَلا تُظْلَمُونَ (279) وَإِنْ كانَ ذُو عُسْـرَةٍ فَنَظِـرَةٌ إِلى مَيْسَــرَةٍ وَأَنْ تَصَــدَّقُوا خَيْـرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُــونَ (280) وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُـونَ فِيـهِ إِلَى اللـهِ ثُمَّ تُـوَفّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (281)

[أثيم] المتمادي في الإثم.
280 [نظرة] تأخير.
[ميسرة] الميسر والميسور بمعنى اليسار والغنى والسعة.

الربا والفساد الاقتصادي

هدى من الآيات :

من النـاس من ينفق في سـبيل الله على الضـعفاء ، ومنهم من يعكس تماما فيسـتغل الضـعفاء ، ويبـني كيانه الاقتصـادي على انقـاض ثـرواتهم المحـدودة ، هـؤلاء هم المرابـون الـذين يتحـدث عنهم القـرآن هنا ، لأنهم الوجه المتنــاقض مع المنفقين الــذين تحــدث عنهم الــدرس السابق.

والآية الاولى تحــدثت عن النتــائج المــرة للخلط بين الــبيع والربا ، وبينت الآية الثانية الفــرق بين المنفق في سـبيل الله والمـرابي ، فـالأول يضـاعف له الله والثـاني يمحقه.

وبعد ان وجه القــرآن الانظــار الى الصــلاة والزكــاة باعتبارهما وسـيلتي خلاص للمـؤمن من ضـغط الشـهوات ومنها شهوة الاثراء السـريع بالربا ، بعدئذ وجه نـداء آخـرا للمؤمـنين بـترك الربا والاكتفـاء فقط بـرأس المـال ، ولم يكتف القرآن بذلك. بل

امر في الآية التالية بأن يعطي مهلة كافية لمن لا يستطيع تسديد ديونه ، اما الآية الاخـيرة فقد ذكرتنا بـالتقوى ، تلك الصــفة النفســيّة الــتي يكــون تجنب الربا واحــدا من مظاهرها.

بينات من الآيات :

آثار الربا :

[275] التجـــارة تزيد العقل ، لأنها تحمل بين طياتها مخـاطر الخسـارة ، فيفكر صـاحب التجـارة بكل أسـلوب ينجح تجارته ويجنبها الخسـارة ، وبـالتفكر المسـتمر ينمو العقل اما لو اطمأن الإنسان الى مصـدر ثـابت من الـربح يأتيه بلا تعب فلما ذا يفكر؟!

انه يعطل عقله لأنه لا يحتاج اليه شـيئا فشـيئا يضـمر العقل حـتى ينتهي ، والربا هو ذلك المصـدر الثـابت الـذي ينتظره كل الكسالى حيث يـأملون ان تكـون لـديهم ثـروة معينة يقرضونها للفقراء مقابل جـزء من جهـدهم ، سـواء خسر أولئك الكادحون أم ربحوا ، وبذلك فان اخطر إضرار الربا هو تشــجيعه على تكــوين طبقة من المــترفين والمعتوهين في المجتمع.

(**الَّذِينَ يَــأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُــونَ إِلَّا كَما يَقُــومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِ**)

لا يجهـدون أنفسـهم إنما يقومـون ويتحركـون لمجـرد اللهو حيث يخالطهم خبل من الشيطان.

إن هــذا الخبل نتيجة طبيعية لاختيــارهم الســيء منذ البداية ، حيث انهم اختاروا الربا ، وخلطوا بينه وبين البيع ، فخالطهم الخبل وأصبحوا معتوهين طبيعيا ، لخلطهم

الباطل بين البيع والربا.

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا**) وزعموا انه كما يجــوز التعامل بــالبيع والاكتســاب به ، كــذلك يجــوز الاكتساب بالربا ، فـالبيع عنـدهم هو الربا بالضـبط ، ولكن بصـورة اخـرى : أنت في الـبيع تعطي سـلعة وتأخذ ثمنا ، وهنا تعطي قرضا وتأخذ إيجاره. كلا ..

(**وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا**)

بالطبع ليس عبثا انما لهـدف محـدد هو : منـافع الـبيع وإضرار الربا.

(**فَمَنْ جـاءَهُ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّهِ فَـانْتَهى فَلَـهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ**)

له ما ســـلف من رأس أمواله ، وهو مرجو لأمر الله إن يشأ يعذبه أو يتوب عليه.

(**وَمَنْ عـــادَ فَأُولئِكَ أَصْـــحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

[276] والربا يســبب تكــوين طبقة من المــترهلين والعـاطلين عن العمل المنتج ، فيـؤخر اقتصـاد المجتمع ، وهو في ذات الوقت يمتص جهـود الفقـراء ، ولا يشـجعهم على العمل الجاد ، بينما الإنفاق في سـبيل الله ، وإعطـاء الفقـراء صـدقات لرفع عـوزهم ، وتهيئة رأس مـال لهم ، سوف يسبب في تدوير الثروة ، وتحريك عجلة الاقتصـاد ، وتشجيع العاطلين على العمل من هنا تقع الصدقات ، في مواجهة الربا تماما.

(**يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ**)

والصدقات دليل على ايمان المنفقين وشكرهم لنعمة الــثروة ، بينما الربا دليل كفر المــرابين الحقيقي! بالله ، بالرغم من تظاهرهم بالايمان كما انه عمل اجرامي

واثيم.

(**وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**)

وربما جاءت كلمة الكفار بصيغة المبالغة للدلالة على ان المرابي يكفر مرتين ، مرة حين لا يدفع للفقراء الصدقة ، ومرة حين يمتص جهود الفقراء بالربا.

ما هو العلاج؟

[277] كيف نتخلص من الربا؟ ان القلب البشري يهوى الثروة ، ومن الصعب التخلص من هذا الهوى؟

يقول القرآن الحكيم : أن طريقة الخلاص من شهوة الثروة هي الايمان بالله ، والعمل الصالح ، والصلاة ، والزكاة.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

[278] ان تنمية التقوى في النفس هي مسئولية المسلم نفسه ، فعليه الا ينتظر شيئا يربيه ، أو شخصا يعظه ، بل ليكن واعظ نفسه ومربيها ، وليتخلص من السلبيات وفي طليعتها الربا.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

فاذا كانت بينكم وبين الناس ربا ، فارضوا منهم فقط برأسمالكم ، واعفوهم عن الربا.

[279] إذ لو لم تتقوا الله ، فان الله يعلن عليكم حربا تتمثل في تخلف

فتصادكم ، واشاعة الخلاف بينكم ، وتسلط العدو عليكم ، ونزول الكوارث الطبيعية بكم. وغيرها ..

(**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَـرْبٍ مِنَ اللـهِ وَرَسُـولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْـــوالِكُمْ لا تَظْلِمُـــونَ وَلا تُظْلَمُونَ**)

[280] يمكنكم اســتعادة رؤوس أمــوالكم الــتي دفعتموها للمقترضين دون أخذ الربا منهم ، ولكن لا يجـوز لكم الضغط عليهم.

(**وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ**)

الذي استدان منكم.

(**فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ**)

فلا بد من إعطــاء مهلة حــتى يقــدر على الوفــاء ، والأفضل من إعطاء المهلة هو التغاضي رأسا عن الـدين ، واعتباره صدقة.

(**وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

[281] صــحيح ان من الصــعب عليكم ذلك ، ولكن يجب على الإنسان ان يتجـاوز الـدنيا في سـبيل الحصـول على الآخرة ، فغـدا لا تنقذ الإنسـان من عـذاب الله ثروته أو شهرته.

(**وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا وَلا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنى أَلاَّ تَرْتابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ

أَلاَّ تَكْتُبُوها وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وَلا يُضَـارَّ كـاتِبٌ وَلا
شَـهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُـوا فَإِنَّهُ فُسُـوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُـوا اللـهَ
وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282) وَإِنْ كُنْتُمْ
عَلى سَـفَرٍ وَلَمْ تَجِـدُوا كاتِبـاً فَرِهـانٌ مَقْبُوضَـةٌ فَـإِنْ
أَمِنَ بَعْضُـكُمْ بَعْضـاً فَلْيُـؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَـهُ وَلْيَتَّقِ
اللـهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُـوا الشَّـهادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ
قَلْبُهُ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283)

العلاقة التكاملية بين

التقوى والأنظمة الاجتماعية

هدى من الآيات :

تكميلا للحديث عن الإنفاق والربا ، تحدث القـرآن في الآيتين ما قبل الأخيرتين من سورة البقرة عن التقوى في الـــــدين. مما يحتـــــاج اليه المجتمع ، وأمر ألا يعتمد أحد الطـرفين على حسن سـلوك الطـرف الآخر ، بل يضـبط عمله ، فيكتب دينه الى أجله ويستشـــهد عليـــه. والكتابة تكون بيد أمين ، يملي عليه صاحب الـدين فيكتب. وان لم يكن هناك كاتب ، فلا بد أن يقبض صاحب الحق رهينة.

إن حكم الدّين ، مثل بسـيط وواضح للعلاقة التكاملية بين التقـــوى كـــرادع نفسي للمســـلم عن الظلم ، وبين الأنظمة الاجتماعية الـتي تمنع الظلم. فلا يمكن أن يكتفي المجتمع بواحد عن الآخـر. إذ قد يكـون الظلم ناشـئا من عامل السهو والغلط والنسيان ، وقد تكون التقـوى ليست قوية الى درجة منع الظلم ، ولكنها إذا قـــــرنت بالأنظمة الاجتماعية تصبحان معا عامل ردع ضد الظالم.

لهـــذا نجد : ان الله يـــأمر بـــالتقوى لتكميل ثغـــرات الانظمة ، فالكاتب والشهيد

وصـــاحب الحق ومن يقـــترض منه ، يجب ان يـــتزود كل أولئك بـــالتقوى ، حـــتى يمكنهم التعامل من دون ظلم. الكـاتب يكتب بالعـدل ، والشـهيد يقـوم بالشـهادة لله ، وصاحب الحق لا يسأم من كتابة دينه صغيرا أو كبيرا ،

ومن عليه الحق (المقترض) لا يضار بالكاتب والشهيد ، كـلّ هـذه ثغـرات قانونية لا تسد إلّا بـالتقوى. وتـأتي آية الـــدين لتكمل حـــديث القـــرآن هنا عن التقـــوى وربطها بالأنظمة الاجتماعية.

بينات من الآيات :

كتابة الدّين :

[282] من هنا يقـــرر القـــرآن أن من المفـــروض أن يكـون الـدين الى أجل مسـمى ، وأن يكتب حـتى تسـهل المطالبة به ، وبالتـــالي لا يحجم أحد عن إقـــراض أخيه بحجة الخوف من المماطلة فيه أو إنكاره.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذا تَـدايَنْتُمْ بِـدَيْنٍ إِلى أَجَـلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ**)

وهنا تلقى المســـــؤولية على المثقفين ، فعليهم أن يراعـــوا العـــدل في الكتابة فلا يزيـــدوا أو ينقصـــوا ، وأن يتحملوا مسئوليتهم في الكتابة فلا يحجموا عنها بســبب أو بآخر.

(**وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كـاتِبٌ بِالْعَـدْلِ وَلا يَـأْبَ كـاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ**)

وليتذكر الكـاتب ان الله هو الـذي زوده بنعمة العلم ، فعليه أن يـؤدي شـكر هـذه النعمة باسـتثمارها في خدمة المجتمع ، فلا يمتنع عن الكتابة وليكتب.

(**كَما عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُ**)

أيّ فليكتب الكـاتب حسب ما يمليه عليه المقـترض لا حسب ما يمليه الدائن ،

لان المقترض هو الـذي سـوف يطـالب بالمـال في الأجل المحدد ، وعليه أن يعترف سلفا بما يمكن فرضه عليه.

(**وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً**)

وهنا يــأتي دور التقــوى حيث من الممكن أن يتلاعب المقترض في الأوراق ، فلا يعترف حين الكتابة بكل المال الذي استدانه ، أو بالأجل المحــدد له ، فعليه أن يتقي الله ولا يغيّر في الكتابة الرســمية ، منذ البــدء ، تمهيــدا لأكل أموال الناس بالإثم.

(**فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً**)

كأن يكون مريضا أو صغيرا.

(**أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ**)

بــأيّ سـبب من الأسـباب كـأن يكـون مسـافرا ، أو شخصا كبـيرا لا يمكن حضـوره عند الكـاتب أو ما أشـبه ، فآنئذ يقــوم وكيله ووليه بــالإملاء على الكــاتب ، ويعتــبر إقراره وتعهده كافيين لمطالبة موكله أو وليه بالحق.

(**فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْـهِدُوا شَـهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ**)

على الورقة الرسمية.

(**فَــإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُــلٌ وَامْرَأَتــانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ**)

من الــذين تقبل شــهادتهم لمزيد الثقة فيهم ، ولكن لماذا تخلفت المرأة عن الرجل في الشهادة؟

الســبب ان المــرأة قد لا تضــبط الشــهادة بســبب انصرافها عنها ، وانشغالها عادة

بـأمور اخــرى ، فكــان من المفــروض أن يــزداد العــدد لمواجهة النقص في النوعية.

(**أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى**)

وإذا طلب من الشهداء الحضـور فعليهم الحضـور لأنه من دون حضورهم قد يضيع الحق.

(**وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا**)

ويجب أن يكتب دينه أنى كان قليلا أو كثيرا.

(**وَلا تَسْــئَمُوا أَنْ تَكْتُبُــوهُ صَــغِيراً أَوْ كَبِــيراً إِلى أَجَلِهِ**)

لأنه من دون الكتابة يتعرضون للـنزاع ، والـنزاع قليله كثــير ، وقد يمنع الــنزاع الصــغير من تــدوير الــثروة في المستقبل.

(**ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا**)

فالله يحب ذلك لأنه يضع حــدا لأكل المــال الحــرام ، وهو يســهل عملية الشــهادة ، لأن النص المكتــوب دليل قــوي على الحق ، وهو بالتــالي يمنع انتشــار الــريب في المجتمع الإسـلامي ، واللاثقة الــتي تتســبب بــدورها في تحجيم المعاملات التجارية.

(**إِلَّا أَنْ تَكُــونَ تِجــارَةً حاضِــرَةً تُــدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها**)

فلا يكتب لتسهيل عملية التجارة من يد تـاجر الى آخر ، مما يعــرف بــالطبع مواقع تــداول الســلعة فلا يتعــرض للنسيان ، كما أن الإنكار فيها أو السرقة غير وارد. بسـبب طبيعة انكشافها لدى الناس.

(**وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ**)

لان ذلك أقسط عند الله ، وأبعد للخلاف في المستقبل. خصوصا في الصفقات الكبيرة كالعقارات.

(**وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ**)

أيّ لا يجوز الإضرار بهما بسبب شهادتهم بالحق.

(**وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ**)

فالإضـرار بالكـاتب أو الشـهيد يجعلهما يميلـون عن الحق ويجأرون الأقوى ، وقد تكون أنت الأقوى اليوم ، أما غدا فيكون خصـمك هو الأقـوى ، بينما تكـون أنت صـاحب الحق ضـعيفا. وإذا انتشر في المجتمع الإضـرار بالكـاتب والشـهيد ، وبالتـالي انتشـرت الكتابـات الوجاهية وشـهادة الزور ، آنئذ قد تصبح أنت ضحية هذا الفسوق ، لذلك قـال القـرآن : (**فُسُـوقٌ بِكُمْ**) أي فسـاد يشـملكم كلكم ، وهنا ثغـرة قانونية تسّـدها التقـوى ، إذ ينبغي أن يلـتزم الجميع بعدم الإضـرار بالكـاتب والشـهيد التزاما نابعا من إيمـانهم بالله ، حتى لا ينتشر الفساد والفسوق. وأخيرا يذكرنا الله بعلاقة التقـوى بـالعلم ، ويـبيّن انه إذا كـانت التقـوى نابعة من الإيمان بالله ، فان العلم هو الآخر نعمة من نعم الله ، فعلينا ألّا نكتفي بواحد عن الآخر.

(**وَاتَّقُـوا اللـهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللـهُ وَاللـهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ**)

هذه الآية أطول آية في القرآن ، وتنـاولت العلاقة بين الغيب والشـــهادة ، بين الـــروح والجسم ، بين الإيمـــان والعلم ، وبالتـــــالي بين النصـــــائح الخلقية والانظمة الاجتماعية ، وهي توصي بضرورة الوصول الى الحق عـبر أيّ وسيلة مادية أو معنوية مشروعة ممكنة ، ويـدع البـاب مفتوحا أمام بعض الوسائل الحديثة التي تكشف

صــاحب الحق مثل التحقيقــات الجنائية ، طبع الأصــابع ، الكشف العلمي على الخط ، جهـــاز الكـــذب عن طريق تسـارع نبضـات القلب .. وما أشـبه. إن كـلّ وسـيلة مادية توصــلنا الى اليقين التـام والعلم القــاطع بالحقيقة يــأمر الإســلام بها ، ويعتمد عليها جنبا الى جنب اعتمـــاده على روح التقوى النابعة في النفوس.

[283] وتكميلا للحديث عن الدّين يتحدث القرآن عن الرهن فيقول :

(**وَإِنْ كُنْتُمْ عَلى سَـفَرٍ وَلَمْ تَجِـدُوا كاتِبـاً فَرِهـانٌ مَقْبُوضَةٌ**)

فإن الرهن يساعد على استمرار العلاقة التجارية بين الناس ، فعملية الرهن ليست مفروضة لذاتها ، بل بهــدف المحافظة على حق الدائن.

(**فَــإِنْ أَمِنَ بَعْضُــكُمْ بَعْضــاً فَلْيُــؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ**)

فما دام الشخص وضع ثقته فيك فلا تخنه في أمانته ، واتق الله لأنه ســيطالبك بحق صــاحب الأمانة ، ويأخــذه منك عاجلا أو آجلا.

(**وَلا تَكْتُمُوا الشَّـهادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُـهُ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**)

فــإذا كــان أحد من النــاس يعــرف أمانة عند أحد ، فليشهد لصاحب الأمانة ولا يكتم الشهادة. فإن ذلك سوف يسبب نقصا في إيمانه.

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا ما
فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ
يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (
284) آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا
نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا
غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) لا يُكَلِّفُ اللهُ
نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ
رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ
عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَلا

---

286 [إصرا] كل ما عطفك على شيء من عهد أو رحم. وأصل الباب العطف فالاصر الثقل لأنه يعطف حامله بثقله عليه.

تُحَمِّلْنا ما لا طاقَــةَ لَنا بِـــهِ وَاعْـــفُ عَنَّا وَاغْفِــرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكـافِرِينَ (286)

المسؤولية ومسقطات الأحكام

هدى من الآيات :

في الدرس الأخير من هذه السورة ، يحـدد الله بعض بنود المسؤولية والتي تزرعها التقـوى في النفس ، فيـبيّن ..

أولا : ان الله يحاسب الإنسان على كـلّ عمل ، وعلى كـــلّ نية ســـواء أظهرها الإنســـان أم لا. فما دامت النية «الإرادة» هي منشأ العمل ، فان الله يحاسب عليها.

ثانيا : أهم مســئولية على الإنســان وهي مســئولية الايمان بالله ورسوله والاعتقاد أبدا بالتقصير امام الله.

ثالثا : يـبين حـدود مسـئولية الإنسـان ، انها في إطـار قدراته. فبقـدر سـعة قـدرات الإنسـان تتسع مسـئولياته ، وكلَّ إنسـان يتحمل مسـئولياته دون مسـئوليات الآخـرين. وهنا اســتثناءات في المســؤولية منها : الخطأ والنســيان والحرج والعجز (الضرر).

هذه الاستثناءات خاصة ليست دائمية بل في ظـروف معينة (كالجهاد في سبيل الله) لا يسـتثني عن المسـؤولية شيء. ذلك لان النسيان ينشأ من اللامبالاة ، والخطأ ينشأ من عــدم الجديــة. أما الحــرج والضــرر ، فهما يرافقــان ظروف الجهاد بصورة طبيعية.

وتنتهي سورة البقرة بالدعاء بالانتصار على الكـافرين ، وهو التطلع العظيم الــذي يبقى دافع الأمة نحو التقــدم والبناء ، والمحور الـذي تلتف حوله فئـات الأمة فتبتعد عن التشرذم.

بينات من الآيات :

[284] إصـلاح الأمة يبـدأ من إصـلاح أفرادها ، ويبـدأ إصلاح الفرد بتزكية نفسه وتصحيح منطلقاته وأهدافه.

ذلك لان كـــلّ شـــخص يعمل وفق ما تمليه أهدافه ، وينظر الى أحــداث الحيــاة ويحــدد مواقفه منها حسب منطلقاته. والقرآن الحكيم يحمّل الإنسان مسئولية إصلاح منطلقاته وأهدافه حين يحمله مســئولية أفكــاره. فلست حــرا في أن تفكر ما شـئت ، ذلك لان بعض تلك الأفكـار من أبنية الشـيطان الـتي تكـبر وتكـبر حـتى تصـبح أعمـالا خبيثة. فعليك أن تفرض على قلبك رقابة شديدة ، حـتى لا تــدخلها كل فكــرة خبيثة وهاجسة انحرافيــة. وعليك أن تعــــــرف ان علم الله وقدرته وســــــلطته تحيط بك وبالسماوات والأرض فانتبه لكلّ أعمالك.

(**لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

والإنسان بعض ما في الأرض.

(**وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُـوهُ يُحاسِـبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ**

لِمَنْ يَشاءُ)
وهم الـذين إذا مر بهم طـائف من الشـيطان تـذكروا فاسـتغفروا الله ، هـؤلاء يقبضـون على الأفكـار المتسـللة الدخيلة الى قلوبهم ويطردونها ، فيغفر الله لهم الله ، بعد أن يحاسبهم حسابا يسيرا.
(**وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)
قادر على الحساب الـدقيق لما يجـري في النفـوس ، وقادر على الجزاء. وربما هذه الآية جاءت لتـبين مسـئولية الإنسان تجاه أفكاره تكميلا لبيان مسئوليات البشر.
[285] فالإنسان إذا مسـئول عن تصـرفاته ومسـئول عن أفكاره ، وعليه فهو مسئول عن الإيمـان أو الكفر في قلبه. ان الإيمان عمل مسئول لصاحبه ، ذلك لان كلّ بشر يولد بالفطرة الـتي يسـتطيع أن يعـرف الله بها ، لو لا انه يطمر فطرته في تراب الشـهوات ، ويحتجب وراء سـحب الأساطير والخرافات ، فلا يؤمن بالله. إلّا الذين يستجيبون لفطـــرتهم ويســـتنيرون بنـــور العقل ويخرقـــون به حجب الغفلة والأســـاطير ، انهم يصـــممون على أن يقـــاوموا ضغوط الهوى باتجـاه الفكر ، وأن يتبعـوا هـدى العقل في الإيمان بالله.
من هنا فـالمؤمنون هم الـذين يتحملـون مسـئوليتهم تجاه ما يجري في قلوبهم فيختارون الايمان.
(**آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُـونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُـلِهِ لا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**)
هـذه هي عناصر الإيمـان الأساسـية وهي قاعـدة بنـاء الشخصية المسـلمة الـتي يلخّصـها القـرآن في نهاية هـذه السورة التي تحدثت عنها بشكل مسهب. الإيمان بما

انـــزل الله من كتـــاب ، والإيمـــان بالرسل جميعا دون حساسية تجاه رسول ، إذ أن أية حساسية من هـذا النـوع تضر بالإيمان ذاته.

فـاليهود مثلا ، الـذين لم يؤمنـوا بـالنبي محمد (ص) انطلاقا من حساسـيتهم تجـاه العـرب ، كـانوا كفـارا حـتى برسـالة موسى ، لأن رسـالة موسى ، لم تكن عنصـرية ، بل إلهية وهم حوّلوها الى عنصرية.

والإيمـــــان بالملائكة هو رمز الإيمـــــان بهيمنة الله وسلطانه في كـلّ شـيء ، وانه الـذي يـدبر ما في الكـون من فوق عرشه العظيم الذي وسع السماوات والأرض.

وهـذا الإيمـان يـدفع بصـاحبه الى السـماع والطاعـة. الســـماع لفهم كتب الله ورســـالاته. والطاعة لرسل الله ورجال دعوته.

(**وَقــالُوا سَــمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَــكَ رَبَّنا وَإِلَيْــكَ الْمَصِيرُ**)

والإيمـان يـدفعك الى الشـعور بالمسـؤولية والخشـية من الــذنب والاهتمــام بــالمغفرة ، كما ان الإيمــان بالله يـدفعك الى الإيمـان بـأن مصـير العبـاد اليه ، وأنّه يجـازي على الحسنات وانه قادر على أن يبعث الموتى.

إطار المسؤوليات :

[286] ما هي حـــدود المســـؤولية وبالتـــالي حـــدود التقوى التي تحدثت عنها الدروس السابقة؟

أهم هذه الحدود :

1 ـ القدرة. ان القدرة شرط عقلي للتكليف ، ولـذلك لا يكلف الله أحدا على أعمـال الآخـرين لأنه لا يقـدر عليها فبقدر استطاعتك يكلفك الله ، ولن يكلف الله

أحدا الا بما يقدر. فلو استطاع شخص التـأثير على النـاس باتجاه الخير ، فسـوف يكلف بهم بقـدر اسـتطاعته ، وفي حدودها ولا يكلف الطفل الذي لا يميز شيئا ، ولا المجنـون ، ولا المريض بما يعجز عنه ، ولا المعدم.

ولا يحمّل الله الإنسـان مسـئولية الهـواجس الـتي تـتزاحم في قلبه من دون إرادة منه (كالحسد الـذي لا يطيعه صاحبه أو كالتشكك في الخلق ، والتشاؤم الـذي لا يتبعه صاحبه ، ونية السوء التي لا يحققها صاحبها وهكذا).

والتكليف يقـدّر أيضا بالعمل سـلبا وإيجابا .. فبقـدر عملك الصالح تجازى بالخير ، وبقدر عملك السيء تعـاقب بالسوء. ولا ينفعك عمل غيرك كما لا تضرك ذنوبه ، أبـوك ، مجتمعك ، قادتك ، أئمتك ، كلّ يعمل لذاته ، وأنت تعمل لنفسك وانما عملك يشفع لك.

(**لا يُكَلِّفُ اللـهُ نَفْسـاً إِلَّا وُسْـعَها لَها ما كَسَـبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ**)

2 ـ والخطأ الذي يرتكبه الإنسان من دون عمد معفي عنه ، بـالرغم من ان المسـؤولية قد تشـمله بسـبب ان الخطأ ينشأ من اللامبالاة. ومن هنا نجد ان الله وضع على بعض أنواع الخطأ كفّارة ليردع الناس عنها ، وليزيـدوا من اهتمـامهم بأنفسـهم ولا يتورطـوا فيهـا. مثل كفـارة الخطأ في الحج وكفارة قتل الخطأ.

3 ـ النسـيان هو الآخر معفي عنه بـالرغم من انه يقع في حـدود قـدرة الإنسـان أيضـا. فبالاهتمـام تسـتطيع ألا تنسى شيئا.

من هنا جـاء تعبـير القـرآن عن رفع مسـئولية الخطأ والنسيان بصورة دعاء. بينما كان التعبير عن رفع مسئولية العجز ـ بشكل قاطع ـ قال الله :

(**رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا**)

4 ـ التكاليف التي تسبب ضررا لحياة الإنسان وابتعادا عن سنن الله ، كالرهبنة والاعتزال عن الناس والامتناع عن الزواج أو عن أكل الطيبات ، ان هذا النوع من التكاليف كانت في الأمم لاسباب مرحلية ، ولكنها انتفت في الإسلام لأن الإسلام ليس دينا مرحليا بل دين أبدي ، للبشر.

5 ـ في الإسلام خففت التكاليف المجهدة والتي سمّيت بالحرج فإذا أصبح الصوم مرهقا لصاحبه وسيتنفد كلّ جهده وكلّ طاقته ، يجوز له آنئذ أن لا يصوم. وكذا الحج وكلّ التكاليف. لذلك قال :

(**رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ**)

هذه هي حدود المسؤولية ، وهي مشكلة الإنسان انه قد يقع في الذنب حتى داخل هذه الحدود فيحتاج الى العفو. العفو عن الذنب والتغاضي عنه ، وعدم العقاب عليه ، اما الغفران فهو محو الذنب من قائمة الشخص وتصفية آثاره. والإنسان بحاجة الى عفو الله وغفرانه ، كما يحتاج الى توفيق الله له بان يصلح من نفسه ما أفسده الذنب عليه.

إن كلّ ذنب يخلّف في ذات الشخص وداخل مجتمعة آثارا ، وعلى الإنسان الذي يتوب الى الله من ذنوبه أن يقوم بجهد مكثف بإصلاح ما أفسدته الذنوب ، وهنا يحتاج إلى رحمة الله.

(**وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ**)

وهـذا الـدعاء الأخـير هو تطلع الأمة الى المسـتقبل ، هذا التطلع الذي يعتبر هدف الأمة المقدس الـذي يتمحـور حوله كلّ أبنائها.

إنّ أية أمة بحاجة الى هــدف يكــون بمثابة حبل يشد بعضـهم ببعض ، وقنـاة تصب فيها جهـود الأمة ، ومقيـاس لمــدى تقــدم الأمة أو تخلفها ، ودافع قــوي لأبنــاء الأمة بالتضحية والعطاء والنشاط والتعاون.

والأمة الإســـلامية تتطلع الى يــــوم تنتصر فيه على الكــافرين ، وتحقق مبــادئ الإســلام في الأرض ، وتحمل الخـير لجميع النـاس. انها تتطلع الى تطـبيق رسـالتها في الأرض ، ولذلك فهي ليست أمة عدوانية ، أو عنصـرية ، أو استعمارية ، إنها أمة تبني ذاتها لتهيئها للعطاء.

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

عن ابن كعب عن رســـــول الله (ص): «**من قـــــرأ ســـورة آل عمـــران يـــوم الجمعة صـــلى الله عليه وملائكته حتى تجب الشمس**»

وعن بريدة عن رسول الله (ص) انه قـال : «**تعلّمـوا سورة البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما الزهراوان ، وانهما تظلان صـــــاحبهما يــــوم القيامة ، كأنهما غمامتان ، أو غيابتان ، أو فرقان من طير صواف**»

مجمع البيان ص 405

الإطار العام للسورة

لما ذا الاسم؟

لماذا سميت هـذه السـورة باسم «آل عمـران»؟ هل لأنهم كـانوا يشـكلون التجمع الايمـاني الصـادق وبما ان سـورة «آل عمـران» تتحـدث عن الامة الاسـلامية كتجمع مبدئي يتمحور حول الايمان بالله والحق. فقد سميت بـآل عمران كمثل واقعي لهذا التجمع؟

أم لأن التجمع الايمـاني يتمحـور حـول اشـخاص ، هم رسل الله في الأرض ، وهؤلاء الأشخاص هم صفوة الناس الـــذين اختـــارهم الله بحكمته البالغة لما علم فيهم من إخلاص لله ، وصـــــــدق في العمل من أجل الله و «آل عمـران» هم مثل بـارز لهـؤلاء الصـفوة فكـانت السـورة باسمهم.

سواء كان هـذا أو ذاك السـبب في تسـمية السـورة ، فان الله خلّد هذه العائلة الكريمة بذلك ، لكي تكون قدوة للإنسان المسلم ، وللاسرة المسلمة ، وبالتالي

للمجتمع الايماني.

ما هو الإطار العام؟

قيمتــان تحكم النــاس : قيمة رســالات الله ، وقيمة الأرض وفيها من زخـــرف الحيـــاة والـــدنيا. تتجلى قيمة الرســالة في الايمــان بالله ، والتســليم له ، واتبــاع الحق الــــذي أوحــــاه الله ، وطاعة رسل الله بلا تفريق بينهم. وبالتـالي قيمة مسـئولية الإنسـان الكاملة عن اي تصـرف يقوم به.

وتتجسد قيمة الأرض في تقـــــــــديس البشر لذاته ، والاعتقاد بالتمييز العنصري ، ومن ثم القـومي ، والاقليمي ، والطبقي ، والتنصل عن بعض المســؤولية اعتمــادا على العنصرية.

وتتحدث سورة «آل عمـران» عن التقابل بين قيمـتي السماء والأرض ، في الحقل الاجتمـاعي حيث تـبين لنا أن الامة الاســلامية ، انما هي تجمع مبـدئي ، تســتمد تلاحمها من قـــوة الرســالة ، وتتمحـــور حـــول قيم الايمـــان بالله والتسليم له (الإسلام) والخضوع للحق وتقبل المسؤولية ، وبالتالي الجهاد الذي هو قمة المسؤولية والتضحية.

وتتحدث هذه السورة عن الوحدة المبدئية التي تربط رســالات الســـماء ببعضـــها ، كما تربط عناصر الأمة فيما بينها ، وكــــذلك تفصل بين الامة الاســــلامية وبين الأمم العنصرية الاخرى ، فالمبدأ هو المقيـاس وهو القيمة ، فهو الذي يفصل بين الأخ وأخيه ، وهو الـذي يربط بين العـربي والأعجمي.

ومن هنا تشير آيات سـورة «آل عمـران» الى فكـرة (العنصرية) والتي تتجسد في عبـادة اشـخاص ، واتخـاذهم آلهة من دون الله ، (كمثل عيسى عند النصـارى). باعتبـار هذه الفكرة هي جذر فكـرة العنصـرية ، والـتي هي أخبث ثمرة لتقديس الذات. لذلك

يفصّل القرآن الحديث حولها.

وهذه السورة ، تتحدث في البدء عن الله الـذي انـزل الكتـاب بـالحق ، ليهـدي النـاس ، ولأن الله لا يخفى عليه شيء ، فهو أحق ان يهدي الى الحق.

والكتاب الـذي يمثل الـدين الحق ، لا ريب فيه ، وإنما يختلف فيه البعض لأنهم يبتغون الفتنة ، ويعتمدون تحريف الكتاب بسبب ابتعـادهم عن المسـؤولية ، فهم لا يؤمنـون باليوم الآخر ، ويزعمون ان أموالهم تغنيهم عن العذاب.

إن الشـهوات هي وراء انحـراف النـاس عن الحق ، وإنما الخلاص منها بالإيمـان بـالآخرة ، وبما أعـدّ الله للصابرين عن الشهوات من أجر عظيم.

ورسالة الله الى الإنسان واحـدة ، لأنها تشع من ذات المشـكاة ، بيد أن اختلاف النـاس فيها نـابع من أنفسـهم المريضة ، التي تريد الظلم والبغي ولكي تتخلص البشرية من الاختلاف ، فلا بد ان يتكامل ايمانها بالله ، ويبتعد عن العنصرية ، ويعرف أنّ الله يراقب تحركاته ، ويـؤمن بيـوم الجزاء ويتبع رسل الله.

وقد اختـار الله رسـله لأنهم أتبعـوا الله وأخلصـوا له العبـادة ، فليست هنالك اية عنصـرية ، وليس عيسى الّا عبـدا للـه. امتحنه الله فاختـاره لرسـالته. وإذا لم يكن عيسى الّا عبده ، جزاه الله بصالح عمله فهل يقـدر البشر ان يتقـدموا بلا عمل صـالح ، ولمجـرد انهم من عنصر مقدس؟! إنّ العنصرية هي اسوأ ما تعانيه البشرية ، وهي الطرف المعاكس والمتناقض تماما مع الرسالية.

وسـورة «آل عمـران» تنسف فكـرة العنصـرية من جـذورها البعيـدة ، وتتحـدث طـويلا عنها من خلال بيـان مفصّل لقصة عيسى ، ومن خلال الحديث عن إبراهيم

الذي قدّسه اليهود ، وزعموا أنهم أوليـاء الله لمجـرد انهم أبناء إبراهيم.

كما ان هذه السورة تتحدث عن الوحدة داخل التجمع الايماني ، وما يجب ان تكون عليه الوحدة من صفات.

وكلمة اخــيرة : ان ســورة «آل عمــران» تتحــدث مباشـــرة عن المســؤولية ، باعتبارها أهم نتــائج التجمع الايماني ، وفي نهايات السورة ـ تتضح ـ فكرة المسـؤولية ويضــرب الســياق أمثلة توجيهية لها ، أبرزها الجهــاد في سبيل الله.

وبمناسبة الحـديث عن المسـؤولية ، تتحـدث السـورة عن الجزاء ، وتبين ان كلّ من عمل صالحا سـيجزي بعمله ، وانّ من الخطأ تصـــنيف النـــاس حسب انتمـــاءاتهم العنصرية ، أو ولاءاتهم الدينية.

هـــذه الفكـــرة هي الـــتي تختم الســـورة آياتها بها ونسـتوحي منها ضـرورة الاعتمـاد على العمل في سـبيل الله.

سورة آل عمران

وآياتها 200

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**الم (1) اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ
عَلَيْـكَ الْكِتـابَ بِـالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْـهِ وَأَنْـزَلَ
التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيـلَ (3) مِنْ قَبْـلُ هُـدىً لِلنَّاسِ وَأَنْـزَلَ
الْفُرْقـانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا بِآيـاتِ اللـهِ لَهُمْ عَـذابٌ
شَـدِيدٌ وَاللـهُ عَزِيـزٌ ذُو انْتِقـامٍ (4) إِنَّ اللـهَ لا يَخْفى
عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (5) هُـوَ الَّذِي
يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (6)**)

---

6 [يصوركم] : التصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها.
[الأرحــام] : جمع رحم وأصــله الرحمــة. وذلك لأنها مما يــتراحم به ويتعاطف يقولون وصلتك رحم.
[يشاء] : المشيئة هي الارادة.

رسالات الله

بين الوحدة والعنصرية

هدى من الآيات :

بعد ان يـذكرنا الـدرس الأول من سـورة آل عمـران بربنا الذي لا اله الا هو الحي القيوم ، يبصّرنا بـأن الكتـاب الـذي نزّله الله على قلب الرسـول حـق. وانه يصّـدق ما مضى من كتب. وان منزّله هو الذي انزل من قبل التوراة والإنجيل ، مما يـوحي بوحـدة رسـالات اللـه. أو ليست جميعا هـدى للنـاس. وانّه لقـرآن كـريم يفـرق بين الحق والباطل ، وينذر الكافرين به بعـذاب شـديد نـازل من عند عزيز منتقم.

والذي انـزل الفرقـان حكيم خبـير بمصـالح عبـاده. لا يخفى عليه شـيء في الأرض ولا في السـماء. وهو الـذي يحيط علما بطبائع البشر. أو ليس قد صوّرهم في الأرحام كيف يشاء. سبحانه لا شريك له وهو العزيز الحكيم.

بينات من الآيات :

[1] (**الم**).

كلمـات مضـيئات ، معجـزات لا يعـرف مـداها الّا الله والنبيّ (ص) والراسخون

في العلم.

[2] (**اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**).

كلمة التوحيد هي النقطة الاساسـية الـتي تتمحـور حولها الامة الاسـلامية. فهي خلاصة قيمها (لان القيم مسـتوحاة من اللـه) ، وهي رمز وحـدتها. وهي قاعـدة قيادتها ، لـذلك بـدأت السـورة بهـذه الكلمة : أمّا «**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**» فهما اسـمان من أسـماء الله تعـالى ، يرمز كل واحد منهما الى جانب من فكرة السورة.

(**الْحَيُ**)

اسم يرمز الى أهم الصفات الذاتية لله ، صفة القدرة والارادة والعلم ، إذا العـاجز والمجبـور ، والجاهل ، يفقد من حياته بقـدر عجـزه وجـبره وجهلـه. وتعـالى الله عن الموت بكل اشكاله وصوره ، انه الحي مطلق الحياة.

ما هو القيوم؟

الحياة التي لعيشـها ليست موجـودة فقط ، وانما هي منظمة أيضا تنظيما دقيقا ، وكل نظـام بحاجة الى من يقوم به ،ويهيمن عليه. فمن هو قـائم بتنظيم هـذه الحيـاة الواسعة؟

إنه الله الذي يشمل قيامه بالحياة على كل مرافقها ، انه يقـوم بنظـام حركة المجـرّة ، لكي لا تصـطدم نجومها مع سـائر المجـردات كما يقـوم في ذات الـوقت بنظـام الـذرة ، لكي تبقى الكترونـات والبروتونـات تـدور حـول بعضها.

وكما في الكون كـذلك في المجتمع ، يجب ان يسـود نظام الإسلام ، ذلك النظام الـذي أوحى به الله سـبحانه ، الذي لا يعلم فقط نظام الطبيعة ـ وبينها طبيعة الإنسان ـ وإنما يقوم أيضا بتسيير هذا النظام.

(**الْقَيُّومُ**)

هو صـيغة الكـثرة من القيـام ، والقيـام اسـتخدم في آيات الكتاب في معنى النظام أكثر من مـرة واحـدة ولأن الله حي وقيــــوم ، فهو الـــــذي يجـــــدر ان ينظم حياتنا الاجتماعية ويقـوم عليها قياما ، وهـذه بالـذات هي فكـرة هذه السورة من بدايتها الى نهايتها. إذا السـورة ما هي الا ترسـيخ لاسـمي الحي والقيـوم. وتبسـيط لهما وربطهما بسائر مرافق الطبيعة والحياة.

[3] (**نَزَّلَ عَلَيْـكَ الْكِتـابَ بِـالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ**).

لأن الله حي وقيـوم فانه نـزّل الكتـاب تـنزيلا متـدرجا حسب الحاجة اليه ، والكتـــــــاب لم يهبط على جبل ، بل على بشر كسـائر البشـر. إلا انّه بشر يتمـيز باتباعه للحق وتجسيده له.

والحق الذي نـزل به القـرآن على النـبي ، هو التعبـير المـــوجز عن التوافق بين الطبيعة وحيـــاة الإنســـان. وإنّ التشـــريع الســـليم للحيـــاة ينبغي ان يكـــون متناســـبا مع الطبيعية ، وخـــالق الطبيعة العليم بها ، ومـــدبر شـــؤونها ، والقيوم عليها ، أجدر بأن يشـرّع للحيـاة وينظمها ، ويقـوم على تسيير هذا النظام.

والتشريع المـوحى في الكتـاب (القـرآن) قـديم قـدم الإنســـان ذاته وقـــدم حاجته الى النظـــام ، وعلم الله هو الأخر قـديم. لـذلك كـان كتـاب الله الأخـير مصـدقا لكتبه الاولى. لان المشكاة الـتي أضـاءت الحيـاة بـالقرآن ، هي التي أعطتهم الإنجيل والتـوراة. فكل هـذه الأنـوار آتية من مصباح واحد.

[4] (**مِنْ قَبْـلُ هُـدىً لِلنَّاسِ وَأَنْـزَلَ الْفُرْقـانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ لَهُمْ**

عَذابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ).
والقرآن والإنجيل والتوراة ، وكل رسالات السماء نور واحد يستهدف غاية واحدة هي توفير الهدى للناس. ولماذا الهدى ، لان في الحياة خير وشر ، صحيح وسقيم ، صــالح وطـالح ، فكيف يميّز الإنســان الخـير عن الشــر. أو ليس بمقياس؟ وبميزان وبقيم وبالتالي بفرقان يفرق بين الحق والباطل. ومن هنا أنزل الله «الفرقان».
الــذين يهتــدون بالرســالات الســماوية ويتمســكون بالفرقــان ، يمــيزون به الحق عن الباطل ، والخــير عن الشر ، فطــوبى لهم ، أولئك لا خــوف عليهم. أما «**الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيـاتِ اللـهِ**» فما ذا تنتظر لهم ، هل تنتظر كفاية الدرب وبلوغ الهدف؟
كلا بل «**لَهُمْ عَــذابٌ شَــدِيدٌ**» واي عــذاب أشد من الضــلال ، ومن الانفلات في فوضى الحيــاة والوقــوع في المهالك.
والله سبحانه لا يتركهم يعـانون من عـذاب شـديد في الدنيا فحسب ، بل يقف لهم بالمرصاد لياخذهم في الحياة الآخــرة أيضــا. «**وَاللـهُ عَزِيـزٌ ذُو انْتِقـامٍ**» وحين يكــون العزيز
(القــوي المقتــدر) ذو انتقــام فيا للمأســاة ، ويا للنهاية المروعة.
والكتـاب هـدى وفرقـان لسـبب بسـيط ، هو ان الله باعث الكتاب حي وقيوم فهو حي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.
[5] (**إِنَّ اللهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ**)
وقيوم ، يهيمن على نظام الحياة من أكبر الأشياء الى ابسط شيء.
[6] (**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ**)
هناك حيث لا تمد اليه يد الأبــوين ولا يمتد اليه علمهما ، هناك الله اللطيف يقوم

بفعل التصوير حسب ما يشاء. لأنه مطلق المشــيئة واسع المشيئة ، لا تخضع مشيئته سبحانه لضـغوط أو حتميـات ، كما هي مشـــيئة الإنســـان ، تخضع لضـــغوط الشـــهوة وحتميات العجز والجهل و.. و..

وإذا كـان كل شــيء ضــمن عــرض علم الله حيث لا يخفى منه شيء ، وكل شيء في رحاب قدرة الله ـ حـتى في الأرحام يصورنا ـ كيف يشاء فانه الرب الأحد.

(**لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**).

واســمي «**الْعَزِيــزُ الْحَكِيمُ**» هما معا مظهر المنظم الحقيقي. فالقـــائم بالنظـــام ينبغي ان يتمتع بالقـــدرة «العزة» و «العلم اي الحكمة» ونجد هـذين الاسـمين في القرآن كلما ذكرت انظمة وتشريعات.

والعــزة هي المظهر الاجتمــاعي للقــدرة ، كما ان الحكمة هي الجـانب العملي من العلم. ولـذلك جاءتا عند الحديث عن التشريع دون اسمي القدير العليم.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْـهُ آيـاتٌ مُحْكَمـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَـرُ مُتَشـابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ ما تَشـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغـاءَ تَأْوِيلِــهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَــهُ إِلاَّ اللــهُ وَالرَّاسِــخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنا وَما يَـذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُـوا الْأَلْبـابِ (7) رَبَّنا لا تُـزِغْ قُلُوبَنا بَعْـدَ إِذْ هَـدَيْتَنا وَهَبْ

---

7 [محكمــات] : المحكم مــأخوذ من قولك أحكمت الشــيء إذا ثقفته وأتقنته.
[أم الكتاب] : أصله.
[متشبهات] : اي يشبه بعضها بعضا فيغمض الأخذ من الشبه لأنه يشتبه به المراد.
[زيغ] : ميل. [الراسخون] : الثابتون 8 [هب] : الهبة تمليك الشــيء من غير ثمن والهبة والصلة والنحلة نظائر.

**لَنا مِنْ لَـــدُنْكَ رَحْمَـــةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنا إِنَّكَ
جـامِعُ النَّاسِ لِيَـوْمٍ لا رَيْبَ فِيــهِ إِنَّ اللــهَ لا يُخْلِـفُ
الْمِيعادَ (9) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ
وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللـهِ شَـيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُـودُ النَّارِ (
10) كَــدَأْبِ آلِ فِرْعَــوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَــذَّبُوا
بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِـذُنُوبِهِمْ وَاللـهُ شَـدِيدُ الْعِقـابِ (
11) قُـلْ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا سَـتُغْلَبُونَ وَتُحْشَـرُونَ إِلى
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ (12) قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ
الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِـلُ فِي سَـبِيلِ اللــهِ وَأُخْـرى كـافِرَةٌ
يَــرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللــهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْـرِهِ مَنْ
يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (13)**

---

11 [كدأب] : الدأب العادة. يقال دأب يـدأب إذا اعتـاد الشـيء وتمـرن عليه.

12 [تحشرون] : الحشر الجمع مع سوق. [جهنم] اسم من أسماء النـار وقيل أخذ من الجهنــام وهي البــئر البعيــدة. [المهــاد] : القــرار وهي الموضع الذي يتمهد فيه أي ينام فيه مثل الفراش. [العبرة] : آية

حقائق القرآن

بين حق التأويل وفتنة الباطل

هدى من الآيات :

أرأيت كيف تتوحد حبات المسبحة؟ إنها تنخرط جميعا في خيط واحد أو رأيت كيف تتوحد أوراق الشـــــــجرة الكثيفة؟ إنها تلتف حول الفروع التي تتمسك ـ هي بدورها ـ حول الساق الغليظة الضاربة بجذورها في الأرض.

كــذلك أبنـــاء آدم لا يمكن ان يتحـــدوا من دون حبل يعتصمون جميعا به ، أو أصل راسخ يلتفون حولـه. فما هو ذلك الحبل في رؤية الإسلام؟

انه كتــاب الله المتجسد في رســول الله ، أو في من هو امتداد حقيقي لشخصية رسول الله (ص).

ولأن ســورة «آل عمــران» تتحــدث لنا عن التوحيد والوحدة. سـواء على صـعيد المؤمـنين برسـالات السـماء جميعا أو على صعيد المسـلمين فقط ، فـإن القسم الأول من هذه السورة تتحدث عن كتاب الله ثم عن رســله إلى الناس.

ما هو كتـاب الله ، لمـاذا لا يـؤمن به النـاس وما هو مصير الكافرين بـه؟ حـول هـذه الاسئلة تبحث آيـات هـذا الدرس :

بينات من الآيات :

كيف تكون الرسالة عامة؟

[7] (**هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتـابَ مِنْـهُ آيـاتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ**)

النـاس مسـتويات مختلفة ، وكتـاب الله جـاء للنـاس جميعا ، فكيف يمكن ان يرسل الله رسـالة واحـدة لجميع الناس على اختلاف مستوياتهم؟

الجـــواب : إن الله جعل كتابه على درجـــات أيضـــا. ليست كل آياته لكل النـــاس انما فيها آيـــات عامة يفهمها الجميع ، وهي بمثابة قاعـــدة راســخة تبـــنى عليها ســـائر الأفكـــــار والأحكـــــام. وفيها آيـــــات خاصة لا يفهمها الا الراسخون في العلم ، أولئك الذين أوتـوا نصـيبا كبـيرا من العقل والمعرفـة. وبـالطبع الراسـخون في العلم بـدورهم متفاضـلون بينهم في درجـات ، فقد تكـون الآية الواحـدة عند بعضـهم واضـحة ، ولا تكـون واضحة عند من هو أقل منه علما.

القسم الاول من الآيـــات تســـمى «المحكمـــات» والقسم الثاني «متشابهات» وعلى الإنسـان ان ينظر الى الآيـات ، فـاذا فهمها وتبصر ما فيها من رؤي وأفكـار أخذ بهـــا. وإذا لم يفهمها فليس له ان يضـــيف إليها من آرائه شيئا ، ويفسرها على هواه ، انما يجب عليه أن يسأل أهل الـذكر ، الراسـخين في العلم. فعسى أن يأخذ مما لـديهم ذكـرا وعلما في ذلـك. وقبلئذ يكتفي بالآيـات المحكمـات اللاتي هن أم الكتاب.

ان التفسير الخاطئ لنصوص الكتاب يسـبب الاختلاف في الدين ، وإنما جاء

الدين ليجمع الناس فحين يتخذ أداة للتفرقة لا يكون هناك دين حقيقي. وبذلك يكون التفسير الخـاطئ وسـيلة لهـدم الدين أساسا.

بين المحكم والمتشابه :

ومن هنا ركّز القرآن الحكيم على تفسير هـذه الناحية ، واعطى في بداية حديثه عن القـرآن «القاعـدة العامـة» الـتي تصـلح ان تكـون طريقا لفهم القـرآن الحكيم ، وهي قاعدة «المحكم والمتشـابه» حيث يجب على الإنسـان الّا يأخذ من آيات القرآن إلّا الآيات التي يفهمها جيدا ، وتكون واضحة امامه وضوحا تاما.

ولو اكتفى كل إنسـان بالأفكـار الواضـحة جـدا ، ولم يقل شـــيئا لا يعلمه ، لم يخلط العلم بالجهل ، ولم يأخذ الفـرد غـرور العلم. بينما لو عكس فاشـبع نهم روحه الى العلم بأفكـار خاطئة لاختلط عنـده العلم بالجهل ، وانتشر بغــرور العلم ، وركن الى الجهل وتبلّد فكــره ، ولم ينفعه علمه.

والوقــوف عند الآيــات المحكمــات دون تجاوزها الى المتشابهات ، يعني أيضا تربية العقل عند الإنسان ، وتنمية قدرته على كشف الحق عن الباطل ، والعلم عن الجهل.

لماذا الاختلاف في الدين؟

وبعد بيــان قاعـدة المتشــابه والمحكم ، بيّن القــرآن بوضوح ، وبتفصيل سـبب الاختلاف في الكتـاب ، وبالتـالي في الدين.

وبـــالرغم من أنّ الســـبب واحد ، إلّا انه يتـــدرج في مراحل ابتداء من الزيغ في القلب وانتهاء بـالكفر ومـرورا بالتكذيب.

الف : اما عن الزيغ فقال ربنا :

(**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُـونَ ما تَشـابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ**)

ما هو الزيغ؟ :

الزيغ هو الانحراف والانصـراف عن الحـق. ويعتقد ان القـرآن يفسر الخطأ الانسـاني تفسـيرا نفسـيا فلا يخطأ الإنسان إلّا بسبب انحـراف في نفسه من عقـدة الضـعة ، أو ترسب الأفكار الوراثية ، أو الاستسـلام لأفكـار المجتمع أو الجماعة التي ينتمي إليها ، أو الخضوع لضغوط الشهوة ، أو التسـرع في إصـدار الحكم بهـدف الراحة أو بسـبب توتر النفس.

وحين تنتهي مشـكلة الإنسـان النفسـية بتنمية إرادته ومقاومة الضـغوط ، فـان العقل ينطلق للبحث السـليم وسيصل ـ بالطبع ـ الى المعرفة.

وقد يطـرح سـؤال : كيف تكـون المشـكلة العقلية مرتبطة بالمشكلة النفسية ، علما بأن وعي الإنسان قـادر على ان يكـون حـاجزا يقف أمـام خلط أحكـام النفس وأمانيها ، مع بصائر العقل وأفكاره.

الجـواب : إن محيط النفس والعقل هو محيط واحد ، وحين تهـوى النفس شـيئا فانها تقـوم بالتسـويل للعقل ، والـتزيين له ، حـتى تحجبه عن الرؤية تماما ، خصوصا إذا اسـتجابت ارادة الإنسـان (وهي القـوة الحاسـمة عند الإنسـان ، الـتي تختـار العقل أو الهـوى) للنفس ، فانها تحاول القيام بعملية خداع ذاتي ، وأكثر ما يقع النـاس في الخطأ هو بسـبب الخـداع الـذاتي. حيث يصـعب عليهم أو يسـتحيل في بعض المراحل تميـيز بصـائر العقل وأفكـاره عن أهواء النفس وامنياتها.

من هنا تكـون التربية النفسـية طريقا لتحرير العقل من أغلالهـا. اما إذا انحـرفت النفس فـان العقل سـيتاثر سلبيا.

من هنا اعتـبرت الآية الكريمة زيغ النفس وانحرافها سـببا للتأويل الباطل وحذّر من أيّ نوع من الزيغ.

التأويل :

بعد وجـود الزيغ في القلب نبـدأ عملية التأويل ، وهي تطبيق القيم العقلية والرسالية على أهواء الذات ، فمثلا : يتم تطبيق قيم العدالة والمساواة على هوى الذات كيف؟ يقول من ابتلي بـانحراف في نفسه : إنه ليس من العدالة ان أكون فقيرا والناس أغنياء ، فعليّ ان أسرق من الناس لجبر فقري. أو يقول الديكتاتور ان ضرورة النظام تفـرض علينا كبت حريات الناس ، وهكذا يتم تحريف القيم باتجـاه الهـوى. أو بتعبـير القـرآن تأويلها بما يتناسب والأهـواء الذاتية.

الفتنة :

والتأويل يأتي بعد الفتنة ، إذ الفتنة هدف التأويل وهي ظلم النـاس ، إذ لا ينحـرف البشر الا اسـتجابة لضـغوط شهوات الذات ، الـتي تـدعو بـالطبع إلى اغتصـاب حقـوق الآخرين ، مما يسمى بالفتنة في منطق القرآن.

ان علامة الانحراف هي التأويل غـير العلمي ، وعلامة التأويل غير العلمي هي استهداف الفتنة. وباسـتطاعتنا ان نكشف الانحراف العقلي من المظـاهر الاجتماعية (الظلم الاجتماعي). فالنتـائج السـلبية للفكـرة تكـون ابسط دليل على خطأ الفكرة ذاتها. من هنا نبّه القرآن الى ان الفكرة الخاطئة هي التي تستهدف نتائج ظالمة. وقال :

(**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُـونَ ما تَشـابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ**)

يعني إنّ المنحرفين نفسياً هم الـذين يـتركون الآيـات الواضحة الى الآيات

الغامضة لتأويلها حسب أهــوائهم وبهــدف ظلم النــاس وغصبهم حقوقهم.

من يعلم التأويل؟

(وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

ولا يوجد التأويل الصحيح اي : التطـبيق الصـحيح لقيم الــوحي ، أو العقل على الموضــوعات الخارجية ، الّا عند الله وعند الراسخين في العلم. فمن هم هؤلاء الراسخون في العلم؟

انهم أولئك الـذين لم يكتفـوا بـالعلم بالأشـياء فقط ، انما يركـزون أيضا في العلم ، ويكـثرون النظر فيه حـتى تترسخ أقـدامهم في ارض العلم ، وهنـاك يعرفـون كيف يطبقون العلم على الواقع.

إن تطبيق القيم الرسالية على الواقع الموضوعي ، لا يتم سـليما إلّا إذا تـوافرت شـروط ثلاثة تشـير إليها الآية الكريمة وهي :

1 ـ سلامة النية.

2 ـ العلم بالقيم علما راسخا.

3 ـ العلم بالواقع علما راسخا.

وكلمة اخـــيرة : ان هــــذه الآية لتـــدل على ان أهم مســئوليات رجل العلم تطــبيق القيم على الواقع تطبيقا نزيها.

الايمان قبل المعرفة

ثم تتحـدث الآية عن علاقة الايمـان بالمعرفة ، وتؤكد ان المعرفة هي وليدة الايمان ،

وليس العكس .. والسبب ان الشرط المسبق للمعرفة هو الاستعداد النفسي لتقبلها والتسليم لها متى ما ظهرت له.

ان الفرد الذي يتكبر ـ سلفا ـ على الحق ، ويستبطن في نفسه رفض الحق أن جاءه فسوف لن يصل الى المعرفة وإنما يعرف الراسخون في العلم التأويل الصحيح للقرآن ، لأنهم يؤمنون به سلفا ولا يريدون تكييف القرآن حسب أهوائهم ، انما يبتغون الاتباع والتسليم.

(**يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ**)

هناك قضايا واضحة كالقضايا التي تحدثت الآيات الماضية عنها ، ولكنها تحتاج الى التنبه إليها ، فمن يتنبه انما الذي يمتلك اللب يتذكر ومن لا يمتلك كيف لا يتذكر وبما ذا يتذكر انما باللب فما هو اللب؟

هل هو العقل باعتباره جوهر الإنسان ولبه ، أم ان أولي الألباب هم الذين لا يهتمون بالقشور والظواهر ، وانما بالحقائق التي تكشف الظواهر عنها.

[8] من الذي يكشف انحراف النفس (زيغ القلب) غير الإنسان ذاته. وبالرغم من ان الآخرين قد يساعدونه في التنبيه الى زيغه وانحرافه ، الا انهم لا يقدرون على إصلاحه الّا إذا أراد هو.

الوعي الذاتي لا يصلح القلب بعد الزيغ فحسب ، انما يمنع عنه الزيغ في المستقبل أيضا. لذلك تجد الراسخين في العلم يتوسلون إلى الله من أجل الا تزيغ قلوبهم. وبهذا الدعاء يخلق الله في أنفسهم مناعة عن الزيغ ووعي ذاتي لاكتشافه متى تسرب إلى قلوبهم ، فهم يكررون أبدا :

(**رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ**

الْوَهَّابُ)
إن الرحمة الهابطة من الله أقسـام. ولكن أهمها هي المعرفة التي يمن بها الله على البشر سواء وحيا بالقرآن ، أم إلهاما.
وينمّي الـدعاء تطلع المؤمـنين الراسـخين في العلم الى المعرفة ولـذلك فهم يـرددون هـذا الـدعاء ويطلبـون الرحمة (المعرفة) من الله.
وأساسا الروح العلمية بحاجة الى تربية وتنمية ، وبهذا الدعاء ينمّي المؤمنون هذه الروح.

الايمـــان بـــاليوم الآخر .. حجر الزاوية في المعرفة :

[9] كما الجبال الراسيات تحفظ الأرض من ان تميد ، وكما القواعد تحفظ البنـاء من الزلزلة والانهيـار ، كـذلك الايمـــان بـــاليوم الاخر حجر الزاوية في البنـــاء الـــذهني للمؤمن ، فمن دونه يتـوتر القلب ولا يسـتقر على اتجـاه ، كيف ذلك ..؟
إن القلب البشـري كسـفينة تتقاذفه الأهـواء ، فمن ضـرورات الحيـاة ، الى مطـامع الشـهوات ، الى ضـغوط المجتمع ، الى حتميـات الطبيعـة. تعصف جميعها بـالنفس وتحدث فيها طوفانا عاتيا. والعقل كسكّان مـتين ، يحـاول توجيه السفينة في خط مستقيم ، ولكنه يعجز عن التحكم بالسفينة من دون الاستعانة بالثقل الذي يرسيها به. وثقل النفس هو الايمـان بالحيـاة الاخـرة ، إذ عن طريق هـذا الايمان تطمئن النفس ، ويحدث فيها نوع من التوازن.
فاذا عصفت شهوة الجنس بالنفس وأرادت ان تستبد بتوجيهها ، جاء الايمـان بالحيـاة الاخـرة ليخفف من ضـغط هذه الشهوة ، ويقول لصـاحبها كلا .. ليست هـذه الشـهوة هي كل شيء في الحياة إذ هذه الحياة بالـذات ليست كل الحياة ، انما الدار

الآخـــــرة هي الحيـــــاة الحقيقة ، وبهــــذا تطمئن النفس ويستطيع ان يحكم توجيهها العقل.

وقبل ان يذكرنا القرآن فيما يلي من الآيـات بالعوامل النفسية التي تسبب زيغ القلب ، وبالتالي انحراف البشر ، انطلاقا من مبدأ القرآن الآنف الذكر.

ان مشكلة الإنسان في العلم مشكلة نفسـية ، وقبلئذ ذكرنا القرآن باليوم الآخر باعتباره حجر الزاوية في توجيه النفس البشرية.

وقال على لسان الراسخين في العلم.

(**رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيـهِ إِنَّ اللـهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ**)

وما دام الإنسـان يتمثل غـدا امـام الله فعليه ان يفكّر ويتذكر ولا يسترسل مع رياح الهوى. عليه ان يعي ذاته.

ان فلســفة القــرآن تقــول : «حب الــدنيا رأس كل خطيئـــة» وبالتـــالي «التجـــرد عن حب الـــدنيا رأس كل فضــيلة» ومن هنا كلما تــذكر الإنســان «المعــاد» كلما اطمأنت نفسه وكان اقدر على توجيه شهواته.

الاعتماد على الله فقط

[10] اعتمـادا على المـال أو الولد يتكـبر المـرء على الله وعلى رســالاته ويحسب أن ماله يخلــده وان أبنــاءه سينصرونه من دون الله.

ولكن متى ما عرف الإنســان نهايته الحتمية وانّه حين يقف أمام الله سيحاسب حسابا عسيرا ، فلا بد انه يســلم للحق.

يقول القرآن بصراحة :

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَــرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْــوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**)

وحين يـذكرهم بمصـيرهم الأسـود حين يتحولـون الى مجـرد وقـود للنـار ، فلا بد ان ذلك يـرغم أنـوفهم ويحطم كبرياءهم.

[11] وكمثل من التاريخ :

(**كَــدَأْبِ آلِ فِرْعَــوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَــذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ**)

إن «آل فرعــون» وصــلوا قمة التقــدم المــادي فهل انتصر لهم تقـــــدمهم من الله ، وهل نفعتهم أمـــــوالهم وأولادهم وأعطتهم مبررا لتكبرهم أو لمقاومتهم الحق.

[12] وباختصــار فــان الاســتكبار عن الحق ، لا ينفع الإنسان لا في الاخرة ولا في الدنيا ، فاما الآخرة :

(**قُــلْ لِلَّذِينَ كَفَــرُوا سَــتُغْلَبُونَ وَتُحْشَــرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ**)

[13] واما في الدنيا فان شواهد التاريخ تتـوالى لتـدل على أن أهل الحق هم الغــالبون في الــدنيا ، ولهم النصر والمجد.

(**قَدْ كانَ لَكُمْ آيَـةٌ**) ـ واضـحة وعلامة اكيـدة ـ (**فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِـلُ فِي سَـبِيلِ اللـهِ**) ـ والحق ـ (**وَأُخْـرى كـافِرَةٌ يَـرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ**) ـ وكل وسـائل النصر المادية من نصـيب الكفـار ـ (**وَاللـهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ**)

فلما ذا التكبر عن الحق ما دام الباطل ذلك في الدنيا وعــذاب في الآخــرة. ان التكــبر عن الحق والاحســاس بالتعالي والمجد ، يشكل نسبة 50 خ من أسباب الكفر ،

ويجب معالجة هــذه الشــذوذ في النفس بتــذكيرها بعاقبة المتكـبرين في الـدنيا والآخـرة حـتى تخشع النفس وتقنت للحـق. ثم ذكّـرت الآية أن في هـذه الحقـائق عـبرة لأولي الأبصار .. فما هي العبرة؟ وكيف يستفيد منها الإنسان؟

العبرة هي ــ مثلا ــ الانتقـال من الـدليل الى معنـاه ، ومن رؤية ظاهرة الفقر الى سببها الاجتماعي.

الذين لا يملكـون الأبصـار يجمـدون على الظـواهر ولا ينتقلـون منها الى الحقـائق ، فـاذا رأى ظـاهرة الفقر في المجتمع جمد عنـدها ولم يسـتدل بها على وجـود الطبقية في المجتمع ، أو وجود التخلف الفكري والصناعي و.. و..

اما الــذين يملكــون الأبصــار فــإنهم لا ينظــرون الى الظاهرة فحسب بل الى أسـبابها الـتي يرونها من خلالها ، والعملية تسمى عبور أو «عبرة» اي انتقالا من على جسر الظاهرة الى شاطئ الحقيقة.

وظــاهرة انتصــار المؤمــنين بــالحق أبــدا تكشف عن الســـبب وراءه وهو ان التكـــبر عن الحق ذل حاضر في الـــدنيا. انما هـــذا الكشف يختص بمن يبصر أما من يغض طرفه عن الحقيقة فحتى الشمس يمكن ان تخفي عليه.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّــــهَواتِ مِنَ النِّســــاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنـاطِيرِ الْمُقَنْطَـرَةِ مِنَ الـذَّهَبِ وَالْفِضَّـةِ وَالْخَيْـلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذلِـكَ مَتـاعُ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) قُـلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْـرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَـوْا عِنْـدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهــارُ خالِــدِينَ فِيها وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْــوانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (15) الَّذِينَ يَقُولُــونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَـــــاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَـــــذابَ النَّارِ (16) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ

---

14 [الشهوات] : جمع شهوة وهي توقان النفس الى المشتهى.
[القناطير] : جمع قنطار وهو المال الكثير العظيم.
[المسومة] : من قولهم أسحت الماشية وسومتها إذا رعيتها.
17 [القانتين] : المطيعين.

وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (17) شَهِدَ اللـهُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ هُـوَ وَالْمَلائِكَـةُ وَأُولُـوا الْعِلْمِ قائِمـاً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (18) إِنَّ الـدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتـابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيـاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْـلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُـلْ لِلَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْـلَمُوا فَقَـدِ اهْتَـدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (20)

[الأسـحار] : جمع سـحر. وهو الـوقت الـذي قبيل طلـوع الفجر أصـله الخفاء لخفاء الشخص من ذلك الوقت.

18 [شهد] : حقيقة الشهادة : الاخبار بالشيء عن مشاهدة أو ما يقـوم مقام المشاهدة.

19 [الدين] : الطاعة وأصله الجزاء وسميت الطاعة دينا لأنها للجزاء.

[الإسلام] : أصله السلم معنـاه دخل في السـلم ، وأصـله التسـليم لأنه تسليم لأمر الله. وهو تأدية الطاعات على السلامة من الإدغال.

الحياة

بين آفاق المستقبل وشهوة الحاضر

هدى من الآيات :

النفس البشرية بين العقل والشهوة :

[14] النفس البشـرية ، تفضّـل العصـفور الواحد في اليد على عشرة على الشجرة ، حتى إذا كان المرء قـادرا ان يصيد العشرة بقليل من الجهد.

من هنا يفضل البشر الشــــهوات الحاضـــــرة على التطلعـــات البعيـــدة المـــدى ، فالطـــالب يفضل الراحة والكسل عن تحصـيل العلم ، على المـيزات الـتي يحصل عليها بعد التخرج ، كما يفضل العامل صرف راتبه بالكامل في ســبيل راحته ، على تحويله الى رصـيد ، يشــتري به أسهما في شركة رابحة.

وعقل الإنســـــان ، يدفعه أبـــــدا الى الموازنة ، بين المسـتقبل وبين الحاضر فيـأمر الطـالب بالاكتفـاء بشـيء من الراحة ، والجهد من أجل الحصول على راحة أكثر بعد التخرج وكذلك يأمر العامل بادخـار علاوة معاشه من أجل أيام ضعفه.

والعلاقة بين الـــدنيا والاخـــرة هي ذات العلاقة بين الحاضر والمسـتقبل إذ تـدعونا الشـهوات الى صـرف كل طاقاتنا في الدنيا حـتى إذا انتقلنا الى الـدار الآخـرة لا نجد فيها شـــيئا بينما العقل يـــدعونا الى الموازنة بين الـــدنيا والاخرة.

وحين يتطلع الإنسان الى الاخرة ، فإنّ مستقبل دنياه أيضا مضـمون ، إذ كل عمل يـوفره البشر للآخـرة يعطيه مردودا دنيويا أيضا.

بينما حين يهتم المرء فقط بالدنيا وشهواتها الحاضـرة يكفر بالمسـتقبل لأنه لا يـراه بل لا يريد ان يـراه وهكـذا تحجب عنه جـــدران الشـــهوات ، النظر الى رحـــاب المستقبل الواسع.

وحب الإنسان للشهوات طبيعي ، كما ان تطلع البشر الى مستقبل الحقيقة فطري إلّا أنّ المهم الا يختار المـرء الواحد على الآخر. من هنا عبّرت الآية عن الشـهوات بأنها زيّنت للنفس.

وشهوات النفس تتدرج الى أنواع هي :

(1) شهوة الجنس ـ والبنين.

(2) شـــهوة الخلـــود ومتطلباته من الـــثروة الطائلة كقناطير من الـذهب والفضة ، والقنطـار يعـني في عرفنا غاصة النقد.

(3) شـــهوة الرئاسة والفخر ، ومتطلباتهما من الخيل المسوّمة ، اي المعروفة لمن هي ، والانعام والحرث.

تقول الآية :

(**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّـهَواتِ مِنَ النِّســاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ**

الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعـامِ وَالْحَـرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا)

إلّا أنّ هـــذه الشـــهوات العاجلة يجب أن تبقى في حدودها المعينة وذلك بـالتفكر في أنّ هنـاك تطلعا اسـمى منه يجب ان يـوازن به الإنسـان حياتـه. ذلك التطلع هو ما عند الله فما ذا عند الله؟

(**وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**)

اي المستقبل المضمون ، والجيّد.

[15] (**قُـلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْـرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَـوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ**)

ولم يسترسلوا مع الشـهوات إلى نهاية الشـوط ، انما وجّهــوا شــهواتهم حسب تطلعــات عقــولهم. وقيم دينهم لهؤلاء عند الله.

(**جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**)

وهذه تشبع في الإنسـان الاحسـاس بطلب ضـرورات حياته.

(**خالِدِينَ فِيها**)

وهذه تشبع فيه تطلعه الى الخلود.

(**وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ**)

يوازن بها المؤمن شهوة الجنس في الدنيا.

(**وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ**).

يشبع به المؤمن حبه للمديح في الدنيا.

إنك ترى كيف ان الـذي اتقى في الـدنيا من الإفـراط في الشهوات ، نال في الاخرة عن كل شهوة دنيوية اتقى منها ما يتناسب معها من نعم عظيمة. وبذلك يتم التـوازن في قلب المؤمن ، بين حاضر شـهوات الـدنيا ، ومسـتقبل تطلعات الاخرة.

معنى التقوى

يبقى ان نعـرف أنّ التقـوى هي رقابة ذاتية ، إذ ليس هناك من شخص يراقبك أو يحاسبك ، على مـدى توجيهك لشهوات ذاتك ، إنما أنت تراقب نفسك وتحاسـبها ، حـتى إذا ذهبت الى الله لا يفاجئك حسابك العسير.

وهذا ما يؤكده قول الله في نهاية الآية :

(**وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ**)

إذ ما دام الله يحاسب الإنســان ، فعلى الإنســان أن يخشى المفاجئة الســيئة امــام الله العليم فيتقي الله ما استطاع.

[16] من المتقي؟ وكيف يـوازن المتقي بين شـهوات الـدنيا وتطلعـات الآخـرة؟ وبالتـالي كيف يـربّي ذاته لتقبل الحقيقة؟

للتقــوى منطلق نفسي ، ومظــاهر خارجية ، فمن وجدهما في ذاته فليعرف انه تقي فعلا.

الجـذر هو الايمـان بالحسـاب ، وإنّ الـذنب سيحاسب عليه حسابا عسيرا.

(**الَّذِينَ يَقُولُــونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَــاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النَّارِ**)

إن التقــوى هي وجــود رادع في النفس يمنعها من الإفراط في الشهوات.

[17] أما مظــاهر التقــوى الخارجية فهي الصــفات النفسية التالية والمتدرجة على بعضها :

(أ). الصبر

الصــبر عن الشــهوات وعن الاسترســال معها الى مرحلة الإفـــراط. إنها الصـــفة الأولى والأساســية في شخصــية المؤمــنين بــاليوم الآخر ، وحين يصــبر عن الشهوات يبتعد عن الزيغ وآنئذ يكون صادقا.

(ب) الصدق

وهو تعبــير عن الاســتقامة على الحق ، واي انحــراف يطرأ على قلب الإنسان فلا بد ان يظهر في كلامه بصورة أو بــأخرى. إذ لا يمكن ان يســتمر الإنســان في الانحــراف العملي دون ان يظهر في قوله.

والذي يلتزم بالصدق فلا بد ان يحاول إصلاح انحرافه. وقد جاء رجل الى الامام الصادق عليه السـلام وطلب منه ان ينصحه ويوجز. فقال له : لا تكذب.

(ج) القنوت.

بعد ان تتربى النفس على الصبر عن الأهواء والصدق ، فإنها تستعد لقبول الحق.

إذ تكــون آنئذ قانتة مســلّمة للحق ، إذ تــزول من طريقها آنئذ العقبة الرئيســية الــتي تمنع من اتبــاع الحق وهي اتباع الهوى.

(ء) الإنفاق.

وابسط وأهم مظهر للقنوت للحق هو العطاء. إذ ما دامت النفس شحيحة فليس من المؤكد انها تتبع الحق فعلا.

(ه) الاستغفار

بعد ان تعرف النفس شحها ، وتخرج من سجن الذات الى رحاب الحق ، عليها ان تتحدى ضغوط الحياة لكي لا تزين الباطل للنفس ، فتحتاج النفس الى تصفية ذاتية للرواسب اليومية التي تلحق بها ، وذلك بالاستغفار في الأسحار.

ان الاستغفار أشبه شيء بحمام دوش يستعمله العمال كلما آووا إلى بيوتهم فينظفون أنفسهم من آثار العمل ، بالرغم من انهم عملوا المستحيل من أجل تجنبه خلال النهار.

هذه هي الصفات الظاهرة للتقوى. وهي كما تقول الآية :

(**الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ**)

بين الوحدة والتوحيد :

[18] بعد الحديث عن الروح العملية في الآيات السابقة ، وتصفية العقبات النفسية التي تعترض طريق الايمان الصحيح ، دخل القرآن في صلب الموضوع الرئيسي وهو التوحيد والوحدة فذكّر أنّ الله لا اله الا هو .. يقوم بالنظام العادل والمتمثل في الإسلام ، الدين الوحيد لله ، وهو لا يعني الخضوع لفئة من الناس ، ولا حتى لشخص معيّن ، إنّما يعني التسليم لله وحده. وبذلك يضع القرآن أرضية الوحدة بين أبناء الرسالات السماوية.

قد ينكر أحدنا اعترافه بالله ، ولكنه يعرف قبل غيره أنّ أفكاره ليست سوى تكبر

يتكلف به تكلّفا ، وإنّه حين يستغشي ثيابه بالليل ويبـــــدأ يفكر بعيـدا عن التكـبر والمصـلحة ، آنئذ يـؤمن بربه ايمانا أقوى من إيمانه بنفسه.

إنّ هيمنة الله على كل مرافق الحياة ، وتجليه للنـاس في آيــات الطبيعة حينا ، وفي خلجــات القلب أحيانا ، هي أكبر شاهد على أنه لا اله الا هو ، وهل يكـون شـيء أكـبر من الله وكل نظام قائم به ، أو يكون شـيء أكـثر ظهـورا من الله والسموات والأرضون آياته؟!

ان الله هو ذاته دليل ذاته وهاد العبـاد اليـه. وهو دليل الى كل شيء غيره.

من هنا قالت الاية :

(**شَـهِدَ اللـهُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلَّا هُـوَ وَالْمَلائِكَـةُ وَأُولُـوا الْعِلْمِ**)

وحين تشــهد الملائكة وأولو العلم فليس ذلك ســوى دليل بسـيط جـدا. أمـام شـهادة الله ذاته إلا انّها قد تنفع الــذين تغـرّبهم الطبيعة بقوتها أو بغموضـها ، فيقـول لهم القرآن إنّ الملائكة الموكلة بالطبيعة وأولو العلم العارفين بالطبيعة هم بدورهم مؤمنون بالله.

وأكـبر صـفات الله العـدل الـذي يجريه في الطبيعة ، حيث يسنن للحياة سننا يجريها عليها بقدرة وسـلطان. فلا يــدع جانبا منها يطغى على جــانب آخــر. فقط الإنســان أكرمه بالحرية ، ولكنه حـدد حريته بـوقت ، فبعـده يعيـده الى حدوده بالقوة إن لم يعد إليها بالهداية.

من هنا قال الله :

(**قائِماً بِالْقِسْطِ**)

اي مطبّقا للنظام العادل في الحياة.

(**لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

ومن أولى بتطـــبيق العدالة في الحيـــاة من العزيز (المقتدر) الحكيم (الخبير بالأمور).

[19] كانت هذه تقدمة جيّدة لبيـان إنّ لله دينا واحـدا فقط ، قد تختلف بعض تفاصــــيله من عصر لعصر ولكن أصوله هي تبقى واحدة. وتجري عليها الأمم المسلمة جيلا بعد جيل.

(**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ**)

ولكن لماذا يختلف الناس إذا في الدين؟

هل لان الله هو الذي أوحى باختلاف الرسالات بالطبع لا .. بل لأنّ الاختلاف نابع من اختلاف الطبيعة ، والمصلحة ، لا من اختلاف الرسالة والعقل.

(**وَمَا اخْتَلَـفَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتـابَ إِلَّا مِنْ بَعْـدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**)

فجـذر الاختلاف نـابع من البغي وهو اسـتهداف الظلم واغتصــاب حقــوق الآخــرين وحين يســود الســلام قلب الإنسـان ، والعدالة علاقـات النـاس مع بعضـهم ، فسـوف يزول الاختلاف وتنتهي أسبابه من واقعه.

والاختلاف في الــدين بمثابة الكفر بآيــات الله ، وإذا ماذا تنفع قشور الـدين إذا جـردت من اي مضـمون؟ مـاذا ينفع الايمان بآيات الله إذا فسّرت هذه الآيـات بما يخـالف معناهـا؟ مـاذا ينفع الـدين الـذي اتخذ أداة للبغي ، والظلم الاجتمــاعي ، وســببا للاختلاف وضــرب النــاس بعضــهم ببعض؟ من هنا قال الله تعالى :

(**وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ**)

وكيف يحاسب الناس الذين يكفرون بآياته؟

بالطبع هناك طـرق لا تحصى ولكن أبسـطها هو عـدم الانتفاع برسالته الـنيّرة ، إذ إنّ الرسـالة النافعة هي الـتي تعـرف بتفسـير الله وبيانه وليست الـتي تفسّـرها أهـواء الناس والتي تضر ولا تنفع.

فمثلا : حين كانت رسالة النبي عيسى (ع) تعــني عند تابعيه الإخـاء والنشـاط والطيب ، اعطت المسـيحية لهم التقدم والهنـاء ، أما حين أصـبحت تعـني التعصب والجهل والاختلاف ، أعطتهم التخلف والعذاب.

[20] ان الـــدين يجب ان يتخذ أرضـــية مشـــتركة للتوافق. وبالطبع لا يكون الـدين هكـذا إلا إذا كـان مخلصا ومجــرّدا عن الأهــواء المتمثلة في المصــالح العنصــرية والولاءات المادية ، وبالتالي مجـردا عن اية صـبغة جاهلية هنالك فقط يكون الدين وسيلة جمع لا وسيلة تفرقة.

متى يكـون الـدين مجـردا عن الماديـات؟ حين يكـون الايمــــان بالله وحـــده القيمة الاجتماعية ، من هنا دعت رسـالة الإسـلام أبنـاء الرسـالات السـابقة الى هذ القيمة وقالت :

(**فَـإِنْ حَـاجُّوكَ فَقُـلْ أَسْـلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُـلْ لِلَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْـلَمْتُمْ فَـإِنْ أَسْـلَمُوا فَقَـدِ اهْتَـدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْـكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ**).

إن القرآن جرّد رسوله من مسـئولية القبـول أو الـرد من قبل أبناء الرسـالات السـابقة ، ولخّص مسـئوليته في البلاغ لكي لا يــرقى الى نقــاء التوحيد في رســالته ادنى شك.

ان الطريق الوحيد للوحــدة هو إخلاص كل الأطــراف لـذات المبـادئ الواحـدة حـتى تكـون بمثابة بوتقة ينصـهر الجميع فيها.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ
حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (21) أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ
أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (
22) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ
إِلى كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ
وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ
إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا
يَفْتَرُونَ (24) فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (25)

نتائج ضعف الروح الدينية

هدى من الآيات :

يتحــدث القــرآن هنا عن قــوم من أتبــاع الــديانات السابقة ، تفشت فيهم صفات سيئة بسبب ضـعف الـروح الدينية فيهم. وهذه الصفات هي التي تهدد وحدة الأمة.

من هذا الجانب يتحدث القرآن عنها وهي :

أولا : إنهم قـاموا بتصـفية رجـال الله في الأرض وهم الأنبياء (ع) والمطالبون بالعدالة من الناس.

ثانيا : انهم كانوا لا يتحـاكمون الى كتـابهم إذا اختلفـوا بينهم ، انما يتــولى الفريق المتضــررة مصــالحه ــ بحكم الكتاب ــ يتـولى عن الكتـاب ، وبـذلك يبقى الـدين معطلا عن التأثير الاجتماعي.

ثالثا : الفكر العنصـــري المنتشر فيهم ، واعتقـــادهم انهم أفضل من غـــيرهم ، لا بأعمـــالهم انما بأجســـامهم ودمهم ونسبهم.

وهــذه الأســباب الثلاثة لا تختص بــاليهود فقط ، وانما قد تهبط كل امة مؤمنة الى دركها ، وربما لـذلك لم يـذكر القرآن اسم اليهود.

بينات من الآيات :

كيف يتسافل الإنسان؟

[21] كيف يهبط الإنســان الى مســتوى متــدن في الأخلاق ويقتل رجلا لا لشــيء الّا لاخلاصه ، أو صــدقه ، ونقــاء إيمانه ، وحبه لله وللمجتمــع. ان الإنســان لا يهبط فجأة الى هـذا المسـتوى السـحيق ، إنما في البداية يكفر بآيـات الله ، وحين يختـار موقف الكفر ينظّم الى صـفوف المعارضة ، وتنمو في قلبه السـلبيات الصـغيرة .. حقـده على رجـال اللـه. حسـده من تقـدمهم ، اعتبـارهم أعـداء مصالحه. اعتبارهم أعـداء وطنه و. و. حـتى يغطي العـداء كامل قلبه. وهناك يقدم على تصفيتهم جسـديا ، فيصل به الأمر الى قتل الأنبيـاء وهنـاك يسـتحق العـذاب الأليم .. يقول الله :

(**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللـهِ وَيَقْتُلُـونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ**).

إنّهم قتلوا الأنبياء والصالحين لأنهم يأمرون بالقسط ، بالعدالة ، بالمسـاواة ، فكيف يرضى الطغـاة والظـالمون والمستكبرون بالقسط؟ فلكي يفتحوا طريقهم الى الظلم كانوا يقتلون رجال الله الـذين يضـعون من أنفسـهم سـدا امام رغبات الظالمين.

والعـذاب الأليم الـذي ينتظر هـذه الفئة يتلخص فيما يلي :

[22] حبط أعمالهم في الـدنيا والآخـرة. إذ مـاذا تنفع الصلاة مع الظلم ، أو الحج مع الاغتصاب ، أو إنفـاق جـزء من ثروة حصلت كلها من طريق غير مشروع.

وبالتـالي : مـاذا تنفع سـائر الواجبـات إذا جـردت من روحها الحقيقية وأهدافها

الاجتماعية.

ومن هنا قال عنهم ربنا :

(**أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا**)

إذ لا تعطيهم الوظـائف الدينية المجـردة عن الايمـان الحقيقي لا تعطيهم المردود الدنيوي الذي لا بد ان تعطيه. فالصلاة لا تهذب نفوسهم ، والحج لا يحافظ على وحـدتهم ، والزكـاة لا ترفع الطبقية عنهم وكـذلك حبطت اعمـال هـؤلاء في (الآخـرة) لأنه كما جـاء في آية اخـرى : «**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**».

(**وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ**)

فلا تنصـرهم أعمـالهم المحبطـة. كما لا ينتصر لهم تـاريخهم الحافل بـالجرائم أو انتمـاؤهم الكـاذب الى الرسالة.

تفسير الدين على الهوى :

ثم تناولت الآيات المشكلة الثانية وهي تفسـير الـدين حسب أهوائهم .. فقالت :

[23] (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتـابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَـوَلَّى فَرِيـقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ**)

ان هـذا الكتـاب هو كتـاب اليهـود الـذي جـاء لـيرفع اختلافهم ويوحّد طاقاتهم. فبدل ان يتحاكموا اليه ، ويتنازل كل فريق عن أهوائه ، وآرائه ، ومصـالحه ، تسـليما لأمر الكتـاب وخضـوعا لحكمه ، بـدلا من ذلك أعرضـوا عن الكتـاب وبـذلك جـرّدوا واقعهم الاجتمـاعي من أهم منفعة فيه.

ان اية امة رسالية لا تستطيع الاستمرار والتصاعد إذا لم تجعل كتابها المقدس فـوق رغباتها ومصـالحها ، والأمة الاسلامية لا تخرج بالطبع عن هذه القاعدة.

ولكن يبقى سـؤال : العلة وراء رفض الاحتكـام الى الكتاب؟

تجيب الآية التالية :

[24] (**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ**)

فـالفكرة العنصـرية هي الـتي فـرّغت واقع الامة من الروح الرسـالية ، وأبقت الطقـوس مجـردة من محتوياتها الاجتماعية الاصلاحية. إذ الامة لا ترى في البدء تفضـيلا لها على سـائر الأمم الا بقـدر تـوفر قيم الحضـارة فيها من التعـاون على الـبر والتقـوى والنشـاط والتنظيم ولـذلك تتسابق على بلـوغ المزيد من هـذه القيم. ولكنها قد تصل الى درجة من التشبع الحضاري فتتحـول نظرتها الى ذاتها ، وتحسب انّها مفضّلة على غيرها لما فيها من روح الهية ، وما في غيرها من طينة العبودية ، وآنئذ لا تجد في ذاتها باعثا الى عمل الخير ، أو رادعا عن فعل الشر. فما دامـوا قد خلقوا لرضوان الله والجنة ، خيرا عملوا أم سـوء ، وما دام أعداؤهم قد خلقوا السـخط الله والنـار ، مهما عملـوا من خـير أو شر فلما ذا يجهـدون أنفسـهم بعمل الخـير أو التسابق الى المكرمات.

ان خطـورة القضـية تكمن في تسـرب هـذه الفكـرة العنصـرية الى مفـاهيم الـدين نفسه ، فـاذا بهم يفسّـرون الـدين بطريقة لا تـدعو الى العمل الصـالح. والايمـان الصادق ، بقدر ما تدعوا الى تمجيد ذوات وتقديس أسـماء ، وانتماءات كاذبة.

من هنا قال الله سبحانه :

(**وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ**)

اي تفسير مفاهيم دينهم.

(**ما كانُوا يَفْتَرُونَ**)

بحيث سـرّبوا وادخلـوا افكـارهم الشـاذة في تفسـير نصوص الدين. وعوضا من ان يفسروا الاحـداث وفق رؤي دينهم وبصائره ، فسروا الدين وفق افكارهم الكاذبة.

[25] كلا : ان الله حين يجمع النـــــاس في اليــــوم المعهود والموعود الذي لا ريب فيه يوم القيامة ، يجمعهم في صــعيد واحد ، دون ان يفضّــل بعضــهم على بعض ، بحسب أو نسب ، هنـاك يأخذ كل شـخص نصـيبه بالكامل ودون تفسيرات عنصرية.

ان مجرد التفكير بذلك اليوم يجعل الفكـرة العنصـرية بلا دليل ، وبالتـالي يفنـدها من الأسـاس ، إذ ان أسـاس الفكرة العنصـرية مبتن على حب الـذات ، والمغـالات في تعظيمها وبالتـالي تقديسـها وجعلها قيمة اساسـية. فـاذا تصورنا ـ ولو مجرد تصور ـ اننا سنقف للحساب امـام الله ، فـان تقـديس الـذات سـيذوب في النفس ليعـود إليها الخشية على الذات من سوء العمل.

من هنا يتساءل القرآن.

(**فَكَيْـفَ إِذا جَمَعْنـاهُمْ لِيَـوْمٍ لا رَيْبَ فِيـهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ**)

من خير وشر وجوزيت جزاء كاملا على أعمالها.

(**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)

وكلمة اخـيرة : قلنا سـابقا ان الايمـان بـالآخرة حجر الزاوية في فكر المســلم. وأقــول الآن انه كــذلك حجر الزاوية في التفكـير السـليم ، إذ انه مثلا ينـاقض التفكـير العنصـري ، وفيما يلي من الآيـات سـنجد ان الله يـذكرنا بالآخرة ، عند ما يـذّكر بضـرورة إصـلاح الفكر ، أو إصـلاح النفس في اي جانب من الجوانب.

قُلِ اللهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (27) لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (28) قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29)

---

26 [تنزع] : النزع قلع الشيء عن الشيء.
27 [تولج] : الإيلاج الإدخال.

يَـوْمَ تَجِـدُ كُـلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْـرٍ مُحْضَـراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُـوءٍ تَـوَدُّ لَـوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَـهُ أَمَـداً بَعِيـداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (30)

القيادة الصحيحة

في المنظور القرآني

هدى من الآيات :

يبدو ان سورة آل عمـران تـدخل مع هـذه الآيـات في رحـاب موضـوعها الرئيسي وهو ضـرورة الالتفـاف حـول القيـادة الصـحيحة ، ونبذ القيـادات الدخيلة وضـرورة ذلك في الوحدة. فتهيء النفوس ـ قبل ذلك ــ ببيـان ان الملك لله ، وان القدرة المطلقة بيده.

ثم ينهى عن قبـول قيـادة كـافرة الاّ عـبر التقية ، ثم يأمر بالطاعة للقيادة الاسـلامية ويربط بين طاعة القيـادة الرسالية الصحيحة وبين الايمـان باللـه. بل بينها وبين حب الله.

ثم ـ حذّر من طرف خفي ـ الذين لا يتبعـون القيـادة : بأنهم كفار يتعرضون لسخط الله تعالى.

بينات من الآيات :

لمن الملك؟ لله

[26] الله وحـــده يملك الملك ويعطيه لمن يشـــاء وعلينا ان نلتمس الملك ، من الله

وليس من عند الكفار يقول الله :
(**قُلِ اللهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**).

ولكن السؤال : لمن يعطي الله الملك؟ هل لكل من هب ودب؟ أم لكل من تمنى على الله وربي في نفسه أحلاما ذهبية؟ بالطبع لا .. إنما هناك سنن جعلها الله في الطبيعة وهدى البشر الى تلك السنن عبر مناهج أوحى بها عن طريق أنبيائه وهدى العقول إليها. وليس من ريب ان أولى تلك السنن ، هي الالتفاف حول القيادات الرسالية التي يتحدث عنها القرآن فيما يلي.

شمولية القدرة الإلهية :

[27] وليس الحياة الاجتماعية فقط بيد الله ، وانما أيضا الطبيعة. والذي بيده الطبيعة أولى بقيادة الحياة الاجتماعية ، فالله هو الذي نتوجه اليه قائلين :
(**تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ**)

وحتى الرزق الذي ينزل على الإنسان من تعاقب الليل والنهار. فانه من الله ، يعطيه لمن يتبع مناهجه وسننه التي غرزها في الطبيعة ، وأوحى بها الى العقول والرسل.

بين مفهومي القدرة والقيادة :

[28] وما دام الله هو الذي بيده الملك ، فلما ذا تبعية المسلم للكفار؟!
ومن هنا

(**لا يَتَّخِـذِ الْمُؤْمِنُـونَ الْكـافِرِينَ أَوْلِيـاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**)

يبــدو ان أهم معــاني (أوليــاء) ــــ المناسب أيضا مع السياق ـ هو الائمة والقادة.

(**وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ**)

إذ يرفض الله انتماء النـاس الى رسـالته لفظيا ، دون انتمائهم إليها عمليا ..

(**إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً**)

اي تخشــوا من بطشــهم ، وآنئذ ســيكون التســليم لولايتهم تسـليما ظاهريا فقـط. بينما يحتفظـون بانتمـائهم الحقيقي لرسالتهم الصحيحة.

ان التقاة ممارسة النضـال سـرية ضد الطغـاة ، وهي عملية صـعبة ليست فقط لاحتمـالات الخطر الـتي تهـدد الرســـالي في كل لحظة ، وإنما ــــ أيضا ــــ لاحتمـــال الاستسلام لاغراءات السلطة والـثروة و. و. الـتي لا بد ان يتصارع الرسـالي معها طـوال الفـترة الـتي يقـوم بالعمل السري.

ان مثل الرسالي هنا كمثل الدكتور الذي يعالج طائفة من المجـــذومين فلو لم يكن في جســـده مناعة كافية ، تسري اليه عدوى الجذام ..

ومن هنا يــذكّر القــرآن هــؤلاء العــاملين بأنه رقيب عليهم ، وعليهم ان يحذروه.

(**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ**)

حيث يحاسب النـــاس ليس على شـــكليات الولاية فحسب ، وانما أيضا على روح الانتمــاء أيضــا. اي على ما يجري في القلب من ارتباط صادق.

الجهاد وجه التوحيد البارز :

[29] النضال. ضد الطغاة ـ وهو الوجه الحـاد للتوحيد وإخلاص العبـادة للـه. انه ــ بحاجة الى ضـمير ديـني حي. وهذا الضمير الديني يصـنعه الاحسـاس الـدائم برقابة الله على الإنســان ، وهيمنته المطلقة على اعمالـــه. من هنا ذكّرنا القرآن :

(**قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْـدُوهُ يَعْلَمْـهُ اللهُ**).

ان العمل لا يكون صالحا أو فاسدا ، إلا حسب موقعه الذي يجعل فيه ، والهدف الذي يتوخاه صاحبه.

فالصلاة قد تكـون ريـاء وقد تكـون لله ، والصـلاة هي هي ، لا تتغــير في ظاهرها اما واقعها فيختلف من الأرض الى السماء.

من هنا تكون تعاليم السـماء لتزكية النفس ، وتطهـير الروح من النية الفاسدة ، والهدف الطالح.

إن الله يعلم خبايا النفس البشـرية ، ويحاسب النـاس على الأهداف الحقيقية التي يريدون تحقيقها بأعمالهم ..

(**وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

ومن هنا فـان انحرافـات البشر النفسـية ، وما وراءها من انحرافــات مادية جميعا ، يحيط بها علم الله وقدرته ، احاطة تامــة. ثم إن الله بعلمه يحصي الأخطـاء ، وبقدرته يجازي عليها

(**وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

ان قوة الجبابرة لن تكون أكبر من قوة الله ، فلما ذا يرهبهم الإنسان؟!

[30] ويتجلى علم الله وقدرته في يوم البعث :

(**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً**)

امامها ، حيث تتجسد الأعمــال وتتحــول الى حقــائق مشــهودة يراها الإنســان ، وكم هي ممتعة ورائعة ان يجد الإنسان خير عمله ، حيث قد ذهب عناؤه وانتهت صعوباته ، وبقيت عاقبته الحسنى.

ولكن ماذا عن الأعمال السيئة :

(**وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَـهُ أَمَـداً بَعِيداً**)

حيث تلاشت اللذة البسيطة ، وبقيت عواقب الذنوب.

ان المجـرمين يفـرون من عـواقب أعمـالهم بشـتى الوســائل الممكنة ، ولكن هل ينجحــون؟ كلا. كــذلك المذنبون في الدنيا ، سيلاقون عواقب أعمـالهم .. من هنا يقول الله :

(**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ**)

ان الحــذر هو الضــمير الحي الــذي ينبض في داخل النفس ، والــذي يـراقب بدقة نتـائج الأعمـال ، والتحـذير الذي يوجهه الله للإنسان ، نـابع من رحمة الله الـتي تبقى الملجأ الأخير للإنسان في الأرض ..

(**وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ**)

(**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللـهُ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ وَاللـهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (31) قُـلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُـولَ فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَـإِنَّ اللـهَ لا يُحِبُّ الْكـافِرِينَ (32) إِنَّ اللـهَ اصْـطَفى آدَمَ وَنُوحـاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللـهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قـالَتِ امْـرَأَتُ عِمْـرانَ رَبِّ إِنِّي نَـذَرْتُ لَـكَ ما فِي بَطْنِي مُحَـرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا**

---

31 [تحبون] : المحبة هي الارادة. الا انها تضاف الى المـراد تـارة والى متعلق المراد أخرى تقول أحب زيدا وأحب إكرام زيد ومحبة الله تعالى للعبد هي ارادة ثوابه ، ومحبة العبد لله هي إرادته لطاعته.

33 [اصطفى] : اختار واجتبى وهو مأخوذ من الصـفوة والصـافي النقي من شائب الكدر فيما يشاهد فمثل الله خلوص هؤلاء القوم من الفساد بخلوص الصافي من شائب الأدناس.

35 [محررا] : يحتمل أمرين «أحدهما» المعتق من الحرية يقال

**وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَاللـهُ أَعْلَمُ بِما
وَضَـعَتْ وَلَيْسَ الـذَّكَرُ كَـالْأُنْثى وَإِنِّي سَـمَّيْتُها مَـرْيَمَ
وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (36)
فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُـولٍ حَسَـنٍ وَأَنْبَتَها نَباتـاً حَسَـناً
وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْـرابَ وَجَـدَ
عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هـذا قـالَتْ هُـوَ مِنْ
عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَـرْزُقُ مَنْ يَشـاءُ بِغَيْـرِ حِسـابٍ (37)
هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الـدُّعاءِ (38) فَنادَتْـهُ الْمَلائِكَـةُ وَهُـوَ
قائِمٌ**

حررته تحريرا أعتقته و «الآخر» من تحرير الكتاب يقال حررت الكتـاب تحريرا أي أخلصته من الفساد وأصلحته.

36 [وضعتها] : ولدتها.

37 [فتقبلها] : قبلها.

[كفّلها] : ضمنها من كفل وكافل إذا تكفلت مؤنته.

[المحراب] : مقام الامام من المسجد وأصله أكرم موضع في المجلس وأشرفه ، ويقال للمسـجد أيضا محـراب وقيل انه أخذ من الحـرب لأنه يحارب فيه الشيطان.

يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّـرُكَ بِيَحْـيى مُصَـدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) قـالَ رَبِّ أَنَّى يَكُـونُ لِي غُلامٌ وَقَـدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَـرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللـهُ يَفْعَـلُ ما يَشـاءُ (40) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْـزاً وَاذْكُـرْ رَبَّكَ كَثِـيراً وَسَـبِّحْ بِالْعَشِـيِّ وَالْإِبْكارِ (41))

---

39 [سيدا] : السيد مأخوذ من سواد الشخص فقيل سيد القـوم بمعـنى مالك السواد الأعظم. وهو الشـخص الـذي يجب طاعته لمالكه هـذا إذا قيد وإذا أطلق فلا يستعمل الا لله سبحانه.

[حصورا] : ممتنع عن الجماع ويقال للذي يكتم سره حصور.

40 [عاقر] : من الرجال الذي لا يولد له ومن النساء التي لا تلد.

41 [رمزا] : الإيماء بالشـفتين وقد يسـتعمل في الحـاجب واليد والاول أغلب.

[العشــي] : من حين زوال الشــمس الى غروبها ، الأبكــار : من حين طلوع الفجر الى وقت الضحى.

الجماهير تقديس الذوات

وبصائر القرآن

هدى من الآيات :

من خلال قصة واقعية لرجال عاشوا وخلّفوا لنا عبرا .. آل عمران وآل إبراهيم. ومن خلال تجربة حية لا تزال تتفاعل في الحياة. تتحدث آيات القرآن عن حقائق كلية ، وبصائر عامة ، تكون هدى للناس جميعا وفي كل عصر.

ومن ابرز تلك الحقائق : ان العنصرية أخبث ثمار قيمة الأرض ، قيمة التراب والتمحور حول الذات وتقديسها وجعلها المقياس الأفضل.

أقول : هذه العنصرية هي الطرف المتناقض تماما مع حقائق الكون ، وسنن التاريخ. وانها فكرة. متخلفة وباطلة ، وتحمل في طياتها اخطر النتائج ضد الإنسان وبوجه خاص ضد من يحملها.

ولا بد ان تتجسد العنصرية في شكل تقديس ذات بشري ، قد يكون هو «عيسى» ، أو «عزيز» ، أو «محمد» ، أو «علي» (عليهم جميعا صلوات الله). وجعله

في مصاف الله.

وتنتشر القداسة بعدئذ في اتبـــاع «عيســـى» (ع) ، وأبنـــاء «عزيـــز» (ع) وأقاربه ، وجماعة «محمـــد» (ع) وطائفة «علي» (ع) ، وإذا بها تتحــول الى فكــرة باطلة ، تزعم ان مجـرد الانتمـاء الجسـدي أو اللفظي ، لهو يكفي لخلاص الإنســان من المســئولية. في الــوقت الــذي لم يستطع أولئك الرجال ان يصلوا الى تلك الــدرجات العالية من ، دون العمل الصــــــــالح المخلص لله ، والعبودية المطلقة لسلطانه العظيم.

من هو عيسى ، انه مجـرد عبد للـه. كـانت امه مـريم وكـانت جدته امــرأة صـالحة. وكـان هو من أنبيـاء اللــه. وحمّله المسئولية وكان أهلا لها.

ان معالجة السـياق لمشـكلة تقـديس الـذوات ، من خلال تقـديس أنبيـاء الله العظـام ، أفضل وسـيلة لضـرب هذه الفكرة ، التي هي قاعدة التمييز العنصـري. والسـبب ان الله فضل أنبياءه ، وأكرمهم ، وحملهم اقدس رسـالة ، وخصهم بـأكبر نعمة ، هي العبودية للـه. ولكن مع كل ذلك لم يرتفعوا الى درجة القداسة الذاتية ، الـتي تبعـدهم عن مسئولية أعمالهم. فكيف إذا قدسنا بشرا عـاديين ، أمثـال فرعون وهامان أو آخرين.

إن الشـعوب الاسـلامية تـردت اليـوم الى حضـيض تقـــديس الـــذوات التاريخية ، والمعاصـــرة. فهي تقـــدس الســلاطين ، والخلفــاء ، والعلمــاء ، الســابقين الى درجة تحجبها عن تقـــييم أعمـــالهم ، وافكـــارهم. كما تقـــدّس السياســـيين والقـــادة المتســـلّطين عليها ، وهـــذه فكـــرة متخلفة تجدها أيضا في الشعوب البدائية.

والقرآن كتاب هدى ونور جاء لينقذ الإنسان من اغلاله الفكرية ، والاجتماعية ، ولا ريب انّ من أســوأ تلك الأغلال :

هو تقديس الذوات فجـاءت في هـذه السـورة ، قصة آل عمران كدليل على ان الله لم ينتخب أنبيـاءه عبثا ، بل لأنهم كانوا من ذرية طيبة. فبدأت الآيـات : بـالأمر بالاتبـاع والطاعة لكتب الله ورسله ، ثم بيّنت طريقة اصطفاء الله لرسله. الذين لا يختلفون عن بعضهم في شيء ، فـذكرت بأنّ التربية الصالحة ، وصـدق إيمـان الأم ، وتقـوى الأب ، هذه هي من عوامل الاصطفاء.

لقد كـانت مـريم صـدّيقة ، لأن أمها نـذرتها للـه. اما يحيى فقد أصبح نبيا صالحا ، لان أباه دعا ربـه. ولم تصـبح مريم صديقة ، بنذر والدتها فقط ، كما ان يحيى لم يصـبح نبيا ، لدعاء والده فقط. بل لعملهما أيضا.

بينات من الآيات :

كيف نحب الله؟ :

[31] هل يكفي ان نحب ربنا حبا صوفيا ساذجا ، كلا ، الحب الصـادق هو الـذي يعكسه العمل الصـالح والا فهو ليس سـوى خـداع اللـذات. والله لا يحب أحـدا من دون العمـــل. بيد ان العمل لا يمكن ان يكـــون لله ، الا عن طريق الرسـول. إذ لا يـوحي الله الى كل إنسـان وفـرد. فـاذا حـاول كل منا ان يستكشف الـدين من خلال عقله ، فان انحرافات كثيرة سوف يقع فيها ، بسبب امتزاج عقله بهواه ، وعلمه بشهواته من هنا جاءت الاية :

(**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللـهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

اتبـاع الرسـول يسـتدرج غفـران الله ، ولان مجـرد الاتبـاع تنـازل عن ذاتية الإنسـان ، وارتفـاع الى مسـتوى التسليم لله ، فهذا العمل العظيم يشفع لصاحبه في بعض الذنوب الصغيرة.

[32] اتبـاع الرسـول يتم بتطـبيق رسـالة الله الـتي نزلت عليه ، واتخاذه أسوة حسنة فيما قـام به من عمل ، أو تمـيز به من سـلوك. ولكن الاتبـاع وحـده لا يكفي ، بل يجب طاعة الرسول أيضا. وذلك فيما يرتبط بالقضايا التي تحـدث يوميا ، وتتجـدد ، من حـرب وسـلم ، واقتصـاد وسياسة ، واجتمـاع وعمـران ، وبالتـالي في كل الحقـول الحياتية المتجددة وطاعة الرسول في هـذه القضـايا جـزء من طاعة الله :

(**قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ**)

فكما ان طاعة الله واسـعة وشـاملة ، كـذلك طاعة الرسول.

(**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ**)

وهـؤلاء الـذين يرفضـون طاعة الرسـول هم بمثابة الكافرين إذ ان أهم فوائد الايمان التسـليم لله ، ليس في القضايا الثابتة من حياة الإنسـان فقط ، بل وفي الاحـداث المتطورة ، التي تتركز فيها ضـغوط الحيـاة بشـكل حـاد ، ولا تدع صاحبها يطيع القيادة الرسالية ، الّا بصعوبة بالغة.

[33] ولكن لمـاذا نتبع الرسـول ونطيعـه؟ أفليس من الأفضل أن يتبع كل منا عقله ، ويطيعه في قضـــــــاياه ، مسترشـدا بالتعـاليم الدينيـة؟ لمـاذا يضع بينه وبين الله واسـطة بشر آخر هو الرسـول ، أو القيـادة الـتي تجسد رسالة الدين؟

الجواب : ان البشر الذين يأمر الله عبـاده باتبـاعهم ، ليســوا كســائر البشر انما هم صــفوة الله في الأرض. اختــارهم الله بعد ان ابتلاهم ، ووجــدهم أهلا لرســالته. واتباعهم ، وطاعتهم ، ضـمان للبشـرية من الانحـراف عن خط الرســالة ، والاختلاف فيما بينها في زحمة الحيــاة ، وتحت ضغوط الأهواء الشديدة :

(**إِنَّ اللهَ اصْـطَفى آدَمَ وَنُوحـاً وَآلَ إِبْـراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ**)

[34] ولم يكن هذا الاصطفاء بسبب عنصري والـدليل على ذلك ان الله اختــار آدم وآدم أب النــاس جميعــا. ثم اختار من آل إبراهيم ومن آل عمران ، أنبياء دون ان يميز واحــدا على آخــر. فلم يكن عنصر آل عمــران أفضل من سائر فصائل آل إبراهيم المنحدرين من غير عمـران .. بل هؤلاء بعضهم من بعض دون تمييز :

(**ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصــدور ، فيختــار من عبادة ، من يرى فيه صلاحية الاختيار. ولا يختار رســله من عنصر معين انى كانوا.

في رحاب الاختيار :

[35] ولنستمع الى قصة واحدة لهذا الاختيـار ، ولتبـدأ القصة من هناك ، من داخل القلب الطاهر والنية الصادقة والايمان التائب :

(**إِذْ قـالَتِ امْـرَأَتُ عِمْـرانَ رَبِّ إِنِّي نَـذَرْتُ لَـكَ ما فِي بَطْنِي مُحَـــرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّـــمِيعُ الْعَلِيمُ**)

انها كانت كأية امرأة اخرى ، حملت بجـنين ، وأخـذت تفكر في مصـير الجـنين الجديـد. لم تفكر في ان يصــبح رجلا ثريا ، أو ملكا كبـيرا ، أو عالما ، أو طبيبا ، أو مهندسا أو ما أشــبه. ولم تحلم بأيامها معه في المســتقبل ، حيث يســاعدها على مشــاكل الحيــاة حين تضــعف مقاومتها للمشاكل. كلا لم تفكر امرأة عمران بهــذه الأحلام المادية ، بل فكرت في رسالة الإنســان في الحيــاة ، وهي عبــادة الله ، والعمل في سبيله. فنذرت ان تجند ابنها لهذه الغاية ، وتحــرره من اية روابط اجتماعية ، اخـرى ، حـتى يتفـرغ في سبيل الله ثم تضرعت الى الله ان يتقبله بفضله.

[36] وكـانت هـذه أمنية امـرأة عمـران طـوال فـترة الحمل ، حتى إذا وضعت أنثى

صعقت ، وكأن آمالها قد خابت ، حيث زعمت ان الأنـثى لا تستطيع ان تتفرغ للعمل الجهادي في سبيل الله.

(**فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَاللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ**)

فهي ليست أنـثى كأية أنـثى. انها صـديقة تكـونت في رحم امــرأة عمــران المؤمنة الصــادقة ، ونمت فيها روح الرسالة بسـبب ايمـان أمها ، وعملها الصـادق أيـام حملها لها ، ولكن امرأة عمران قالت :

(**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى وَإِنِّي سَـمَّيْتُها مَـرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ**)

آثار التربية على نمو الطفل :

[37] وكـان لهـذا الايمـان الصـادق اثر في مسـتقبل مريم .. ذلك لان ايمان الام ، وتربيتها ، يـؤثران ايجابيا في تنمية فطرة الايمـان في الوليـد. وقد رأينا كيف ان امـرأة عمـران ، تضـرعت الى الله بـان يعيـذها من الشـيطان ، وتعـني ضـراعتها ، انها أخـذت تعمل من أجل هـذه الغاية أيضا ، إذ الـدعاء هو قمة العمل الجهـادي عند المؤمـنين ، وليس أبدا بـديلا عن العمـل. من هنا كـان للـدعاء والعمل اثر ايجابي كبير على مستقبل مريم :

(**فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَـنٍ وَأَنْبَتَها نَباتـاً حَسَـناً وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا**)

ان الايمــان كســكة الحديد لو وضع قطــار عليهــا. ساعدت على استقامته وتقدمه. كـذلك الايمـان ، لو رافق حركة النمو عند الطفل منذ البداية ، ساعد على اسـتقامة الطفل في كافة جوانب تربيتـه. وذلك بـألا تنمو فيه صـفة على حسـاب صـفة. فلا دلال على حسـابه المسـئولية. ولا كبت على حساب الشعور بالكرامة ، ولا حب على

حســـاب الاســـتقلال ، ولا جفـــاء على حســـاب العلاقة الاجتماعية.

كما يسـاعد جو الايمـان في الـبيت ، على تعزيز روح الالتزام في نفسية الطفل.

ذلك لان الطفل الذي لا يرى الذين من حوله ينفـذون برامج محـددة ، وبـإخلاص واطمئنـان ، فهو الاخر يحب ان ينفذ برامج مثلها من دون ضغط.

كل ذلك سـاعد على إنبـات مـريم نباتا حسـنا ، وكـان من أفضل نعم الله على مـــــــريم ، انه كفلها زكريا ذلك الشخص العالم ، والنبي العظيم ، الـذي أفـنى عمـره في الله ، وخدمة لعباد الله. وهكذا يكون دور المربي الصالح ، في تنمية كفاءات الطفل ، حيث أثمرت تربيته الصــالحة ، ودعـاء أم مـريم ، وتربيتها في تكوينه مـريم الـتي اتجهت كلية الى الله تعـــالى ، وأخـــذت تقف ســـاعات طويلة ، تتضرع الى الله وقابلها ربها بفضله وذلك :

(**كُلَّما دَخَـلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْـرابَ وَجَـدَ عِنْـدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ**)

هذه مريم وأولئك أهلها ، وتلك تربيتها ، وهـذا كفيلها ، وهذا من فضل ونعم الله عليها.

كيف يختار الله الرسل؟ :

[38] لنـترك مـريم موقتا الى قصة اخـرى تـبين كيف يصطفي الله رسله.

بين الله ببساطة لماذا فضلت مـريم ، والآن يـبين ان كل من اتبع ذات الطريق فسـوف يصل الى النتيجة الـتي وصلت إليها مريم. فهذا زكريـا. حين وجد عند مـريم رزقا في غـير موسـمه ، ومن غـير الطـرق العادية ، عـرف ان الدعاء الى الله ، زائدا العمل الخـالص لله ، ينفع الإنسـان في الوصـــول الى طموحاته ، وغاياته بـــالطرق غـــير الطبيعية.

لذلك توجه الى الله ، بهدف تحقيق امنية قديمة عنده :
(**هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ**)

وبالطبع كان زكريا كأي نبي آخر ، يعلم ان الله يجيب الــدعاء ، ولكن وجد مناســبة صــالحة للــدعاء ونبه عليها القرآن بكلمة (هنالك) لكي تكون لنا عبرة ، تــدل على ان الله لا يمت الى أحد بقرابة ، بل يجـــــازي كل من يعمل صـالحا. فلم تكن مـريم الوحيـدة الـتي أجيبت فيها دعـوة والدتها ، بل زكريا هو الاخر اسـتفاد من الوضع ، ودعا ربه فاستجاب له ربه في ذريته.

[39] (**فَنادَتْـهُ الْمَلائِكَـةُ وَهُـوَ قـائِمٌ يُصَـلِّي فِي الْمِحْرابِ**)

كما كانت مريم من قبل قائمة في المحـراب ، فكـان يأتيها الرزق من السماء.

(**أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ**)

تلك الكلمة الـتي هبطت على مـريم بعدئذ في شـكل عيسى ، حيث كان يحيى نبيا تابعا لعيسى ومصدقا به :

(**وَسَيِّداً**)

بـــالرغم من انه تـــابع لعيسى ، إلا اتباعه لعيسى (ع) كان نابعا من إيمانه بالله ، فلم يفقده كرامته وسيادته.

(**وَحَصُوراً**)

معصـــوما عن الـــذنوب ، وبصـــفة خاصة الفـــواحش الجنسية ، التي كانت شائعة

يومئذ ، والتي قتل بعدئذ في مقاومته لها.

(**وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ**)

[40] كـــان زكريا قد دعا ربه ، حين وجد عند مـــريم رزقا ـــ دعا ربه ـــ في قمة تـــأثره بالحادثة ، لأنها ذكرته بأمنيته القديمـــة. اما الآن وهو في المحـــراب ، فقد نسي نفسه وأمنياتها ، وحـتى يكـون قد نسي حادثة الـدعاء. انه الآن متوجه الى الله وحـــده ، خـــالص لله وجهه ، لـــذلك فوجئ ببشارة الملائكة :

(**قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُـونُ لِي غُلامٌ وَقَـدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَـرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ**)

[41] كـــان مجتمع بـــني إســـرائيل انئذ فاســـدا ، الى درجة انهم كـانوا يرتـابون حـتى في زكريـا. والآن لو ذهب الى الناس ، وأخبرهم بان الله رزقه يحيى من امرأة عاقر ، فكيف يصدقونه .. لذلك :

(**قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً**)

وذلك في صيام صامت ، واعتزال ظـاهر عن النـاس. الذين فسدت ضمائرهم ، وأخذوا يتشـككون فيـه. ان نـوع العبادة كان ينسجم مع نوع المجتمع.

(**وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ**)

فمزيـــــدا من الارتبـــــاط بالله ، عن طريق ذكر الله وتسبيحه ليل نهار ، هو الكفيل بإعـادة ثقة النـاس بـالنبي. إذ النـبي لا يعـرف بكـثرة المـال ، أو كـثرة الحـديث ، بل بالتوجه الى الله ، والـدعوة اليـه. وهـذا من ابـرز علامـات الأنبياء دائما ..

وعلى النـــاس ان يفكـــروا هم بأنفســـهم ، ان زكريا لا يمكن ان يكون كاذبا ، فيأتي

بوليد من الشــارع (حاشا للــه) ويســميه ابنا له ، ان على النـاس ان يعرفـوا نـبيهم بعقـولهم ، لا بمزيد من خـوارق الطبيعة. والمجتمع الذي لا يريد ان يتعـرف على رسـوله ، لا تنفعه خوارق الطبيعة ، كما لم تنفع مع أقوام المرسلين الســابقين. لعلّه لهــذا لم يــزود الله زكريا بآيــات خارقة للطبيعة. بل امـره بالمزيد من تطـبيق شـريعته وفي ذلك أكبر دليل على صدقه.

**وَإِذْ قــالَتِ الْمَلائِكَــةُ يا مَــرْيَمُ إِنَّ اللــهَ اصْــطَفاكِ
وَطَهَّرَكِ وَاصْــطَفاكِ عَلى نِســاءِ الْعــالَمِينَ (42) يا
مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَـعَ الـرَّاكِعِينَ (
43) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ
إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَـدَيْهِمْ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44) إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللـهَ
يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِـيحُ عِيسَـى ابْنُ مَـرْيَمَ
وَجِيهــاً فِي الــدُّنْيا وَالْآخِــرَةِ وَمِنَ الْمُقَــرَّبِينَ (45)
وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46)**

---

44 [أنباء] : أخبار.
45 [المسيح] : أي مسح من الاقذار وطهر.
[وجيها] : كريما على من يسأله فلا يرده لكرم وجهه.

قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49) وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)

---

46 [كهلا] : ما بين الشاب والشيخ. وقيل الكهولة بلوغ أربع وثلاثين سنة.

رسالة عيسى من ميزات

النشأة الى خصائص الرسالة

هدى من الآيات :

كنا نتابع رحلة الرسـالة مع «مـريم» ، وبالمناسـبة مع «زكريا» حيث اختار الله ابنه رســولا ليس عبثا ولا بمحض الصـــــدقة .. بل لما تمتع به زكريا من إخلاص ، ثم دعوته الصـادقة الى اللـه. ونعـوذ الى «مـريم» لـنرى كيف انها بدورها تضرعت الى الله فوهب لها غلاما زكيا.

ذلك الغلام كان «عيسى» الذي اختـاره الله للرسـالة منذ الولادة .. كرامة لمريم الصديقة ، ولأم مريم الصالحة ، ان الله لم يبعث رسله منذ الولادة إلّا في قصـتي يحـيى وعيسى ، لكي لا يعتقد النـاس بألوهية الأنبيـاء ، فلو كـان الأنبيــاء آلهة إذا لكــانوا أنبيــاء منذ الــولادة ، ولما ابتلــوا وافتتنوا وخرجوا من مصنع الابتلاء ومن ثم اختيروا أنبياء.

أما يحــــيى وعيسى (ع) فلم يكن اختيارهما عبثا ، بل كرامة لوالديهما ، وجزاء

حسـنا لاعمالهما الصـالحة ، والله لا يعـاقب أحـدا بسـبب ذنب غيره ، ولكنه قد يكرم أحدا بسبب حسنة غيره.

وتبين آيات القـرآن هنا بعضا من معـاجز «عيسـى» ، ويشير القرآن بأنها كـانت بـإذن الله ، لكي ينسف الـدليل الثاني الذي تمسك به النصارى في اتخـاذهم عيسى إلها ، أما الـــــدليل الأول وهو ولادته من دون أب ، فيبيّنه حين يقارن بينه وبين آدم الـذي خلقه من الـتراب فهو أولى إذا باتخاذه إلها.

وتبين الآيـات خلاصة لـدعوة عيسى (ع) والـتي كـانت خالصة لله ، وأخيرا ، ينهى الحـديث ببيـان (**إِنَّ اللـهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ**) وعلينا جميعا التسليم له ، وبالتـالي : فـان عيسى لم يكن سوى عبد مطيع لله ، والآيات عموما تعالج فكـرة العنصرية من زأويتها الدينية كما يأتي الحديث عنه.

بينات من الآيات :

[42] لم تصبح مريم صديقة ووالـدة عيسى ، لمجـرد دعاء أمها ، وتربية زكريا كفيلها بل وأيضا لقيامها بواجبها ، في عبادة الله ..

(**وَإِذْ قـالَتِ الْمَلائِكَـةُ يا مَـرْيَمُ إِنَّ اللـهَ اصْـطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ**)

[43] ولكن لا يعـني اصـطفاك انك غـير مسـئولة عن عمل ، ولا مكلفة بـــواجب ، بل بـــالعكس تماما تتضـــاعف مسئولياتك وأعمالك.

(**يا مَـــرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْـــجُدِي وَارْكَعِي مَـــعَ الرَّاكِعِينَ**)

فالخضوع لله والتسليم لأوامره ، والتجـرد عن الـذات (القنوت) ، ثم التطبيق

العملي لهذا الخضوع (السـجود) ، ثم التطـبيق الاجتمـاعي له (الركـوع مع الـراكعين) ، هو الـواجب المضـاعف على مريم ، الذي استتبعه اختيارها للرسالة.

إذا .. مـريم لم تسـقط عنها التكـاليف بسـموها الى درجة الصـديقين ، بل ازدادت للدلالة على خطأ الفكـرة العنصرية.

[44] وكـانت من نتيجة طهـارة مـريم وتسـليمها المطلق لله ، ان أخذ النـاس يختصـمون أيهم يكفل «مـريم» ، فـاحتكموا الى القرعة بطريقة فريـدة. انهم يأتون البحر ويلقون فيه أقلامهم ، فالقلم الذي يغوص في الماء يحظى صاحبه بشرف كفالة مـريم ، حيث كـان ذاك هو «زكريا» كما بين القرآن سابقا.

(**ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**)

[45] هـذه هي مـريم وتلك قصـتها .. قصة امـرأة صالحة تضرعت لربها ، فولدت مـريم الصـديقة ، الـتي لم تكتف بطهـارة مولـدها ، بل أتعبت نفسـها في ذات الله فأصبحت صديقة.

أما قصة عيسى (ع) فقد ابتـدأت من كرامة الله لمريم التي جزاها لأنها أحصنت فرجها بان رزقها ولـدا من غير أب ..

(**إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَـةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**)

أسماء عيسى وخصائصه :

انه كلمة من اللـه. لأنه أخلص نفسه وأخلصه الله للدعوة اليه واصطنعه

لنفسه. وانه كلمة من الله ، لان الله يخلق كـلّ شـيء من خلال السـنن الكونية ، أما «عيسـى» فخلقه بكلمة ، كما خلق كذلك آدم من قبل فقال له (كن) فيكون.

ان إرادة الله ومشـيئته الحـرة تتجسد في أمر إلهي ، يسميه القرآن بالكلمة ، لان كل امر يصدر منا نحن الـذين يتحـدث القـرآن لنا وحسب مسـتوى فهمنا ، يعـبر عنه بالكلمة ولكن لماذا سماه الله ب (المسيح)؟ لأنه :

لم يخـتر لنفسه مـنزلا بل انتقل من موقع لموقع ، يدعو الناس الى الله.

وعيسى لم يكن ابنا لله. بل لمريم. ولذلك نسـبه الله إليها بينما نجد القرآن يذكر أنبياءه من دون نسـبة الى أب ، أو أم ، أو عشـيرة. فلا نجد في القـرآن مثلا التعبـير عن نبينا ب (محمد بن عبد الله).

(**وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**)

ومن أكـثر وجاهة وشـهرة وتقـديرا من «عيسـى» ، الذي يقدره اليوم الملايين؟! أما عند الله فهو نـبي وجيه ، ومن الأنبيـاء أولي العـزم ، الـذين فضـلهم الله على العالمين وجعلهم مقربين اليه سبحانه.

[46] (**وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ**)

فهو لا يدعو الناس فقط ، بل ويـدعو نفسه الى الله ، ويعبد الله سبحانه بإخلاص.

[47] (**قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)

«مريم» الصديقة ارتـاعت وامتلكها التعجب والدهشة ، كيف يرزقها الله

ولدا؟! وهكـذا كـانت القضـية غيبية ، متصـلة بـإرادة الله ، ولم تكن طبيعية مرتبطة بسموّ مريم الى درجة الالوهية ، أو سمو عيسى الى هذه الدرجة. وإلّا فان العملية لم تكن عجيبة بالنسبة الى «مريم» نفسها.

انما كانت خلقة الله لعيسى تماما كخلقته لكلّ شـيء في الكـون ، لم يكن ، ثم كـان بـإرادة الله ، وبكلمته لها (كن) ، فهل صـحيح ان نقـول ان الله ولد الأشـياء لمجـرد انها لم تكن ، ثم كـانت؟! كـذلك غـير صـحيح أن نتصـور عيسى ابنا لله ، لمجرد انه ولد بصورة غير طبيعية.

[48] وعيسى لم يكن إلها ، بل بشـــــرا علمه الله الأســماء ، ولو كــان ذا طبيعة الهية ، إذا لما احتــاج الى تعليم الله له لأن من يتصف بالألوهية يعلم الأشــياء ذاتيا ، أما عيسى فقد أعطاه الله من علمه بقدر ما شاء.

(**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ**)

لعــلّ الكتــاب هو الدســتور الثــابت المتصل بــالرؤى العامة في الحيــاة. أما الحكمة فهي التشــريعات العملية الخاصة ذات الصــبغة التطورية والكتــاب كــان يتمثل في التوراة ، أمّا الحكمة فكانت موجودة في الإنجيل.

[49] وبعد ان علّمه الله الكتــاب والحكمة ، اختــاره نبيا ، وأعطاه صفة الرسالة عطاء ، دون أن يمتلكها ذاتيا ، كما يمتلك أحدنا مثلا عينه.

(**وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْـرائِيلَ أَنِّي قَـدْ جِئْتُكُمْ بِآيَـةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**)

وليست الآية مــــني بل من الله وانا واســــطة نقل فحسب ، وهكـذا لم تكن معـاجز «عيسـى» دليلا على انه ابن الله ، إذ كـانت تلك المعـاجز ـ في الواقع من الله ـ وإنّما ظهـــــــرت على يد عيسى ، كما ان العين مثلا آية عظيمة من آيات الله ، ولكنها

تظهر في جسـدي وجسـدك. فهل هي دليل على اننا آلهة «سبحان الله».

من هنا نجد كلمة «اذن اللـــه» تتكـــرر في المقطع التالي ، للدلالة على ان كل تلك المعاجز هي من الله.

(**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ**)

تمثالا واجعله ..

(**كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً**)

حيا يطير في السماء كأي طير آخر كلّ ذلك ..

(**بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِـإِذْنِ اللّـهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَـأْكُلُونَ وَما تَـدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**)

فـاذا كـاتب لأحـدكم قرصـان من بر وشـعير ، أكل أحـدهما فـاني أخـبر أيهما أكل ، وأيهما احتفظ بها .. كل هذه المعاجز لا يقـدر عليها البشر فهل استطاع البشر أن يحول قطعة طين الى طـير حي فيه مليـارات الخلايـات ، وكـلّ خلية معجـزة الهيـة؟ لا يستطيع البشر أن يصـنعوها ولو اجتمعـوا عليهـا. أم هل استطاع كل أطبـاء العـالم أن يحققـوا حلم الإنسـان بإحيـاء المـوتى؟ ولكن عيسى قـدر عليه بإذن الله.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

أما إذا عاندتم فان ملايين الآيات لن تنفع الجاحد.

وحدة الرسالات في المبدأ والهدف :

[50] رسـالات السـماء واحـدة ، وابسط دليل على صدقها جميعا هو وحدتها. إذ

مسـتحيل على البشر ان يوحد أفكـاره بهـذه الدرجة ، مع اختلاف والظروف والضغوط ، والثقافات و، و.

انك لا تجد كـاتبين يتحـدان في أصـول الفكر ، أو في تفاصيله ، حتى ولو كانا توأمين ينتميان الى مـذهب واحد ، ويعيشـــان في أرض واحـــدة ، ويعملان من أجل هـــدف مشترك فكيف بشخصـين عاشا في عصـرين متناقضـين ، ويختلفان عن بعضـهما في كـلّ شـيء ، إلّا في التفكـير؟! هل يمكن ذلك لو لم يكن مصدر الفكر واحدا؟

وبـالطبع لم يكن «عيسـى» مقلـدا لموسى (ع) ، بل كان مشـرّعا أيضا ، ومطبقا لشـريعته بـإذن الله ، وحسب الظـروف المختلفة ، ولكن مع كـلّ ذلك فقد ظلت أصـول فكـره ، وطريقة معالجته للقضـايا ، وأهدافه التشـريعية واحدة لأنّهما رسولان من إله واحد ..

(**وَمُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَـدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِـلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**)

للدلالة على صدق النبوة وضمان سلامة التطوير ، انه من عند الله.

(**فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ**)

[51] وأهم وأبـــرز الأدلة على صـــدق الأنبيـــاء في دعوتهم ، انهم لا يدعون الناس الى أنفسهم ، بل الى الله الذي يلزمون أنفسهم بـأوامره ويخلصـون له العبـادة ، ثم يـــأمرون النـــاس بمثل ذلك وعيسى فعل مثل ذلك ، وهو دليل على انه بشر وانه رســـول ، فهو ليس إلها يـــدعو النـــاس الى ذاته ، كما انه ليس ســـلطانا يفعل مثل ذلك باعتبار ان السـلاطين يسـتحيل أن يـدعو النـاس الى غـير أنفسهم.

(**إِنَّ اللـــهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُـــدُوهُ هـــذا صِـــراطٌ مُسْتَقِيمٌ**)

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى
اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ
وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ
وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) وَمَكَرُوا
وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (54) إِذْ قالَ اللَّهُ يا
عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما
لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ
(57)

ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيـاتِ وَالـذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58) إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَـلِ آدَمَ خَلَقَـهُ مِنْ تُـرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59)

بشرية الرسول

ومراحل انتصار الرسالات

هدى من الآيات

كان عيسى بشرا رسولا ، تلك هي خلاصة الآيـات في الدرسين السابقين وفي هذا الـدرس أيضا ، ولكن القـرآن يعالج هذه الفكرة هنا من وجهات عديدة :

أولا : من جهة موقف الحــواريين ، وهم الرعيل الاول من المؤمــنين بعيسى ، مــوقفهم منه ، وانهم لم يتخــذوه إلها كما فعل التحريفيـــون ، ولو كـــان عيسى إلها لحق لأولئك قبل غيرهم ان يكشفوه ، لأنهم عاصروه مباشرة.

ثانيا : من جهة نهاية «عيســـى» الخارقة ، حيث رفع الى السماء فهي لا تدل على انه ابن الله. بل لا يعدو ذلك ان يكون معجزة كسائر معاجزه.

ويختم القــرآن هــذا الــدرس بــدليل بســيط على ان عيسى لم يكن إلها ، هو ان مثله كمثل آدم. فهل آدم إله لأنه خلق من غير أب؟

وفي بداية الـدرس يـبين القـرآن المراحل الاجتماعية لانتصار رسالة «عيسى» وهي

ذات المراحل الــتي تجتازها أية رســالة ، متصــلة بجهــود البشر أنفســهم ، وليست دليلا على ان الله يحب عنصــرا ويفضله على غـيره ، فلم يتقـدم الحواريـون لمجـرد حبهم لعيسى ، بل للجهد المكثف الــذي بــذلوه عــبر المراحل التالية :

(أ) مرحلة الفرز واعتزال الاكثرية الضالة.

(**قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قــالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ**)

(ب) مرحلة الحــرب وتخطيط كل طــرف بالانتصــار على غــيره وتقــدم صــاحب التخطيط الأفضل (**وَمَكَـرُوا وَمَكَرَ اللهُ**).

(ج) مرحلة الانتصار على العدو.

بينات من الآيات :

[52] عرف عيسى (ع) انهم يخادعونه ، ولا يخلصــون الايمان بالله بالرغم من انهم كانوا ينافقون له ويتظاهرون بأنهم مؤمنون ، فلم ينتظر عيسى (ع) ان يبادروا بالقضــاء عليه ، بــادر بــالاعتزال عنهم مقدمة لحــربهم والانتصــار عليهم ، ودائما تمر على الدعوات الرسـالية هـذه المرحلة حيث تتكــــــون العناصر الاولية لها فتنفصل عن المجتمع الفاسد ، وتكــون لنفســـها مجتمعا مثاليا يتفاعل ويتزايد عناصره ويحارب وينتصر .. كذلك فعل عيسى (ع)

ميزان العاملين

(**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْــــرَ قــــالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ**)

طلب من النــاس ان يحــددوا مــواقفهم ، فاختــارت طائفة منهم «الرسالة» سماهم

القـــرآن بـــالحواريين .. فقـــرروا اتّبـــاع عيسى وإخلاص العبودية لله والاستعداد للتضحية.

(**آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**)

انهم آمنوا بالله ايمانا صادقا وسلموا لله أنفسهم.

[53] ان ايمان هذه الطائفة بالله كـان عميقا وخالصا من المصالح والأهواء ، ومن الريب والشك ، وكان بهـدف واحد هو مرضاة الله سبحانه ، انه كـان ايمـان العـارفين ، وكل دعــوة تنتصر إذا امتلكت عناصر مخلصة ، مثالية في ايمانها ، وتقـدم ذاتها ببسـاطة تامة الى الله ودون تعقيد ، أو فلسفة ، أو تردد ..

من هنا نجد هذه الطائفة تعبر عن ايمانها بهذا الـدعاء الدافي الصادق.

(**رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُـولَ فَاكْتُبْنا مَـعَ الشَّاهِدِينَ**)

[54] في مواجهة هذه الطائفة كانت الاكثرية الضـالة ، الـتي حـاولت ان تخطط لضـرب هـذه الطائفة بشـتى الاساليب ، وكلها فشلت لأن هذه الطائفة الصـغيرة كـانت تتمتع بإيمـــان صـــادق ، وبخطة ذكية مســتوحاة من الله سبحانه ومعتمدة على ايمان أصحابها.

(**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ**)

ان أصـحاب الرسـالة السـابقين يتمتعـون بمـيزات لا توجد في مجتمعـــاتهم ، فهم مؤمنـــون ، ومضـــحون ، ونشطون ، ومتحـدون ، ويمتلكـون القـدرة على المبـادرة والحسم ، وليس كذلك مجتمعاتهم المترهلة.

النهاية المعجزة

[55] وانتهت حيـاة عيسى (عليه السـلام) بـان رفعه الله اليه ، ولكنه كان يتطلع

الى يوم تنتصر رسالته وأصحابه فطمأنه الله على ذلك.

(**إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَجاعِـلُ الَّذِينَ اتَّبَعُـوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**)

ان التوفي هنا يـدل على ان الله رفع عيسى بجسـمه وروحه معا. لان الكلمة تدل على الأخذ بالكامل.

وجاءت كلمة (ورافعك) شرحا لمعنى كلمة الوفاة.

اما كلمة (ومطهــرك) فتشــير الى التهمة الرخيصة ، الـتي أراد اليهـود الصـاقها بعيسى فطهـره الله منها حين استعاده (توفاه) منهم ومن مجتمعهم الفاسد.

ثم بين القرآن ان الله سوف يجازي اتباعك وأعـداءك مرتين. ففي الدنيا يجعل اتباعك فوق أعدائك وفي الاخرة يحكم بينهم بالحق.

[56] (**فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَـدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ**)

ولا ينفع لهم انتمــائهم الكــاذب الى موسى (ع) ، أو نسـبهم الشـريف الـذي يـربطهم بالأنبيـاء ، بل سـيأخذهم العذاب الشديد في الدنيا ، متمثلا في الذلة ، والمســكنة ، والتشرد ، وفي الاخرة متمثلا في الجحيم وساءت مصيرا.

[57] (**وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**)

ولأنه لا يحب الظالمين ، فـأولى به الّا يظلم أحـدا من عباده ، فلا يبخس أحدا

حقوقه ، كلا انه ســـوف يوفيها بالكامل ، ودون ان ينقص منها شــيء ، ودون ان يعطي جنانه بلا شــيء من العمل الصالح ، والجهد ، ومخالفة الهـوى ، ان الأجر هنـاك بقـدر العمل.

فلتعتبروا يا أولي الألباب

[58] تلك كانت قصص عيسى وقصص المعاصرين له ، فهل هي مجـــرد قصة كلا .. انها أولا آيــات تـــدل على حقــائق ، وأبرزها ان أنبيــاء الله كــانوا بشــرا ، وان الله اختارهم لرسالته حين وجدهم أكفاء ، وقــدراء على العمل الصــالح. وليس اعتباطا ولا لأنهم كــانوا من عنصر أفضل من غــيرهم ، هــذه حقيقة واحــدة نســتفيدها من قصص عيسى ، وهناك حقائق اخرى نجدها وراء هذه القصص.

وهنـاك عــبر وعظـات نسـتفيدها من هـذه القصص ، أبرزها ما نتـذكر به تـذكر حكيم تفيـدنا بصـيرة علمية في الحياة ، وعلما نافعا.

من ضرورة العمل الصـالح والاجتهـاد ، محاربة العنـاد في أنفسنا ، حتى لا يصبح مصيرنا كـاليهود بل حـتى نرتفع الى درجة الحواريين الصديقين.

لذلك لخص القرآن فلسفة القصص السابقة بالقول :

(**ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ**)

[59] وبين القــرآن بعدئذ الحقيقة البـارزة في قصص عيسى وقال :

(**إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْـدَ اللـهِ كَمَثَـلِ آدَمَ خَلَقَـهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)

فليس «عيســى» ابنا لله ، كما ان آدم لم يكن ابنا له ، بل ان تلك القدرة التي قـالت للـتراب كن .. فكـان رجلا سويا وأصبح آدم أب البشر ، تلك القدرة هي التي

خلقت عيسى من غير أب.

وكذب اليهود حين كـذبوا مـريم واتهموها بـالإثم ، لأن مـريم كـانت صـدّيقة يعرفها الجميع ، ولان الله قـادر على ان يخلق عيسى من غير أب ، كما خلق آدم من التراب.

الْحَـــقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَـــرِينَ (60) فَمَنْ
حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْـدِ ما جـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُـلْ تَعـالَوْا
نَـدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْنـاءَكُمْ وَنِسـاءَنا وَنِسـاءَكُمْ وَأَنْفُسَـنا
وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكـاذِبِينَ
(61) إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلـهٍ إِلاَّ اللَّـهُ
وَإِنَّ اللَّـهَ لَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (62) فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَـإِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا
إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ

---

61 [نبتهل] : فيه قولان «أولاهما» بمعـنى الالتعـان. وبهله الله أي لعنه الله. أما «الآخر» بمعنى الـدعاء بـالهلاك فالبهل كـاللعن وهو المباعـدة عن رحمة الله.
64 [كلمة] : كلام فيه شرح قصة ولذلك تقول العرب للقصيدة كلمة.
[سواء] : عدل وقيل سواء مستو.

أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (65) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (66) ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)

---

65 [تحاجون] : الحجاج هو ما يتضمن حجة أو شبهه في صورة الحجة والحجة هي البيان.

الحق مقياس الصواب

وأساس الوحدة

هدى من الآيات :

كـانت قصص عيسى ويحـيى تمهيـدا جيـدا لـدحض العنصرية. ذلك الانحـراف الكبـير الـذي وقعت فيه اليهـود والنصــارى وابتعـــدوا به عن المحــور الاساسي للأمة الرسالية ألا وهو «الحق».

وفي هـذا الـدرس يـبين القـرآن محورية «الحـق» ، ويطرح بعض الحجج القاطعة عليه ، أو بتعبـير أفضل يـبين لنا كيف نكتشف الحق وبأية وسيلة ، فيذكرنا.

أولا : بأسلوب المباهلة.

ثانيا : بطـرح برنـامج للوفـاق الرسـالي ، الـذي يعتمد بالاساس على توحيد الله ومخالفة التحزب والعنصرية. ثم يعالج قصة إبـراهيم الـذي جعله اليهـود والنصـارى مقياسا للحق ، ويبين انه مقياس باطل.

أولا : لان إبراهيم لم يكن يهوديا أو نصرانيا.

ثانيا : لأنه كشــخص لا يصــلح مقياسا للحق ، بل انما كان إبراهيم نبيا لأنه اتبع الحق.

ثالثا : وأخيرا ، ليس الانتماء الى إبـراهيم بالنسب ، أو بـالكلام ، بل بالاتبـاع الصـادق. وبعدئذ يتـابع السـياق في الدروس القادمة مواقف أهل الكتاب من الرسالة الجديدة والتي منها توسـلهم بأسـاليب التضـليل السـافلة ككتمـان الحق ، أو تلبيسه بالباطل ، أو الايمان ثم الارتداد ، لا لقاء الشك في النفوس. ثم يناقش بعض الآثار العملية للفكـرة العنصرية متمثلة في الخيانة بالامانة.

ويبين أخيرا : دور علماء الـدين والثقافة ، المنحـرفين في تضـــليل الجمـــاهير ، بإعطـــائهم ثقافـــات مريضة ومسمومة وكيف ان هذا الدور يناقض دور عـالم الـدين أو المؤمن الصادق.

بينات من الآيات :

[60] ان الحق مقياس التقييم السليم. لا الرجــال ولا العنصر والحق من الله. فهو الـذي يهـدي اليه ، وهو الـذي يجزي عليه ، وهو الذي يضمن تنفيذه بالتالي شئنا أم أبينا. ولأنه من الله فلا أحد يستأثر به ، أو يحكم باسمه الناس ، ويتخذهم عبيدا ، لأن الله رب الجميع ، وليس لطائفة دون اخرى ، ولأن الحق لله فهو لا ريب فيه ، لأن مصدر الشك هو الهوى والمصلحة والجهل ، وتعالى الله عنها.

دلائل صدق الرسالة

اننا قد نشك في دعــوة مصــدرها رجل ، وعنصر ، أو قوم أو أهل إقليم ، لاننا نعرف ان الرجل قد يكـون جـاهلا أو سـاذجا أو خبيثا ، وانه قد يتــأثر بضــغوط مصــالحه أو مصـالح عنصـره أو إقليمه أو قومـه. بيد ان الله لا يـرقى اليه شك من هذا النوع أو من غير هذا النوع سبحانه.

(**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**)

[61] يقين الرسول برسالته شاهد حق على صدقها ، ذلك ان هـذا الايمـان لا يجتمع أبـدا مع كـذب الرسـول أو خداعه للنـــاس ، ولكن كيف يمكن للنـــاس ان يكتشـــفوا صدق الرسول في ايمانه برسالته ويقينه التام بمضمونها؟ هل من خلال أقواله فحســـــــــب؟ كلا .. بل من خلال ممارساته العملية ، ومن خلال جهاده وتضـحياته وعطائه ، وأيضا من خلال عملية الابتهـــــال حيث تقف طائفتـــــان متعارضـــتان امـــام الله ويـــدعوان على الكـــاذب منهما ، وبـــالطبع سيســـقط آنئذ القنـــاع عن تلك الوجـــوه الكاذبة وتشرق الحقيقة من أفق الصادقين.

المباهلة وسيلة لكشف الحق :

والابتهال ـ بالتالي ـ هو نـوع من التحـاكم امـام الغيب حيث يراجع كل طرف ضميره ويحتكم الى تقواه.

(**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**)

في الحق فلا تجادل معه جدا لا كلاميا قد يطـول ، بل دعه يحتكم الى الواقع ، لان العلم ليس لفظا ولا كلمـــات تحريرية ، انما هو كشف عن واقع ملمـــوس في الخـــارج إذا.

(**فَقُـلْ تَعـالَوْا نَـدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْنـاءَكُمْ وَنِســاءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ**)

الى الله ونتضرع في ان يكشف الحقيقة.

(**فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ**)

وهنا لا يستطيع الكاذب ان يستدرج اللعنة على نفسه فيفتضح ، وقد فعل

الرسـول مـرة واحـدة هـذه العملية ، حيث جمع أهل بيته وذهب الى مواجهة نصـارى «نجـران» للابتهـال ولكنهم انسحبوا وافتضحت دعواهم.

[62] ثم إنّ الحق من الله ، والاحتجـاج فيه يتم عـبر الابتهـال الى الله ، ولكن اين يوجد كلام اللـه؟ في «القـرآن» .. حيث يحـدثنا من خلال قصصه الواقعية عن الحق ، فـالحق في منهج القـرآن ليس ألفاظا ولا قواعد مجردة ، انما هو بصائر تعطي من خلال قصص واقعية.

تلك القصص تنتهي الى إقـرار حقيقة التوحيد الـتي تعطي بصيرة تامة وتفسيرا صحيحا لكافة ظواهر الحياة.

ولكن ليس التوحيد الاعتزال عن الحياة الاجتماعية بل التوحيد الـذي يعكسه قصص القـرآن التاريخية يهـدينا الى رب يهيمن على الحيـاة ويـدبرها وهو عزيز حكيم. فلأنه عزيز تتجلى قوته في الحيـاة ولأنه حكيم يسـتخدم علمـه. انظروا الى القرآن ماذا يقول :

(**إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَـقُّ وَما مِنْ إِلـهٍ إِلَّا اللـهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

[63] ومن لا يتبع الحق فهو بتبع الباطل ، وسـوف لا ينتج الّا الفسـاد. والله ليس بعيـدا عنه بل هو عليم به يراقبه ويأخذه على حين غفلة.

(**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ**)

[64] كان الابتهال أسـلوبا يهـدف : اقنـاع الكفـار من أهل الكتاب بالرسالة ، والأسلوب الآخر : هو طرح طريقة للوفاق تتضمنه هذه الآية ، التي دعت الى المسـاواة على صـعيد التوحيد ، حيث لا يشـرك بالله شـيئا في التفكـير والسـلوك وتسـقط كل القيم الاجتماعية غـير قيمة الحق فلا عنصر ولا رجل ولا قوم ولا .. ولا .. ولا ..

لتسقط جميعا ، لأنها شرك بالله ثم ليسقط الاستعباد فلا يتخذ البعض أربابا من دون الله .. فلا قيادة ولا استعباد ولا ظلم ولا كبت.

هذه هي دعوة التوحيد الحقيقية ، المساواة في عـالم يســـوده الحق وتنعـــدم فيه قيم الضـــلال وترتفع قيمة التسليم لله وحده دون اي نوع من الاستعباد.

(**قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعـالَوْا إِلى كَلِمَـةٍ سَـواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ**)

وهذه هي كلمة التوحيد التي تعني عدم الشــرك بالله في القيم.

(**وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً**)

كما تعــني هــذه الكلمة عــدم الشــرك في القيــادة والمحافظة على الحرية الشخصية.

(**وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْبابـاً مِنْ دُونِ اللـهِ فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**)

وسـوف لا نطبق هـذه المبـادئ مزايـدة بل لأنها تمثل مبادئنا الحقيقية التي تحكم داخل مجتمعنا.

تطبيق المبادئ وسيلة الخلاص

ومن الـذي لا تعجبه هـذه المبـادئ ، اي مجتمع أم أي فرد (المساواة ـ الحق ـ الحريـة) العـالم اليـوم يبحث عن وفاق ، وخطر الحرب الذرية يهز أعماقه ، ولكنه سـوف لا يجد الوفاق ألاّ ضمن هذه المبادئ ، لتسقط قيم العنصرية ، والاقليمية واسـتعباد الإنسـان للإنسـان ، وكبت الحريـات ولـترفع قيمة التوحيد والتسـليم لله وحـده ولـيرى العـالم كيف يتحقق الوفاق.

وحـــتى داخل المجتمعــات الصــغيرة بل داخل تجمع صغير لو سادت هذه المبادئ لكانت وسيلة للتلاحم الأكـثر ، والانتاج الأفضل ، لو سادت قيمة المساواة امام القانون ، وقيمة التوحيد وعـدم الاعتقـاد بأية قيمة ارضـية باطلة ، وقيمة الحرية وعدم الاستعباد.

ان هذه الآية تجسد جـوهر سـورة آل عمـران .. فهي دعـــوة الى الوحـــدة وعلى أســاس الحق وبنــاء التجمع التوحيدي الذي يتمحور حول الحق وينبذ القيم الباطلة.

[65] حين رفعت الآية السابقة لواء المسـاواة وعـدم اسـتعباد فريق لفريق ، فانها تضـمنت دعـوة صـريحة لنبذ صـنمية وعبـادة الأشـخاص ، والتمحـور حـولهم ومحاولة الانتساب إليهم.

تلك الحالة التي تقف امام وحـدة المجتمع البشـري ، كما انها تعترض طريقه نحو التقـدم والصـعود ، حيث يفقد البشر قدرته على الإبداع. وثقته بذاته من أجل التقدم.

وضــربت هــذه الآية مثلا على ذلك من واقع إبــراهيم عليه السلام ، حيث حاولت اليهود والنصارى الارتبـاط به ، والاختلاف عليه ، ومحاولة كل فريق دعم فريقه باســمه ، متناســين ان عظمة إبــراهيم لم تكن بســبب عنصــره المتفــوق ، أو بســبب لوالــده أو قومه أو إقليمه بل لأنه سلّم نفسه لله وأخلص في التوحيد.

ولو انهم اتبعــــوا ملة إبـــــراهيم في التوحيد ، إذن لوحدتهم تلك الملة ، بدل ان تفرقهم ، ولما فكّروا تفكـيرا حزبيا ضيّقا ، ولم يحاول كل فريق ان يكون لجماعته أشد من انتمائه للحق.

(**يا أَهْـلَ الْكِتـابِ لِمَ تُحَـاجُّونَ فِي إِبْـراهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ**

(بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)
ان عليكم ان تجعلوا إبـراهيم رمـزا للوحـدة ، لا سـببا للتفرقة والجدل الطائفي بينكم ذلك لأن الاختلاف جاء بعد إبراهيم لا قبله.
[66] ثم يتابع القرآن حديثه ويقول :
ان التعصب يـــدعو صـــاحبه الى العمى ، حيث انه لا يفكر تفكــيرا علميا ، بل يحــاول إثبــات جانبه بــأي ثمن فإبراهيم كيف يمكن ان يكـون يهوديـا؟ واليهودية متـأخرة عنه ، أم كيف يكون مسيحيا؟
(ها أَنْتُمْ هـؤُلاءِ حـاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِـهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَـاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِـهِ عِلْمٌ وَاللـهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)
والأفضل ان نوحد الله ونســـلم له حـــتى نبتعد عن العصبية الطائفية ، ونستفيد من العلم والعقل.
[67] من كان ـ إذا ـ إبـراهيم؟ انه كـان عبـدا لله ولم يكن منتميا لطائفة أو عنصر. وبذلك أصبح عظيما.
(ما كـانَ إِبْـراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْـرانِيًّا وَلكِنْ كـانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
انه رفض الانحرافات الاجتماعية التي سـادت مجتمعة ، وحنف ومــال عنها ثم توجه الى الله ووحـــده فعبـــده ، وبالتالي تحـرر من ضـغط الجبت والطـاغوت ، فلم يخضع لاية قوة فكرية أو اجتماعية أو سياسية غير الله.
[68] هــذا إبــراهيم فمن أراد ان يهتــدي اليه فليبــدأ برفض مجتمعة الفاسد ،

وليمل عنه باتجاه معاكس تماما الى الله ، وليســلم نفسه لله والحق ، وليتحرر من كل القوى المستعبدة للبشر هذا هو الانتمــاء الصــحيح لإبــراهيم ، ولا تجــده الّا في النــبي محمد (ص) والمؤمنين به.

(**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ**)

وأخلصوا التوحيد لله.

(**وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**)

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ
إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (69) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ
تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70) يا أَهْلَ
الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71) وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ
آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ
وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ
لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ
مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ
بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (73)
يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ

---

69 [ودت] : أي تمنت.
72 [وجه النهار] : أوله وسمى وجها لأنه أول ما يواجهك منه.

الْعَظِيمِ (74) وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ
إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا
فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ (75) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى فَإِنَّ اللهَ
يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76)

مواقف أهل الكتاب

عصبية وتضليل

هدى من الآيات :

ما هي مواقف أهل الكتـــاب من الرســالة الجديـــدة «الإسلام» الذي اتبعه إبراهيم؟

ان أهل الكتـاب أهم ما يمـيز مـواقفهم ، هو التعصب الأعمى لطائفتهم على حساب الحق ، انهم لا يفكرون في أن يهتـــدوا ، بل يحـــاولون تضـــليل المؤمـــنين أيضا ، ومع علمهم بـان الرسـول حق ، فهم يكفـرون به ، انطلاقا من عصـبيتهم الطائفية ، وعنصـريتهم القومية ، ويســتخدمون وسائل ما كرة وغـير شـريفة في إضـلال المؤمـنين ، مثل ان يتظاهروا في الصبح انهم مؤمنون ، ثم يكفرون مســاء ، لعلهم يضعضـعون إسـلام المؤمـنين بالرسـول ، أو انهم يشيعون في أوساطهم فكـرة الطائفية ، ويحـاولون اللعب بمشـــاعر النـــاس الاســـتقلالية ، وينفخـــون في كبريـــائهم القومية ويقولـــون لهم لمـــاذا تتبعـــونهم دعـــوهم ، فهم يتبعونكم ، فأنتم أولى بالاتباع ، وكأن المسلمين يـــدعونهم الى اتباع أنفسهم.

وتبرز هذه المواقف كأسـوإ ما تكـون في العنصـرية ، التي تدّعي ان اليهودي لا يعذب شيئا ، إذا خان الناس من غير اليهود. انظر كيف تنحرف المفاهيم ، بسـبب العصـبية الطائفية.

ويـرد القـرآن ــ كما نـبين قريبا ــ هـذه الأفكـار وتلك المواقف بحجج قوية.

بينات من الآيات :

نتائج التعصب :

[69] ان أهل الكتاب ليسوا سواء ، هـذا ما تـوحي به هــذه الآية وتبينه آية تــأتي لتؤكد لنا : ان جــزاء العصــبية ليست عصبية مثلها ، بل التقـييم السـليم ، والاحتكـام الى الحق فقط ، فـاذا قـالوا لنا أنتم كلكم منحرفـون ، لا نـرد عليهم القول ذاته فنقول : بل أنتم المنحرفون جميعا ، بل نقــول الحق أبــدا. فليس كـلّ الطوائف من أهل الكتــاب يكفــرون بنمط واحد ، انما هنــاك طائفة من أهل الكتــاب يــودون تضــليل المؤمــنين بالرســالة الجديــدة ، وهم يسـتفيدون من الـدين المنحـرف السـابق ، سـواء كـانوا الكبراء أو الأحبار أو الأثرياء أو من أشبه.

ولكن هذا التضليل سوف يسبب لأنفسـهم مزيـدا من الضلالة ، إذ ان الذي يحاول تضـليل غـيره سـوف تتكـرس في نفسه الأفكار الباطلة ، التي يلـوك بها من أجل اقنـاع الآخـــرين بها ، ذلك لأنه ســـوف يفتش عن بعض الأدلة الباطلة ، التي تدل عليها ، ويكررها ، حتى يصـدق هو بها ، كما وتأخذه حالة التحدي ، والاعتزاز بـالإثم ، ولا ينظر الى الأفكار المعاكسة لفكرته. كل ذلك سوف يسبب له مزيدا من الضلالة.

(**وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتـابِ لَـوْ يُضِـلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما**

(**يَشْعُرُونَ**)

[70] العصبية أعمى لا بصيرة لها .. انها تسبب الكفر بـالحق بكل صـراحة ، فـاذن من يخسر بـالكفر؟ أو ليس الكافر نفسه؟!

(**يا أَهْـلَ الْكِتـابِ لِمَ تَكْفُـرُونَ بِآيـاتِ اللـهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**)

هل هناك فائدة في الكفر بآيات الله الواضحة.

[71] انهم لم يكونـــوا يكفـــرون بـــالحق فقط ، بل يحاولون إضلال المؤمنين بشتى الوسـائل ، الـتي منها أولا : خلط الحق بالباطل ودمج الباطل به ، وخـداع البسـطاء فيه ، وهم أهل الكتاب الذين أؤتمنوا عليه ..

(**يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ**)

هل هـــذا في كتـــابكم أم من أجل تحقيق أهـــوائكم الضالة.

والأسلوب الثاني : كتمان جوانب من الحق ، من أجل ألّا تصبح حجّة عليهم أمام الناس ..

(**وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

انه الحق من ربكم ..

ان الله حمل أهل الكتـــاب مســـئولية بيانه للنـــاس ، وكـــانت ثقة النـــاس بهم آتية من منطلق انهم ســـوف يحققون مسئولية العلم التي على أكتافهم ، ولكنهم خـانوا الله وخانوا بالجماهير ، حين كتموا الحق ، وخلطـوه عمـدا بالباطل.

[72] وقـاموا بخطـوات عملية ما كـرة ، لـزرع الشك بالحق في قلوب البسطاء من

أتباعهم أن يؤمنوا بالرسالة الجديدة.
فلقد كانوا يتظاهرون بالإيمان في فـترة من الـوقت ، ثم يكفرون ويعـودون لجمـاعتهم ، ويقولـون : نعم خـدعنا وآمنا لاننا كنا طيّـبي القلب ، ومخلصـين ، ولكننا اكتشـفنا انهم على باطل.
(**وَقـالَتْ طائِفَـةٌ مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ آمِنُـوا بِالَّذِي أُنْـزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَجْـهَ النَّهـارِ وَاكْفُـرُوا آخِـرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)
انظر كيف يـــؤدي الكفر بـــالحق الى اتخـــاذ مواقف خطيرة ضد الحق ، ومن أجل إضلال الناس عنه.
[73] وكـــانوا يثـــيرون في أنفس اتبـــاعهم العصـــبية الجاهلية البعيدة كل البعد عن روح الدين ، فيقولون لهم : دعـــوهم هم يتبعـــون دينكم ، لأنكم أنتم أصـــحاب الـــدين الحقيقي. علما بأن الدين لله ليس لهؤلاء ولا لأولئك.
(**وَلا تُؤْمِنُـوا إِلَّا لِمَنْ تَبِـعَ دِينَكُمْ قُـلْ إِنَّ الْهُـدى هُدَى اللهِ**)
وليس هـــدى عنصر أو قـــوم معين ، ثم ان الرســـالة الـتي هبطت على قلب محمد (ص) ، هي مكملة لرسـالة الله وخاتمة لها .. بينما رســـالات الله الســـابقة لم تكن بذلك المستوى.
(**أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ**)
أيها المســلمون : فلا ترتــابوا في دينكم ، لمجــرد ان طائفة من الأحبـار يؤمنـون ثم يكفـرون ، أو لمجـرد انهم يقولـــون اننا حملة الرســـالة التقليـــديون ، فكيف انتقلت الرسالة؟ الى العرب وهم ليسوا بمسـتوى حمل الرسـالة كلا : ان الله يعلم أين يضع رسالته.

(**أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ**)

وليس يختص بفضل الله بنو إسرائيل ، لان الله الذي خلق بني إسرائيل ، وتفضل عليهم برسالته ، هو الذي خلق العرب. والخلق امامه سواء ، وانما خصهم الآن بالرسالة لما علمه من كفاءات حملها فيهم.

(**وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**).

ولأنه واسع لا يخصص فضله لجماعة دون اخرى ، ولأنه عليم يجعل في كل فترة رسالته في موقع معين ، تبعا للحكمة البالغة والمصلحة العامة.

[74] (**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**).

[75] لذلك نجد ان الله يختار اليهود تارة ، والعرب تارة. وبالطبع ان هذه العنصرية لم تكن جزءا من رسالتهم السماوية ، بدليل ان بعضهم ـ وهم المتمسكون جيدا برسالتهم ـ كانوا يؤدون الأمانة ، حتى القنطار من الذهب.

(**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً**)

وتطالبه به بقوة حتى تستلم أمانتك منه ، ولكن لماذا يخونون الامانة؟

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**)

فلا يحاسبنا الله على الخيانة بالعرب الأميين ، أو بالأحرى على الخيانة بكل شعب غير شعب اليهود ، الذي نزلت عليه ومن اجله فقط رسالة السماء.

(**وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**)

إذ لم ينزل الله دينا عنصـريا لنـاس دون نـاس. ولكن دوافع هــؤلاء الحقيقية هي دوافع مصــلحية ، وعصــبية ، ولذلك يتلبسون بالدين عمدا.

[76] وقد رأينا كيف ان الله يمدح طائفة من اليهود ، لأنهم يؤدون الأمانة ، ان ذلك دليل بسيط على ان رسـالة السماء لا تعترف بالعنصرية أبدا ، والقيمة الوحيدة عنـدها هي العمل الصالح.

(**بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْـدِهِ وَاتَّقى فَـإِنَّ اللـهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**)

ســـواء كـــان ذلك العهد ، هو المـــال كما في الآية السابقة ، أو كان العلم الـذي حمله إيـاه الله لكي ينشـره بين النـاس ، ولكن العصـبيّة الجاهلية العميـاء ، هي الـتي أملت على اليهود مخالفة الهدى من ربهم لمجرد انه أنزله على العــرب ، والواقع إنّ هــذه العصــبية انتهت بهم الى عنصرية عمياء ، فاذا بهم تجدهم يخونون أمانات النـاس ــ مثلا ــ من دون اي حــرج ، بــزعمهم أنهم يحاســبون على الذنوب التي يرتكبونها في حق الأميين.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْـتَرُونَ بِعَهْـدِ اللـهِ وَأَيْمـانِهِمْ ثَمَنـاً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِـرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللـهُ وَلا يَنْظُـرُ إِلَيْهِمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ وَلا يُـزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَـذابٌ أَلِيمٌ (77) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقـاً يَلْـوُونَ أَلْسِـنَتَهُمْ بِالْكِتـابِ لِتَحْسَـبُوهُ مِنَ الْكِتـابِ وَما هُـوَ مِنَ الْكِتـابِ وَيَقُولُـونَ هُـوَ مِنْ عِنْـدِ اللـهِ وَما هُـوَ مِنْ عِنْـدِ اللـهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78) ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُـولَ لِلنَّاسِ كُونُـوا عِبـاداً لِي مِنْ دُونِ اللـهِ وَلكِنْ كُونُـوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ

78 [يلــوون] : أصل اللّيّ الفتل من قولك لــويت يـــده إذا فتلتها ومنه لويت الغريم.

79 [ربانيين] : الرباني هو الرب يرب أمر الناس بتدبيره

وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُــونَ (79) وَلا يَــأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِــذُوا
الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِـالْكُفْرِ بَعْـدَ إِذْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ (80) وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ
مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَـدِّقٌ لِما مَعَكُمْ
لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ
إِصْـرِي قـالُوا أَقْرَرْنا قـالَ فَاشْـهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
الشَّــاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَـوَلَّى بَعْـدَ ذلِـكَ فَأُولئِكَ هُمُ
الْفاسِقُونَ (82) أَفَغَيْـرَ دِينِ اللـهِ يَبْغُـونَ وَلَـهُ أَسْـلَمَ
مَنْ فِي السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعــاً وَكَرْهــاً وَإِلَيْــهِ
يُرْجَعُـونَ (83) قُـلْ آمَنَّا بِاللَّــهِ وَما أُنْــزِلَ عَلَيْنا وَما
أُنْـزِلَ عَلى إِبْـراهِيمَ وَإِسْـماعِيلَ وَإِسْـحاقَ وَيَعْقُـوبَ
وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ

وإصلاحه إياه يقال رب فلان أمره إذا دبره وأصلحه فيكون العـالم ربانيا لأنه بالعلم يرب الأمر ويصلحه. قيل أنه مضاف الى علم الرب وهو علم الدين الـذي يـأمره به الا انه غـير في الاضـافة ليـدل على هـذا المعـنى فقيل لصاحب علم الدين الذي امر به الرب رباني.

مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَـــهُ مُسْـــلِمُونَ (84) وَمَنْ يَبْتَـــغِ غَيْـــرَ الْإِسْـلامِ دِينـاً فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُـوَ فِي الْآخِـرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (85)

العلماء بين

تبرير الهزائم وتفجير الطاقات

هدى من الآيات :

بالرغم من أن آيات الدرس السـابق كـانت عامة ، إلّا ان رجال الدين التحريفيين وانصـاف المثقفين كـانوا أولى النـاس بها ، إذ انهم هم ابـرز (أهل الكتـاب). فالكتـاب يعرفونه قبل غـيرهم ويدرّسـونه ويعلّمونه الآخـرين فهم أهله بالاولوية ..

والحديث في هذا الدرس يتركز على هـؤلاء بالـذات ، ويبدأ بان العلم أمانة ، والذين لا يتحملـون مسـئولية العلم لبعض المال ، ويخونون أمانته ينالون جزاءهم في الآخرة.

وخيانة العلم قد تكـون بالتفسـير الخـاطئ للـدين. بتحريف معاني نصوصه وجعلها تتوافق ومصالحه الدينية.

وهـؤلاء ليسـوا أمنـاء الله على رسـالته ، انما امنـاؤه الأنبياء الذين يخلصون الدعوة

الى الله لا الى أنفســـهم ، ولا الى الملائكة أو الأنبيـــاء ، ويصـدق بعضـهم ببعض ، وفقا للميثـاق الـذي اتخـذه الله منهم قبل ان يحمّلهم مسئولية الرسالة. أن يؤمنوا بـالنبي الذي يبعث إليهم وينصروه. فوافقوا جميعا عليه. واشـهدوا الله على أنفسهم.

وهــذا في الواقع هو الإســلام بمعنــاه الصــادق ، فهو تجــرد كامل عن الذاتية ، وتســليم مطلق للــه. تماما كما أسلمت السماوات والأرض لسنن الله.

وبالنسبة لنا يعني هذا الإسلام ، الايمان بجميع الرسل انطلاقا من وحـدة الرسـالات السـماوية ، الـتي سـيبحثها القرآن في الدروس التالية مباشرة.

بينات من الآيات :

الرسالة مسئوليات وواجبات :

[77] رسالة الله مسئولية كبيرة يحملها الإنســان في الحيــاة ، وتــتركز عند الأنبيــاء والصــديقين ، وعند الــذين ينصبون أنفسهم دعاة الى الدين. وهي ـ في ذات الوقت ـ مسئولية ثقيلة وذات قيمة كبيرة ، لأنها أداة لتوجيه الناس الى الحياة السعيدة والى مقاومة الجبت والطاغوت ، ولنا أن نتصور ان قدرة الإنسان في ضـبط نفسه عن شـهواته متصـلة بفهمه الصـحيح لرسـالة الـدين في الحيـاة. إذ انها هي التي تحذره من مغبة الاسترسال مع الشهوات.

وتبين له ان لقمة واحدة يمضغها الإنسـان بشـهواته ، قد تمنعه من الاكل الهنيء طول حياته. وان ساعة واحـدة من الغفلة واللاإرادة ، قد تجعل حياته والى الأبد جحيما لا يطــاق ، وان اي شــهوة طائشة ، أو جريمة ، أو ذنب ، أو هفوة ، توجب عليه الحسـاب والعقـاب الأليم في الآخـرة. وبالتالي رسـالة الـدين تجعل إرادة الإنسـان قوية وقـادرة على ضبط الشهوات وتوجيه طاقاته نحو الجد.

نتائج التحريف :

أما لو جـاء رجل دين منحـرف ، ومن أجل المماشـاة مع أصحاب الشهوات والربح عليهم. وجمع أكبر عدد منهم حوله ، بـرّر لهم سـيئاتهم وهـوّن عليهم امر العقـاب وأخذ ينشر فيهم أفكـــارا من قبيل ان الله غفـــور رحيم ، أو ان الأنبيـاء والأوليـاء يشـفعون لك ذنوبك ، وانك سـوف توفق للتوبة وهكـذا ـ فـان النتيجة سـتكون خطـيرة ، إذ ان اداة الضـــبط تـــتراخى في النفس وتنـــدفع الشـــهوات في كل اتجاه. وقد يقدم صاحبها على أكـبر الجـرائم اعتمـادا على تلك التبريرات السخيفة.

ان مجـــازر الحـــروب الصـــليبية ارتكبت بفعل تحريف رسالة الدين ، وتحويلها من أداة لضبط الشهوات الى أداة لتبريرها .. بل وتكريسها واعطائها الشرعية.

كما ان هتلر كان قد استغل في مجازره الرهيبة بعض رجال الدين التحريفيين ، الذين زوروا له الدين ، ورســـموا له الصليب المعكوف ..

وإسـرائيل تقـترف الآن الجـرائم باسم الـدين ، ولكن أيّ دين ذلك الدين الذي يبرر الجرائم بدل أن يدينها.

هذا عن الجبت. أما الطاغوت المتمثل في الســلطات الديكتاتورية والمستغلة والمستعبدة للبشرية. فـان القـوة الوحيدة التي تستطيع ان تتحرك ضدها ـ هي قوة الشـعب ، الـــــذي يجب أن يحافظ على حريته وثرواته ويجاهد ضد مستغليه. ولكن الشعب بحاجة الى سلاح فكـري يسـاعده في تجميع قـــواه ، وتوحيد طاقاته ، وتـــبرير تضـــحياته ... وذلك السـلاح هو الـدين. ولكن يشـترط ألّا يسـرق رجـال الدين سلاح الشعب منه ، ويبيعوه الى الطواغيت ، (**بِثَمَنٍ بَخْسٍ ـ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ**).

ولنا أن نتصـــوركم ألف ألف جريمة تـــرتكب في كـــلّ يوم بسبب خيانة رجال

الـدين لرسـالة الـدين. وكم يسـتعبد ملايين النـاس لهـذا السبب وهل لها قيمة الدراهم التي يقبضـها هـؤلاء الخونة لقاء تلك الجرائم الكبيرة التي يتحملون وزرها.

من هنا نجد القرآن شديدا مع هؤلاء ويقول :

(**إِنَّ الَّذِينَ يَشْـتَرُونَ بِعَهْـدِ اللـهِ وَأَيْمـانِهِمْ ثَمَنـاً قَلِيلاً**)

فمهما يكون الثمن الذي يقبضه الإنسان لقـاء جريمته بحق الشعوب ، فهو قليل والعهد والايمان سيتحدث عنهما القرآن في الآية (81).

(**أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ**)

انهم في الآخرة بلا رصيد ، بـالرغم من بعض مظـاهر الطاعة التي عندهم من صلاة وصيام.

إذ انهم يبيعون دينهم في الـدنيا ، فلا يبقى منه شـيء للآخـــرة ، وأولئك هم الأذلـــون في يـــوم القيامة ، إذ انهم طلبوا من وراء بيعهم للدين الحصـول على بعض الجـاه ــ فجزاهم ربهم بعقاب مناسب حين إذ لهم في القيامة.

(**وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ**)

وهــؤلاء دائما يزكــون أنفســهم ، ويجعلونها مقدسة ، ومتعالية عن النقد ، وأيّ نقد يوجه إليهم يعتبرونه نقـــــدا موجها الى الدين ، ويكفرون صاحبه لذلك قال الله عنهم.

(**وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

جزاء للذات البسيطة التي استفادوها ببيعهم الدين.

[78] ان ملايين النـــاس يتمـــردون على الـــدين ذاته بسبب وصاية هؤلاء الخونة على رسـالته المقدسـة. إذ ان هـؤلاء يصـورون الـدين اداة للتـبرير. وللكسل ، والجمـود والاستسلام للطاغوت ، والرضا بالاستعباد ، وهذا التفسـير الماكر يستخرجونه من بعض النصوص بطريقة ماكرة.

(**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقـاً يَلْـوُونَ أَلْسِـنَتَهُمْ بِالْكِتـابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتـابِ وَما هُـوَ مِنَ الْكِتـابِ وَيَقُولُـونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُـونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**)

والتعبير ب (**يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتـابِ**) تعبـير دقيق لحالة هؤلاء النفسية والسـلوكية فهم من الناحية النفسـية يحاولون تحريف الـدين وإلوائه بـأي شـكل من الاشـكال ، وهم من الناحية السـلوكية يعيشـون الكتـاب على صـعيد الألسن فقط دون أن تتعمق رؤي الكتاب في قلـوبهم ، أو تظهر في حياتهم. انهم اتخذوا الكتاب أحرفا يتعـاملون بها كما يتعـاملون مع قطعة حلـوى يصـنعون منها ما يشـاءون صورا شتى حسب المواقع وحسب الظروف المصلحية.

[79] ان الكذبة الكبيرة التي قالها هؤلاء الخونة ـ من رجـال الـدين والعلم التحريفـيين ـــ هي عبـادة عيسى ، واتخـاذه إلها من دون الله ، ومثله عبـادة سـائر الأنبيـاء والأوليـاء ، والعظمـاء. وكـان الهـدف الخـبيث وراء هـذه الكذبة :

أولا : التعصب المذهبي ، حتى لا يتحول النصـارى مثلا الى مسـلمين بفعل الاعلام الاسـلامي أو لا يتحـول أهل مذهب الى مذهب أو جماعة حزب الى حزب ثان.

ثانيا : ان يعطوا لأنفسهم نوعا من القداسة المزيفة ، فاذا كـان عيسى إلها فالأحبـار أنبيـاء أو انصـاف آلهة ، ان عبادة الذوات تقع بالضبط في الطرف الآخر

لعبـادة الله وان التمحـور حـول الأشـخاص متنـاقض تماما للالتفاف حول الحق ، كما ان هـؤلاء الخونة يريـدون إبعـاد البشر عن الحق وعن الله معا.

فـإنهم يشـيعون عبـادة الـذوات في النـاس تلك الـتي يقول عنها ربنا :

(**ما كـانَ لِبَشَـرٍ أَنْ يُؤْتِيَـهُ اللـهُ الْكِتـابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**)

كعيسى الـــذي لم يكن لديه شـــيء إلّا من عند الله سـبحانه ، وكـان واحـدا من النـاس فرفعه الله الى درجة الحكم والنبوة ..

(**ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ**)

لا يمكن ذلك. أولا : لأنه يعلم قبل غيره ان كل شــيء يملكه هو من عند الله فلا يعمل عملا يســــلبه الله كل شيء.

ثانيا : لان الله لا يختار لنبوته رجلا خائنا حاشاه.

(**وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**)

هذه دعوة عيسى الى رجال الـدين ، قـال لهم كونـوا رجـال دين تقـدرون ربكم قبل ذواتكم وقبل مصـالحكم ، لماذا؟

(**بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**)

ان دراسة الكتاب وتعليمه للآخرين يحمّلكم مسـئولية كـبري ، هي ضـرورة التطـوع لله وعـدم التفكـير أبـدا في ذواتكم ، تماما بعكس عبادة الذات.

[80] كـــذلك لم يكن عيسى (ع) ليـــأمركم باتخـــاذ الملائكة والنبيين أربابا ، مثلما فعلت النصـارى حين دخلت في ثقافتهم الأفكار الصنمية المشركة من مذاهب

منحرفة ، فزعمـوا : أنّ كل القـوى الكونية ، والـتي تمثلها الملائكة ، أرباب والهة صغار ، يقاومون ضغط الإله الكبـير في العـرش (سـبحانه) ، ويشـفعون للنـاس رغما عليـه. وبالتالي يجب توزيع العبادة بين الله ، وبين تلك الأربــاب ، حيث تقتسم مع الله سلطان الله ويقول الأحبار عنه :

ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر. وبالتـالي يحـدث فصل بين الدين ، والسياسة ، بين الاخرة والدنيا وهكذا ..

(**وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِـذُوا الْمَلائِكَـةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبابـاً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**)

الالتزام بالمسؤولية ضمان الاستقامة :

[81] وان أهم مسئولية من مسئوليات العلم والــدين ورسالتهما المقدسة الإخلاص للحق ، والابتعــاد عن الذاتية بكل صورها ، وعدم استخدام العلم والــدين من أجل دعم المذهبية ، والعنصرية الضيقة ، وبالتـالي من أجل حرمـان الآخرين واستعبادهم واستغلال ثرواتهم.

ان العالم اليوم يعـاني من اسـتخدام تقـدم العلم في نشر الـــدمار في الأرض. ان نصف الأبحـــاث العلمية في العالم تتركز من أجل صناعة وتوقية آلة الحــرب. والقسم الأكبر من النصف الثـاني يشـغل من أجل السـيطرة على الشـعوب المحرومـة. وهـذا بعيد عن رسـالة العلم وخيانة لأمانته ومخالفة لعهد الله مع العلماء. وقـديما كـان الـدين يستغل من أجل ذات الأهداف. كان رجال الدين هم الذين حصـروا أنفسـهم في اطـار العنصـرية والاقليمية والقومية وسـاعدوا ــ بـذلك ــ الطـواغيت في فـرض أنفسـهم على الشعوب ، وفي استغلال واسـتعباد الشـعوب ، وفي إثـارة الخلافات المصلحية بينها.

بينما كـانت رسـالة الـدين الحقيقية واحـدة ، ورمـزا للوحـــدة ونقطة التقــاء بين النــاس ، وأداة جمع وإصــلاح بينهم.

وفي هـذه الآية يـذكرنا القـرآن بهـذه الرسـالة ، عـبر الحـــديث عن الأنبيـــاء ، وكيف ان الله تعـــالى أخذ منهم الميثـاق والعهد ، بـأن يصــدق بعضــهم ببعض ، وان ينصر بعضهم بعضا ، وبالتالي ألّا يتفرقـوا في الـدين بـأيّ شـكل من أشكال التفرقة ، ونجد في الآية تأكيدات شـديدة على هذه المواثيق.

(**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتـابٍ وَحِكْمَةٍ**)

أي لاني حملتكم رسالة الدين والعلم ، الدين المتمثل في الكتــاب ، والحكمة المتمثلة في تطــبيق الــدين على واقع الحيـاة ، والـذي يحتـاج بـالطبع الى المعرفة بالحيـاة (العلم).

(**ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَـدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُـؤْمِنُنَّ بِـهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ**)

أمرهم بان يؤمنوا بالرسول ، وينصرونه ، وجعل الأمر بصيغة مشددة للتأكيد عليه ثم :

(**قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي**)

طلب منهم الإقرار وسمى عهده هذا (بالإصـر) ــ وهو الحمل الثقيل ــ من أجل بيــان اهميته ، حـتى إذا اقـدموا على إعطاء الميثاق يعرفون اي عمل عظيم يقدمون عليه ، فلا يمتنعون في المستقبل عن أدائه.

(**قـــالُوا أَقْرَرْنا قـــالَ فَاشْـــهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**)

انه بعد الإقــرار ، طلب منهم الشــهادة وكأنه أمــرهم بالتوقيع النهائي على ورقة

التعهد ، كــلّ ذلك من أجل التأكيد على رســالة الــدين ، والعلم في الحياة.

[82] ثم أكد الله أهمية هذه الرسالة بالوعيد وقال :

(**فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ**)

وبالطبع لا يتوانى أنبياء الله عن هذه الرســالة ، ولكن اتباعهم هم الـذين يتولـون وينـالون نصـيبهم من الفسق ، بالرغم من مظاهر الدين التي يتقنعون بها.

[83] هــذا دين الله دين واحد ، ذا قيمة واحــدة ، هي قيمة التوحيد والتســليم لله ولا مكـان فيها لقيم الأرض أو العنصر واللغة.

والذين يتولون عن رسالة الدين ويحورونها عن خطها الصــحيح! انما يتبعــون غــير دين الله بل دين الأرض ، أو العنصر أو اللغة ويقول لهم الله :

(**أَفَغَيْــرَ دِينِ اللــهِ يَبْغُــونَ وَلَــهُ أَسْــلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**)

فهم مضطرون الى العـودة الى دين الله ، الى سـنن الحق الحاكمة على الكـون لأنهم لا يمكنهم البقـاء طـويلا في مواجهة كلّ قوى الكون ، وإذا ماتوا فهم يرجعون الى الله.

[84] ما هو دين الله؟

دين الله دين الوحدة بين جميع رسالات الله.

(**قُـلْ آمَنَّا بِاللــهِ وَما أُنْـزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْـزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَــــرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ**

مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

هذا دين الله : الايمان بما انزل على الأنبياء الأسبقين من كتـاب ، وما أوتي الأنبيـاء الآخـرون من كتـاب وحكمة ومعاجز (وربما كان التعبير ب «أوتي» في الأنبياء الآخرين للدلالة أيضا على المعـاجز الـتي ظهـرت على يد موسى وعيسى).

[85] وهــذا هو الإســلام الحقيقي ، الإيمــان بالله ، وبجميع أنبيائه ، دون تفريق بين كتاب عربي وآخر عبري ، بين مكة والقدس ، بين عنصر العرب وعنصر اليهود.

(**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ**)

الإسـلام بمعنـاه الحقيقي ، الـذي يعـني التسـليم لله والايمــان بجميع أنبيــاء الله دون تفريق بينهم ، الإســلام بمعناه الحقيقي ، الذي يعـني التعـالي عن قيم الأرض الى قيم السماء والترفع على حواجز المصلحة ، والحساسية ، والقومية ، واللغة ، والعنصرية ، والاقليمية ، والالتقاء على صعيد الله والحق والحرية والعدالة والمساواة.

**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَـرُوا بَعْـدَ إِيمـانِهِمْ وَشَـهِدُوا
أَنَّ الرَّسُـولَ حَـقٌّ وَجـاءَهُمُ الْبَيِّنـاتُ وَاللَّـهُ لا يَهْـدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ
اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خالِـدِينَ فِيها لا
يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (88) إِلاَّ الَّذِينَ
تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَـإِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (
89) إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا بَعْـدَ إِيمـانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْـراً
لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَـدِهِمْ مِلْءُ
الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما
لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (91)**

---

88 [ينظرون] : يؤخرون.
91 [أفتدى] : من الفدية وهي البدل من الشيء في ازالة الاذية

لَنْ تَنـالُوا الْبِـرَّ حَتَّى تُنْفِقُـوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُـوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (92)

ومنه فداء الأسير لأنه بدل منه في إزالة القتل والأسر عنه.
92 [البر] : أصله السعة ومعناه النفع الواصل الى الغـير مع القصد الى ذلك وضد البر العقوق.

الارتداد أقسامه وجزاؤه

هدى من الآيات :

إن الـــذي يكفر ببعض رســـالات الله فكأنه كفر بها جميعا ، لمـاذا؟ لأنه ينطلق في كفـره بهـذه الرسـالة من قيمة ذاتية ، أو أرضـية ، تتنـاقض مع قيمة التوحيـد. فهو ـ مثلا ـ يكفر بالرسول محمد (ص) لأنه عـربي ، فهو ينطلق إذا من قيمة العنصـرية المتناقضة مع قيمة التوحيد ، الـتي نزلت على النبي موسى عليه السـلام. ولن يقبل الله منه الإيمـــان ، لأنه في الواقع يعـــني لا إيمـــان مطلقا بالله وبحاكميته المطلقة على الكون.

في هـذا الـدرس تعـالج الآيـات قضـية الارتـداد بهـذا المفهـوم ، وبعد أن تـبين أن الله لا يهـدي المرتـدين لأنهم تعمدوا الكفر بعد الإيمان ، والله لا يجبر أحدا على الايمان بعدئذ يبين أن هؤلاء ملعونون عند الله ، وبعيـدون عن قيم الله ، وملعونـــون عند الملائكة ، فهم بعيـــدون عن ســـنن الحياة وملعونون عند الناس فهم بعيدون عن الجماهير.

ثم يقسّم المرتدين الى ثلاثة أقسام :

(أ) الذي يتوب ويصلح ما أفسده.

(ب) الذي يـزداد كفـرا ، ولا يتـوب إلّا عند ما يحضـره الموت.

(ج) الذي لا يتوب حتى يأتيه الموت.

ويـــــــبيّن أنّ القسم الأول فقط ، تقبل توبته ، أما الآخران فإنهما لن تقبل توبتهما.

والارتداد ـ عموما ـ يحصل بسبب متاع الحياة الـدنيا ، وعلى الإنسان أن يقاوم إغـراء الـدنيا ، وعلى الإنسـان أن ينفق ما تحبه نفسه حتى يحبه الله.

بينات من الآيات :

[86] الـــذي يكفر بالرســالة عن جهل ، ثم لا يظلم نفسه ولا يظلم الناس ، فان عاقبته قد تنتهي بخير ، ولكن الـذي يكفر بالرسـالة بعد ايمـان بها قلبا ، ثم يظهر إيمانه أيضا بالشـــهادة بها علنا ، ويقتنع بكل ذلك اقتناعا عقليا ، ثم يكفر ابتغاء مصلحة ذاتية ؛ فانه لا ينال الخــير ولا يهديه الله لماذا؟

لأنه ظــالم وكيــف؟ الــذي يكفر بعد الإيمــان ، فانما ينطلق كفره من قيمة ذاتية ، أو عنصـرية ، أو إقليمية ، أو ما أشـــبه ، وكل هـــؤلاء يظلمـــون النـــاس طبيعيا ، كما يظلمـون أنفسـهم أتـرى من يعبد شـهواته ، أو عنصـره لا يظلم الآخرين؟

والظلم يتنــــاقض والهدايـــــة. ذلك ان الظلم يحجب العقل ، ويفسد الضمير ، ويضعف الارادة في النفس.

(**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ**)
ايمانا قلبيا أو ظاهرا.
(**وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌ**)
شهادة في الظاهر.
(**وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ**)
حتى اقتنعوا عقليا ، وبالتالي كفروا بعد تكامل عناصر الايمان.
(**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)
لان هؤلاء هم ظلمة بتقديسهم قيم غـير قيمة التوحيد ، وانطلاقهم منها في طريق الكفر بالله.

جزاء الارتداد :

[87] أول وآلم جــزاء يناله علمــاء الســوء ، ان الله يسلب منهم العقل ، ويجعل بينهم وبين الحقيقة حجابا من شهواتهم ، وأهوائهم ، فلا يرون شواهد الحق في الواقع.

والجزاء الثاني : هو انهم يبعـدون عن رحـاب الله ، إذ يسلب منهم الله نعمة الإيمان ، ولا يتذوقون حلاوة مناجاة الله ، والارتبـاط الـروحي بـه. وبالتـالي يبتعـدون عن كل القيم السـامية ، كقيمة الحق ، وقيمة الحرية ، والكرامة ، قيمة العدالة ، والمســاواة. وتتحجر قلــوبهم ، فلا تخشع لذكر الله أبدا.

والجزاء الثالث : هو انهم يبتعدون عن القـوى الفاعلة في الكون (والتي يهيمن

عليها الملائكـة) ، كنتيجة طبيعية لضـلالتهم عن الحقـائق ، وعن القيم السامية.

ان سـنن الله في الحيـاة لا يسـتطيع ان يسـتثمرها الإنسان في صالحه ، إلّا إذا عرفها معرفة تامة ، وكـان له تطلعـات سـامية ، أراد ان يحققها من خلال السـنن تلك ، وهؤلاء لا يعرفون السنن ، ولا يمتلكون التطلعات السامية التي تصنعها القيم ، وبتعبير آخر ليست لهـؤلاء رسـالة في الحياة ، والحياة ترفض الخضوع لمن لا رسالة له فيها.

أما الجزء الرابع والذي يأتي نتيجة لما سبق فهو :

الابتعـاد عن النـاس ، ذلك ان النـاس ينفضّـون عمن ليست له هداية ، ولا روحانية ، ولا قـدرة على اسـتغلال الحياة ، فلما ذا يلتف حولهم الناس.

ولنا ان نتصور عمق الخيبة التي تصيب هؤلاء الخونة ، انهم خـانوا رسـالة الله ، للحصـول على مرضـاة النـاس ، فخسروهما معا ، (**ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ**).

والقرآن يسمي الابتعاد ب (اللعنة) ، لأنها تعني الطرد والابعاد بذلة وصغار ، وهي تتناسب مع حالة العقاب.

(**أُولئِكَ جَـزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَـةَ اللـهِ وَالْمَلائِكَـةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**)

[88] وهـذه اللعنة تبـدأ في الـدنيا ولكنها تسـتمر الى الآخرة ، وتتحول هنـاك الى صـورة عـذاب أليم ، لا يخفف عنهم أبدا.

(**خالِـدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَـذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**)

أي لا يمهلـون لاعـادة النظر في واقعهم ، بسـبب ارتدادهم عن الرسالة بعد العلم بها.

بين الرحمة والتوبة :

[89] ولا يعني هذا الواقع المرّ الــذي انتهى اليه خونة الرسـالة ، ان أبـواب رحمة الله سـدّت في وجـوههم ، كلا ان رحمة الله واســعة ، ولكن يجب عليهم أن يتوبــوا وأن يحاولوا إصلاح ما أفسدوه بأعمالهم السابقة ، مثلا السعي من أجل هداية من أضلوا من الناس.

(**إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

[90] لو تـــاب خونة الـــدين في المراحل الاولى من حيـاتهم ، حيث تنفع التوبة في إصـلاح النـاس ، وحيث ان الرسالة لا تـزال ناشـئة ، وحيث تكـون التوبة خالصة لله ، ودليلا على تبـدل حقيقي في الموقـف. لو تـابوا آنئذ قبلت تـوبتهم. ولكن لو اسـتمروا على الضـلالة ، وقـاموا بكـلّ الفساد الممكن ضد الرسالة ، حتى إذا انتشـرت الرسـالة وخسروا كلّ مواقعهم ، تابوا لكي يكسبوا عطف الرســالة الجديـدة ، هـؤلاء لا تقبل تـوبتهم ، لان تـوبتهم ليست في الله ، بل من أجل تغطية فشلهم.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ**)

أيّ انهم لا يهتدون أبـدا وان تـوبتهم ليست حقيقية بل طمعا في الدنيا.

[91] ويشــبه أولئك الــذين يسـتمرون على الضـلالة حتى يدركهم الموت ، انهم من أهل النار ، ولكنهم يأملون لو انهم يملكـون ثـروة الـدنيا ، ويـدفعونها من أجل إنقـاذ أنفسـهم من نـار جهنم ، ولكن هيهـات. ان هـؤلاء ضـيعوا على أنفســهم فرصة جيــدة في الــدنيا والآن لا ينفعهم الندم.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ**

الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ)

انهم في الدنيا خانوا الرسالة من أجل الحصــول على بعض الــثروة ، وبعض الأنصــار ، وهنــاك في الآخــرة ، لا تنفعهم ثرواتهم ، ولا أنصارهم شيئا.

[92] وكان عليهم أن يضحوا في الدنيا ببعض الثروة ، وبعض الناس ، من أجل مرضاة الله. ذلك ان مرضـاة الله لن تنال بدون تضحية ، وبدون التغلب على حب الذات من أجل الله.

(**لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**)

والله يعلم بما تنفقـــون في ســـبيله ، ولا يخـــدعكم الشــيطان ويقــول لكم : اعملــوا من أجل النــاس ، انهم يعطونكم الجزاء العاجل ، أمّا جزاء الله فلا يعلم هل يـأتي أم لا.

(**وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ**)

وكلمة أخــيرة : ان رجــال الــدين هم المهــدّدون قبل غــيرهم بخطر الابتعــاد عن روح الــدين ، لان النــاس لو ابتعدوا عن الدين فالأمل معقود برجال الدين ، أن يهدوهم وقد يستجيب الناس لهداية رجـال الـدين ، لأنهم يعـترفون بــدور أولئك في الموعظة والهداية ، ولكن لو فسد رجــال الـدين فمن الـذي يهـديهم؟ وحـتى لو افترضـنا أن النـاس يعظـــونهم فـــإنهم بـــالطبع يتعـــالون على النـــاس ، ولا يستمعون الى مواعظهم.

كُـلُّ الطَّعـامِ كـانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْـرائِيلَ إِلاَّ ما حَـرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تُنَـزَّلَ التَّوْراةُ قُـلْ فَأْتُوا بِـالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَـرى عَلَى اللـهِ الْكَـذِبَ مِنْ بَعْـدِ ذلِـكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ (94) قُلْ صَدَقَ اللهُ فَـاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْـراهِيمَ حَنِيفـاً وَما كـانَ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (95) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعـالَمِينَ (96) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْـراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَـهُ كـانَ آمِنـاً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ

---

96 [بكة] : وأصل بكة البـكّ وهو الـزحم يقـال بكه يبكه إذا زحمه فبكة مزدحم الناس للطواف وهو ما حول الكعبة من داخل المسجد الحرام ، وقيل سـميت بكة لأنها تبك أعنـاق الجبـابرة. إذا لحـدوا فيها بظلم ولم يمهلوا والبك دق العنق.
[مباركا] : من الثبوت اي كثير الخير والبركة.

مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللـهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (97) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُـرُونَ بِآيـاتِ اللهِ وَاللهُ شَـهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُـونَ (98) قُـلْ يا أَهْـلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجـاً وَأَنْتُمْ شُـهَداءُ وَمَا اللَّـهُ بِغافِـلٍ عَمَّا تَعْمَلُـونَ (99) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُـوا فَرِيقـاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (100)

---

99 [تبغونها] : تطلبونها.
[عوجا] : ميل.

العصبية عقبة الوحدة

وأساس الكفر

هدى من الآيات :

حرم يعقوب على نفسه بعض الطعام وكـان ذلك من أجل تـرويض نفسه على الزهد انطلاقا من قاعـدة «**لَنْ تَنـالُوا الْبِـرَّ حَتَّى تُنْفِقُـوا مِمَّا تُحِبُّونَ**» وأكـرم الله يعقوب بهذه النية الصادقة فحرم على بنيه (بني إسرائيل) تلك الأطعمة اقتـداء بـأبيهم إسـرائيل (يعقـوب). وكـان تحريم الطعام قانونا مؤقتا ذا هدف محدد.

ولكن بني إسـرائيل تشـبثوا بهـذه المحرّمـات الوقتية واتخـذوا منها ذريعة لعـدم الاعـتراف بـالنبي محمد ، ولو انهم راجعـوا التـوراة لوجـدوا كيف انها كـانت محرمـات وقتية ، وذات صبغة خاصة.

وهذا مثل لنـوع الحجج الـتي يسـتند إليها علمـاء بـني إسرائيل في رفضـهم للرسـالة الجديـدة ، وهو يعتمد على القشرية والجمود على الأشخاص وعلى سيرتهم.

ويعارض القرآن مثل هذه الحجة حين يطـرح إبـراهيم كشخصية بديلة عن

يعقوب يوحّد بين جميع الديانات.

ويسـتدل على ذلك بـان إبـراهيم كـان أبا للجميع وهو بـانى الكعبة الـتي يقدسـها العـرب ، وهنـاك دلالة واضـحة على ذلك في مقـام إبـراهيم ، وفي أن الـدعوة الى الحج دعوة عامة تشمل القادرين ، ثم يذكر القرآن أهل الكتاب بان خلافهم هذا يسبب في ابتعاد الناس عن الدين.

ويوجه خطابه الى المسلمين فيدعوهم الى الحذر من اتباع أهل الكتاب لأنهم ليسوا ــ في الواقع ــ دعـاة للـدين انما خونة للرسالة وهم يدعون الى الكفر.

بينات من الآيات :

تقديس الأشخاص يعرقل سبيل الوحدة :

[93] (**كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْـرائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ**)

إســرائيل اسم يعقــوب وهو الجد الأعلى لقبائل بــني إسرائيل. وقد حرم على نفسه بعض أنواع الطعــام فاتبعه بنوه على ذلك ولم يكن هذا التحريم شريعة الهية ثابتة.

والشواهد على ذلك موجودة في كتاب التوراة ذاته.

(**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

وسـوف تجـدون فيه كيف ان تحـريم الطعـام لم يكن ابديا وبالتالي فان رسالة محمد جاءت لتحلله عليكم.

[94] ولكن بني إسرائيل تشبثوا بهذا التحريم وجعلوه ذريعة لرفض الإسـلام وبـالطبع انعكس هـذا الـرفض على أنفسهم وكانوا هم قبل غيرهم الخاسرين بهذا

الرفض.

(**فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ**)

اي بعد مراجعة التوراة.

(**فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**)

[95] ان الالتصــاق بالاشــخاص التــاريخيين كثــيرا ما يصــبح عقبة في طريق الوحــدة بين (أصــحاب الرســالة) وعلينا ان نعــرف ان أولئك الأشــخاص كــانوا امة قد خلت لها ما كسبت ولنا ما كســبنا ، ولا نــدع حيــاة أولئك وســيلة للتفرقة .. ثم في مواجهة أولئك الأشــخاص يوجد آخــرون يوحــدون بين أصــحاب الرســالة ، دعنا نركز الضــوء عليهم ونقوي الانتماء بهم حتى تشتد صــلاتنا ببعضــنا البعض أكــثر فــأكثر .. فمثلا : إذا كــانت العــرب تختلف عن اليهــود في يعقــوب فانها تجتمع في إبــراهيم دعنا نتجه الى إبــراهيم ونكتشف في شخصــيته رمز وحــدة الرســالات .. وهي الكعبة.

(**قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً**)

مائلا عن الشرك ، ورافضا للطــاغوت المتســلط على رقاب الناس باسم قيم الشرك.

(**وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)

فلا عبد الطــاغوت ، ولا اتخذ العجل إلها من دون الله ولا قال : ان عيسى ابن الله.

[96] وان رمز وحــدة الرســالات هو بيت الله الحــرام لأنه كان قبل كل بيوت العبادة.

(**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِــــعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكــــاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ* فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ**)

في بيت الله أكـثر من اية بينة تـدل على ان بيت الله الاول ومن أبـــرز تلك الآيـــات مقـــام إبـــراهيم. وهو تلك الصخرة التي كـان إبـراهيم عليه السـلام يقف عليها لبنـاء الـبيت ووجودها وتكـريم النـاس لها بالصـلاة لله عنـدها ، لدليل على ان باني البيت هو إبراهيم.

ومن هو إبراهيم؟

انه الأب الـــروحي لرســالات التوحيد الثلاث ، والجد الأعلى لبني إسرائيل وكثـير من العـرب ، وموضع احـترام الجميع. فلتلتقي كل الرسالات في البيت الحــرام ولتجتمع عليه انه بيت الأمن ، بيت الإســــلام يجتمع فيه الجميع ، دون اختلاف في اللغة أو اللـــون أو العنصر أو المـــذهب ، ويحـــترم فيه الجميع ، ويعطى للجميع حرية الكلام ، حرية الحوار والنقد وبالتالي .. التفاعل الثقافي والحضاري.

إذا فبيت الله موضع التقاء فعلي لكل الرســالات لكل المــذاهب وبــذلك يكــون أفضل اداة للوحــدة الحقيقة ، الوحدة القائمة على أساس التعارف والتحاور والتعاون.

[97] الـــــدعوة الى الحج عامة وشـــــاملة ولا تخص جماعة دون اخــرى وعلى كل من يســتطيع تلبية الــدعوة الى الحج دون تلكـؤ. وما دامت الـدعوة عامة فـان نـوازع العنصـــرية أو الطائفية الـــتي تمنع الحج هي كفر بالنعمة وتمــرد على دعــوة الوحــدة ورفض لها وصــاحبه يتحمل مسئوليته بالكامل.

(**وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِنـاً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللـهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ**)

وحج الــبيت يعــني الــذهاب اليه وتقصــده من بعيد والاستطاعة هي : القدرة الجسدية والمالية والامنية.

من معاني الكفر :

والكفر هنا يحمل معنيين :

الاول : الكفر بالله في رفض تنفيذ أوامـــــــره ومنها الحج.

الثــــــــاني : الكفر بنعمة الحج حيث الحرية والبركة والهدى وبالتالي حيث الوحدة الرسالية ، والكلمة تعــريض واضح باهل الكتــاب الــذين لا يطبقــون فريضة الحج الى البيت بالرغم من ايمانهم بان إبراهيم هو الذي بناه.

وكلمة اخـيرة : الحج الـذي شـرعه الله لجميع النـاس وجعله رمـزا للوحـدة وموقعا للتفاعل الحضـاري قد انتهى اليوم الى مجموعة طقوس فارغة لا تشمل واحدة بالمائة من منافعه العظيمة بسـبب ابتعـاد الامة عن روح التعـاليم الإلهية وبسبب سيطرة الطواغيت على شئون الامة.

ولو لا هـذا الفهم القشـري لـدور الـبيت في الوحـدة وفي التعـــارف والتفاعل والتعـــاون ، ولو لا الطـــواغيت الحاكمة على البلاد الاســلامية لرأينا اذن كيف كــان الحج قادرا على تحقيق دوره الحضاري في وحدة الامة وتقدمها وتطورها وتغلبها على مشـــــاكلها الداخلية ، وتحــــدياتها الخارجية.

[98] ولكن أهل الكتاب يكفرون مرة واحدة بكل تلك الآيــات العظيمة للحج والــتي في طليعتها ما ذكــرت في الآية السابقة ، ويتساءل القرآن لمـاذا هـذا الكفر الصـريح ..

(**قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَاللـهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ**)

وسـوف يحاسـبكم على هـذا الكفر ، لأنه يـؤدي الى انحرافات عملية.

[99] والكفر يبـدأ قليلا ويـزداد حـتى يصل الى درجة العمل من أجل إضلال الآخرين ..

(**قُلْ يا أَهْلَ الْكِتـابِ لِمَ تَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ**)

انهم كانوا يصدون المؤمـنين عن الصـراط المسـتقيم الذي هو صراط الله وسبيله ، وكـانوا يريـدون ان ينحـرف السبيل الى حيث تتحقق أهواؤهم ، بالرغم من انهم كـانوا شـهداء ، والمفـروض في الشـهيد ان يتجنب الكـذب وان يصدق بالحقيقة وان كانت مخالفة لاهوائه.

أهل الكتــاب هم حملة علم الــدين ، الــذين يفــترض فيهم انهم يـــــدعون الى الله ، لا ان يقطعـــــوا طريق السالكين الى الله ، ويحرفون طريقهم بسـبب طائفيـاتهم أو حزبياتهم أو مذهبياتهم الضـيقة ، وهـذا الواقع هو الـذي يعيشه كثـير من حملة الــدين حـتى اليــوم ، لا يخلصــون لدعوتهم بقدر ما يخلصون لحزبهم أو مذهبهم أو طـائفتهم وهم بذلك السبب الرئيسي لكفر طائفة كبيرة من البشر.

(**وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)

[100] ان أهل الكتاب بدأوا بالكفر بالرسالة الجديدة ثم صعدوا الموقف فأخذوا يمنعـون جمـاعتهم من الايمـان بهــذه الرســالة بشــتى الوســائل ، ثم صــعدوا الموقف وحاولوا.

تضـليل المؤمـنين من غـير جمـاعتهم ، أولئك الـذين كـانوا مشـركين من قبل وكـان المفـروض بأهل الكتـاب (وهم المؤمنـون) أن يفرحـوا بتحـوّلهم الى الايمـان ولكن النظرة الطائفية الضيقة هي التي أعمت قلوبهم ولا تـزال تعمي قلوب كثير من دعاة الدين حتى اليوم.

ومن هنا حذر القرآن المسـلمين من المسـحة الدينية التي تكسوا وجوه فريق من أهل الكتاب ، الكفار برسـالة الله ، وقال :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقـاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ**)

وَكَيْفَ تَكْفُـرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آيـاتُ اللـهِ وَفِيكُمْ رَسُـولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِـمْ بِاللـهِ فَقَـدْ هُـدِيَ إِلى صِـراطٍ مُسْتَقِيمٍ (101) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللـهَ حَـقَّ تُقاتِـــــهِ وَلا تَمُــــوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْـــــلِمُونَ (102) وَاعْتَصِـمُوا بِحَبْـلِ اللـهِ جَمِيعـاً وَلا تَفَرَّقُـوا وَاذْكُـرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْـداءً فَـأَلَّفَ بَيْنَ قُلُـوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَـفا حُفْـرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللـهُ لَكُمْ آياتِـهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَـدُونَ (103) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَـدْعُونَ إِلَى الْخَيْـرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

101 [يعتصم] : يمتنع.
103 [تقاته] : من وقيت.
[بحبـل] : السـبب الـذي يوصل به الى البغية كالحبل الـذي يتمسك به للنجاة من بئر أو نحوه ومنه الحبل للأمان.
[شفا] : حرف.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (107) تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (108)

---

104 [أمة] : اشتقاقها من الأمّ الذي هو القصد من اللغة وتستعمل على ثمانية أوجه منها الجماعة ومنها اتباع الأنبياء لاجتماعهم على مقصد واحد. ومنها القدوة لأنه يأتم به الجماعة ومنها الدين والملة كقوله انا وجدنا آباءنا على امة ومنها الحين والزمان إلخ.

الوحدة هاجس الامة الحضاري

هدى من الآيات :

«وحدة رسالات الله» كان موضوع الدرس الســابق ، اما موضوع هذا الدرس فهو «وحدة الامة الاسلامية» التي تتمسك برســالة الله الواحــدة ، حيث يعالجها القــرآن من عدة وجوه أبرزها : ان أهم شــروط الوحــدة وجــود رابطة مشــتركة بين افرادها وفئاتها ورابطة الوحــدة الاســلامية كتـاب الله والقيـادة الاسـلامية الـتي تجسد هـذا الكتـاب ، ومزيد من الاعتصــــام بهما يعــــني مزيــــدا من التفاعل والتماسك ، وليس من الممكن ان نطلب الوحدة من دون مبدأ. ونظـرة الى الـوراء ، الى الجاهلية ، تكشف لنا كيف لم يقدر العرب من توحيد أنفسـهم ـ بـالرغم من ايمـانهم بالوحدة وبضـرورتها الحياتية لهم ـ حـتى جـاءت الرسـالة فوحدهم الله بها.

ولأن الوحـــــــدة مبدئية فلا بد ان توجد في الأمة فئة تتطوع للمبدأ ، وتدافع عنه ، وتراقب مدى تنفيذ الأمة له ، حتى لا يتراخى الحبل الذي يشد الامة ببعضها.

والوحدة المبدئية هي التي يباركها الله ولا يبــارك الله وحدة امة من دون

خضوعها لقيم الله ، إذ انّ الله سيفصل الذين لا يخضعون لقيمه عن المؤمنين في يـوم القيامة ويفـرق بينهم ، بينما يجعل المؤمنين في منزلة واحدة.

ونحن كـــذلك يجب ان نفكر في يـــوم القيامة حيث يفصل الله بين النـــاس ونطبق في الـــدنيا القيم الالهية ، والفكرة التي يكررها القرآن خلال حديثه عن الوحدة هنا ، هي : ان الخلاف غير المبدئي يسـاوي الكفر بـالقيم الـتي تربط الامة ببعضها فاذا لم يـتراخ حبل القيم الـذي يعتصم به الجميع ، لا يمكن ان توجد ثغـــرة بين المـــؤمن وأخيه المؤمن.

بينات من الآيات :

الوحدة بالاعتصام بالله :

[101] الذين يتبعون أهل الكتـاب يكفـرون بالرسـالة وذلك لأنهم يـــتركون النبع الصـــافي الى الرافد البعيد أو حـتى الى السـواقي الملوثة ، يـتركون رسـول الله ، وهو منهم وبعث فيهم ، ويـتركون كتـاب الله ، وقد نـزل عليهم وبلغتهم ، يتركونها الى رسول توفاه الله من زمـان بعيد ، والى كتاب عملت فيه يد التحريف.

(**وَكَيْـفَ تَكْفُـرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آيـاتُ اللـهِ وَفِيكُمْ رَسُـولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِـمْ بِاللـهِ فَقَـدْ هُـدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

اما من يـترك الله الى شـهواته فسـوف تنحـرف به الطرق الى كل واد سحيق.

ان الايمـان بالله والتسـليم للحق ، ومخالفة الهـوى والشهوات هو الضمان الأكيد لاستقامة الإنسان في الحياة إذ لا ينحرف البشر الّا باتباعه هواه أو خضوعه لشهواته.

والاعتصام بالله يعني ـ حسب دلالة السياق ـ الالـتزام بكتاب الله ـ ويقول

رسول الله الذي يجسد ذلك الكتاب لا يمكن فصلهما عن بعضهما أبدا لذلك تجد القرآن بدّل التعبير فلم يقل ـ من يعتصم بهما (كتاب الله ورسول الله) بل قال بالله ، للدلالة عن انهما شيء واحد.

[102] من السهل ان يؤمن البشر بربه وبكتبه ورسله ولكن الصعب هو تحديه لشهواته ، حيث تثور عليه كما يثور البركان ويتحدى الضغوط حين تتزاحم عليه من كل جانب ، الّا إذا خشي الإنسان ربه ، وتذكر عظمته وتذكر الموت والحساب ، وبالتالي أصبح متقيا.

وإذا تراخى الإنسان امام شهواته أو ضغوط الحياة فانه قد يموت في لحظة تراخيه وابتعاده عن الايمان فيموت كافرا ، ولذلك كان على الإنسان ان يصمم على المقاومة حتى الموت ، متحديا كل الضغوط ، هكذا يأمرنا الله.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**)

«حق تقاة الله» هو التصميم على الاستمرار في خط الرسالة حتى الموت.

ومناسبة الحديث عن الاستقامة والاستمرار هنا هي مقاومة ضغوط الانحراف باتجاه الكفر بعد الايمان الذي تحدث عنه القرآن في الآية السابقة وكذلك بمناسبة الحديث عن ضرورة الوحدة إذ الاختلاف لا ينشأ الّا لضعف التقوى على النفوس.

[103] الاعتصام بكتاب الله وبالرجل الذي يمثل هذا الكتاب هو حبل الله الذي تحدثت عنه. الآية الاولى ، وهذه الآية ، وهو الطريق الوحيد للوحدة الحقيقية التي بدونها لا معنى للوحدة. بل للدجل والنفاق.

(**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا**)

لا وحدة الا بالعقيدة :

الهـدف المشـترك والمصـلحة المشـتركة والمصـير الواحد و.. و.. ، قد يكـون سـببا للوحـدة ، ولكن بشـرط وجود إيديولوجية واحـدة يتمسك بها الجميع فتعطيهم رؤية مشتركة تجاه الوضع.

وإذا افترضـنا شـعبنا (كالشـعب العـربي) ذا هـدف مشترك هو التخلص من إسرائيل ، ومصـلحة مشـتركة هو تطـــوير ثرواته القومية وله مصـــير واحد ، فأما التقـــدم والاستقلال أو التخلف والاستعباد.

ولكن لو لم يكن للشـعب العـربي إيديولوجية واحـدة فانه يختلف على بعضه في طرق تحقيق الهدف ، الانتمـاء الى الكتلة الشــرقية أو التحــالف مع الغــرب ، أو الحيــاد الايجابي ، الاقتصاد الحر ، والاشتراكية ، الحـزب الواحد أو تعدد الأحزاب.

وكـذلك يختلف في أسـاليب الوصـول الى المصـلحة وبالتـالي في ابعـاد المصـير الواحـد. من هنا يركز القـرآن على اهمية الاعتصـــام بحبل الله (كتـــاب الله والقيـــادة المنبعثة منه) لتحقيق الوحـدة ، ويـذكرنا بظـروف العـرب قبل الإسلام ويقول :

(**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْـداءً فَـأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً**)

الاخوة العربية لم تأت بسبب الدم المشـترك أو اللغة الواحدة ، أو حتى الأرض ، والمصلحة ، والمصــير الواحد ، بل جـــاءت بعد ان منّ الله عليهم بنعمة الكتـــاب ، فـــاذا بالفكر يتوحد ، والعواطف تتفاعل ، وتتحقق الاخوة. ولو لا نعمة الكتاب لكانت الخلافات تهددكم بالدمار.

(**وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَـذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ**

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) وتعرفون ان الاخوة القائمة بينكم ليست سوى نتيجة الايمان بالله والاعتصام بحبله.

ويا ليت العرب اليوم تذكروا وحـدتهم ، وعرفـوا كيف كـانت ولمـاذا ، وعـادوا الى نعمة الايمـان الـتي تؤلف بين قلوبهم وتجعلهم اخوة صادقين.

كيف نحافظ على الوحدة :

[104] للمحافظة على الوحدة .. لا بد من المحافظة على القيم الـتي وحـدت النـاس .. والمتجسـدة في كتـاب الله .. فبـدون قيمة العدالة الاجتماعية كيف يمكن مطالبة المظلوم بالوحـدة مع الظـالم ، ومن دون قيمة المسـاواة كيف يمكن للمسـتعبد ان يسـكت عن المسـتغل .. ومن دون قيمة التقـوى كيف تثق الجمـاهير بالحكـام .. أو كيف يثق الحكام بالجماهير.

من هنا ولأجل المحافظة على القيم الـــتي تضـــمن الوحدة لا بد من وجود طائفة نذرت نفسها لله.

(**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَـدْعُونَ إِلَى الْخَيْـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـــالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـــوْنَ عَنِ الْمُنْكَـــرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)

وهــذه الطائفة يجب ان تكــون رمــزا للقيم ورمــزا للوحـــدة ، لتشـــكيل قـــوة معنوية هائلة للمحافظة على الوحدة داخل المجتمع الاسلامي.

[105] وعــاد القــرآن يأمرنا بالوحــدة ويــبين بــان الاختلاف بعد الإيمان يعقبه عذاب عظيم وسواد الوجه.

(**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**)

ان دراسة تجارب الأمم رؤية واضحة لاوضاعنا تلك الأمم تفرقوا فاذا كل طائفة منهم تتشكل حسب قيم ارضية زائفة ـ قيمة الدم واللغة والإقليم والمصالح العاجلة ، وكان تمسكهم بتلك الروابط أشد من تمسكهم بالدين ـ فلذلك اختلفوا فيما بينهم .. لأن هذه القيم مختلفة ولا تنتج الّا الاختلاف فابتلوا بعذاب عظيم في الدنيا وفي الآخرة.

[106] (**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**)

ان الاختلاف المشروع الوحيد هو بين الكفر والايمان لأنه الخلاف الذي يعترف به ربنا هناك عند الحساب الحق .. والكفر بعد الايمان .. هو الاختلاف حسب القيم الارضية الزائفة بعد تمسك الامة بقيمة واحدة هي قيمة التوحيد.

ان الايمان بالأرض وتقديس التراب والوطنية ومحاربة الناس من أجلها نوع من الكفر بقيمة التوحيد التي تجعلك تؤمن بالله وبكل إنسان مؤمن به ، في اي ارض عاش .. وكذلك الايمان بسائر القيم الزائفة ، من هنا نعرف ان الاختلاف كفر.

[107] (**وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

لأنهم بقوا ملتزمين بقيمهم وبوحدتهم.

[108] الوحدة حسب قيم السماء خير للناس وتقدم ورفاهية ، والله يبين ذلك من أجل ان يصل البشر الى مستوى رفيع من التقدم والرفاه.

(**تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ**)

وَلِلَّهِ ما فِي السَّـــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللـــهِ
تُرْجَـعُ الْأُمُـورُ (109) كُنْتُمْ خَيْـرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ
تَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَتُؤْمِنُـونَ
بِاللـهِ وَلَـوْ آمَنَ أَهْـلُ الْكِتـابِ لَكـانَ خَيْـراً لَهُمْ مِنْهُمُ
الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِـقُونَ (110) لَنْ يَضُـرُّوكُمْ
إِلاَّ أَذىً وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَـرُونَ
(111) ضُـرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُـوا إِلاَّ بِحَبْـلٍ
مِنَ اللــهِ وَحَبْــلٍ مِنَ النَّاسِ وَبــاؤُ بِغَضَــبٍ مِنَ اللــهِ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِـكَ بِـأَنَّهُمْ كـانُوا يَكْفُـرُونَ
بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِـكَ بِما عَصَـوْا
وَكانُوا يَعْتَدُونَ (112) لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ
أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْـلِ وَهُمْ يَسْـجُدُونَ
(113) يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُسـارِعُونَ فِي الْخَيْـــراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّـــالِحِينَ (114) وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِـالْمُتَّقِينَ (115) إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْـوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِـدُونَ (116) مَثَـلُ ما يُنْفِقُـونَ فِي هـذِهِ الْحَيـاةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَـوْمٍ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ فَأَهْلَكَتْـهُ وَما ظَلَمَهُمُ اللـهُ وَلكِنْ أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

---

116 [تغن عنه] : تدفع عنه ضررا.

117 [صرّ] : برد شديد وأصـله الصـرير. وقيل الصر صـوت النـار الـتي كـانت في تلك الـريح ويجـوز ان يكـون الصر صـوت الـريح البـاردة الشديدة۔ وذلك من صفات الشمال.

التزام القيم ضمانة الاستقامة

هدى من الآيات :

في هذا الـدرس يتـابع السـياق حديثه عن المسـئولية الاجتماعية تجـاه القيم المقدسة ، حيث يجب على الجميع ان يحافظوا عليها ويعرفوا انّ محافظتهم عليها هي ضمان استمرار تقدمهم وعـزهم ، وان التهـاون فيها سـيؤدي بهم الى الذلة وغضب الله والمسـكنة ، ويـأتي القـرآن الحكيم بمثلين للالــتزام بالمســئولية الاجتماعية ، واحد من واقع الامة الاســـلامية ، حيث انها لم تســـتطع ان تصل الى مسـتواها من المجد .. الا بفضل قيامها بهـذه المسـؤولية ثم يقارنها بمثل أخر من واقع اكثرية أهل الكتــاب الــذين تركوا هذا الواجب فضربت عليهم الذلة والمسكنة.

وحين يتحمل أبنـاء الامة مسـئوليتهم الاجتماعية فـان ذلك ســـوف يعطيهم الوحـــــدة المبدئية ذات الرابطة الايمانيــة. إذ انه ينمي روح القيم السـامية في الامة لتشد بعضهم الى البعض شدا متينا.

وفي آخر الـــدرس ، ينسف القـــرآن الاسس الفكرية التي تعتمد عليها اكثرية أهل الكتـاب في كفـرهم ، وهي : الأمــوال ، والمصــالح ، ثم الأولاد والطموحــات ، ثم حب الخلود في الدنيا. ويـبين ان كل تلك القواعد تنقلب عليهم في الاخرة ، حيث انها لا تنفعهم شـيئا وان كل ما ينفقـون في هـذا السـبيل أشـبه شـيء بزراعة تطـوف عليها ريـاح هوج فتهلكها .. ان كل اتعاب الفلاح ستذهب ادراج الريـاح ، بسـبب ظلمه لنفسه ، وعـدم اهتمامه بموقع زراعته الا يزرعها في حقل مكشــوف ، كـذلك الكفــار كلما ينفقونه في الدنيا لا تنفعهم شيئا في الاخرة.

بينات من الآيات :

[109] بـالرغم مما قد يلاحظه النـاظر السـاذج في أحداث الكون وبالذات الظـواهر الاجتماعية فيها ، من انها ترتبط بهـذا العامل أو ذاك. فانها محكومة بسـنن فطرية عامة أجراها الله في الحياة ، وهو يدبرها من فـوق عرشه العظيم ، ان تقـدم الأمم أو تخلفها ، عزها أو ذلها ، رفاهها أو شـقاءها ، ليست كل تلك الظـواهر الاجتماعية صـدفا عارضة ، هي أشبه شـيء ببنـاء الـبيت أو زراعة الحديقة ، بل يخضع لقوانين ثابتة وضعها الله ، إذ كل الأمور مرجعها النهائي هو الله سبحانه.

(**وَلِلَّهِ ما فِي السَّـــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**)

[110] ومن هذه السـنن الـتي أحكمها ربنا ، ودبّرها ، وأجراها في الكـون ، أنّ الأمة لا تصـبح خـير امة ، الا إذا تحملت مسـئوليتها الاجتماعية ، ذات الرؤية الواضـحة بإخلاص كاف.

(**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**)

فأنتم أمة (خـير) وليس أمة شر ، وهي قد (أخـرجت) حيث صنعتها الرسالة

ولم تصنع نفسها بنفسها ، ثم هي (للناس) وليست عليها ، إذ مسـئولية الامة الاسـلامية هي الـدفاع عن المحـرومين والمظلـومين ، وتوفـير السـعادة والأمـان لجميع النـاس ، وضمن هذه المسؤولية الاجتماعية هو انكم :

(**تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**)

والأمر بالمعروف لا يعـني مجـرد الأمر اللسـاني ، بل يعـني السـعي وراء تحقيق المعـروف بشـتى الطـرق .. وكــذلك النهي عن المنكر ، ولكن الامة الاســلامية الــتي تحمل هـذه الرسـالة الاجتماعية ، تنطلق فيها من قاعـدة صــــلبة هي الايمـــــان بالله ، إذ ان مصــــدر التحسس بالمسؤولية الاجتماعية هو الايمان بالله ، وباطل أو لا أقل محدود ذلك التحسس الاجتماعي الذي لا يسـتمد قوته من الإيمان بالله.

(**وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**)

وأهل الكتــاب هم بــدورهم مهــيئون لتحمل هــذه المسؤولية ، إذ انكم ـ أيها المسـلمون ـ لم تتحملـوا هـذه المسؤولية لأنكم عرب ، أو ان نـبيكم شـخص محمد (ص) بل إنّ الله حملكم رســـالته ، كما حمّل أهل الكتـــاب رسالته. وإذا تحملوا هم بدورهم هذه المسؤولية أصبحوا ـ كما أنتم ـ خير أمة أخرجت للناس.

(**وَلَـوْ آمَنَ أَهْـلُ الْكِتـابِ لَكـانَ خَيْـراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ**)

وفي الآيات التالية يضرب الله سبحانه مثلا للفاسقين منهم ثم مثلا للمؤمنين.

بين الفسق والإيمان :

[111] أما الفاسقون فـإنهم أذلاء ، ضـعفاء بفسـقهم وانحرافهم ، وهم لا

يســتطيعون إلّا الحــاق أذى بســيط بكم ، وحين القتــال ينهزمــون ثم ليس هنــاك فئة تنصــرهم كما ان بعضــهم لا ينصر بعضا.

(**لَنْ يَضُـــرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقــاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ**)

[112] انهم أذلاء أين ما وجدهم الناس مارسوا معهم أسـاليب التـذليل ، وليس أمـامهم إلا طريق واحد للخلاص من هــذه الذلة هو العــودة الى كتــاب الله واتبــاع ســنن رسول الله. أو الارتباط بالامة الاسـلامية المتقدمة عليهم. فاذا اعتصموا بحبل الله «كتـاب الله والقيـادة الاسـلامية» فإنهم سوف يصـبحون أعـزاء بـذلك ، وان اعتصـموا بحبل من الناس (الامة الاسلامية) فإنهم سوف يصبحون أقويــاء بالتبعية والتحالف مع الامة القوية.

والا فهم أذلاء والذلة تـــؤدي بهم الى المســـكنة .. والفقر وذلك بســـبب فـــرض الأقويـــاء عليهم التخلف والاستغلال.

(**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا**)

أي في أي بلد تواجـدوا هم والمسـلمون الأكـثر قـوة منهم.

(**إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبـاؤُ بِغَضَـبٍ مِنَ اللهِ**)

يتمثل في الخلافـــــــــــات الداخلية ، وفي التخلف والاستعباد ، وحتى الكوارث الطبيعية التي تلاحقهم بسبب تخلفهم وجحودهم.

(**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ**)

وهي الفقر المدقع أو الفقر بذلة وصغار.

ويبقى السؤال : لمـاذا انتهى بهم الحـال الى هـذه الدرجة من الانحطاط؟ والجواب : لأنهم لم يتمسكوا أساسا بحبل الله والمتمثل في كتابه ورسله لماذا؟ لأنهم كانوا يعصـون الله في الأمـور الصـغيرة ، وشـيئا فشـيئا تزايد عصـيانهم وتمردهم الى درجة الكفر بآيات الله وكـانوا يعتـدون على الناس ، ثم تصاعد عدوانهم حتى اعتدوا على حياة قادتهم الأنبياء.

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُـرُونَ بِآيـاتِ اللـهِ وَيَقْتُلُـونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ**)

ان العصـيان هو التمـرد على الحق ، وهو يـؤدي الى الكفر ألم يقل ربنا : «**ثُمَّ كـانَ عاقِبَـةَ الَّذِينَ أَسـاؤُا السُّـواى**) ...» والكفر بآيـات الله يسـتدرج الإنسـان الى الكفر بالسنن والقوانين الفطرية التي جعلها الله للكـون ، وبالتالي الكفر بالحقائق كلها.

أما كيف ينتهي الاعتداء على الناس الى الاعتداء على حيـاة الرسـل؟ : لأنهم سـوف يـدافعون عن النـاس بكل وسيلة ، ويدافع المعتدي عن نفسه ويقتل الأنبياء.

وإذا ذهبت آيـات الله وأنبيـاؤه ، فـان الحيـاة ستصـبح فوضى ويحكمها الذلة والمسكنة.

[113] هذا مثل سيء لأهل الكتـاب ، أما المثل الآخر فهو يتجسد في طائفة صغيرة يقومون بالعدل ، ويؤمنـون بالكتاب ويخضعون لله.

(**لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ**)

بأوامر الله ، منفذة لها.

(**يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ**)

حيث تنام الأعين ، وتستيقظ قلوب المؤمنين ، وتخمد نـيران شـهواتهم ، وحيث لا عين تـراقبهم فيسـتهويهم الشـيطان بريـاء ، أو سـمعة ، والملاحظ في القـرآن انه يأمر بالتبتل في الليل أكثر من النهار.

(**وَهُمْ يَسْجُدُونَ**)

لله .. فهم ينفعلون بآيـات الله عمليا ، ويخضـعون لها سلوكيا. ولا يتلونها مجرد لقلقة لسان.

[114] (**يُؤْمِنُـونَ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُسـارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ**)

فليس أمـرهم بـالمعروف إلا نابعا من شخصـيتهم المحبة للخير ، بـدليل مسـارعتهم الى الخـيرات وقيـامهم بها قبل غيرهم.

(**وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**)

[115] هؤلاء أهل الكتاب ، وليسوا بمؤمـنين في تلك اللحظة لسبب أو لآخر. ومن دون عناد ، أو تمرد لأمر الله باتباع رسالته النازلة على النبي محمد (ص) ومع ذلك فهم يجزون على أعمالهم بالكامل ..

(**وَما يَفْعَلُـوا مِنْ خَيْـرٍ فَلَنْ يُكْفَـرُوهُ وَاللـهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**)

وهـذه الآية تنفي الرؤية القشـرية للانتمـاء للإسـلام بالاعتقاد بان مجرد ان يكون الفرد يشهد بشهادة الإسـلام كلاميا فهو مسـلم ، ومن أهل الجنـة. ومن لا يشـهد بـذلك فيكفر وهو من أهل النـار كلا .. الله ينظر الى الأعمـال قبل الأقوال.

[116] لما ذا يكفر من يكفـــر؟ لأنه يغـــتر بماله أو أولاده. ولكن ماذا تفعل الأموال والأولاد بعد الموت؟ لماذا يخادعون أنفسهم والى متى؟

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَــرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْــوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

والحديث عن الكفار هنا يـأتي بمناسـبة أهل الكتـاب ، الذين كفروا بالرسالة وناصبوها العداء. حيث يبين القــرآن الحكيم في الدرس القـادم الموقف الـذي يجب أن يتبنـاه المسلمون من الكفار.

ان كثرة الـثروة المادية أو الطاقة البشـرية لن تغـني عن الحق شـــيئا ، وعلينا ألا نخضع للكفـــار بمجـــرد انهم يملكون الثروة أو الكثرة.

[117] اما أعمالهم وأموالهم وحـتى بعض الصـالحات الـتي يقومـون بها ، فانها سـوف تـذهب هبـاء منثـورا ذلك لأنها لا تعتمد على قاعـــدة صـــلبة. أرأيت لو أن الـــدكتور اشــتبه في تشــخيص المــرض منذ البداية ثم أتعب نفسه في اختيـار الـدواء المناسب ، واهتم كثـيرا بصـنع الـدواء ، هل ينفعه ذلك شـــيئا؟ أو إذا ضل الطيـــار طريقه ، فلم يعـرف هل هو بالاتجـاه يمينا أو يسـارا ، فهل ينفعه التعب في توضيح الاستقامة في التحليق؟ كذلك الكفـار أخطئـوا في فهم الحياة أساسا فلا ينفعهم معرفة بعض الجزئيـات. لــذلك فكل جهــودهم تقع في اطـار ذلك الفهم الخـاطئ وتصبح هي الاخرى عبثا بلا فائدة ..

(**مَثَلُ ما يُنْفِقُـونَ فِي هـذِهِ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا كَمَثَـلِ رِيحٍ فِيها صِـرٌّ أَصـابَتْ حَـرْثَ قَـوْمٍ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ**)

وذهبت بكل جهــودهم في لحظــات ، إذ انهم ظلمــوا أنفسهم ولم يختاروا مثلا

مكانا مناسـبا للزراعة ، فهل الله مسـئول عن بعث ريـاح هوج؟! كلا انهم هم المسؤولون ..

(**وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا لا تَتَّخِــذُوا بِطانَــةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَـأْلُونَكُمْ خَبـالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَـدْ بَـدَتِ الْبَغْضـاءُ مِنْ أَفْـواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُــدُورُهُمْ أَكْبَــرُ قَــدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيـــــاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُــــــونَ (118) ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُــــونَ بِالْكِتـــابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ

---

118 [بطانة] : خاصة الرجل الذين يستبطنون أمره مـأخوذة من بطانة الثوب الذي يلي البدن لقربه منه.

[لا يألونكم] : لا يقصرون في أمركم ولا يتركون جهدهم ، ويألو أي يفتر ويقصر ويضعف.

[خبالا] : الشر أو الفساد. ومنه الخبل للجنون لأنه فساد العقل.

[عنتم] : أصل العنت المشـــــــــقة وعنت الرجل بعنت اي دخلت عليه المشقة.

119 [الأنامل] : أطراف الأصابع.

مِنَ الْغَيْـظِ قُـلْ مُوتُـوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللـهَ عَلِيمٌ بِـذاتِ الصُّـدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْـكُمْ حَسَـنَةٌ تَسُـؤْهُمْ وَإِنْ تُصِـبْكُمْ سَـيِّئَةٌ يَفْرَحُـوا بِها وَإِنْ تَصْـبِرُوا وَتَتَّقُـوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْـدُهُمْ شَـيْئاً إِنَّ اللـهَ بِما يَعْمَلُـونَ مُحِيـطٌ (120) وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِـكَ تُبَـوِّئُ الْمُـؤْمِنِينَ مَقاعِـدَ لِلْقِتالِ وَاللـهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتـانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَـلا وَاللـهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللـهُ بِبَـدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَـاتَّقُوا اللـهَ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ (123) إِذْ تَقُـولُ لِلْمُـؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِـدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَـةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ

---

121 [تبوئ] : يتخذ مواضع للغير. يقال بوأت القوم منازلهم وبوأت لهم أي أسكنتهم إياها.
122 [تفشلا] : تجبنا. والفشل الجبن.
123 [بدر] : ماء بين مكة والمدينة.
[يكفيكم] : حسبكم.
[يمددكم] : يعطيكم حالا بعد حال. ومنه المد في السير اي الاستمرار.

مُنْزَلِينَ (124) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (127) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (128) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129)

[فورهم] : اي على الابتداء وقيل الفور القصد الى الشيء بحدة.

127 [يكبتهم] : يخزيهم ويذلهم وأصل الكبت شدة الوهن الذي يقع في القلب.

129 [مـــا] : ذكر لفظ لأنها أمم من من فانها تتنـــاول ما يعقل وما لا يعقل لأنها تفيد الجنس.

الموقف المبدئي من الكفار

هدى من الآيات :

هـؤلاء الكفـار من أهل الكتـاب كيف يجب أن يكـون موقف المسلمين منهم؟

انه يجب ان يكون موقفا متصلبا ، يعتمد على المبدأ ، وليس على المصالح ، أو الصداقات الشخصية.

ان بعض المســـلمين كـــان يحب أهل الكتـــاب ، باعتبارهم أقرب من الناحية الثقافية ، الى المسـلمين من المشركين. ولكن القرآن نهاهم عن ذلك ، وبيّن ان مجـرد كفر أهل الكتاب برسالتكم ، واتخاذهم موقفا سلبيا منكم. يـــدعوهم الى اعتبـــار أي انتصـــار لكم موجها ضـــدهم ، وبالتالي فهم يتميزون غيضا من أي تقدم لكم ، ويفرحـون كلما أصابتكم سيئة.

وعليكم ألا تهنـوا وتـدعوا الى الوحـدة مع هـؤلاء خوفا من مجـابهتهم ، بل عليكم ان تلـتزموا بالصـبر ، والتقـوى حـتى تـدفعوا شـرهم. وكـدليل تـاريخي على أن الصـبر والتقوى

كفيلان بإحراز النصر ، يضـرب القـرآن مثلا من واقع الامة في حــرب بــدر ، كيف نصــرهم الله وهم أذلة ، وبالتــالي كيف يمــدد الله المســلمين بالملائكة ، لتطمئن قلــوبهم ، فيحاربوا العدو ، وينصرهم الله عليه.

وهنــاك ثلاث نهايــات تنتظر العــدو : فاما يكسر الله جناحا من أجنحتهم بــــالحرب ، وبــــذلك يحطم جانبا من قـوتهم العسـكرية. وأما أن يصـيبهم الله بنكسة نفسـية ، فيعــودوا من سـاحة القتــال ، وهم مصــابون بخيبة أمل ، انهم لم يحققــوا أهــدافهم بــالرغم من التضــحيات الــتي قــــدموها ، أو انهم يعــــودون الى رشـــدهم ويســـتقبلون الرســــالة فيتـــــوب الله عليهم ، ذلك ان التوبة لا تخص الرسول ، أو أحـدا من المسـلمين ان الله هو الـذي يقـرر من يتـوب عليه من عبـاده ، ومن يعـذبهم ، ذلك لان له ما في السماوات والأرض.

بينات من الآيات :

مبدئية الوحدة الإسلامية :

[118] الوحــدة القائمة بين المســلمين ، هي وحــدة مبدئية ، ولـذلك لا يجـوز ان تلعب فيها الأهـواء والمصـالح الخاصة ، فيفضل أحد المســـلمين واحـــدا من الكفـــار ، ويجعله لمصــلحة أو لهــوى ، أقــرب النــاس اليه ، ومن حاشــــيته وجهــــاز عمله ، بل عليه ان يختـــار رجاله من المســلمين أنفســهم ، بــالرغم من الحساســية ، أو من الضــــرر الــــذي قد يلحق به مؤقتا من جـــراء ذلك ، إذ ان الضــرر البســيط يعــوض ، ولكن نفــاق الكــافر ، وعــدم إخلاصه ، وتحينه الفرص بالمسلم ، حتى يوجه إليه ضــربة قاضية ، كيف يعوض ..

انهم لا يمنعون عنكم أي ضرر ، قليلا أو كثــيرا ، لأنهم غير مخلصين ، وفي الواقع يفرحون ، كلما ارهقكم شــيء ، والــدليل واضح من ألســنتهم ، حيث انهم يقولــون كلاما يحمل في تضــــاعيفه ما يخفونه في صــــدورهم ، ذلك ان الإنسان مهما حاول

إخفـاء شـيء ، فانه يظهر في فلتـات كلامه ، وشـوارده ، وسـقطاته ، وبالتـالي في لحن قولـه. وأنتم قـادرون لو تدبرتم قليلا ، أن تكتشـفوا هـذه الحقيقة من خلال كلامهم ..

أما صدورهم فقد ملئت غيظا وضيقا عليكم. هـذه هي الآيـات الواضـحة الـتي بينها الله لكم ، يبقى عليكم أن تثيروا عقولكم ، ولتفهموا الحقيقة بأنفسكم.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً**)

البطانة : أقرب الناس الى الفرد والخبال : الضرر.

(**وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ**)

يحبون عنتكم وارهاقكم وما يؤذيكم.

ولم يقل من كلامهم ، لان ظـاهر كلامهم لا تبـدو منه البغضـاء. ولكن ما يصـدر من أفـواههم من الغلط ، أو أسلوب الكلام ، أو حـتى ملامحهم أثنـاء الكلام ، هي الـتي تدل على حقيقة ما في قلوبهم ..

(**وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**)

[119] الامة الاسلامية تعمل من أجل النـاس جميعـا. وضـمنهم بـالطبع الكفـار وبصـفة خاصة المحـرومين منهم والمضطهدين. ولهذا فان المسلمين يكنـون الحب للنـاس جميعا ، بيد ان الكفـار الـذين اتخـذوا موقفا سـلبيا من المؤمـنين ، واعتـبروهم خـارجين عن الشـرعية ، يختلف الوضع عندهم. انهم ينافقون ظاهرا ، ويكنـون أشد البغض للمؤمنين ، ويعتـبرون أي تقـدم يصـيب المسـلمين ضـررا عليهم ، فيشتد غيظهم. وضـيقهم. وتصـرفاتهم الانفعالية ، وغـير الحكمية نابعة كلها من هـذه النفسـية المعقـدة ، والمتميزة غيظا.

(**هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُــــونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ**)
بينما هم لا يؤمنون بكتابكم ، وهذا هو الفـرق ، أنتم لا تحملون حقدا على رسولهم أو كتابهم ، بينما هم يحملــون هذا الحقد وينعكس عليهم.
(**وَإِذا لَقُوكُمْ قـالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَـوْا عَضُّـوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ**)
إذ ان صــاحب الغيظ الشــديد يعض أنامله ، للتخفيف عن غيظه الذي يثقل صدره.
(**قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**)
ولذلك لا ينطلي عليه النفـاق ، ثم انه لا ينصــركم أيها المنافقون على المسلمين ، لأنكم أنتم الحاقـدون بالباطل عليهم ، ونصر الله يصيب أصحاب القلوب الطيبة والنيـات الصافية.
[120] ومن طبيعة هذه الفئة ، الحسد الشــديد ، الى درجة انهم ينتظرون أي نوع من الأذى بكم ، ويستاءون إذا أنعم الله عليكم بأي خير.
(**إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِـبْكُمْ سَـيِّئَةٌ يَفْرَحُـوا بِها وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُـوا لا يَضُـرُّكُمْ كَيْـدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**)
الصبر هو التفكير في المستقبل ، وبعد النظر ، وعدم حساب بعض الخسارات البسيطة إلّا بالقياس الى الأربــاح الكبـيرة ، الــتي تـأتي في المســتقبل ، أما التقـوى ، فهي الالــتزام بخط الإســلام ، وعــدم الانحــراف تحت ضــغط المشاكل ، أو بعض الخسارات أو حتى النكسات. والتقوى تعني هنا أيضا العمل. حتى لا يكـون الصـبر انتظـارا سـلبيا محضا ، انما انتظارا ايجابيا ، يرافقه العمل الجـاد من أجل تعويض الخسارة ،

والضرر وتحويل النكسة الى انتصار.
والكيد يعني : الخطط التي يتبعها العدو ، وهي لا تضر الامة الــتي تصــبر وتتقي. الامة المســتعدة للتضــحيات ، والواعية الملتزمة بالواجبات.
ثم ان قــدرة الله الهائلة ، تقف وراء المؤمــنين ، فهو محيط بما يعمل الكافرون ، وعلينا ألّا نستسلم نفسيا لهم ، بمجــرد انهم اصــابونا بنكسة أو هزيمة ، أو حــتى عــدة هزائم.

دروس من معركة بدر :

[121] وللمثل على هذه الحقيقة يكفينا أن ننظر الى حرب بدر. وما فيها من دروس وعبر للامة ، وهي الحــرب غـــــــير المتكافئة ، والاولى من نوعها في مواجهة الامة لاعدائها ، ولقد كانت ذات دروس تلخصها الآيات التالية :
ألف : ان الرســــــول وهو القائد الأعلى لقــــــوات المســــلمين المســــلحة ، لم يكتف بأنه على حق ، وانه رســول من الله ، وان الله سينصــره. انما قــام بالاعــداد العسكري ، وبنفسه في ميدان المعركة.
(**وَإِذْ غَـدَوْتَ مِنْ أَهْلِـكَ تُبَـوِّئُ الْمُـؤْمِنِينَ مَقاعِـدَ لِلْقِتالِ**)
فـأولا : سـبقت القـوم بالغـدو ، وهو الـذهاب صـباحا مبكــرا ، ثانيا : ابتعــدت عن أهلك ، ووضــعت نفسك في المعركة ، وهــذه صــفة هامة في القيــادة أن تســتعد هي للتضــحية أيضا .. ثالثا : أخــذت تحــدد مواقع المؤمــنين القتالية ، استعدادا للهجوم ..
(**وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)
يسمع أوامرك ، ووقع نشاطاتك الظـاهرة ، ويعلم بما تكن صدور المؤمنين وهو

يحــدد نتــائج المعركة ، بما يســمع ، وما يعلم من أعمــال ظاهرة ، وقلوب طاهرة.

[122] بـاء : ان الرسـول واجه مشـكلة حرجة جـدا ، هي مشكلة الخلاف بين طائفتين من رجاله (المهــاجرين ، والأنصــار) بســبب تــوزع ولائهما بين الله ، وبين الأرض ، والعشيرة ، وما أشبه. ولكن الرسـول (والإسـلام عمومـا) عالج هذه المشكلة معالجة جذرية ، عند ما ذوب الكيانـات الطائفية في بوتقة الايمــــــان بالله ، دون أن يعتمد على طائفة دون اخرى ، وبذلك ضـمن جيشا عقائـديا ، يحـارب من أجل المبـــدأ ، وليس من أجل الريـــاء ، والتنـــافس الطائفي.

(**إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللــهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)

مع ان الله ولي الطــــائفتين ، فإنهما كادتا تفشــــلان بالخلاف ، وهذا الخلاف كان نابعا من الاحساس بالضعف ، حيث كـان أهل المدينة منهـزمين نفسـيا امـام أهل مكة ، ويتصـورون ان الرسـول حملهم أكـثر من طـاقتهم ، حين أخرجهم لقتــال أهل مكة ، ولكن الله بين لهم انه لا داعي للخوف ، ما دام المؤمن يتوكل على الله.

[123] ونتيجة للاعــــداد الاســـتراتيجي ، والاعـــداد الايديولوجي ، والإخلاص لله ، نصر الله الامة.

(**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَـدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَـاتَّقُوا اللـهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

فلا داعي للخــــوف كما لا داعي للخلاف ، انما يجب التقــوى لله سـبحانه بــالتزام أوامــره كاملة ، وإذا الــتزم الإنســان أوامر الله فهو شـــكر نعمه الســـابقة ، وعموما الشكر يعني ـ فيما يعني ـ : التفكـير في أسـباب النعمة ، بهدف المحافظة على تلك الأسـباب ، وبالتـالي المحافظة على النعمة ذاتها ، بينما كفر النعمة يعني العكس

تماما. وذلك بالتفكير بان النعمة ابدية ، وبالتالي إهمال المحافظة عليها ، وعلى العوامل التي أدت إليها ، حتى تزول النعمة تماما.

كمثل النصر ، لا يجوز لنا ان نركن اليه ، ونترك الاستعداد للمعركة القادمة ، إذ ان النصر نعمة ، ولها عواملها. ومن أبرز عوامل النصر الاستعداد. وعلينا الاحتفاظ بتلك العوامل. والاحتفاظ بعوامل النصر ، يسميه القرآن هنا بالتقوى ، حسبما يبدو.

[124] جيم : التعبئة المعنوية ذات أثر كبير في الحروب ، والإسلام يوليها اهتماما كبيرا وأهم عنصر فيها ، الإيمان بالنصر (بعد الإيمان بالقيم التي يحارب من أجلها الجندي).

(**إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ**)

[125] والملائكة وقفوا بجانبكم ، ولكن دون أن يعني ذلك انهم حاربوا بديلا عنكم انما هبطوا بعد تحقق أمرين : أولا : لم يأتوا إلّا بعد ان عملتم أنتم بكافة واجبات الحرب (الصبر والتقوى بالتفسير السابق للكلمتين) ، ولم تبق لديكم حيلة لسرعة مداهمة العدو لكم.

(**بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**)

أيّ يقتلون العدو ويخلفون فيه علامة.

[126] ثانيا : ان أهم خدمة أداها الملائكة لكم ، هي اعادة الثقة بأنفسكم ، واطمئنان قلوبكم بالنصر.

(**وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُـوبُكُمْ بِهِ**)
أما النصر الحقيقي فهو من الله وليس من الملائكة ، والله قادر على ان ينزل نصره بألف سبب وسبب ، ولكنه لا ينزله من دون كفاءة من ينزله عليه.
(**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**)
فهو عزيز (قــادر ويســتخدم قدرتــه) ، وهو حكيم لا ينصر من ينصـره عبثا ، وبـدون أن يـوفر هو أولا مـؤهلات النصر في ذاته.
[127] دال : أهداف القتـال الاسـتراتيجية ثلاثة : فاما شل القدرة العسـكرية للعـدو ، أو تحطيم الـروح المعنوية له ، أو تحييده موقتا ، ويكون أمره الى الله في المستقبل ..
(**لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**)
حتى يكسر جناحهم ويشل قدرتهم العسكرية ..
(**أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ**)
ويفكروا في أنفسـهم هـؤلاء أقويـاء ، ولا نسـتطيع أن نقــاومهم فتحصل عنــدهم خيبة أمل تكبت طاقــاتهم في المستقبل ..
[128] (**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ**)
فيـدفع شـرهم عنك ، ثم مـاذا يفعل بهم الله ، فهـذا أمر آخر ليس للامة ان تبحث عنه ، فاما يتــوب عليهم إذا تــابوا ، أو يأخــذهم الله بظلمهم بطريقة اخــرى غــير هزيمتهم

على أيـديهم ، ذلك لان الظلم نـار تلتهم صـاحبه ، سـواء وجدت قوة اجتماعية تعجل في ضرب الظالم ، أم لا ..

[129] والله قادر على أن يتـوب ، كما هو قـادر على ان يعذب الظالمين بطريق أو بآخر ..

(**وَلِلَّهِ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132) وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا

---

134 [الكاظمين] : اي لا ينقمون إذا امتلأوا غضبا. أو غيظا.
135 [فاحشة] : أصلها الفحش وهو الخروج الى عظيم القبح.
[يصروا] : يقيموا على الذنب. وقيل أصله الثبات على الشيء.

لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِـرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِـرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ خالِـدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (136)

السلوك الإيماني حصن الأمة

هدى من الآيات :

يبين القرآن في الـدروس السـابقة : موقف الأمة من أهل الكتــاب الكفــار ، برســالة محمد (ص) ، وبعد هــذا الـــدرس يســـتمر الســـياق في الحـــديث عن المواجهة المســـلحة بين المؤمـــنين والكفـــار ، ولكن هنا نجد ان الحــديث توجه الى طائفة من الســلوكيات الايمانية داخل المجتمع الاسلامي ، لماذا وما هي مناسبة ذلك؟

لدى التدبر في الآيـات السـبع من هـذا الـدرس ، نجد عـدة نـواهي وأوامر تجمعها فكـرة واحـدة هي : ضـرورة تمــتين الجبهة الداخلية ، عند المواجهة مع العــدو ، وبنــاء إنسان رسـالي ذا شخصـية صـادقة ، ومجتمع المسـاواة ، والمواســـاة ، والمطيع لله وللرســـول بـــدافع الضـــمير الايماني.

من هنا نجد الحديث عن القضايا التالية :

1 ـ حرمة الربا : باعتبـاره أكـبر خطر لوحـدة الامة ، ومثاليتها الرسالية ، وهو

ثغرة اقتصادية كبيرة.

2 ـ ضرورة تقوى الله وطاعة رسول الله ، باعتبارهما دعامتين للمجتمع الاسلامي.

3 ـ المسارعة في الخير ، ووجود دافع ذاتي لدى المسلم في القيام بالواجبات.

4 ـ الإنفاق في سبيل الله ، وكظم الغيظ ، والعفو ، والإحسان باعتبارها سلوكيات اجتماعية تمتن علاقة الامة ببعضها ، كما تربي صاحبها على التضحية من أجل الله ، بكل شيء بالمال بعزة الذات وغرورة.

5 ـ الاستغفار بعد الذنب ، باعتباره أكبر وازع نفسي يمنع من الذنب.

ان بناء الإنسان ، والمجتمع ذي المواصفات السابقة ، هو الاعداد الحقيقي للمعركة مع العدو ، والا فان الحرب تصبح خاسرة ، وبلا محتوى رسالي صالح.

بينات من الآيات :

خطر الربا :

[130] الربا : أو الفائدة على المال ، التي تتضاعف بصورة طبيعية كلما ازدادت السنين كلما ازداد الفقير مسكنة ، والغني شبعا وجشعا انه ـ خطر كبير على وحدة الامة الاسلامية ـ وبالتالي خطر على الشخصية الرسالية المثالية ، التي يقدمها المجتمع الاسلامي نموذجا للحياة السعيدة ، وخطر في المواجهة مع العدو.

ان «الربا» قد يبدأ بذرة صغيرة ، ولكنه ينمو في نفس الغني ، حتى يصبح شجرة خبيثة للجشع ، وينمو في نفس الفقير حتى يصبح جدارا ضخما من الكراهية. وينمو داخل المجتمع حتى يصبح طبقية مقيتة ، وتصل درجة الطبقية الى حد تعاون

المرابي مع العدو الخارجي ضد أمته وشعبه.

والإسلام حرم الربا ، ولوح بـان عـذاب المتعـاطين له كعذاب الكفـار ، وقـال : (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَـأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) [131] (**وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ**)

ولا يمنع الربا الا بتقـوى دفينة في النفـوس ، ذلك ان الربا هو رمز الاسـتغلال البشع والإسـلام لم يحـرم الرمز فقط ، بل وحـرم الاسـتغلال بكل أنواعه وصـوره ، حـرم الاحتكار ، وحـرم الغش ، وحـرم الاسترسـال في الـربح ، وحرم السـرقة ظـاهرة وباطنة ، وحـرم الرشـوة ، وحـرم تحديد حرية التجـــارة ، والصـــناعة ، والزراعة لمصـــلحة الأغنياء.

لــذلك يجب ان يكـون المجتمع المسـلم ضـمير حي يتمثل في تقوى الله ، حتى يكف عن الاسـتغلال ، ويتطهر من الجشع المـــؤدي اليه ، وآنئذ فقط تتحقق الســـعادة والفلاح للمجتمع (لعلكم تفلحون) ..

[132] حين يتطهر المجتمع من الاســـتغلال ، يتطهر من أكبر أسباب التمرد والنفاق ، ويستعد للطاعة للرسول ، خصوصا في تحكيم الرســـول في الخلافـــات العرقية والقومية ، والمصـلحية ، بين فئـات المجتمع ، لــذلك ذكّر القرآن ..

(**وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**)

وطاعة الرســول تســتدرج الرحمة والرفــاه ، لأنها تقضي على نـــوازع الشر ، وأســباب الخلاف والتمــرد ، وتوجه الامة كلها باتجـاه البنـاء ، في ظل اطمئنـان وارف يشعر الجميع بان جهودهم لن تذهب سدى.

[133] وإذا شـــعر الجميع بالاطمئنـــان ، جـــاء دور التوجيه الى تفجـير الطاقـات ، والتسـارع الى الخـيرات ، والى مغفرة الله ، كهدف سـام لا بد لجميع أبنـاء الامة أن يبادروا اليه ، أو حتى يتنافسوا من أجله.

(**وَسـارِعُوا إِلى مَغْفِـرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**)

والمغفـرة من الله ، تتبع إصـلاح الفسـاد الاجتمـاعي والسـلوكي ، فلا يغفر الله لمجتمع مكب على أصـنام له ، أو مصر على الظلم والاستغلال ، والمنكر والفحشاء ، كما لا يغفر لفرد لم يـترك المحرمـات ، انما يغفر لهما بعد ان يتركا الــذنب ، ويصــلحا ما أفســده الــذنب فيهما ، فيعيد الظــالم حقــوق المظلــوم اليــه. والمســتغل يكف عن اسـتغلاله ويسترضي ضـحاياه بـالمبرات ، وتـارك الصـلاة يقضي صلواته وهكذا ..

أما الجنة فانها تـأتي بالمسـارعة في الخـيرات ، فبعد عملية الإصلاح تبـدأ عملية البنـاء بالعمل الصـالح النشـيط والمسـتمر ذي الهـدف الخيّـر. إن هـذا من أبـرز معـالم المجتمع المسلم ومن أقوى دعائمه الـتي يعتمد عليها في مواجهة العدو.

كيف نفوز الجنة؟

[134] ما هي الأعمال الصـالحة الـتي يجب التسـارع فيها للوصول الى الجنة؟! انها كالآتي :

(**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**)

وبتعبـير آخر : الصـفة الاولى : هي العطـاء سـواء في حالة اليسر أو العسر ، وبالتالي التضحية بالمـال ، والإيثـار به.

الصـفة الثانية : عـدم الانـدفاع مع شـهوات الـذات ، وبالتـالي التضـحية بغـرور الـذات وانانيته وطغيانه وجفوته في ســــبيل الله ، وذلك بكظم الغيظ ومن ثم العفو عن النـاس ، ان كثـيرا من الخلافـات الاجتماعية الحـادة تنشأ في البدء من حساسية بسيطة بين شخصين ، تشتد حــتى تصـبح خلافا عقائـديا مزعومـا. وفي المجتمع الاسـلامي يجب قتل الحساسية وهي في المهد حتى لا تكـبر وتصـبح مشكله كبيرة.

الصــفة الثالثة : الإحســان الى النــاس وخــدمتهم بالمجان لأنه الرابطة القوية التي تشد المجتمع ببعضه.

[135] والصفة الرابعة : للمتقين ـ وجود وازع نفسي يردهم عن ارتكاب الذنوب أو على الأقل التمادي فيها.

(**وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً**)

ذنبا كبيرا يعود ضرره على الناس.

(**أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**)

بذنوب بسيطة يقتصر ضررها على الذات فقط.

(**ذَكَرُوا اللهَ**)

وعرفوا : ان الله يراقبهم ويحاسبهم ويجازيهم.

(**فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللـهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**)

أما في حالة الغفلة والنسـيان ، أو طغيـان الشـهوة ، فقد يقعون في الذنب ثانية ،

ولكنهم يســتغفرون فــورا ، لأنهم لم يتعمــدوا ذلك بــوعي كامل.

[136] (**أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْــرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهــارُ خالِــدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْــرُ الْعامِلِينَ**)

هــذه هي صــفات المجتمع الاســلامي ، والشخصــية الإيمانية الــتي يعــدها الإســلام نموذجا للحيــاة الســعيدة ، وقوة يحارب بها الكفار ، وانك لترى ان الصــفة الأساســية في هذا المجتمع هي تقوى الله.

قَـــدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُـــنَنٌ فَسِـــيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هذا بَيـانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَـوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْـكُمْ قَـرْحٌ فَقَـدْ مَسَّ الْقَـوْمَ قَـرْحٌ مِثْلُـهُ وَتِلْـكَ الْأَيَّامُ نُـداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللـهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَيَتَّخِـذَ مِنْكُمْ شُـهَداءَ وَاللـهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ

---

137 [سـنن] : السـنة الطريقة المجعولة ليقتـدي بها ومن ذلك سـنة رسول الله (ص) وأصل السنة الاستمرار.

[موعظـة] : ما يلين القلب ويـدعو الى التمسك بما فيه من الزجر عن القبيح والدعاء الى الجميل وقيل الموعظة هو ما يـدعو بالرغبة والرهبة الى الحسنة بدلا عن السيئة.

139 [تهنوا] : الوهن ـ الضعف.

140 [قرح] : جراحات.

[نداولها] : الدولة الكرة لفريق بنيل المراد.

آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللـــهُ الَّذِينَ جاهَـــدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَـوْتَ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَلْقَـوْهُ فَقَـدْ رَأَيْتُمُـوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُـرُونَ (143) وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِـــلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقـــابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللـهُ الشَّـاكِرِينَ (144) وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللـهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ

---

141 [يمحص] : يخلص من العيب.

144 [محمد] : أخذ من الحمد والتحميد فوق الحمد فمعناه المســتغرق لجميع المحامد لان التحميد لا يســـتوجبه الا المســـتولى على الأمر في الكمـال فـأكرم الله عز اسـمه نبيه وحبيبه (ص) باسـمين مشـتقين من اسمه تعالى (محمد) و (أحمد).

مِنْها وَسَــنَجْزِي الشَّـــاكِرِينَ (145) وَكَـــأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَـلَ مَعَـهُ رِبِّيُّونَ كَثِـيرٌ فَما وَهَنُـوا لِما أَصـابَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَما ضَـعُفُوا وَمَا اسْـتَكانُوا وَاللـهُ يُحِبُّ الصَّـابِرِينَ (146) وَما كـانَ قَـوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قـالُوا رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْــرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْـدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَـوْمِ الْكـافِرِينَ (147) فَآتـاهُمُ اللـهُ ثَــوابَ الــدُّنْيا وَحُسْــنَ ثَــوابِ الْآخِــرَةِ وَاللــهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)

---

146 [اســتكانوا] : أصــلها من الكنية وهي الحالة الســيئة. يقــال فلان بكنية اي بنية سوء.
147 [إسرافنا] : تجاوزنا الحق الى الباطل.

لنعد الى .. سنن التاريخ

هدى من الآيات :

في اطـار الحـديث عن المواجهة بين الأمة والكفـار ، يذكرنا القرآن في هـذا الـدرس بضـرورة التسـلح بمنظـار تـاريخي ، يكشف القـوانين الاجتماعية الـتي وضـعها الله للحياة ، ومنها ان الحق ينتصر ، وان رسالة الله ما هي الا توضـيحات لتلك السـنن ، يهتـدي بها المتقـون ، ويتخـذون منها ، عبرا نافعة لأنفسهم ، بينما يتركها الناس.

ان التـــــــــــاريخ يكشف لنا : ان الفئة المؤمنة هي المنتصرة أخـيرا ، فعليها ألّا تهن أو تحـزن ، ولكن دون ان يعني ذلك انها تسـتطيع الغلبة بـدون تضـحيات ، ذلك لأنها ضــرورية لكشف العناصر المؤمنة حقيقة بالرســالة ، عن الاخرى المنافقة ، ولتـأديب العناصر المؤمنة ، حـتى ترتفع الى مستوى الشهداء (القادة) ، لتطهير نفوسهم من الغل أو الريب ، ولتمييز الكافرين ، وتصفيتهم جسديا وفكريا.

ثم ان التضـــحيات ثمن الجنة ، فبـــدونها كيف يفضل الله قوما على قوم ، فيدخل بعضهم الجنة والبعض النار.

والتضحيات هي هدف المؤمنين ، لأنهم كـانوا يـأملون ان يقدموا لله اغلى ما عندهم ، حبا له وأيمانا صــادقا به ، وليس رســـول الله ابنا لله حــــتى ينتصر اتباعه بمجــــرد الانتمـــاء اليه ، بل هو كســـائر الرسل يحـــيى ويمـــوت. والارتبـاط يجب ان يكـون بالرسـالة أكـثر من الرسـول ، حتى يحصل الإنسان على جزائه من عند الله. والكـافرون هم الذين ينقلبون عن الرسالة فور موت الرسول تفضـيلا للدنيا على الآخرة.

بما ان النـبي محمـدا (ص) رسـول ، فانه يتبع سـيرة الرسل من قبله ، وهم لم يتقـــدموا الّا بالقتــــال ومعهم الربيون من أصحابهم ، وهم (الربيون) كانوا بشرا يــذنبون ويســـرفون ، ولكنهم كـــانوا مؤمـــنين يســـتغفرون ربهم ، ويطلبـون منه ان يثبتهم على الجهـاد ولـذلك انتصـروا في الدنيا والآخرة معا.

بينات من الآيات :

[137] الحيـــــاة الاجتماعية كالحيــــاة الفردية ، لها انظمتها وقوانينها (وحسب التعبـير القـرآني سـننها) وعلينا ان نكتشف هذه الانظمة ، حـتى نسـتفيد منها في واقعنا ، ولكن كيف؟! إننا حين نريد ان ندرس حياة الفرد ، نخضعة للتجربة بعض الوقت ، نقيس ضــغط دمه ، ودرجة حرارته ، ودقات قلبه و. و. ثم نعرف طبيعته ، أما المجتمع فكيف نقيسه؟ أفضل طريقة للقياس ، هو العـودة الى التـاريخ ، ففيه دورات كاملة للحيـاة الاجتماعية ، حضـارات نشـأت وســادت ، ثم بــادت بفعل أنظمة حتمية ، وســنن إلهية لا تتحول.

وعند ما نريد ان نقيس مـدى تقـدم رسـالة ، يجب الّا نقيسها بمنظـار تحليلي ، كـأن نقـول كم عـدد افـراد هـذه الرســـالة؟ ما هي ميزانيتها الماليـــة؟ وما هي خططهم العسكرية؟ كلا بل بمقياس تاريخي فنقول : كم هي نسبة الحقيقة فيهـا؟ وكم مقـدار ايمـان أصـحابها بهـا؟ وما هي نقاط الضعف في مجتمعات اعدائها التي ستقضي عليهـا؟ وهكذا.

وحين نعود الى سنن الله في التاريخ ، نجد انّ الحق ينتصر بشرط وجود مؤمنين صادقين به. لذلك يذكرنا القرآن بهذه الحقائق فيقول :

(**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا**)

الى اثار تلك الأمم التي كانت من قبلكم ثم خلت وخلفت ورائها العبر والدروس ، أهمها ان سبب انتهائها كان شيئا واحدا هو التكذيب بالحق فانظروا.

(**كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**)

[138] وفي مجال الحديث عن سنن الله في الحياة يأتي الحديث عن القرآن ، ذلك ان دوره دور المذكر بتلك السنن ، حيث يلفت انظار الناس إليها. ولكن الذي يستفيد منها المتقون فقط ، حيث يهتدون الى حقيقة السنن ، ويطبقون دروسها على أنفسهم (يتعضون بها).

(**هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**)

الذين يتقون ربهم ، ويستعدون للالتزام بالحق ، يكتشفون الحق. اما الذين يهتمون بأنفسهم ، وبأهوائهم وشهواتهم فإنهم لا يعرفون الحق. لأنهم أساسا لا يريدون الاهتداء اليه.

[139] من سنن الله في المجتمع ، ان المؤمنين ينتصرون. فعليهم الا يهنوا ويتسرب الى نفوسهم الانهزام ، أو اليأس ، والضجر. كما أنّ عليهم الا يتألموا لبعض الخسارات ، إذ ان ربح الانتصار سوف يغطي على الخسارات البسيطة.

(**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

[140] ومن تلك السنن ان العلو والنصر لا يأتي بالصدقة ، أو بلا شيء من

التضــحية ، بل لا بد من الاســتعداد للقــرح ، ومعرفة ان الأعداء هم بدورهم يستعدون له ، فلما ذا التهرب منه.

(**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ**)

ان من المهم ان تعــرف ان عــدوك يصــاب بمثل ما تصــاب به ، وأنه يتمايل الى الضــعف والهزيمة كما أنت ، وان النصر لمن يســتمر أكـثر ، ويصــبر على الألم ، حـتى يفقد عدوه صبره ، وقدرته على الصمود.

ثم ان الحيــاة ليست ملكا لأحد ، وانه إذا كــان الملك الكـــذائي أو الـــرئيس أو النظـــام أو الطائفة الفلانية هم الحاكمون على بلد ، فلا يعني ذلك انهم سـوف يسـتمرون بل ان هــؤلاء انما جــاؤوا لتــوافر العوامل القيادية فيهم ، وقد تتوافر فيك أيضا فتأتي مكانهم.

من المهم جــدا ان نتخلص من الاعتقــاد بــان الواقع يبقى ، إنّما نؤمن جازمين بان الحقيقة وحدها تبقى.

(**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ**)

منافع الناس في التضحية :

ثم ان للتضـحية منـافع اخـرى للامة ، يـذكرنا القـرآن فيما يلي :

ـ الف : التضحية تفرز المؤمنين عن المنافقين ، ففي بداية انطلاقة الرسـالة قد يـؤمن بها جماعة طمعا في انها سـوف تنتصر سـريعا. فيحصـلون على مغـانم مجانية ، أو انهم كــانوا مســتائين من الوضع فانــدفعوا نحو الرســالة مدفوعين بتيّار الاحســاس الســاذج ، أو كــانوا يحبّـون قائد الرســالة فــانتموا إليها لــذلك ، أو عشــرات من الأســباب الاخرى غير

الايمان الصادق.

فوجـود هـذه الطائفة في الامة ، يسـبب لها الضـعف والانهيـــــار ، حيث تنتشر فيها المصــــــلحية ، والانانية ، والفوضـــوية ، وتنتهي الامة ســـريعا ، ولا يمكن الفـــوز الا بتعرض الامة للتضحيات. فيعرف المؤمنون عن غيرهم.

(**وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**)

باء : الحرب مدرسة المقـاتلين ، تـربيهم على الجدية والطاعة والتفكر وتقـــديم مصـــلحة الامة على المصـــالح الخاصة. وتعلمهم الصراحة والفكر العقلاني وهكذا.

وهذه الصفات ضرورية للامة الرسالية ، التي تريد ان تقـــود الأمم الاخـــرى. ولنفـــترض المجتمع الجـــاهلي في الجزيـرة ـ مثلا ـ كيف كـان يمكنه ان يقـود العـالم ، وهو غـــــارق الى أذنيه في الفوضى ، والجهل ، والانانية و. و.؟ انه كـان بحاجة الى مدرسة تربوية تخـرج القـادة. وكـانت الحرب بما فيها من تضحيات ، هي المدرسة التي خـرجّت قادة المستقبل ، وحسب التعبـير القـرآني (الشـهداء على الناس).

(**وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**)

ولذلك فهو بدوره ، لا يظلم أحــدا ، وإذا اعطى النصر والتقدم فبعد إثبات الامة لجدارتها ، عن طريق التضـحيات السـخية. والا فقد كــان ظالما ــ حاشا ــ لتلك الامة المغلوبة.

[141] جيم : ثم ان قلـوب المؤمـنين ليست طـاهرة بالكامل من الــريب في الرســالة ، والشك في تعاليمها ، فهي بحاجة الى نار تطهرها ، والتضـحيات هي تلك النـار ، ذلك أنّ الإنســان الــذي ضـحىّ من أجل شــيء فســوف يتمسك به ، بعكس الــذي حصل عليه مجانا وبلا تضـحية ، انك تجد التاجر أحرص على ماله من ابنه الذي يرثه

بغير تعب ، كذلك المؤمن المضحي يكون ايمانه أقوى من غيره.

(**وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**)

دال : الكفار هم المعاندون للحق ، المخالفون لتقـدم الامة ، الذين يفضلون مصالح قـومهم ، أو أهـواء أنفسـهم على مصـلحة الامة ، إنّهم عقبـات لا يمكن معالجتها ، إنما يجب تصـــــــــفيتهم بالكامل ، ولكن كيف يمكن للأمة ان تتعرف على هـذه العناصر ، وتميّزها عن العناصر المتعلقة بها ، أو الخاضـــعة لها لضـــعف أو عاطفـــة؟ وكيف يحق للرســالة ان تقتل النــاس ، بــدعوى انهم يشــكلون عقبة للمستقبل؟ كيف يمكن تبرير ذلك للجماهير.؟

اما إذا وقعت المجابهة الســـاخنة ، وأخـــذت هـــذه العناصر تشــكل تهديـدا خطـيرا للأمة ، فـان الامة تجــدر المبرر الكافي للحرب والتصفية ، كما أنّ المجابهة ســوف تفـرز العناصر الكـافرة فعلا ، عن الاخـرى المخدوعة بهـا. كما تساهم في تصفية العناصر المعانـدة الـتي تقف عقبة في طريق تقدمها. وهذا ما يسميه القرآن بالمحق.

(**وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ**)

الجهاد والأماني الكاذبة :

[142] هــاء : ومن فلســفة الحــرب الجهادية : انها تعطي المؤمــنين جــدارة الــدخول في الجنة ، الــتي هي مــأوى المجاهــدين الصــابرين ، وإذا لم يــدخل المســلم الحرب كيف يميّز المجاهد الصابر ، عن القاعد المنهزم.

(**أَمْ حَسِــبْتُمْ أَنْ تَــدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللــهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**)

ان البشر يمنّي نفسه بأشـياء كثـيرة ، هي بالخيـال أشـبه منها بـالواقع ، يمنّي نفسه بـالثروة بلا تعب ، وبالسـلطة بلا كفـاءة ، وبالشـهرة بلا اسـتحقاق ، ويحتـاج البشر الى ان يتذوق مرارة الحياة عشرات المرات ، حتى يقتنع ان تلك الامنيات كانت أحلاما صبيانية ، وكذلك يمـني بعض المؤمنين أنفسهم بالجنة بلا عمل صالح ولا تضحية ، ويحذرهم القـرآن من هـذه الأمنية الباطلة ، لان لها نتـائج خطـيرة ، ففي الـدنيا تقعـدنا عن العمل ، وفي الآخـرة تجعلنا نواجه النار ، ولا ينفعنا الندم ، ولا يمكننا العودة الى الحياة للتوبة.

[143] والمؤمن الحقيقي هو الـذي يشـري حياته في الدنيا بالآخرة ، ويقدم كل ما عنده لله ، في مقابل الجنة ، ولـذلك فأمنية المـؤمن تخـالف امنية الرجل العـادي ، فهو يريد مزيدا من التعب ، مزيدا من الجهاد ، وبالتالي الموت في الله حتى يحصل على الآخرة.

(**وَلَقَـدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَـوْتَ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَلْقَـوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**)

فكان الاجدر بكم ان تفـوا بعهـدكم ، وتقتحمـوا غمـار الموت باطمئنان نفسي ، لأنها امنيتكم التي وصلتم إليها.

[144] ثم إنّ ارتبـاط المـؤمن برسـالة الله أشـدّ من ارتباطه بالرسول ، ولذلك فان موت الرسـول لا يـؤثر فيه سـلبيا ، لأنه كـان هنـاك رسل مـاتوا وبقيت من بعـدهم الرسالة ، إذا فالرسـالة هي الهـدف لا الأشـخاص ، وعلينا ان نضحّي بأنفسنا من أجل ان تبقى الرسالة ولا نفكر بان موتنا ، يؤثر على الرسالة ، بل ـ بالعكس ـ إنّ استشـهادنا من أجل الرسالة سيدعم موقفها في المجتمع.

(**وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِـهِ الرُّسُـلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً**)

ولكن الصـامدين الـذين يربطـون أنفسـهم بالرسـالة وحــدها ، هم المنتصـــرون أخـــيرا ، لأنهم شـــكروا نعمة الرسالة بالايمان بها والتضحية من أجلها.

(**وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**)

[145] إذا : الرسالة هي الهدف ، والمــوت من أجلها يهــون ما دامت الرســالة تنتصر بهــذا المــوت ، والمــوت الهـادف أفضل من المـوت المحتـوم ، لأنه مـوت بثمن ، بينما الآخر موت بلا ثمن.

وما دمنا نموت بآجالنا شئنا أم أبينا ، فلما ذا لا نمـوت لأفكارنا ومن أجل رسالتنا؟

ثم من يقول : ان من يـدخل المعركة سـيموت ، وان من يتخلف عنها سيبقى ، إنّها سـنة الله في عبـاده ، مـتى بلغ كتــاب الشــخص أجله ، مــات في المعركة ، أو على الفراش.

(**وَما كـانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُـوتَ إِلَّا بِـإِذْنِ اللـهِ كِتابـاً مُؤَجَّلاً**)

والفــرق بين من يمـوت على الفـراش ، ومن يمـوت في المعركة ، ان هذا يحصل على ثمن الآخرة دون ذاك.

(**وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُـرِدْ ثَـوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها**)

ويحصل المــؤمن على جــزاءين : الاول : جــزاء نيته الصـادقة ، وعمله الصـالح (الاستشـهاد). والثـاني : جـزاء شـــكره لله ، اي وفائه بمســـئولية نعم الله عليه ، ومن أبرزها نعمة الحيــاة ، حيث قــدمها لله ، والله يجزيه على ذلك.

(**وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**)

ان تكرار توجيه القرآن الى جزاء الشكر في آيتين هنا ، يأتي لمواجهة صفة الجـزع والهلع الـتي تصـيب الإنسـان الساذج عند ما تقع الحرب. فيتساءل : لماذا الحـرب ، لما ذا نقاتل. لماذا نقتل بل لماذا نقتل الناس ..؟

والقــرآن يــزرع في قلــوب المؤمــنين الاطمئنــان ، والشعور بالرضا بهذا الواقع مؤقتا ، لحين تغيـيره بالأفضل ، وتركـيز النظر في الجـوانب الايجابية له ، وذلك بالشـكر لله على نعمه ، والعمل بمسئوليات تلك النعم.

كيف قاتل الرّبيّون :

[146] والحرب ليست بدعة في تـاريخ الرسـالة. انها كانت قديما وكان المقاتلون الرساليون هم ابــرز من دخل المعـارك ، فما كـان يصـيبهم وهن نفسي (جبن ــ جـزع ــ تردد) ، ولا ضعف بـدني ، ولا كسل ، انما كـانوا مطمئـنين قلبيا ، أقوياء بدنيا ، نشطين حربيا ، وصابرين على البـأس ، فــأحبهم الله وجــزاهم النصر في الــدنيا ، والجنة في الآخرة.

(**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**)

كلمة كـأيّن للدلالة على الكـثرة ، والقتـال معه يـدل على ان النبي نفسه كان يقاتل ، والربيون هم المنتسـبون الى الرب ، اي مجاهدون من أجل الله.

(**فَما وَهَنُــوا لِما أَصــابَهُمْ فِي سَــبِيلِ اللــهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**)

لقد كـانت عناصر الانتصـار مكتملة عنـدهم : القــوة الروحية ، والقناعة بــالفكرة ، والاســتعداد للتضــحية من أجلها ، والقوة المادية ، والنشاط ، والصبر.

الدعاء سلاح المؤمن :

[147] وكانت قوة هـؤلاء الروحية ، نابعة من الـدعاء الذي يعتبر عملية شحن الذات بالقوة المعنوية وذلك عــبر :

أـ القناعة بان إصلاح الذات هو طريق التقـدم ، لـذلك كانوا يبدءون دعاءهم ـ وعملهم بالطبع ــ بإصـلاح الـذات ، ويقولون ربنا اغفر لنا ذنوبنا.

ب ـ ان أهم عنصر تربوي هو منع الإسراف في الأمر. يعني التقيد ـ دائما ـ بالمقاييس الرسالية ، فلا نوم اضافي ، ولا راحة كثـيرة ، ولا اسـتهلاك ، ولا تبـذير ولا توغّل في الشـهوات. انهم كـانوا يسـتغفرون ربهم من إسـرافهم ، ويقولون ربنا اغفر لنا إسرافنا في أمرنا.

ج ـ الثبات وعدم الـتردد ، وبالتـالي التصـميم والعـزم الراسخ ، انه عنصر اساسي في النصر ، ذلك لان الارادة النافذة هي التي تصنع المعجزات ، و (ما ضـعف بـدن عما قويت عليه النية). لذلك كان هؤلاء يـدعون ربهم ويقولـون ربنا ثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

ان هذا السلوك الرسالي لهؤلاء ، دليل كل المقـاتلين من أجل الله انهم لم يكونوا يسـخطون ، أو يـترددون ، أو يجزعون.

(**وَما كـانَ قَـوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قـالُوا رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْـرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْـدامَنا وَانْصُـرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ**) [148]

(**فَآتاهُمُ اللهُ ثَـوابَ الـدُّنْيا وَحُسْـنَ ثَـوابِ الْآخِـرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَـرُوا يَـرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقـابِكُمْ فَتَنْقَلِبُـوا خاسِـرِينَ (149) بَـلِ اللـهُ مَـوْلاكُمْ وَهُـوَ خَيْـرُ النَّاصِـرِينَ (150) سَـنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الـرُّعْبَ بِما أَشْـرَكُوا باللـهِ ما لَمْ يُنَــزِّلْ بِــهِ سُــلْطاناً وَمَــأْواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْــوَى الظّالِمِينَ (151) وَلَقَــدْ صَــدَقَكُمُ اللــهُ وَعْــدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْـرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ

---

151 [سـلطانا] : حجة وبرهـان وأصـله القـوة فسـلطان الملك قوته والسلطان البرهان لقوته على دفع الباطل.

152 [تحسـونهم] : الحس القتل على وجه الاستئصـال وسـمى القتل حسا لأنه يبطل الحس.

ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا ما أَصابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (153) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ

---

153 [تصعدون] : هو المسير في مستوى من الأرض وقيل الإصعاد الابتداء في السفر.
[لا تلوون] : لا تعرجون على أحد كما يفعله المنهزم.

فِي بُيُــوتِكُمْ لَبَــرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْــلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُــوبِكُمْ وَاللــهُ عَلِيمٌ بِــذاتِ الصُّــدُورِ (154) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْـتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَـبُوا وَلَقَـدْ عَفَا اللـهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُــوا كَالَّذِينَ كَفَــرُوا وَقــالُوا لِإِخْــوانِهِمْ إِذا ضَــرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كـانُوا غُـزًّى لَـوْ كـانُوا عِنْـدَنا ما مـاتُوا وَما قُتِلُـوا لِيَجْعَـلَ اللـهُ ذلِـكَ حَسْـرَةً فِي قُلُـوبِهِمْ وَاللـهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللـهُ بِما تَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ (156) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَــبِيلِ اللــهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِــرَةٌ مِنَ اللــهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُـونَ (157) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ (158)

---

156 [ضـربوا] : الضـرب في الأرض السـير فيها وأصـله الضـرب باليد وقيل هو الإيغال في السير.
[غزّى] : جمع غاز

التضحية

سبيل الانتصار وزكاة المجتمع

هدى من الآيات :

لا يزال السياق يبيّن جوانب الاعداد المعنـوي للحـرب مع الكفـار ، ففي الآية الاولى ، نجد التحـذير الشـديد من التفكير في الاستسلام للكفار ، الذين لا يرضون الّا بإعادة الامة الى حالتها السابقة ، حيث الخسـارة لكل مكاسـبهم الرسالية.

ثم تبين الآية الثانية ان الله مولاكم وينصـركم ، والآية الثالثة تبين انّ الكفار يشـعرون بـالخوف من مـواجهتكم ، وان عاقبتهم الى النار.

ويضـرب القـرآن مثـالا في الآيـات التالية على ذلك ، حيث استطاع المسلمون الحاق الهزيمة بالكفار ، ولكنه لا يدعهم يسـدرون في الأحلام ، بل يـذكرهم بمثـال الهزيمة وأسبابها ، ومن أبرزها ضـعف الـروح المعنوية ، والاختلاف ، والعصيان.

ويـــذكرهم بـــأنّ الله مع ذلك أيـــدهم بنصـــره ، حيث غشيهم الأمن والنعاس فاطمأنوا الى نصر الله.

بيد ان طائفة اخــــــرى كـــــانت في المعركة هزتها الخسارة ، وأخذت تتشكك في القيم الرسالية ، وتقول لو كان لنا النصر ، إذا ما خسرنا قتلى ، وبعد ان يبين القـرآن فلسفة التضحيات ، والخسارات ، يحـدد الأسـباب التربوية التي جعلت هذه الطائفة تنهار امام الخسارات البسـيطة ، فيقـــول انها تعـــود الى ما قبل المعركة ، حيث ان هـــذه الطائفة كـانت تمـارس المعاصي ، ولـذلك لم ينم الايمـان في قلوبهم نموا كافيا لمواجهة التضحيات.

ثم يحـذر القـرآن المؤمـنين من الاهتمـام بالخسـارة وتضخيمها ويقول : ان القتلى كان من الممكن ان يموتــوا بسـبب آخر (كمـرض الوبـاء مثلا) بينما هم الآن قتلـوا من أجل احيـــاء الرســالة وذهبـــوا إلى رحمة الله ، وســـوف يجمعهم الله وكل الموتى للحساب.

بينات من الآيات :

التضحية حصن المكاسب :

[149] ان المكاسب الرسالية بحاجة إلى قوة تحافظ عليها ، ومن دون الاسـتعداد للتضـحية في سـبيلها ، فانها ســوف تتعــرض لخطر الأعـــداء ، إذ أنّهم لا يقبلـــون من المسلمين مجرد كف اليد عن الحـرب ، بل يريـدون منهم العــودة الى الجاهلية الــتي انقــذهم الله منها ، وفي تلك خسارة لا تعوّض للامة.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا إِنْ تُطِيعُــوا الَّذِينَ كَفَــرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ**)

اي انكم إذا عـدتم الى الـوراء ، فقد عـدتم الى حيث الخسارة والضرر.

[150] انما الطاعة لله وحده ولا خوف من الكـافرين لان الله سينصر من ينصره وهو خير الناصرين.

(**بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ**)

[151] والسـؤال : كيف ينصر الله عبـاده المؤمـنين؟

الجواب :

ان الله ينصر عبـــاده بإلقـــاء الـــرعب في قلـــوب المشـركين ، ولسـبب بسـيط هو شـركهم بالله ، ذلك انّ الشــرك يعــني تقــديس قيمة مادية من دون الله ، كقيمة المـــال أو الجـــاه أو الأرض ، وفي الواقع هـــذه القيم لا تقدس لـذاتها ، بل لأنها متصـلة بالـذات البشـرية. فالرجل الــذي يقــدس أرضه ، إنّما يقــدسّ ذاته أولا ، ثم يقــدس أقرب مكان لذاته ، وهو أرضه ، كذلك الذي يقدس المـال ، فانما يقــدس ذاته ، ولان المــال يخــدم ذاته فهو يقدسه وهكذا.

فالشرك يأتي نتيجة حب عميق للذات وتمحــور كامل حولهــا. وهــذا يــؤدي بــالطبع الى الخــوف والجبن ــ اما المؤمن فهو يخلص عبادته لله.

(**سَـنُلْقِي فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ كَفَـرُوا الـرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُـلْطاناً وَمَـأْواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ**)

بينما المؤمنــون لا يخشــون شـيئا ، لأنهم لا يقــدمون ذاتهم ولا يخافون عليها ، ولأن مصــيرهم الى الجنة ، وهي خير مقام للمؤمنين.

[152] والدليل الواقعي البسيط على هـذه الحقيقة ، تجدونه في حـربكم مع العـدو كيف نصـركم الله ، الى أن أخذتم تعملون السيف في أجسادهم.

ولكن هذه الحرب كانت ذات جــانب آخر ، هو أن الله انما ينصر من ينصره ، واما إذا وهن المؤمنون ، وانتشرت فيهم الخلافـات ، وعصـوا قيـادتهم ، فـإنهم لا يسـتحقون النصر بل الهزيمة ، والهزيمة نـــوع من الامتحـــان ، فانما يعرف الابطال عند الهزيمة.

والآن وقد انتهت الحـرب (بانتصـاركم أولا وهـزيمتكم ثانيا) فان الله عفا عنكم لفضله العظيم.

(**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ**)

حيث انه نصركم تصـديقا لوعـده لكم بـان ينصـركم ، حتى انكم أخذتم تعملون السـيف في أجسـادهم ، ولكنكم اغتررتم بالنصر فدب الوهن فيكم.

(**حَتَّى إِذا فَشِـلْتُمْ وَتَنـازَعْتُمْ فِي الْأَمْـرِ وَعَصَـيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ**)

من النصر والغلبة. ذلك ان الإنسان إذا شـعر بـالخطر يوحّد صفوفه ، ويشحذ عزيمته اما إذا زال الخطر فيشـعر بالراحة ويفكر في تقسيم الغنائم ، كـذلك المسـلمون في حرب أحد ، حيث انهم لمّا رأوا أنفسـهم منتصـرين ، تـرك بعضــهم الثغر الــذي كــان يرابط فيه ، فاســتغل العــدو الفرصة وقـــام بحركة التفـــاف حـــول الجيش ، وفقد المسلمون توازنهم وولوا هاربين.

والواقع ان القرآن يصـور مراحل الهزيمة في الحـرب ، في كلمـات قصـيرة وهي ذات المراحل في الهزيمة في السلم أيضا وهي :

1 ـ الفــرح : (**مِنْ بَعْــدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ**)حيث يفقد المجتمع تطلعه الى أعلى ، فيفقد الرباط القوي بين طبقاته وفئاته.

ب ــ انتشــار الــوهن في نفــوس الامة ، (حــتى إذا فشلتم). وذلك بفقدان العزيمة والخلود الى الراحة.

ج : بروز الخلافات المصلحية ، والطائفية ، والاقليمية ، والعنصرية الى السطح ، بفعل فقدان الهدف والعزيمة.

د ـ تأثير الخلافات الاجتماعية على مستوى الانضباط والطاعة للقيادة ، بل على درجة الثقة بها ، إذ يزعم كل فريق ان القيادة منحازة الى جانب خصمها ، فتقل ثقته فيها وطاعته لها.

وفي خضم الخلاف : تكون فئة على حق واخرى على باطل.

(**مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**)

ولهذه الأسباب انهزمتم بعد انتصاركم على العدو.

(**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**)

لأن الهزيمة هي التي تكشف المؤمنين الصامدين عن غيرهم ، فتعطي للامة دروسا في نقاط ضعفها وتعطي للقيادة فرصة جيدة لتصحيح مسيرة الامة وإصلاح تلك النقاط ، أو حتى تصفية بعض العناصر المسببة للهزيمة أو ابعادها عن مراكز المسئولية.

والآن ـ وقد انتهت الحرب ، فانّ الله عفي عنكم حتى تعودوا الى وحدة الصف ، وتبادروا في إصلاح الذات.

(**وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**)

فالعفو لا يدل على انّ الله يجعل المؤمنين والكافرين في مستوى واحد بل ان للمؤمنين الصادقين في الحرب فضلا على الكافرين.

عبر من الهزيمة :

[153] ما هي عبر الهزيمة وكيف نستفيد منها حتى لا تتكرر الهزيمة مرة اخرى؟

أ ـــ تحــدث القــرآن عن ذلك ، بعد ان اعطى صــورة واقعية عن الهزيمة ، هي صـورة الفـرار عن المعركة دون نظر إلى ورائهم توغلا في حب الذات.

(**إِذْ تُصْــعِدُونَ وَلا تَلْــوُونَ عَلى أَحَــدٍ وَالرَّسُــولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْـراكُمْ فَأَثـابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُـوا عَلى ما فـــاتَكُمْ وَلا ما أَصـــابَكُمْ وَاللـــهُ خَبِــيرٌ بِما تَعْمَلُونَ**)

وهنا كــان يعــالج الرســول الهزيمة في نفوســهم ، بتـذكيرهم بـالآخرة وضـرورة التضـحية ، لان أفضل علاج لحب الذات هو التذكير بالله واليوم الآخر.

ب ـــ ثم بين القــرآن بعد إعطــاء هــذه الصــورة عن الهزيمة ، ان الهزيمة ذات اثــار ســلبية تتجــاوز ســاحة المعركة.

[154] المؤمن بشر ، يتعــرض لعوامل الهزيمة ولكنه يتغلب عليها بفضل الايمــان بالله الــذي يعينه على ذاته ، ويملأ قلبه بالاطمئنان ، ومن ثم يملأ جسمه بالراحــة. ذلك لأن اطمئنان القلب ينعكس على سـلامة الجسم ، وقدرته على مواجهة المواقف الصعبة.

اما المنــافق فلان ايمانه كـان مجـرد سـراب يخـادع نفسه به ، ويحـاول ان يخـدع النـاس ، لـذلك فـان عوامل الهزيمة تـؤثر في نفسـيته ، ولا يشـفي منها ، ولـذلك فهو يتعلق بذاته ويخشى عليها ويظن بالله ظنـــون الســـوء الباطلة ويقـــول : نحن منهزمـــون لا محالة ويحتج على فكرته اليائسة بعـــدد القتلى ، ولكن الله يـــدحض حجته ، ويـذكره بـان الله هو الـذي يقـدر المسـتقبل ، وليس ظن المنافق المشحون بعوامل اليأس والخــوف والهزيمة ، ثم ان القتلى هم الذين قدر الله لهم ان يستشــهدوا لكي يتم اختيار الناس ، وتطهـير قلـوب المؤمـنين منهم ، ولو شـاء الله لمنع القتل من أيّ فــرد من المؤمــنين ، والله يقــدر الموت بوسائل شتى ، وحتى لو لم يكن القتال مشتعلا إذا لاستشــهد طائفة من المؤمــنين بأســباب اخــرى ، مثلا : بفعل غارات الكفار عليهم في عقور دارهم.

(**ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ**)

هم المؤمنون وحدهم والغم هو حالة انعدام الرؤية في القلب ، حيث تظلم النفس بسبب خوف شديد منشأه حب الذات والخوف عليها. والنعاس حالة الراحة الجسدية المنبعثة من راحة نفسية واطمئنان كاف.

(**وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ**)

انهم يمارسون الظن الباطل الذي يشبه ظنون الجاهلية ، وذلك لأنّهم يقيسون أوضاعهم بعد الإسلام باوضاعهم قبله ، فيزعمون أنّ مقياس النصر أو الهزيمة ، هو بضعة قتلى أو جرحى ، يبعدون ـ من جهة أخرى دور الله ورسوله ورسالته في القوة العسكرية وتحقيق النصر.

والظن الذي يظنونه هو : انهم :

(**يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ**)

انهم يهتمون بأنفسهم أكثر من اهتمامهم بالرسالة ، ويريدون الوصول سريعا الى المكاسب الشخصية ، وبدون التضحيات.

(**قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**)

وعليكم ان تفكروا في انتصار الرسالة التي يرعاها الله ، لا انتصاركم أنفسكم.

(**يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ**)

انهم يخفون حب الذات. والخوف الشديد عليها ، وعدم الايمان بالله ، وعدم الاهتمام في تقدم الرسالة.

(**يَقُولُـونَ لَـوْ كـانَ لَنا مِنَ الْأَمْـرِ شَـيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا**)

وكـأنّ مقيـاس الانتصـار هو انتصـار أشخاصـهم ، لا انتصار الأمة كأمة ، أو انتصار الرسالة الإلهيّة.

(**قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَـرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ**)

ذلك لان هؤلاء الذين قتلوا إنما هم غيركم ، ويختلفون عنكم ، هؤلاء قوم ناداهم ربهم للاستشـهاد فلبـوا النـداء ، وحين كتب عليهم القتل أسرعوا إلى الشـهادة ، حـتى ولو لم تكونوا تبرزون أنتم الى المعركة.

والله قـــادر على ان ينصر رســـالته من دون اية تضحيات ، ولكنه لا يفعل ذلك أو تدري لأية حكمة؟ لأهمية التضـــحيات في كشف العناصر المنافقة ، وفي تطهـــير قلوب العناصر المؤمنة.

(**وَلِيَبْتَلِيَ اللـهُ ما فِي صُـدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**)

دور الذنوب في الهزيمة :

[155] ويبقى ان نعــرف الأســباب الأساســية وراء هزيمة طائفة وامنة طائفة ، هل هي أســباب وقتية تمليها مواقف الطـــرفين داخل المعركة ، أم تمتد إلى خـــارج المعركة.

الجـــواب : بل هي امتـــداد لما قبل المعركة ، وما المعركة الا كالنار الـتي تكشف الـذهب عن غـير الـذهب ، ان الرجل المؤمن الـذي يتحمل مسـئولياته الايمانية كاملة ، هو الذي يثبت في المعركة ، اما الـذي لا يلـتزم بواجباته الايمانية ويكتسب المعاصي فانه

ينهزم في المعركة.

(**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَـوْمَ الْتَقَى الْجَمْعـانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا**)

فهم قد كسبوا السيئات فأصبحت تلك السيئات مدخلا للشـيطان الى قلـوبهم ، توسـوس عليهم وأضـلهم عن الاقدام في سبيل الله.

(**وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**)

وأعطـاهم مهلة جديـدة ليمارسـوا فيها اختيـارهم ان خيرا أو شرا.

[156] المؤمن يـرى في الشـهادة حيـاة جديـدة ، اما الكـافر فانه يراها نهاية أبدية للحيـاة ولـذلك يتحسر كلما سـقط شـهيد من إخوانه وأقاربه ، وكـان الكفـار من أهل الكتاب يحسبون الموت نهاية (بالرغم من عقائدهم الدينية بخلاف ذلك) ، وإذا قتل أحدهم في المعركة فان قتله كان يدعوهم الى ترك القتال ، لأنه يحسب خسـارة ، وينعكس في صدورهم حسـرة ، ولقد نهى الله المؤمـنين عن هـذه الحالة لأنها كفر بالله وباليوم الآخر.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ كَفَـرُوا وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ**)

وهـاجروا من بلد الى بلد في سـبيل الله ، أو ذهبـوا لتحقيق مهام رسالية ثم ماتوا.

(**أَوْ كانُوا غُزًّى**)

يقاتلون في سبيل الله فقتلوا ، كانوا يقولون لهؤلاء.

(**لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا**)

ان هــذه النظــرة الكــافرة الى المــوت أو الى القتل جعلتهم يتحسرون كثيرا لقتلاهم.

(**لِيَجْعَلَ اللهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ**)

وهل الموت خاص بمن يضــرب في الأرض ، أو يقاتل في سبيل الله؟ وهل الحيـاة خاصة بمن يحتضن بيته كلا .. الله يقدر الموت والحياة كما يشاء.

(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

فلا يبخس جزاء من يسافر ويقاتل في سبيله.

[157] فاذا بقي الإنسان فانه يتسـلم جـزاءه من الله غير منقوص ، واما إذا مات فانه يذهب الى رحمة الله.

(**وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِـرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**)

اننا كبشر نتعـرض لضـغوط الشـهوات ، وقد نسـقط ونكتسب السيئات ، فاذا أدركنا الموت فـان تلك السـيئات تلاحقنا ، وتتحول هناك الى عـذاب شـديد. اما إذا قتلنا في سبيل الله فان الشهادة تمحي الذنوب كلها.

وطوبى لمن مات طاهرا من الذنوب انه يـدخل الجنة بغير حساب.

[158] العمل لله والمـــوت ، أو القتل ، مـــدخل الى رحمة الله فلما ذا يخاف المؤمن الصالح منهما.

(**وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ**)

فَبِما رَحْمَـةٍ مِنَ اللـهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَـوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيـظَ
الْقَلْبِ لانْفَضُّـوا مِنْ حَوْلِـكَ فَـاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْـتَغْفِرْ
لَهُمْ وَشـاوِرْهُمْ فِي الْأَمْـرِ فَـإِذا عَـزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى
اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللـهُ
فَلا غـالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْـذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُـرُكُمْ
مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ (160) وَما
كـانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُـلَّ وَمَنْ يَغْلُـلْ يَـأْتِ بِما غَـلَّ يَـوْمَ
الْقِيامَــةِ ثُمَّ تُــوَفَّى كُــلُّ نَفْسٍ ما كَسَــبَتْ وَهُمْ لا
يُظْلَمُونَ (161) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ

---

159 [فظا] : الغليظ الجافي القاسي القلب.
[عزمت] : العزم عقد القلب على الشيء تريد ان تفعله.
[توكل] : أي فوض الأمر الى الله وثق بحسن تدبيره.
161 [يغــل] : أصل الغلــول من الغلل ، وهو دخــول المــاء في خلل الشجر. والغلول الخيانة ومنه الغل الحقد.

اللهِ كَمَنْ بـاءَ بِسَـخَطٍ مِنَ اللـهِ وَمَـأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (162) هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللـهِ وَاللـهُ بَصِـيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (163) لَقَدْ مَنَّ اللـهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـــولاً مِنْ أَنْفُسِـــهِمْ يَتْلُـــوا عَلَيْهِمْ آياتِـــهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كـانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (164)

---

162 [باء] : رجع.
[سخط] : ارادة العقاب لمستحقه.

ظروف الهزيمة ، ومسئوليات القيادة

هدى من الآيات :

في جو الهزيمة التي عاشها المسلمون ـــ بعد واحــدة من معاركهم الصعبة (أحد) ـ تنتشر الشـائعات المغرضة ، وتطفو على الســطح النفســيات المنافقة والمـــترددة ، ويكون من واجب الرسالة ترصد هذه النفسيات لمعالجتها ، أو إبعادها عن الســاحة كما يجب عليها تــرقب شـائعاتها الضالة ، لدحضها وتبديلها بأفكار ايجابية بناءة ، والقرآن إذ يعـالج هـذه الأمـور بشـيء من التفصـيل يعـالج ـــ أيضا ـــ موضوع القيادة ، باعتبارها مما يتعرض للنقد ولا سيما في ظروف الهزيمة.

ان المنـافقين والانهزامـيين من المسـلمين ، أخــذوا ينـــالون من كفـــاءة بل من أمانة قيـــادة الرســـول لهم ، وكذلك تفعل الفئات المنافقة والمنهزمة مع كل قيادة في ظروف النكسة ، بيد أن القرآن يدحض هـذه الفكـرة فيما يخص رســول الله بالــذات ، وفيها يخص كل قيـــادة امينة اتبعت نهج قيـادة الرسـول بصـفة عامة ، ذلك النهج الـذي تتحدث عنه الآيـات وهو اللين والعفو والاسـتغفار (محاولة إصلاح الناس بشتى

الطرق) والمشاورة والعزم والتوكل.

ثم يتحـدث عن أمانة الرسـول كرسـول ، وأمانة كل قائد رسالي ذي سوابق في التضـحية فيما يرتبط بالمهمة التي نسبت الى الرسـول ، والبعيد جـدا عن طبيعة الامـة. ثم يختم الحـــديث ببيـــان درجة الرســـول ، وكرامة الله للانسانية بأن بعثه إليها.

[159] من أبرز صفات القائد ، ايّ قائد سـعة الصـدر والقــدرة على تحمل النــاس ، بما فيهم من ســوء خلق ، وتناقض ، وجهل ، وانحراف ، وسعة الصدر بدورها لا تأتى للقائد الّا إذا كــان هادفا ، يحمل في قلبه رســالة عظيمة يستهين من أجلها بالصعوبات التي يلاقيها من قبل النــاس ، ولـذلك ربط القـرآن بين لين الرسـول ، وبين رحمة الله (المتمثلة في رسالته).

(**فَبِما رَحْمَــةٍ مِنَ اللــهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَــوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**)

خصوصا وإنّ مجتمع أهل الجزيــرة العربية ــ كما كل مجتمع بـدائي خشن ــ قد تشـبّع بـالعنف بما فيه الكفاية ، كان يحتاج الى قـدر كبـير من الليونة ، حـتى يجتمع ويفكر في تصفية مشاكله بالتي هي أحسن.

بينما المجتمعات المتحضرة التي تعودت على الدعة ، فانّ الليونة قد لا تنفيها دائما مثل قوم موسى الـذي كـان نـبيهم موسى (ع) شـديدا معهم ، لأنّهم فقـدوا إحساسـهم بالكرامة.

والقائد يجب أن يربي نفسه على صفة الليونة ، حـتى لا تفلت منه كلمة نابية فيجر قومه الى شر مســـــتطير. والليونة تعني الصفات التالية :

(**فَــاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْــتَغْفِرْ لَهُمْ وَشــاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**)

النـاس تكـون فيهم صـفات سـيئة ، واعمـال خاطئة ، وعلى القائد ان يصلحها ولكن بالحكمة.

ذلك أن هـذه الصـفة إنما هي نتيجة ظـروف تربوية ، واجتماعية ، واقتصـــادية معيّنة ، فلا يتحمل الفـــرد كـــلّ مسئولياتها وبالاضافة الى ذلك ، فـان رؤية الفـرد الى تلك الصفات ، والأعمال ، قد لا تكون مثل رؤية القيـادة فعليها ان تصلح رؤيتهم ، قبل إصلاح صفاتهم أو أعمالهم.

من هنا يجب أن تتعــود القيــادة على العفو ، ولكن لا يعـني العفو السـكوت الى الأبد عن الانحـراف ، بل يجب العمل من أجل إصلاحه. وذلك بالاستغفار (طلب الغفـران من الله) ، والدعاء بالمغفرة ــ كـأي دعـاء آخر ــ يجب ان يقارن بعمل مناسب ، وهو محاولة الإصلاح.

ثم ان القيـادة يجب ان تقـوم برفع مسـتوى النـاس ، وذلك عن طريق التشـاور. ذلك ان التشـاور يجعل النـاس يتحسسون بمسـؤولياتهم ، فيفكـرون في شـؤونهم بجدية أكثر ، ويحاولون إصلاح أنفسـهم بأنفسـهم ، كما ان القائد يضـطر من خلال التشـاور الى بيـان مختلف وجـوه الأمر للناس ، مما يعمق فيهم معرفتهم بالحياة ، ويجعلهم أكـثر إحساسا بواجباتهم تجاهها.

بيد ان هذه الصفات يجب الا تنزل القائد الى مستوى منسق بين الآراء ، أو الإرادات فقط ، بل عليه ان يحتفظ بحقه في اتخـاذ القـرار الحـازم. ذلك لان الامة الـتي تفقد (القــرار) تفقد كل شــيء ، لان القــرار هو الــذي يتجــاوز الاختلافـات ، ويعطي دفوعـات هائلة للامة باتجــاه تجـاوز العقبات ، التي تضخمها عادة الخلافات في الرأي.

من هنا فقد قال الله :

(**فَــإِذا عَــزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللــهِ إِنَّ اللــهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**)

القائد يجب ان يكــون صــاحب قــرار ، ولكن القــرار يحتاج الى قوة ارادية هائلة ، من أين يأتي بها القائــد؟ من التوكـــل. ذلك ان التوكل على الله (وليس على النـــاس) يجعل القائد سـابقا لأمته ، رائـدا في مسـيرتهم ، يعطيهم أبدا روحا جديدة ، ويجعله أكـثر حزما وإقـداما .. وبالتـالي أكثر قدرة على تفجير طاقات أمته وتحريك فاعلياتها.

[160] وبمناسبة الحديث عن التوكل ، يذكرنا القـرآن بدور التوكل في حياة المؤمنين ويقول :

(**إِنْ يَنْصُــرْكُمُ اللــهُ فَلا غــالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْـذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللــهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)

فليست القيادة وحدها التي ينبغي أن تتوكل على الله ، بل المؤمنـــون أيضا ، وذلك لان النصر الحقيقي آت من الله ، ومن رسالته التي يتمسك بها المؤمنون ، وليس من قوة السلاح أو كثرة العدد.

[161] ويتـــابع القـــرآن حديثه عن القيـــادة ، وعن الشـــكوك الـــتي حـــامت حولها بســـبب جو الهزيمة ، والشائعات المفروضة ، التي بثها المنـافقون وزرعوها في النفوس الضعيفة ، ويقول :

(**وَما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُـلْ يَـأْتِ بِما غَـلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ**)

النبي الـذي اختـاره الله ليس ممن ينطـوي قلبه على نية سوء لأمته ، ويتظاهر بغيرها ، ذلك ان هـذه الازدواجية سوف تنكشف في يوم القيامة ، حيث تبلى سرائر النـاس جميعا.

والغل أنواع ، أبرزها خيانة القيـادة في أمـوال الأمـة. والرشـوة ، والسـرقة ، والضـغينة ، كلها غل ، وازدواجية ، ونفاق ، يبتعد عنها القائد وبالذات الرسول.

(**ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)

الذين يخونون أمانتهم ، ويسرقون أموال الامة ، إنهم سوف يعرضون للحساب أمام الله ، حيث يجـازون بعدالة تامة.

[162] والطريق الوحيد لمعالجة الغل هو تطهـــــير نفوس القادة ، وان يكون هدفهم من مسئولياتهم المناطة بهم رضوان الله ، وليس الوجاهة عند الناس ، أو الحصول على مكاسب مالية أخرى.

(**أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)

أي ليس سـواء الرجل الـذي يجعل رضى الله هدفه الـذي يحـدد مسـيرته ـ والـذي يتمثل في إتبـاع الرسـول وقيادته الامينة ـ بينه وبين ذلك الرجل الذي يجعل مكاسبه الشخصـية هدفه ، كالمنـافقين الـذين يشـيعون حـول الرسـول الأقاويل الكاذبة ، ثم تكـون حصـيلتهم النهائية ، انهم يعـودون بسـخط من الله في الـدنيا ، وجهنم في الآخرة.

[163] ليس المؤمنون سـواء ، فمنهم من يشـبه في بعض مواقفه المنافقين ، ومنهم من هو في أعلى القمم ، وكـذلك المنـافقون درجـات مختلفة ، ويجب إلّا يسـاقون بعصى واحـدة ، بل يحسب لكل فـرد منهم أو فئة منهم حسابه الخاص.

ذلك ان الايمـان أو النفـاق ممارسة عملية أكـثر منها أقـوال حدية ، والممارسة تختلف حسب الأعمـال الايمانية أو النفاقية ، والله يعلم درجـات المؤمـنين والمنـافقين ويحاسبهم عليها حسب أعمالهم.

(**هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ**)

[164] القيادة التي يديرها رسول الله ، لا تقاس أبدا بالقيادات الجاهلية التي تشيع الـدعايات المغرضة ، وعلى الامة أن تعـرف واقع كلتا القيـادتين ، وطبيعة الاشـاعات المغرضة ، وإلّا تنساق وراء كل قوّال لا يعرف غير صناعة الكلمة الكاذبة والقول الباطل.

على الامة ان تفكر لـدى تقييمها لهـذه الاشـاعات (وفي ظروف الهزيمة بالذات) تفكر من هو رسـول اللـه؟ وما هي رسالته؟ ومن هم أعداؤه؟

(**لَقَـدْ مَنَّ اللـهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُـوا عَلَيْهِمْ آياتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

هـذا رسـول الله الـذي أنعم الله به على المؤمـنين ، حيث بعثه برسـالته لكي يـربيهم على التقـوى ، ويعلمهم دستور حيـاتهم الثـابت ، ونظـام حيـاتهم المتغـير (الكتـاب والحكمـة) ، ويخـرجهم من ضـلالتهم السـابقة الى نـور الهدى.

فهل من الصـحيح ان تقبل فيه الاشـاعات المغرضة ، الصادرة من القيادات الجاهلية؟

ان النـاس بحاجة الى توعية لكي يقيّمـوا الكلام ، خصوصا وإنّ الطـواغيت والظلمة في كل عصر ، يسـتخدمون الكلام الباطل لتـبرير ظلمهم للنـاس ، ومحاربتهم لدعاة الإصلاح. ولو لا أنّ النـاس يرتفعـون الى مستوى التقييم السليم ، فإنهم لن يتخلصـوا من الطغيـان والظلم. وعلى الناس ان ينظروا الى الممارسـات العملية ، ولا ينخدعوا بالألفاظ البراقة.

أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (165) وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ (167) الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (168) وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ

---

168 [فادرؤا] : ادفعوا.

بِما آتـاهُمُ اللـهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَيَسْتَبْشِـرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُـــوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَـــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِـرُونَ بِنِعْمَـةٍ مِنَ اللـهِ وَفَضْـلٍ وَأَنَّ اللـــهَ لا يُضِـــيعُ أَجْـــرَ الْمُـــؤْمِنِينَ (171) الَّذِينَ اسْـتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُـولِ مِنْ بَعْـدِ ما أَصـابَهُمُ الْقَـرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْـرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَـزادَهُمْ إِيمانـاً وَقـالُوا حَسْـبُنَا اللـهُ وَنِعْمَ الْوَكِيـلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْـلٍ لَمْ يَمْسَسْـهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُـوا رِضْـوانَ اللـهِ وَاللـهُ ذُو فَضْـلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّما ذلِكُمُ الشَّـــيْطانُ يُخَـــوِّفُ أَوْلِيـــاءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (175)

---

173 [حسبنا] : كافينا.

لماذا نخسر؟ وكيف ننتصر؟

هدى من الآيات :

لا تزال الآيات القرآنية تـبين واقع الهزيمة ، والصـبر ، الــذي يجب ان تســتفيد الامة منه ، فتبــدأ بالحــديث أن الهزيمة في معركة واحــدة لا تعــني الهزيمة أبــدا ، إذ أنّ الامة التي انهزمت الآن كـانت قد ألقحت سـابقا هزيمـتين بأعـدائها ، ثم تـبين ضـرورة الهزيمة لكشف حقيقة الجبهة الرسالية التي انقسمت على ذاتها الى مؤمنين ومنافقين.

أما المؤمنون فهم الشهداء الذين استضافهم الله في رحمته ، والصامدون الذين اسـتجابوا للرسـول من بعد ما أصــابهم القــرح ، وأنهكتهم الحــرب بجروحها وأضــرارها المادية والبشرية.

وعند الحـديث عن المنــافقين يقســمهم القــرآن الى فئات ، بعضهم نتحدث عنه في هذا الدرس ، وبعضـهم في الدروس القادمة ، وهذا التقسـيم نـابع من أعمـالهم. فكل من مارس نوعا واحدا أو أكثر من هذه الممارســات ، فهو منافق ذلك أنّ النفاق ليس

حديثا يقال ، بل هو عمل. مثل الهـروب من المعركة تحت غطاء الجهل بها ، وتجبين الناس وتضخيم الخسارة.

والله سـبحانه ينعت هـؤلاء ليس بالنفـاق وحـدة ، بل بالكفر أيضا ، بالرغم من ادعـاء هـؤلاء أنهم مسـلمون. ثم يدعوهم الى مقاومة الموت ان كانوا صادقين ، ثم يتحدث عن الشهداء الذين يعتبرهم هؤلاء خسارة.

[165] لماذا تخسر الامة معركة معينة؟ لسـبب واحد هو عــدم الاعــداد الجيد لها وذلك من الناحية البشــرية ، وانعدام الروح المعنوية ، أو لعـدم وجـود السـلاح الجيد أو لتفكك الجبهة الداخلية. أو ما أشبه.

وأية هزيمة عرفت الامة إنها من نفسها ، ودأبت على اســتخلاص عبرها ودروســها ، فهي أشــبه بالنصر منها بالهزيمة ، أما الهزيمة الحقيقية ، فهي التي يعتبر الإنسان عواملها خارجية ، فلا يعتبر بها أبدا.

من هنا فــان القــرآن ركّز على أنّ الهزيمة هــذه من عند الأمة نفسها ، وذلك بعد ان يبيّن أنّها كانت بعد انتصار الامة في معركـتين سـابقتين ، لتخفيف هـول الهزيمة عن النفوس.

(**أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها**)

أي انكم أصبتم وأوردتم ذات المصيبة بغـيركم مـرتين في السابق ، ثم إنّكم مع ذلك وهنتم وتساءلتم وقلتم :

(**قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**)

فكما أن أعـداءكم انهزمـوا سـابقا بسـبب ضـعفهم المعنوي والمادي ، فكذلك أنتم

انهزمتم للضعف.
(**إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)
فليس هو الذي انهزم في المعركة بل أنتم.
[166] وكـان الله قـادرا على ان يمنع الهزيمة عنكم بقـوة غيبة ، ولكن لم يفعل بل تـرككم وشـأنكم ، واذن بذلك في هزيمتكم (اذن بمعـنى سـمح أي لم يمنـع) وذلك لتسـتفيدوا عـبرا كثـيرة منها : تقـييم عناصر جبهتكم المؤمنين والمنافقين.
(**وَما أَصابَكُمْ يَـوْمَ الْتَقَى الْجَمْعـانِ فَبِـإِذْنِ اللـهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ**)
[167] (**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا**)
والتعبير القرآني يستعيض عن كلمة المعركة ب (يـوم التقى الجمعـان) لأنه أشد وقعا في النفـوس وأقـدر على تصوير حقيقة المعنى.
والمنافقون الذين كشفتهم الهزيمة ، هم الذين هربـوا من مسئولية القتال ، في حينما طلبـوا للحـرب أو للـدفاع عن دار المسلمين.
(**وَقِيـلَ لَهُمْ تَعـالَوْا قـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لَاتَّبَعْناكُمْ**)
فلأننا لا نعلم وقوع المعركة ، أو لا نعلم فنـون القتـال لذلك فانا لا نتبعكم.
وهؤلاء لم يحسبوا أنفسهم جزءا من الأمة ، بل قـالوا لاتبعناكم وكـان الاجـدر بهم ان يبـادروا بأنفسـهم للقتـال ، لأنه مسـئوليتهم ، كما هي مسـئولية سـائر المسـلمين ، والله وضعهم حيث وضعوا أنفسهم وقال عنهم.
(**هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ**)

لان الايمــان ممارسة عملية ، وبالــذات في ظــروف تعرض الامة للخطر ، والمؤمن الذي لا ينفع عند الضـرورة فمــتى يمكن أن ينفع ، وكل التــبريرات الــتي يتــذرع بها هؤلاء باطلة إذ انهم.

(**يَقُولُونَ بِـأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُـوبِهِمْ وَاللـهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ**)

إنهم يقولــون (كــذبا) إنّهم مؤمنــون وإنما لا يقــاتلون بسبب جهلهم بفنون القتال ولكن الله يفضحهم.

[168] ومن صــفات هــؤلاء أنّهم يضــخّمون خســارة الامة ، ويبثون الـدعايات الهدامة ، فيقولـون عن الشـهداء لو انهم لم يذهبوا للمعركة لما قتلوا.

أجل ولكن مـاذا كـان مصـيرهم؟ ألم يكونـوا يموتـون بالنهاية؟! وما دام الإنسان يقتل أو يمــوت ، فلما ذا يعظم الموت عند نفسه؟!

(**الَّذِينَ قـالُوا لِإِخْـوانِهِمْ وَقَعَـدُوا لَـوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا**)

أي الــذين قــالوا لإخــوانهم : اقعــدوا ، وهم بــدورهم قعدوا ، ثم لمّا قتلوا ، قالوا لو انهم أطـاعوا أمرنا بـالقعود لما قتلوا.

(**قُــلْ فَــادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِــكُمُ الْمَــوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

فما دمتم لا تقدرون على مواجهة الموت ، لا تتكلمــوا عمن يقتل في ســـبيل الله ، أو ليس الجميع يســـير نحو الفناء؟!

[169] ولكن هنـاك فـرق بين من يقتل ، ومن يمـوت لأن الشهيد حي والميت فان.

(**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ أَمْواتـاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**)

أحياء بحياة الرسالة التي سقوها بـدمائهم ، فـاذا بكل قطرة دم أريقت حول شجرة الرسالة ، تحولت الى غصن أخضر وثمرة نافعة ، تحوّلت الى عدالة تنفع ملايين البشر ، وحرية وكرامة وحياة.

وهم أحياء لان ذكرهم خالد في الناس.

وهم أحيــاء ربما لان الله يعطي أرواحهم الطــاهرة ، قدرة وعلما في عالم البرزخ ، فاذا بهم يرزقون عند ربهم ، إنما بعيدون عن أجسادهم هذه ومتحررون منها.

أما الأمــوات فــان أرواحهم قد تنــتزع منها القــدرة والعلم وتعتقل في زنزانة الجهل الضعف.

ولنتصــور : أن رجلا يقتل في ســبيل الله ، فتنفصل روحه عن جســده ، لتعيش الى يــوم القيامة ، في عــالم الأرواح ، طليقة حرة قادرة وعالمة.

ورجل يموت على الفراش ، فتتحول روحه الى عــالم مظلم ، فأيهما الأفضل؟ الموت أم الشهادة.؟

[170] حيــاة الشــهداء حيــاة حافلة بــالنعم الماديــة. (يرزقون عند الله) ، والمعنوية إذ أنهم لا يزالون في فــرح ، وشــكر ، وبشــارة ، كلما وجــدوا قــتيلا في ســبيل الله ، التحق بهم زادهم أنسا. وكرامة.

(**فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**)

من نعمة الشهادة ، التي فتحت عليهم أبواب نعم الله الاخرى في الآخرة.

(**وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

ان المؤمـنين الـذين لم يلحقـوا بالشـهداء ، هم أداة البشــارة للشــهداء ، لعلم الشــهداء بــأن أولئك ســوف يقدمون على حياة فاضلة ، حياة لا خـوف فيها ولا حـزن ، ولذلك فهم يفرحون بالمؤمنين.

[171] وللشـهداء عند الله سـبب آخر للبشـارة ، هي نعمة الله الـتي تزيد عن القـدر الـذي يتصـور الإنسـان أنه جزاء العمل. ويستبشرون حين يجدون ثمار أعمالهم الـتي ما ضاعت عند الله ، وكم يكون فـرح الإنسـان كبـيرا حين يجد ثمرة جهوده ، فيرى إنها كاملة غير منقوصه.

(**يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللـهِ وَفَضْـلٍ وَأَنَّ اللـهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**)

[172] هــؤلاء فريق من المؤمــنين استشــهدوا في سـبيل الله ، أما الفريق الآخر فهم الصـامدون ، الـذين لم ينهزمــوا بــالرغم من إصــابتهم بــالقرح ، فحين دعــاهم الرسول لاعادة تنظيم صفوفهم ، والقيـام بهجـوم مضـاد ، استجابوا للرسول وألحقوا الهزيمة بالعدو.

ان هؤلاء كانوا يتمتعون بعدة صفات :

أ) إن قــدرة الإنســان على تحمل الصــعاب كبــيرة ، ولكن المؤمنين فقط هم الذين يسـتثمرون هـذه القـدرة ، بفضل إيمانهم بالله وابتغائهم مرضاته.

(**الَّذِينَ اسْـــتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُـــولِ مِنْ بَعْـــدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ**)

والقرح : هي الآلام الجسدية والنفسية.

ب) ثم إنهمّ كانوا يضاعفون جهـودهم بسـبب ظـروف الهزيمة.

(**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ**)

ج) ويـزدادون التزاما ببنـود الشـريعة ، وانضـباطا في تنفيذ الأوامر.

(**وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**)

[173] ثم إنّهم يزدادون صـلابة في الحق ، وشـجاعة في مواجهة العدو بسبب إيمانهم وإحسانهم وتقواهم.

(**الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيمانـاً وَقـالُوا حَسْـبُنَا اللـهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**)

انهم ازدادوا إيمانا بسـبب تصـميمهم المسـبق علي مواجهة العـدو في كل الظـروف ، فلم يـزدهم التحـدي إلّا صلابة ـ ثم ومن جهة ثانية ـ كان التوكل على الله ، والثقة بنصـره زادا كافيا لهم في معـركتهم مع العـدو ، ومع وسوسة الشيطان في قلوبهم.

[174] بسـبب الاسـتجابة في ظـروف الهزيمة (بالإحسـان والتقـوى والشـجاعة) الحق هـذا الفريق من المؤمنين الهزيمة بالعـدو ، وانتصـروا عليه ، وحصـلوا منه على مغـانم ، ولم يصـبهم أذى في معـركتهم الجديـدة. وحصلوا على أهم جائزة وهي رضوان الله.

(**فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَـةٍ مِنَ اللـهِ وَفَضْـلٍ لَمْ يَمْسَسْـهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**)

إن وجود العزم الراسخ لدى هـذا الفريق على مجابهة العـدو ، هو الـذي قلل من خسـاراتهم في المعركـة. بل جعلهم يربحون المعركة من دون خسارة ، ولو أنهم جبنـوا لاسـتطاع العـدو ان يهجم عليهم كـرة أخـرى ، فيـذيقهم العذاب الأليم.

[175] من أين يكتسب الإنســـان الشـــجاعة الكافية لمواجهة ظروف الهزيمة؟

يجيب القرآن على ذلك : بأنّ مصدر الهزيمة النفسـية ، هو الخـــوف ، والخـــوف فطـــرة في البشر ، ولكن على المؤمن ان يوجّه خوفه الى المصدر الحقيقي للخوف وهو الله ، وليس الى أعدائه من البشــــر. لان الله ـــــ وليس البشر ـــ هو القـادر على إنـزال أشد العقوبـات في الـدنيا والآخرة على الإنسان فعليه أن يخشاه.

أما البشر فالخوف منهم ، مجرد وسواس شــيطاني ، لأن كل ما يملكه البشر ، يمكن أن أملكه أنا أو أملك ما يواجهه ، ولكن هل بامكاني أن أملك ما يملكه الله؟

(**إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

والايمان بالله وبأنّه الضار النافع ، وأنه بصير بعبــاده ، هو الذي يجعلنا نخافه ، فلا نخاف أحدا سـواه. أما الايمـان بالشيطان ، بماله ، وشهرته ، واغراءاته ، فهو الذي يجعلنا نخافه ، ونخاف الناس الذين يملكون المـال ، والسـلطة ، والإغــراء .. إذا : دعنا نطــرد حب زينة الحيــاة الــدنيا من قلوبنا حتى نتمتع بالشجاعة.

وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (176) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (177) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (178) ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (179) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً

---

178 [نملي] : الاملاء إطالة المدة.

لَهُمْ بَلْ هُـوَ شَـرٌّ لَهُمْ سَـيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُـوا بِـهِ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ وَلِلَّهِ مِـيراثُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللـهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180)

الرسالة الإلهية

والمواقف الاجتماعية

هدى من الآيات :

بعد الهزيمة انقسم المســلمون الى فــريقين : فريق المؤمـنين منهم والصـامدين ، وفريق المنـافقين ، وهم ــ بـدورهم ــ كـانوا فئـات : فئة تجبّن النـاس عن القتـال ، تحدث عنهم القرآن في الـدرس السـابق ، وفئة أسـرعت الى الكفر وانضمت عمليا الى الجبهة المضادة للرســالة ، وفئة كان عليهم ان يدعموا صمود الامة بأموالهم ، فبخلوا بها في ساعة العسرة.

هــؤلاء انما فعلــوا ذلك لما رأوا ما عند الكفــار من مظـاهر الانتصـار والعـزة. ولم يعرفـوا أنّ هـذه المظـاهر خداع وباطل ، وأنّ الله يمهلهم فيها ، حـتى يـزدادوا إثما ، وإنّ مصيرهم الى النار.

ويكرر القرآن القول : بأنّ الهزيمة كشفت هـذه الفئة المنافقة ، الــتي أســرعت في الكفر ، كما كشــفت تلك الفئة التي بخلت بحقوق الله ، ولم تجاهد بأموالها.

وبمناسبة الحديث عن الأغنياء البخلاء ، يتحدث القرآن عن اليهود في الدرس القادم ، ليبين لنا : كيف أنهم ابتلوا بغضب الله ، بسبب تركهم واجب العطاء والإنفاق.

[176] فئة من المسلمين الذين لم يترسخ الايمان في قلوبهم ، أسرعوا في الكفر حين وجدوا انتصار الكفار ، هؤلاء لم يضعفوا الجبهة الداخلية للمسلمين ، لأنهم كانوا لا ينفعون المسلمين أساسا ، وذلك بسبب ضعف إيمانهم ، ثم إنهم لا ينفعون الجبهة المضادة ، لأنهم انهزاميون بطبيعتهم ، وضعفاء القلوب.

ولكن الخاسر الوحيد بعملهم هم أنفسهم ، الذين خسروا مكاسبهم السابقة ، التي ربما كانت تؤهلهم للجنة ، أما الآن فليس لهم نصيب منها ، بل لهم عذاب عظيم بنقضهم الميثاق ومخالفتهم أمر ربهم.

(**وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**)

والتعبير القرآني يقول : في الكفر ، للدلالة على انّ الكفر عمل وليس نهاية حدية يسارعون إليها ، فلم يقل إلى الكفر. كأنّ القرآن يقول : يسارعون في أعمال الكفر ، أو في درجاته.

[177] هؤلاء بدّلوا الايمان بالكفر ، فهل خسر الله شيئا؟ كلا ، لأن الله واسع القدرة ، غني عن العالمين ، وتقدم الأمة الاسلامية لا يعتمد على هذا الشخص أو ذاك ، بقدر ما يعتمد على نوع الأشخاص ، ومدى تفاعلهم مع الايمان.

وهؤلاء اشتروا بعملهم عذابا أليما.

(**إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

ويبدو أنّ الفئة الاولى سارعوا في أعمــال الكفر ، أمّا هـؤلاء فقد أعلنـوا تمـردهم علنا وربما لـذلك كـان عـذاب الفئة الاولى عظيما (من الناحية الكميـة) ، وعـذاب هـؤلاء أليما (من الناحية الكيفية).

[178] ويعتقد هـؤلاء بـأن مكاسب الكفـار دليل على تفوقهم في الدنيا ، أو حتى قـربهم الى اللـه. ولا يعرفـون ان زيادة الثروة ، أو الانتصـار ، أو ما أشـبه ، من مكاسب الــدنيا ، قد تكــون طريق النهاية ، إذ يســبب الطغيــان ، والطغيان يسبب الانفلات والفوضى ، وبالتالي التوغل في الـذنوب ، ونهاية الـذنوب معروفـة. إذا فقد يمكن ان يزيد الله الكفار بعض النعم ، بهدف تحطيمهم وأبادتهم.

(**وَلا يَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْـرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَـزْدادُوا إِثْمـاً وَلَهُمْ عَـذابٌ مُهِينٌ**)

ان النعمة ســلاح ذو حــدين ، وان الايمــان بالله ، هو الـذي يمنع تحـول النعمة الى سـبب للخسـارة. فـاذا فقد الإنسان الايمان ، فان النعم تضره بدل ان تنفعه.

ولنتصور طفلا ، أو مجنونا تعطى له قيـادة السـيارة ، فكلما زاد وقود السيارة واندفاعها ، كلما كانت أقرب الى الهلاك والدمار.

والطغيان الـذي يتشـبع به الكفـار ، نتيجة النعم يقابل عند الله ، بالمهانة لأن الطغيان يدعو إلى الاستكبار.

[179] تميـيز الخـبيث من النـاس ، عن الطيب نتيجة طبيعية للهزيمة ، حيث يتعــرض الجميع للضـغوط فينهــار المنافقون ، ويصمد المؤمنون الصادقون ، السؤال : لماذا لم يمـيز الله الخـبيث من الطيب غيبيا ، بـأن يـنزل قائمة بأسماء هؤلاء وهؤلاء؟

الجواب : ان الحيـاة الـدنيا هي حيـاة المسـؤولية. ولا يتدخل الغيب فيها إلّا

جزئيا ، فمثلا : عن طريق الأنبيــاء يهــدي الله الى منــاهج العلم ، وعلى الناس ان يتفكـروا ، وان يكتشـفوا الحقـائق من خلال تجـارب الحيـاة ، (مثل اكتشـاف حقيقة الإفـراد من خلال الهزيمة).

فعلينا إتباع الرسول فيما يشــرعه لنا من منـاهج ، ولا ننتظر بعدئذ أن يطلعنا الله على كل صــغيرة وكبــيرة من حياتنا ، الا بالطرق العادية.

(**ما كانَ اللـهُ لِيَـذَرَ الْمُـؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْـهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**) الخـبيث هو الـذي اختـار طريق النفاق. والطيب هو الذي آمن بالله إيمانا صادقا.

(**وَما كـانَ اللـهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللـهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللـهِ وَرُسُـلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ**)

[180] وكما الجهـاد بـالنفس : يصـبح الجهـاد بالمـال دليلا على مــدى تفاعل الايمــان مع النفس كما ان البخل بالمال خصوصا في ظروف الهزيمة دليل الخبث والنفاق.

وما ذا يجني البخيل؟ انه يكدس الثروة ـ التي أعطــاه الله ـ لأي يـوم؟ هل يكدسـها ليـوم القيامة ، حيث تتحـول ثرواته المغتصبة الى حزام من النار يحيط به ويأخــذه الى جهنم؟

أما في الدنيا : فانه سيموت ، ويورث الله ثرواته لمن يشاء ، أو ينتصر الرساليون على أخذ ثرواته شاء أم أبى ، ولا ينفعه التعليل والتبرير ، لأن الله خبير بما يعمل العباد ، ويجازي الناس حسب خبرته لا حسب أقوالهم وادعائاتهم.

(وَلا يَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُـونَ بِما آتـاهُمُ اللـهُ مِنْ
فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُـوَ شَـرٌّ لَهُمْ سَـيُطَوَّقُونَ ما
بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ
وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ فَقِـيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيـاءُ سَـنَكْتُبُ ما قـالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيـاءَ بِغَيْـرِ حَـقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيـقِ (181) ذلِـكَ بِما قَـدَّمَتْ أَيْــدِيكُمْ وَأَنَّ اللــهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيــدِ (182) الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُــولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُـهُ النَّارُ قُـلْ قَـدْ جـاءَكُمْ رُسُـلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنــــاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُــــوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ (183) فَـإِنْ كَـذَّبُوكَ فَقَـدْ كُـذِّبَ رُسُـلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتابِ الْمُنِيرِ (184) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَــةُ الْمَــوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُــورَكُمْ يَــوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ

---

184 [الزبر] : جمع زبور وكل كتاب فيه حكمة فهو زبور.

عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الـدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُـرُورِ (185) لَتُبْلَـوُنَّ فِي أَمْـوالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ وَلَتَسْـمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتـابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِـيراً وَإِنْ تَصْـبِرُوا وَتَتَّقُـوا فَـإِنَّ ذلِـكَ مِنْ عَـزْمِ الْأُمُـورِ (186) وَإِذْ أَخَـذَ اللـهُ مِيثـاقَ الَّذِينَ أُوتُـــوا الْكِتـــابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَـــهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ (187) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَـــدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُـــوا فَلا تَحْسَـــبَنَّهُمْ بِمَفـــازَةٍ مِنَ الْعَـــذابِ وَلَهُمْ عَـــذابٌ أَلِيمٌ (188) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (189)

صفات عبدة العجل

هدى من الآيات :

بمناســبة الحــديث عن المتقاعســين عن الجهــاد بــأموالهم ، وختما لســورة آل عمــران الــتي أعطتنا رؤية متكاملة عن أهل الكتـاب ، يحـدثنا الـدرس هـذا عن بعض صفات اليهود ، الـذين عبـدوا العجل وكـان أكـثر خلق الله بخلا.

إنهم كــانوا يتهامســون بــان الله فقــير لــذلك نجد المؤمنين به هم الفقراء أما نحن فأغنياء ويهددهم القــرآن ويقـول أن كلامهم هـذا مسـجل عليهم كما سـجلنا سـائر أعمالهم السيئة كقتل الأنبياء ـ ان قولهم بأن الله فقـير ما هو إلّا تبرير لكفرهم وبخلهم ـ وذلك مثل إنهم برروا سابقا عدم إيمانهم بالرسول ، بأنه يفقد آية الرسالة التي كــانت في زعمهم قربانا تأكله النار والدليل على ذلك أنهم قتلـوا الأنبياء الذين جاءوا بهذه الآية ذاتها.

إنّ تكـذيب اليهـود للرسـول ليس جديـدا عليهم ، بل أنّهم كذبوا الأنبياء من

قبله ، بسبب تشبثهم بالماديات ، تلك الزخارف الـتي لا بد ان يرحل عنها الإنسان في يـوم ، فكل بشر محكـوم عليه بـالموت ، وانما الفـائزون هم الـذين يكتسـبون الجنة بعد الموت.

ثم يبين القرآن الحكيم : بأنّ مواجهة اليهود ــ وكـذلك طبقة الأغنياء البخلاء ــ تتطلب جهـودا مضـنية ، حيث لا بد أن يسمع المسلمون من الذين أوتـوا الكتـاب من قبلهم ، ومن الـــذين أشـــركوا أذى كثـــيرا ، ومن ذلك الأذى أنهم يكذبون بالرسالة ، بالرغم من ميثاق الله والرسول عليهم في الكتاب ، بان يؤيدوها ويصـدقوا بهـا. ان طبقة الأحبـار تتحد مع طبقة الأغنيـــاء البخلاء في محاربة الرســـالة الجديدة وانّ الأغنياء يحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا.

والله غـــني عن أمـــوالهم لان له ما في الســـماوات والأرض.

بينات من الآيات :

[181] الطبقة الغنية ، قد تكــون متحالفة مع أوليــاء الرسـالة ، فتكـون مجاهـدة بمالها في سـبيل انتصـارها ، ومتعاونة مع الضعفاء من النـاس ، وقد تكـون متحالفة مع أعداء الرسالة ، وهذه هي السنّة الغالبة.

وعن هذه الطبقة يتحـدث القـرآن هنا ، ولكن بـالرغم من تجسـدها في أشـخاص اليهـود ، لا يـذكر القـرآن اسم اليهــود ، لكي لا يقتصر عليهم الحــديث ، بل يبقى شــاملا لكل الأغنياء الذين يعادون الرسالة.

إنّ هـــؤلاء يزعمـــون أنّ مقيـــاس الحق والباطل هو الثروة ، ويتهكمون على المؤمنين ، ويقولون ان الله فقير ، ولذلك يقبل الفقراء.

وهم يعادون الرسالة الى درجة حمل السلاح في وجه الأنبياء ، واقتراف جريمة

القتل بحقهم ، وكل هــذه الأعمــال دليل على أنّ الــثروة ليست مقياس التقـرب الى الله بل أعد الله لهـؤلاء عـذابا يحرقهم.

(**لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قـالُوا إِنَّ اللـهَ فَقِـيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قـالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيـاءَ بِغَيْـرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ**)

[182] عـذاب الحريق الـذي يصـيب هـؤلاء الأغنيـاء البخلاء ليس لأنهم أغنياء بل لأنهم بخلوا بحقوق الله.

(**ذلِـكَ بِما قَـدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ وَأَنَّ اللـهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**)

[183] ومن أكاذيب هـؤلاء الـتي يـبررون بها كفـرهم بالإسلام ، وموقفهم العدائي من الرسـالة الجديـدة ، أنهم يقولون ان العلامة الضرورية لصدق الرسالة غير موجـودة في هذه الرسـالة وهي : نـزول قربـان تأكله النـار ، ولكن الله يفند هـذا القـول ، ويـبين أنّ تكـذيب الرسـول ليس جديــدا عليهم ، بل هو ناشئ عن مـــوقفهم العـــام من الرسـل. ولـذلك حين جـاءهم رسل مـزودون بتلك العلامة كذبّوا بهم ، وفوق ذلك قتلوهم.

(**الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُــولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ**)

حيث كانت من العـادة : ان تـنزل النـار من السـماء ، فتأكل ما يتقـــرب به الى الله من الـــذبائح ، للدلالة على تقبّل الله لهذا القربـان ، وبالتـالي للدلالة على سـلامة نية الرسول.

(**قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ**)

حيث لم تكن العلامة الفارقة بين الرسل وغــــيرهم ، مجرد قربان ، بل بينات

كثيرة أخرى جاءت بها الرسل.

(**وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

إنما أنتم تبررون كفركم عبر هذه الأكاذيب ، وهكذا يبرر طبقة الأغنياء المترفين ، كفرهم بالرسالات وبالحركات التقدمية ، بأكاذيب باطلة حيث يلصقون بها أبشع التهم.

[184] والتكذيب بالرسالة الجديدة ، إنما هو ناشئ من موقف هؤلاء المبدئي ، من كل رسالة وكل رسول.

(**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتابِ الْمُنِيرِ**)

إذن لا داعي للخوف من هذه الطبقة ، إذ ان رسالات السماء كلها انتصرت بالرغم من تكذيب هؤلاء لها ، كما لا ينبغي أن يتزلزل الناس من تكذيب هؤلاء ، ويشكون في صدق الرسالة ، كلا لأنهم مصلحيون يتبعون أهواءهم ، وليس أي شيء آخر.

البيّنات : المعاجز الظاهرة كعصى موسى وإحياء عيسى للموتى.

والزبر : الكتب المنزلة.

وربما يكون الكتاب المنير : هو الآيات المحكمة من الزبر ، وهي تلك التي تنير درب الضالين ، وهو يساوي في المعنى كلمة الفرقان.

[185] وعلينا إلّا نركع لهذه الطبقة ، ولا نتأثر بما لديها من زينة الحياة الدنيا. إذ أنها ستزول ، أو يزول عنها أصحابها. وإن العظمة الحقيقية ليست لمن يملك بضعة

دنـانير أكـثر ، إنما لمن يسـتطيع أن يخلص نفسه من نـار جهنم ، ويدخل الجنة.

(**كُـلُّ نَفْسٍ ذائِقَـةُ الْمَـوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُـورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَـدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ**)

ان الحياة الدنيا سـلعة تغر الإنسـان ، أو إنها رأسـمال المغترين. أما الواعي فانه يعرف أنها حياة زائلة ، فلا يغتر بها ، ولا يتخــذها لنفسه متاعا ، ولا رأســمالا ، ولا رصــيدا يعتمد عليه.

[186] وعلى الامة أن تتســلح بالصــبر في مقاومة الطبقة الغنية ، وتعــرف بــأن مقاومتها ليست بالهينة بل تحتاج الى التضحية بالمـال ، والنفس ، وتحمّل الاشـاعات الكاذبة ، حتى تستطيع الرسالة من الانتصار عليها ، وعلى أمثالها من الكفار والمشركين. وسلاح الصبر النافذ يصنعه الايمان الصادق بان الحيـاة الـدنيا زائلة وان الـدار الآخـرة لهي الحياة.

(**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ**)

اي أن الله يختبركم ويمتحنكم بإصابتكم في الأموال ، والأنفس.

(**وَلَتَسْـمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتـابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْـرَكُوا أَذىً كَثِـيراً وَإِنْ تَصْـبِرُوا وَتَتَّقُـوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**)

وعلى الامة إلّا تقتصر على الصـــــــبر فحسب ، بل وتتســلح ــ أيضا ــ بــالتقوى ، وهي الالــتزام بواجبــات ، ومحرمــــات الــــدين بالضــــبط ، وإذا فعلت ذلك فانها استطاعت ان تمتلك أزمة الأمور بيدها ، لأنّ عـزم الأمـور ولبابها يتمثل في الصبر والتقوى ، في الصمود والالتزام.

[187] ومن مفاسد أهل الكتاب الـتي يجب مواجهتها ، دعايتهم السـلبية تجـاه الرسـالة الجديـدة ، هـذه الدعاية التي تدخل في إطار ما حذر منه القرآن في الآية السابقة ، حيث أكد بأن الامة سـوف تسـمع من الّـذين كفـروا أذى كثيرا.

وان هـــذه الدعاية مخالفة صـــارخة لعهد الله معهم ، ومع كل صـــاحب ثقافة ، ذلك العهد يقضي بـــأنّ عليه ان يبيّنها للناس ولا يكتمها.

(**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثـاقَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتـابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُـورِهِمْ وَاشْـتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ**)

ويؤكد القـــرآن ان وراء دعايـــات هـــؤلاء ثمنا قليلا من متاع الدنيا.

[188] وكما أنّ على من يملك العلم ، ان يتخمل مسئولية نشره من دون خوف ولا رغبة ، فكذلك على من يملك مـــالا أن يبذله في ســـبيل الله ، من دون أي طمع مادي (كأن يحب أن يمدح أمام الناس) ولا حتى عجب بما أتاه في الله (بأن يفرح وكأنه قد أدى ما عليه بالكامل).

إنّ القرآن الحكيم يقصد بالآية السـابقة ، طـرد طبقة الأحبـار عن إطـار التـأثير في المجتمع ، حيث يقـول انهم كانوا قد خانوا أمانة الله في العلم.

وهنا يريد ضـــرب طبقة الأغنيـــاء البخلاء ، الـــذين لا يبذلون مالهم إلّا من أجل الإطراء ، أو يزعمـون بـانّ قليلا من المال يخصلهم من مسئولياتهم الرسالية.

(**لا تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُـونَ بِما أَتَـوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَـدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُـوا فَلا تَحْسَـبَنَّهُمْ بِمَفـازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

[189] والله لا يحتــاج الى مـــال هـــؤلاء ، لأنه مالك السماوات والأرض ، وهو قادر

على كل شيء من دون اموال هؤلاء.

(**وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللـهُ عَلى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

ولان الله ملك السماوات والأرض ، فانّ على أصحاب الرسالة ان يتسلحوا بالتوكل على الله ، في مقاومة هـذه الطبقة ، والطبقة الحليفة لها ، وهي طبقة تجـار الـدين الذين يركعون للأغنياء ، لبضعة دراهم ويخونون دينهم.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (191) رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (192) رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (193) رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ (194)

---

193 [الأبرار] : جمع بر وهو الذي بر الله بطاعته إياه حتى أرضاه.

فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَـلَ عامِـلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْـثى بَعْضُـكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هـاجَرُوا وَأُخْرِجُـوا مِنْ دِيـارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَـبِيلِي وَقـاتَلُوا وَقُتِلُـــوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَــــيِّئاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ ثَوابـاً مِنْ عِنْـدِ اللـهِ وَاللـهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ (195)

---

195 [أضيع] : أهلك.

الرسالي بين التأمل الهادف

وواجبات الرسالة

هدى من الآيات :

من هو المحـارب الرسـالي؟ وما هي العوامل الدينية التي تدفعه الى الشهادة؟

إنّ القرآن لا يقف في أمره للجهاد عند بعض العوامل الاجتماعية ، بل يضرب في العمق ، حيث يصلح النفوس ، ويهيئها لتقبل الشهادة ، بل لطلبها بإصرار ، وذلك لتحقيق أهـداف الإنسـان الرئيسـية في الحيـاة ويقـول : إنك حين تنظر الى السـماء والأرض ، فـانّ أول ما يملأ عينك هو : الاختلاف الواسع فيهـا. وأبـرز اختلاف هو : تنـاوب الليل والنهـار ، وهـذا يـدعوك الى التفكر لمـاذا الاختلاف؟ وتجد الجـواب ببسـاطة لان لكل شـيء هـدفا محـددا يحققه ، الليل يأتي ليحقق أهـدافا معينة ، ثم يعقبه النهـار لاهـداف أخرى ، إذا لكل شيء قدر وهدف محدد.

ترى أيّ هدف للحيـاة ، وإذا انحرفنا عن مسـيرة هـذا الهـدف فما هو مصـيرنا ، أليس النـار والخـزي ، دعنا إذا نتوجه إلى الله ، وهنا يهبط الوحي ، ليوجه فطرتنا

الصادقة ويبين لنا : كيف نسير حتى نحقق هدف حياتنا ، والمؤمنون الصادقون يهرعون الى الاستجابة للوحي ، ويحاولون تحقيق مهامهم بدقة ابتغاء مرضاة الله.

ولكن الله يشترط عليهم شروطا ، تبدو متعبة لنا ، أما للذي وضع هدفه الأساسي خلاص نفسه من نار جهنم ، فانه عمل بسيط وهو الايمان والتحدي ، وتحمل الأذى في الله والهجرة والقتال والاستشهاد في الله.

[190] كيف خلقت السماوات والأرض ، وهي لا تزال تخلق وتتطور حسب خطة حكيمة ، وارادة مطلقة ، ويد قوية. ما هذا الليل الذي يلف الكون بظلامه وسكونه؟ وما هذا النهار الرائع الصاخب؟ ومن يسلخ النهار من الليل ، فيغرق الكون في بحر من الهدوء والظلام؟

انها حقائق تثير عقول الذين ينفذون الى لب الحياة ، وما وراء قشورها من أنظمة وأهداف.

(**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ**)

[191] ان هؤلاء أصحاب العقول النيرة ، يعرفون ربهم في أول نظرة الى الحياة. ولا يرون ظاهرة في الحياة ، إلّا ويذكرون ربهم ، لأنهم يعبرون فوق جسر الظاهرة بسرعة ، ويصلون الى الحقيقة ، التي تقول ان الله هو خالق هذه الظاهرة ، ومدبرها الآن ، والذي يطورها من حال لحال ومن لحظة لأخرى.

فهم يذكرون الله قياما وقعودا ، وذكرهم آت من تفكرهم العميق في ظواهر الحياة ، وتفكرهم سليم لأنه سوف يؤدي الى معرفة الحقائق ، وأبرزها معرفة ان الحياة ليست باطلا وبلا هدف ، وليست فوضى وبلا سنن ، وهدف حياة الإنسان وسنتها

الـتي تتحـرك ضـمنها هو : التقـوى ، والالـتزام بمنهج الله الذي يلتزم به ما في السـماوات والأرض ، وإلّا فـان نهاية الإنسان هي النار.

(**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـــقِ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ**)

ان تفكر هـــؤلاء تفكر واعظ ، حيث ينقل الـــدروس والعـبر من واقع الحيـاة الى واقعهم ، ويجعلهم يتعرضـون للحياة بما فيها من سنن ومناهج.

[192] ان هدف الإنسان في الحيـاة هو اختبـار إيمانه ووعيه ، ومدى فاعليه إرادته في مقاومة ضغط الشـهوات ، فـان نجح في الامتحـان فـان الجنة مـأواه ، أما إذا فشل فان مصـيره الى النـار ، وهي خـزي يلاحق الـذين ظلمـوا أنفسهم ولم يظلمهم الله شيئا ، وسوف لا ينفع الظالمين شيء مما استفادوه في الدنيا بظلمهم.

(**رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُـــدْخِلِ النَّارَ فَقَـــدْ أَخْزَيْتَـــهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ**)

[193] هذه هي العـبرة الـتي يسـتلهمها أولو الألبـاب من تفكرهم في الحياة. وسوف تستوضح هذه العبر ، عن طريق الوحي الذي يسارع هـؤلاء الى التصـديق به بسـبب خلفيتهم الفكرية السليمة.

(**رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنـادِي لِلْإِيمـانِ أَنْ آمِنُـوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا**)

واكتشـفوا بعد الايمـان ، ان بعضا من أعمـالهم كـانت مخالفة للمنهج الإلهي ، فاستغفروا منها ، وطلبـوا من الله أن يصلح حياتهم ، بعد أن أفسدتها ذنوبهم بالتوبة إليه منها وطلب الاســتقامة من الله ، على ان يجعلهم مســتمرين في هذا الخط حتى الموت.

(**رَبَّنا فَـاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَـيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ**)

[194] ولأن هؤلاء اكتشـفوا بتفكـرهم النافذ والبصـير في الحياة ، ان الهدف الأسـمى للإنسـان ، هو الجنة الـتي وعد بها الله عباده المؤمنين بواسطة الأنبياء ، فهم سـألوا الله ذلك وتطلعوا اليه وقالوا :

(**رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُـلِكَ وَلا تُخْزِنا يَـوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ**)

[195] واســـتجاب الله لهم ، ولكنه فـــرض عليهم شــروطا ، وطــالبهم بــامتلاك عــدة مواصــفات ، أبرزها الهجرة. وهي الانفصال الفكري والعملي من الجاهلية.

ويستلزم هذا الانفصال التحدي ، والصـراع ، وبالتـالي الخـــــروج من بلاد الجاهلية ، وتحمل أنــــواع الأذى من الاغتراب ، والفقر والـذل. بيد ان كل ذلك يـدفعهم لتنظيم أنفسهم ، والاستعداد للعودة الى بلادهم بالقتال.

وهدف الجيش من القتال هو الانتصـار ، بيد ان هـدف الجنود هو الشهادة ، لذلك فهم مستبسلون في ذات الله.

ان هذا هو شرط الله على المؤمنين الذي لو وفـوا به أتـاهم أجـرهم بالكامل ، وبالتسـاوي بين الـذكر والأنـثى ، وأدخلهم الجنة جزاء حسنا من عند الله.

(**فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِـيعُ عَمَـلَ عامِـلٍ مِنْكُمْ**)

وليس الدعاء وحده كاف للحصـول على الثـواب ، بل العمل الصالح هو الذي يعطى الجزاء عليه بقدره بالذات.

(**مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**)

أي كلكم في الثـواب سـواء ، لان بعضـكم من بعض ، وقد انحدرتم من أب واحد فلا فرق بينكم.

(**فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ**)

الهجرة هي الخروج تلقائيـا. وهو يخـالف الإخـراج لأنه بإكراه ، وربما الهجـرة هنا هي الهجـرة المعنوية والإخـراج هي الهجرة الجغرافية.

(**وَأُوذُوا فِي سَــبِيلِي وَقــاتَلُوا وَقُتِلُــوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَــيِّئاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْــرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ**)

ان الشـهيد يغتسل بدمه فـاذا به طـاهر من الـذنوب ويدخل الجنة بغير حساب.

لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَـرُوا فِي الْبِلادِ (196) مَتــاعٌ قَلِيــلٌ ثُمَّ مَــأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهــادُ (197) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِـدِينَ فِيها نُـزُلاً مِنْ عِنْـدِ اللـهِ وَما عِنْـدَ اللـهِ خَيْـرٌ لِلْأَبْرارِ (198) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُـؤْمِنُ بِاللـهِ وَما أُنْــزِلَ إِلَيْكُمْ وَما أُنْــزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِـــعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللهِ ثَمَناً

---

196 [يغرنــك] : الغــرور إيهــام حــال الســرور فيما الأمر بخلافه في المعلوم.

197 [متاع] : النفع الذي يتعجل به اللذة اما بوجـود اللـذة أو بما يكـون به اللذة نحو المال الجليل والأولاد والاخوان.

[المهاد] : الذي يسكن فيه الإنسان ويفترشه.

[الأبرار] : جمع بر.

199 [خاشـعين] : أصل الخشـوع السـهولة من قـولهم الخشـعة وهي السهولة في الرمل والخاشع الخاضع.

قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللـهَ سَـرِيعُ الْحِسابِ (199) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصـابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200)

---

200 [رابطـوا] : أصل الربـاط ارتبـاط الخيل للعـدو والربط الشد ومنه قـولهم ربط الله على قلبه بالصـبر ثم اسـتعمل في كل مقيم في ثغر يدفع عمن وراءه ممن أرادهم بسوء.

اصبروا وصابروا ورابطوا

هدى من الآيات :

الــذين يهــاجرون في ســبيل الله لا يملكــون إلّا زاد التقـوى ، وقـوة الايمـان. فهم يعرفـون ان نهاية أعـدائهم قريبة ، بالرغم من تمتعهم بقوى ظاهرة ، تملأ العين وتغر البسـطاء ، وبعد النهاية سـوف يرمـون في جهنم وسـاءت مصيرا.

أما المتقـــون : فـــان نهـــايتهم هي الجنة وحســـنت مسـتقرا ، ولـذلك فعلى المؤمـنين ان يصـبروا ويشـجعوا أنفسهم بالصبر ، ويرابطوا في الحدود ، ويتقوا الله ، حتى يفلحوا في الدنيا والآخرة.

هذه خلاصة هذا الدرس الذي جاء متمما للحـديث عن الخليفة الايمانية للامة التي تحـارب أهل الكتـاب ، وتصـبر على أذاهم ، وتقـــاوم ضـــغوط طبقة الأغنيـــاء البخلاء ، المتحالفة مع الأحبار والرهبان الخونة.

ولكي تكمل الصورة وتكـون واقعية ، بيّن القـرآن في الآية ما قبل الاخيرة : أن

أهل الكتاب ليسوا كلهم كفـارا ، بل فيهم متقـون حـتى لا نتصور أنّ اليهود مثلا أهل النار ، لأنهم يهـود وكفى ، ونحن نصـبح أهل الجنة لأنا مسـلمون وحسب ، بل ان العمل هو وحده ، مقياس الحق بين أهل الجنة وأهل النار.

بينات من الآيات :

[196] بالرغم من تمتع الذين كفروا بقـوى ظـاهرة ، وحرية الحركة ، والتصـــرف في البلاد ، فـــان أيـــامهم معدودة.

(**لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ**)

[197] (**مَتــاعٌ قَلِيــلٌ ثُمَّ مَــأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ**)

[198] اما المتقـون الـذين يلـتزمون بمنهج السـماء بالكامل فهم الفائزون.

(**لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَــوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْــرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ**)

ان المؤمـــنين بحاجة الى صـــفتين هما : الالـــتزام والانضـباط التـام بـالمنهج ، والنشـاط ويسـمي القـرآن ـ حسـبما يبـدو لي ـ الالـتزام الإلهي بـالتقوى ، كما يسـمي النشاط في سبيل الخير بالبر.

وقد اوحت هذه الآية بهاتين الصفتين معا.

[199] ولا يكفي ان يكـــون المـــؤمن معتقـــدا بالله وبرسوله ، وان يقول أنا مسـلم في أن يحصل على الجنة كلا : ان الجزاء يلحق العمل ، سواء كان الشخص مسـلما أو كان من أهل الكتاب.

(**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَما أُنْــزِلَ إِلَيْكُمْ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ**)

خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ)

ويبــدو ان هــذه هي صــفات بعض علمــاء اليهــود والنصارى حيث جاء انهم لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا.

[200] في مواجهة الأعــداء ، من الكفــار والأغنيــاء والأحبــار لا بد من التطلع الى مســتقبل النصر ، والصــبر على بعض الأذى الموجــــــود في الطريق ، ثم بث روح الايجابية في الامة ، حتى يشجع البعض البعض على الصبر ، ثم القيــام عمليا بالاســتعداد الــدائم للعــدو. والانضــباط بالأوامر التي تصدرها القيادة ان هذه هي سبيل السعادة ، سواء على مستوى الامة أو على مستوى الإفراد.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اصْـبِرُوا وَصـابِرُوا وَرابِطُـوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)

الفهرست

الفصل الثاني